١٩٩٤

مكتبة نوبل

كينزابورو أوي

الصرخة الصامتة



ترجمة: سعدي يوسف

الصرخة الصامتة

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : كينزابورو أوي
عنوان الكتاب : الصرخة الصامتة
ترجمة : سعدي يوسف
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ١٩٩٩
الحقوق محفوظة

Author: Kinzaburo Oe
Title : The Silent Cry
Translator: Saadi Yousef
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999
Copyright © Al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ - ٢٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩٩٤

مكتبة نوبل

كينزابورو أوي

الصرخة الصامتة

ترجمة

سعدي يوسف

ملحوظة من الناشر

لا تصلح كلمة «مستودع» وصفاً للمبنى الذي يلعب هذا الدور الهامَّ في الرواية . حتى الـ «كورا» الياباني الإعتيادي بجدرانه البيض وخشبه الثقيل ، وسطحِهِ القرميدِ ، هو في الغالب ، ذو معمارٍ أجمل بكثير مما يوحي به التعبيرُ الانجليزي المبتذل .

لكن الـ «كورا ـ يا شيكي» العائد إلى أسرة نيدوكورو ، أي «المستودع ـ المسكن» ، هو مبنى أكبر ، لا يُستعمل منه مستودعاً إلا الطابق الثاني . الطابق الأول مخصصٌ للسكن البشري ، ويضم غرفتين مفروشتين ببواري التاتامي ، في كل منهما توكونوما* ، واللوازم الأخرى المألوفة في مسكن ياباني مريح على الطريقة التقليدية . تنفَق مبالغ طائلة على مثل هذا الـ «كورا ـ يا شيكي» رمزاً لغنى العائلة ومكانتها الإجتماعية .

أمّا الـ «دوما» في البيت الياباني التقليدي ، الذي يَرِدُ في النص ، أحياناً تحت اسم «مطبخ» ، وأخرى تحت اسم «مدخل» ، فهو في حقيقة أمره أكثر من هذا وذاك . أرضيةُ أقسامِ المعيشة في المسكن الياباني ،

---

* رازونة (كوّة مُضمَّنة) تستعمل للزينة .

ملحوظة من الناشر

لا تصلح كلمة «مستودع» وصفاً للمبنى الذي يلعب هذا الدور الهامَّ في الرواية . حتى الـ «كورا» الياباني الإعتيادي بجدرانه البيض وخشبه الثقيل ، وسطحِهِ القرميدِ ، هو في الغالب ، ذو معمارٍ أجمل بكثير مما يوحي به التعبيرُ الانجليزي المبتذل .

لكن الـ «كورا ـ يا شيكي» العائد إلى أسرة نيدوكورو ، أي «المستودع ـ المسكن» ، هو مبنى أكبر ، لا يُستعمل منه مستودعاً إلا الطابق الثاني . الطابق الأول مخصصٌ للسكن البشري ، ويضم غرفتين مفروشتين ببواري التاتامي ، في كل منهما توكونوما* ، واللوازم الأخرى المألوفة في مسكن ياباني مريح على الطريقة التقليدية . تنفَق مبالغ طائلة على مثل هذا الـ «كورا ـ يا شيكي» رمزاً لغنى العائلة ومكانتها الإجتماعية .

أمّا الـ «دوما» في البيت الياباني التقليدي ، الذي يَرِدُ في النص ، أحياناً تحت اسم «مطبخ» ، وأخرى تحت اسم «مدخل» ، فهو في حقيقة أمره أكثر من هذا وذاك . أرضيةُ أقسامِ المعيشة في المسكن الياباني ،

* رازونة (كوَّة مُصْمَتة) تستعمل للزينة .

مرتفعة طبعاً . لكن الـ «دوما» في البيوت القديمة هو مساحةٌ أوسعُ ، مقارنةً ، وأرضيته على حالتها الطبيعية ، أي غير مرتفعة ، ويمكن الدخول إلى الدوما مباشرةً ، من الخارج . وهو يستخدم للطبخ - ففيه موقد العائلة ، وقد تكون فيه بئر - وللقيام بما لا يمكن القيام به في الخارج ، أو على بواري التاتامي ، مثل خزن مختلف الأشياء ، ولأغراضٍ أخرى . والـ «دوما» ليس مسقوفاً ، وعوارض السطح مكشوفةٌ للناظرين . ينفتح الـ «دوما» عادةً على القسم الأول من الأرضية المرتفعة لـ «الداخل» الأصليّ - وهو قسمٌ تكون أرضيته من الألواح المصقولة التي تضمّ مدفأة مربّعة غاطسة . الغرف المفروشة بالتاتامي تقع خلف هذا القسم .

الصرخة الصامتة

حين يستيقظ الموتى

مستيقظاً في عتمة الغبَش ، أتلمس بين بقايا أحلامي المكروبة المتخلفة في وعيي ، بعضَ إحساسٍ حيٍّ بالأمل . أبحثُ في الأمل المرتعش ، علّني أجد توقّعاً متلهفاً ينبثق من الخبايا العميقة لكينونتي - ومع الويسكي الذي يحرق أحشائي في نزوله ـ غير أني لا أزال أجد لا شيء بلا انتهاء . أضمُّ أصابع فقدتْ قوّتَها . وفي كل جزء من بدَني ، أحسُّ بالأوزان المختلفة للّحمِ والعظم بصورة مستقلة ، أحاسيسَ تنحلّ في ألمٍ بليد بوعيي وهو يعود متردداً الى النور . وفي نوعٍ من الاستسلام أحسستُ ، من جديد ، باللحم الثقيل ، متوجعاً ببلادة ، في كل طرَف ومُنحَلاً . كنت أنام منحرف الذراعين والساقين ، في هيأة رجلٍ لا يريد أن يُذكَّر بطبيعته ، ولا بالوضع الذي هو فيه .

كلما استيقظتُ بحثت ، من جديد ، عن الإحساس المتقد بالأمل ، الإحساس المتوهج بالأمل الذي هو ليس وعياً بالنقص ، وإنما هو واقعٌ إيجابيٌ بحد ذاته . أخيراً ، بعد اقتناعي بأني لن أجده ، شرعتُ أهدهدُ نفسي على منزلَق النوم الثاني : نَمْ ، نَمْ! ـ **العالم غير موجود** ؛ لكن السمَّ في هذا الصباح ، السمَّ الذي يعذِّب بدني ، كان أكثر خبثاً من أن يسمح لي

بالالتجاء الى النوم . الخوف يهدِّد بالتهامي . لاتزال هناك ساعة قبل شروق الشمس . وحتى ذلك الوقت ، لن يُعرَفَ ماذا سيكون عليه النهارُ . أتمددُ في العتمة ، لا أعرف شيئاً ، مثل جنين في رحم . مضى وقتٌ كانت فيه العادات الجنسية نافعة لمثل هذه المناسبات . أما الآن ، وأنا في السابعة والعشرين ، متزوج ، ولي طفل عَهدْنا به الى مؤسسة صحية ، فإني أشعر بالعار لتقليبي فكرة الاستمناء ، كابحاً براعمَ الرغبة . نَمْ ، نمْ! ـ **وإن لم تستطع النومَ فتظاهرْ بأنك نائم** . فجأةً ، في القمة ، رأيت الفتحة المربعة التي حفرها ، أمس ، العمّال ، لصهريج بالوعتنا . في بدَني المتوجع يتضاعف السم المرير الموحش ، مهدِّداً بأن ينزَّ ، مثل هلامٍ من أنبوب ، من عينيّ وأذنيّ وأنفي وشرجي وإحليلي...

مع هذا ، أقفُ ، وأنا مغمض العينين في هيأة النائم ، وأتحرّكُ ، أخرَقَ ، خلال الظلام . وكلما صدمتُ جزءاً أو آخر من جسدي بباب ، أو جدارٍ ، أو أثاثٍ ، أطلقتُ أنيناً مؤلماً نصفَ هاذٍ . أعترفُ بأن عيني اليمنى فاقدة البصر ، حتى لو انفتحت بكاملها في ضوء الشمس الساطع . وإني لأتساءلُ عما يكمنُ وراء الأحداث التي أدّتْ بعيني الى هذا المصير . كان حادثاً مقرفاً غبياً : في صباحٍ ما ، بينما كنت أمشي في الشارع ، قذفت مجموعة من تلاميذ المدرسة الابتدائية ، في نوبة من الخوف الهستيري والغضب ، قطعةَ حجرٍ عليّ . وعندما أصابني الحجر في عيني ، تمددتُ حيث سقطت ، على الرصيف ، عاجزاً عن معرفة ما جرى لي . لقد فقدت عيني البصر بعد أن اخترقت شظيّةٌ من الحجر ، بصورةٍ أفقية ، بياضَ العين الى سوادها . حتى الآن ، لم أفهم البتةَ ، المعنى الحقيقي للحادث . والأدهى أنني خائفٌ من أن أفهمه . لو جربتَ أن تمشي ، وقد وضعتَ يداً على عينك اليمنى ، فلسوف تدرك كم هي الأشياء التي تظل بانتظارك على اليمين . سوف تصطدم بغير

المتوقَّع . سوف تضرب رأسك ووجهكَ مراراً . وهكذا لم يخلُ الجانب الأيسر من وجهي ورأسي ، من ندبةٍ جديدة أو أخرى ، بالإضافة إلى أني قبيح . حتى قبل ما أصاب عيني ، كنتُ أُبدي علائم قبحٍ ، أكثر فأكثر ، مما ذكّرني ، غالباً ، بنبوءة أمي ، وهي أننا حين نكبر فإن أخي سيكون جميلاً ، أما أنا فلن أكون . العين المصابة ، أكّدتْ ، حسبُ ، القبحَ ، يوماً بعد يوم ، واضعةً إياه في وضوحٍ دائم . كان قبحي المولود معي يودُ لو ظلّ قابعاً في الظلال . هذه العين المفقودة هي التي تدفعه ، باستمرار ، الى دائرة الضوء . أنا لم أتخلّ عن إسناد دورٍ الى هذه العين : إني أراها ، وقد فقدتْ وظيفتَها ، قد تدرّبتْ الى الأبد على الظلام داخل جمجمتي ، الظلام الممتلئ دماً ، والذي تفوق حرارتُه حرارةَ بدني . كانت العين حارساً وحيداً استأجرتُه ليراقب غابة الليل في داخلي ، وبعملي هذا ، أرغمتُ نفسي على ممارسة مراقبتي داخلي أيضاً .

ماراً عبر المطبخ ، ألتمسُ البابَ ، أخرجُ ، وأخيراً أفتحُ عيني لأجد البياضَ الأخَفَّ ينتشر على الأعالي القصيّة لسماء غبشٍ رصاصية ، سماء أواخر الخريف ، كلبٌ أسود يأتي راكضاً ويثب عليّ . لكنه يعرف فوراً أنه مرفوض ، فينكمش في سكونٍ بلا صوت ، ويقف مشيراً إليّ في الظلام بخطمه الصغير مثل نبتة فطر . أرفعهُ وأتأبّطهُ وأسير مُبطئاً من جديد . للكلب رائحة نتنة . يظل هادئاً تحت ذراعي ، وهو يلهث لهاثاً ثقيلاً . استحرَّ إبطي . ربما كان الكلب محموماً . أظافر أصابع قدمي العارية ضربت إطاراً خشبياً . أنزلتُ الكلب . كان لايزال مستقراً في البقعة ذاتها . لم أستطع إلا الابتسام ، لكن البسمة لم تكن لتدوم طويلاً . الكلب مريض بالتأكيد . هبطتُ السلّمَ بمشقة . كانت في قاع الحفرة أوشالٌ كافية لغَمْرِ كاحليّ . ماءٌ قليلٌ مثل سوائل معتصرة من اللحم . وإذ أجلسُ مباشرةً على الأرض العارية

أشعر بالماء يتغلغل في سروال مبذلتي وثيابي التحتية ، مبللاً إليتيَّ ، لكني أجدُني أتقبله بهدوء ، مثل من لا يستطيع أن يرفض .

بإمكان أي كلب ، بالطبع ، أن يرفض التوسُّخَ . الكلب ، مثل من يستطيع الكلام لكنه يرفض ، يجلس في حضني ، مائلاً بجسمه المرتجف الساخن قليلاً على صدري . وكي يحافظ على هذا التوازن أنشبَ مخالبه في عضلات صدري . أحسُ بالألم كشيء آخر لا أستطيع أن أرفضه ، وفي خمس دقائق صرتُ غير مُبالٍ به . كما أني لست مهتماً بالماء الآسن الذي يبلل إليتيّ ويبلغ خصيتيّ وفخذيّ . إن بدني ـ كله ١٥٤ رطلاً ، وخمسة أقدام وستة إنشات ـ لا يختلف عن حِمل التراب الذي رفعه العمال أمس من هذه البقعة وتخلصوا منه في نهرٍ بعيد . التراب يستحوذ على لحمي . العلامة الوحيدة للحياة في بدني والترابِ المحيط وكلِ هذا الجو الرطب ، هي حرارة الكلب ومنخراي . المنخران يصيران حسّاسين بسرعة ، ويمتصّان روائح قاع الحفرة كأنها في منتهى الغنى . هذان المنخران وقد صارا يعملان بكامل قدرتهما ، فيأخذان روائح هي من الكثرة بحيث لا يستطيعان معرفتها واحدةً واحدة . موشكاً على الإغماء ، أضربُ مؤخرة رأسي (وأشعرُ بها مباشرةً كأنها مؤخرة جمجمتي) على جدار الحفرة ، وأظل بلا انتهاء أتشبّعُ بالروائح الألف والواحدة ، وبما تبقّى من أوكسجين قليل . السمّ المرير الموحش لايزال يملأ جسدي ، لكنه الآن لا يبدو ينزُّ الى الخارج . الإحساسُ الحيّ بالتوقُّع لم يَعُدْ بَعدُ ، لكن خوفي خفَّ . الآن ، لا أبالي بأي شيء ، لا أبالي حتى بامتلاك جسدٍ . أسفي الوحيد هو أن لا أحد يلحظني في لامبالاتي المطلقة . الكلب ؟ ليس للكلب عينان . وأنا في لامبالاتي بلا عينين . لقد أُغلقت عيناي ثانيةً حين بلغتُ القاع .

من بعدُ ، أخذتُ أفكر بالصديق الذي حضرتُ طقوس إحراقه .

في نهاية صيف هذا العام ، أغرقَ رأسَه بالطلاء القرمزي ، وتعرّى ، وأدخلَ خيارةً في شرجه ، ثم شنقَ نفسه . اكتشفت زوجته الانتحار الغريب بعد عودتها ، منهكةً ، مثل أرنب مريض ، من حفلةٍ استمرت حتى الساعات المبكرة . لمَ لم يذهب معها الى الحفلة ؟ كان رجلاً من ذلك النمط : لن يجد أحدٌ غرابةً في سماحه لزوجته بالذهاب وحدها الى حفلة ، بينما هو في غرفة مكتبه يترجم (كنا ، في الواقع ، نتعاون في الترجمة) .

من نقطة تبعد ياردتين ، أمام الجثة المتدلية ، فرّتْ عائدةً الى حيث كانت الحفلة ، شعرها منفوشٌ فزَعاً ، ويداها تلطمان رأسَها ، وفمها يشكل صرخةً بلا صوت ، وحذاؤها الأخضر الصغير يصطفقُ وهي تعود على طريق ظلها ، ظل منتصف الليل ، الذي لا يراها سواها ، مثل فيلمٍ يُعرَض معكوساً . بعد أن أخبرت الشرطة ، ظلت تنتحب ، صامتةً ، حتى جاء أهلُها ليأخذوها . وهكذا ، بعد أن أنهى رجال الشرطة تحقيقهم ، أُلقيتْ عليّ ، وعلى جدة صديقي العجوز القوية ، مهمة اتخاذ الإجراءات الأخيرة للجثة العارية ، ذات الرأس القرمزي ، والتي لايزال آخر مَنْي حياتها يجفّ على فخذيها ، جثة ليس لها من خلاص ، تأكيداً .

أمُ الفقيد ، ركستْ في حالة بلاهةٍ ، فأمست عديمة النفع . مرةً واحدة فقط ، حين كنا نوشك على غسل تنكُرِ الميت ، أبدتْ إصراراً غير متوقَّع وعارضت الأمر . العجوز وأنا رددْنا كلَّ من جاؤوا يقدّمون تعازيهم ، وسهرنا ، نحن الثلاثة ، بدون توقُّفٍ ، وحدنا ، على الميت الذي كانت ملايينُ خلاياه ، مكتنزةُ فرادته يوماً ، تتحلل بسرعة خبيثة . مثل سدٍّ كان الجلد الجافّ المتشقق يمسك بالخلايا الحلوة الحامضة الوردية التي كانت تحللتْ وتبدلتْ الى شيء لا يمكن وصفُه . الجثة ذات الوجه القرمزي لصديقي ، وهي تتمدد نائيةً فخوراً ، متحللةً ، على سرير شبه عسكريّ ،

كانت تتمتع بمعنىً حقيقي مُلحَ أكثر مما تمتعتْ به طيلة سبع وعشرين سنة من الحياة ـ حياةٍ عيشتْ بصورة تدعو الى الرثاء ، وبكدحٍ شاقٍّ ، بُغيةَ اجتياز النفق المظلم ، فقط كي تنتهي ، بغتةً ، قبل الظهور في الطرف الآخر . سدُّ الجِلْد محكومٌ عليه بالانفجار . عناقيد تتخمر من الخلايا ، تهيِّئ ، كما تُهيِّأ الخمرةُ ، الموتَ الحقيقيَ الفيزيقيَّ للجسد نفسه . أولئك الذين خُلِّفوا عليهم أن يشربوا تلك الخمرةَ . كنتُ مأخوذاً ، تلك اللحظاتِ المشحونةَ ، بأن جسد صديقي قد انفصلت علاقتُه بواسطة الشذى الليلكي لبكتيريا التحلل . وبينما كنتُ أراقب مرور هذا الزمن الخالص في رحلته الوحيدة ، استعدتُ ثانيةً هشاشة ذلك النوع الآخر من الزمن ، الناعم الدافئ مثلَ أعلى رأس طفل ، الذي يسمح بالإعادة . لم أستطع تفادي الشعور بالحسد . لا عينَ صديقٍ تراني ، لا صديقَ سوف يفهم المعنى الحقيقي لما كان يحدث ، حين أغمضتُ عينيّ للمرة الأخيرة ، وتولّى جسدي تجربته الأخيرة في الفَناء .

قلتُ : « عندما جاء من المصحّة ، كان عليّ أن أقنعه بالعودة إليها » .

أجابت جدتُه : « لا . لم يكن الولد ليستطيع البقاء أكثر هناك . كان مرضى الأعصاب الآخرون جدّ متأثرين بالأشياء اللطيفة التي عملها هناك ، الى حدٍ لم يكن بمقدوره معه ، أن يظل أكثر . عليك ألا تنسى ذلك فتلوم نفسك . ما حدث جعل الأمورَ واضحة تماماً ـ أفضل ما يمكنه القيام به ، أن يترك المصحة ، ويحيا حياةً حرّة . لو قتلَ نفسَه هناك ، لما اصطبغَ بالأحمر ، وشنقَ نفسه عارياً . أكان بمقدوره ؟ ما كان المرضى الآخرون ليتركوه يفعل ذلك . كانوا يحترمونه جداً » .

« أنتِ تتحملين . أنتِ عونٌ كبير » .

« كل امرئ لابد أن يموت . وخلال مائة سنة لن يستفسر أحدٌ عن

الكيفية التي يموت فيها معظم الناس . أفضل شيء أن تموت بالطريقة التي تعجبك أكثر من غيرها » .

عند قائمة السرير كانت أم صديقي تجلس ، وهي تفرك قدمي الجثة بدون أن تتعب ، ورأسها غائصٌ بين كتفيها مثل سلحفاة ، وهي لا تبدي أي رد فعلٍ لحديثنا . الملامح الدقيقة للوجه المسطح الخضرواتي الشبيه بالابن الميت شبهاً قاسياً ، كانت مرتخية مثل حلوى ذائبة . وبدا لي أنني لم أر ، قطُّ ، وجهاً يعبّر تعبيراً مباشراً عن اليأس ، مثل وجهها .

قالت الجدة بلا مناسبة : « مثل ساروداهيكو » .

ساروداهيكو : الكلمة ، غامضة القِدَم ، وهزلية في علائقها ، كانت على شفا اقتراح معنى ما ، وإن كان غامضاً ، لكن قدراتي كانت منهكة جداً ، بحيث لم تُثِر فيّ الكلمة إلا أضأل استجابة ، غير ممكنة الاتّساع . لقد أفلتَ مني خيطُ المعنى . حتى وأنا أهزُّ رأسي بلا طائل ، كانت كلمة ساروداهيكو تغرق مثل خيط السَّبْر في أعماق الذاكرة ، بينما ظل ختم المعنى في موضعه .

أما الآن فإن تلك الكلمة ساروداهيكو ، جاءت الى ذهني بقدْرٍ واضحٍ من الذكريات الأليفة ، وأنا أجلس في الماء ، ماء قاع الحفرة ، والكلبُ بين ذراعيّ . إن أنسجة المخّ المتصلة بهذه الكلمة ، والمتجمدة منذ ذلك اليوم ، قد ذابت . ساروداهيكو ــ ساروداهيكو المقدس ــ كان ذهب الى امانوياشيماتا ليلقى الآلهة الهابطين الى الأرض . امينوزومي الذي كان يتفاوض مع ساروداهيكو باعتباره ممثل المتطفلين ، كان جمعَ السمك ، السكانَ الأصليين للعالم الجديد ، في محاولة لفرض سيطرته ، وقد شقّ بسكّينٍ فمَ حلزون البحر الذي قاومَ صامتاً . ساروداهيكو ـ نا ، اللطيف ، في قرننا العشرين ، كان من أتباع حلزون البحر ذي الفم المشقوق . اندفعت

من عيني الدموع ، لهذه الفكرة ، وسالت على خدي ، وبلغت شفتيّ ، وانهمرت على ظهر الكلب .

قبل موته بعامٍ واحدٍ ، قطع دراسته في جامعة كولومبيا وعاد الى اليابان ، حيث دخل مصحّةً لمرضى الأعصاب ذوي الحالات الخفيفة . عن مكان المصحة ، وحياته هناك ، لا أعرف أكثر مما قاله هو . ولم تزر زوجته ، ولا أمه ، ولا جدته ، المكان ، مع أنه يقال إن المصحة تقع في منطقة شونان . لقد منع كل الأقربين إليه من زيارته هناك . حين أفكر بالأمر الآن ، أشعر بأنني لم أكن متأكداً حتى من وجود ذلك المكان . لكن لو كان على المرء أن يصدق ما قاله فإن المكان يدعى «مركز التدريب على الابتسامة» . والنزلاء الذين يُعطَون جرعات كبيرة من المهدئات ، في كل وجبة ، كانوا يُمضون كل أوقاتهم ، وهم يبتسمون هادئين .

كان المصحّ مبنىً واحداً ، ذا طابق واحد ، يشبه مضائف الشاطئ المتواجدة في كل منطقة شونان ، وتحتلّ نصفَ المبنى غرفة شمس واحدة واسعة . خلال النهار يتحدث المرضى فيما بينهم ، بودّ وألفةٍ ، جالسين في أراجيح كثيرة العدد مقامة في المرج الفسيح . ويمكن القول بدقة إن هؤلاء النزلاء ليسوا حتى مرضى ، إنما هم مسافرون في توقُّفٍ طويل . وتحت تأثير المهدئات يمسون أكثر طواعيةً من أكثر الحيوانات الأليفة طواعيةً ، ويُمضون الساعات في غرفة الشمس أو المرج ، متبادلين الابتسامات السعيدة الرضيّة . هم أحرارٌ في أن يخرجوا ، لكنهم ماداموا يحسّون بأنهم ليسوا محتَبسين ، لم يهرب واحدٌ منهم ، قطُّ .

عندما عاد صديقي الى بيته ، بعد أسبوع من دخوله المصحّ ، ليأخذ كتباً وملابس ، أعلنَ أنه تكيّفَ لهذا المكان الغريب أسرعَ وأسهل من

المرضى المبتسمين الذين دخلوا قبله . لكنه بعد ثلاثة أسابيع ، وفي عودته الثانية الى طوكيو ، كانت ابتساماته ماثلةً ، غير أنها تبدو يائسةً قليلاً . وأسَرَّ الى زوجته وإليّ ، أن الممرض الذي يأتي الى المرضى بعقاقيرهم ووجباتهم كان شخصاً فظّاً غالباً ما يعاملهم معاملة سيئة ، أما المرضى فهم عاجزون حتى عن الشعور بالغضب بسبب تأثير المسكِّنات . أحياناً ، وهو يمرُّ بمريضٍ ، يكيل له ضربةً شديدة على بطنه ، دون أي استفزاز من جانب المريض . اقترحتُ عليه أن يحتج لدى مسؤولي المركز ، لكنه ردّ بأنه لو فعل هذا فسوف يظن المدير أنه اخترع هذا بسبب ضجره ، أو بسبب معاناته من عقدة الاضطهاد ، أو للأمرين معاً . ثم ، أنه ، لا أحد ، في الأقل على امتداد شاطئ شونان ، يشعر بالضجر كما يشعرون ، بالإضافة الى أنهم ، جميعاً ، يعانون من شيء في عقلهم ، الى هذا الحد أو ذاك . أما هو ، بفضل المهدئات ، فلا يكاد يعرف إن كان غاضباً أم لا...

على أي حال ، بعد يومين أو ثلاثة من هذا ، رمى في المرحاض المهدئات التي قُدِّمت إليه مع فطور الصباح ، وفعلَ الأمر ذاته في الغداء ، ثم في العشاء . وفي الصباح التالي ، بعد اكتشافه أنه غاضبٌ حقاً ، كمن بانتظار النذل ، وكاد يذبحه .

ونتيجة لهذه الحادثة ظفر بإعجاب أصدقائه ذوي الابتسامات اللطيفة ، لكنه بعد حديث مع المدير ، اضطُرَّ الى المغادرة . وعندما غادر «مركز التدريب على الابتسامة» ، ملوِّحاً لمرضى العقل الذين ودّعوه بالابتسامات الرضية ذاتها ، صار حزنُه أعمق من ذي قبل .

مثل ما قاله هنري ميللر . أحسست بالنوع ذاته من الحزن . والحقُّ أنني حتى تلك اللحظة لم أكن أدرك ، قطُّ ، حقيقة ما كتب : «حاولتُ أن

أبتسم معه ، لكني لم أستطع . لقد زادتني المحاولة حزناً ، وصرت أشدَّ حزناً مما شعرتُ به طوال حياتي» . إن ما قاله لهو أكثر من صياغة تعبير... وهناك قولٌ آخر لميللر أيضاً ظل يسكنني مُذّاك : «لنكن مبتهجين ، مهما حدث» .

من نهاية فترته في «مركز التدريب على الابتسامة» ، حتى موته ، مشنوقاً ، عارياً ، صبيغ الرأس بالأحمر القاني ، ظلّ ، بلا ريب ، مسكوناً بكلمات ميللر : «لنكن مبتهجين ، مهما حدث» . لقد أمضى سنواته الأخيرة القليلة المبتسَرة في بهجة لا تضاهى . بل لقد غرق في شبقٍ جنسيّ خاصٍ واكتشف نمط سُعاره المتميز . وقد ذكّرني بهذا ، حديثٌ مع زوجتي حين عدتُ الى المنزل ، مغتمّاً منهكاً ، بعد إحراق الجثة . كانت تشرب الويسكي ، وحيدة ، أثناء انتظارها إياي . كان أول يوم أراها فيه سكرى .

ما إن عدت الى المنزل حتى ذهبت أُلقي نظرة على الغرفة التي تقتسمها وإبننا . كان الطفل لايزال في المنزل تلك الأيام . الوقت غسقٌ ، لكن الطفل يتمدد على الفراش ناظراً إليّ ، هادئاً ، بعينين سوداوين فارغتين تماماً . لو كانت للنباتات عيونٌ ، لنظر النبتُ بهذا النوع من الهدوء ، إلى من يحدِّقُ إليه . لم تكن زوجتي بجانبه . وإن تذكرتُ جيداً فإنها كانت تجلس ، سكرى تماماً ، في عتمة المكتب ، حين وجدتُها ، جاثمة على مقعدٍ عالٍ ، في وضعية خطرة ، بين الرفوف ، مثل طيرٍ على غصنٍ يتمايل . لقد صُدمتُ حدَّ أنني شعرتُ بالارتباك إزاء نفسي أكثر من شعوري بالارتباك إزاءها . لقد أخرجت قنينة الويسكي من المخبأ داخل المقعد العالي حيث كنت وضعتُها . وأجلست نفسها على عوارض المقعد العالي ، واستمرت تشرب ، قليلاً قليلاً ، وهي تسكر في إدامتها الشربَ . عندما رأتني أجفلت الى الوراء مثل

لعبة ميكانيكية . كانت شفتها العليا دهنيةً من العرَق . وما كان بمقدورها الوقوف على قدميها . عيناها بلون البرقوق ، محمومتان ، لكن بشرة عنقها وكتفيها البادية فوق ثوبها كانت مخشوشنة ببثور الوزّة . كان مرآها ، بأسره ، يستدعي صورة كلبٍ دفعه المرض الى مضغ العشب مضغاً عنيفاً . فقط كي يتقيأ أكثر .

سألتُها بصورة سخيفة : «أنتِ مريضة ، بالتأكيد ؟» .

ردّتْ عليّ باحتقارٍ مكشوفٍ ، سريعٍ في إحساسه بارتباكي : «لا . لستُ مريضة» .

«إذاً ، أنتِ سكرى ، في الحقيقة» .

اقتعدتُ الأرضَ ، أواجهها ، وأنا أرقب ، مندهشاً ، قطرةَ عرقٍ ترتجف على طرف شفتها العليا ، بينما هي تحدِّق إليَّ مرتابةً . قطرةُ العرق تسقط منحرفةً حين تُزَمُّ الشفة . نَفَسُها العطِنُ ، المشبع بأبخرة الكحول الرطبة ، يغمرني . الإنهاك الذي سبّبه القُربُ من سرير موت صديقٍ ، تغلغلَ ، مثل صبغةٍ ، في كل زاوية من بدني . وكدتُ أنتحبُ .

«أنتِ سكرى تماماً . تعرفين هذا» .

«لستُ سكرى . أنا أعرقُ لأني خائفة» .

«مِمَّ ؟ من مستقبل الولد ؟» .

«خائفة ، لأن هناك أناساً يقتلون أنفسهم ، عراةً ، ورؤوسهم مصبوغة بالأحمر» .

كنتُ رويتُ الأمرَ هكذا ، مستثنياً ما يتعلق بالخيارة .

«ليس هناك ما يخيفك أنتِ بالذات» .

«أنا خائفة من أن تصبغ أنت رأسك بالأحمر ، وتقتل نفسك ، عارياً» .

قالت ذلك ، وجعلت رأسها يتدلى في عرضٍ لخوفٍ صريح .

مرتعداً ، رأيتُ لحظةً ، في كتلة شعرها البني القاتم ، صورةً مصغرةً لي ، وأنا ميت . الرأس القرمزي لميتسوسابورو نيدوكورو ، وهو في موته ، مع قطعٍ من مسحوق صبغٍ لم يَذُب كاملاً ، فجفَّ في تلافيف أذنيه ، مثل قطرات دمٍ . ومثل ما كان جسد صديقي ، كان جسدي كذلك ، إذ ظلت أذناي غير صبيغتين ، علامةً على الفترة الزمنية غير الكافية ، بين فكرة هذا الانتحار الغريب ، وتنفيذها .

«لن أقتل نفسي . لمَ عليّ أن أفعل ذلك ؟» .

«أكان مازوشياً ؟» .

«ما دفعَكِ إلى أن تسأليني ذلك في ذات اليوم الذي تلا موته ؟ محض فضول ؟» .

«حسناً ، لنفترض...» ومضتْ في نبرةٍ جعلتْها علاماتُ الغضب في صوتي ، متزايدةَ القنوط (مع أنه غضبٌ كان غير واضح حتى لي)... «لنفترض أنه كان ذا انحرافٍ جنسيّ معيّن ، آنذاك لن أشعر بالخوف عليك... أليس كذلك ؟» .

ارتدّتْ برأسها ، الى الوراء ، ثانيةً ، ونظرتْ إليّ كأنها تطلب موافقتي . المَسْكنةُ العاريةُ في عينيها الحمراوين بشكل شاذّ ، صدمتْني . لكنها سرعان ما أغمضتهما ، وتناولت قنينة الويسكي ، وأخذتْ جرعةً أخرى . كانت غضون جفنيها سوداء مثل آثار أصابع قذرة . سعلتْ حتى انهمرت الدموع من عينيها ، وتحدّرَ الويسكي الممزوج باللعاب من زوايا فمها . وبدلاً من أن أهتمَّ ، نيابةً عنها ، باحتمال أن تلطخ ثوبها الجديد من الحرير الأبيض ، أخذتُ القنينة من يدها ـ يد عجفاء معروقة مثل يد القرد ـ وشربت جرعة قوية لأخفي ارتباكي .

كان صحيحاً ، مثل ما أخبرني صديقي في مزيج من السرور والحزن ،

في نقطةٍ وسطٍ من مسيرته الجنسية ـ نقطةٍ على منحدر مَيلٍ لايزال غامضاً لكنه واضحٌ بما يكفي للشخص المعنيّ ، كما أنه ليس ضحلاً بحيث يغدو من النوع الذي قد يجربه أي شخصٍ ، مصادفةً ، وهو أيضاً ليس ممارَساً بما يكفي ليتجاوزَ مناقشتَه مع الآخرين ـ عن أنه كان يبحث منذ أمدٍ عن تجارب مازوشيّة . ولقد زار مؤسسة خاصة حيث تهتم نسوةٌ شنيعات بالمازوشيين . لم يكن في ما حدث ، في اليوم الأول ، شيء مرموق . لكن ، في زيارته الثانية بعد ثلاثة أسابيع ، تذكرت المرأةُ الفظّةُ الغبيةُ ، ذوقَه ، بكل دقة ، وأعلنت جهاراً أنه لا يستطيع الاستغناءَ عنها . حتى إذا جاءت المرحلة الثانية ، وتمدد عارياً على وجهه ، وهبطَ في صوتٍ مكتومٍ حبلٌ معقودٌ الى جانب أُذنه ، أدرك أن المرأة الضخمة الفظّة احتلت مكاناً في عالمه ، مثل حقيقةٍ لا مَراء فيها .

«لكأن جسدي تفكك بالكامل ، ناعماً وليّناً في كل جزءٍ ، مثل حبل من المقانق ، بدون أي إحساسٍ مطلقاً . لكن ذهني كان يطفو عالياً ، منقطعاً تماماً عن جسدي» ، وثبّتَ عينيه عليّ ، وهو يبتسم بوهنٍ ، ابتسامة صغيرة متألمة .

أخذت جرعة ويسكي أخرى ، ومثل زوجتي انتابتني نوبة سعال دفعتْ بالويسكي الدافئ الى فانيلتي لينحدر على صدري وبطني . ثم نظرتُ إليها ، وهي لاتزال جالسةً مغمضة العينين ، والجفنان الأسودان كأنهما عينان زائفتان ، مثل العلامات الحارسة على أجنحة فراشات معينة ، وشعرتُ بأن عليّ أن أكلّمها بخشونة .

كنت سأقول ، حتى لو افترضنا أنه مازوشيّ ، فهذا لا يعني أنكِ لا تخافين شيئاً . كما أنه لا يبرر تمييزكِ بينه وبيني ، وقولَكِ لنفسكِ إنني لن أصبغ رأسي أحمر ، وأقتل نفسي ، عارياً . إن الخصائص الجنسية ليست

مهمة جداً في المدى البعيد ، إنها مجرد تشويه واحدٍ سبّبه شيء شنيعٌ ومخيفٌ حقاً ، ملتفٌّ في أعماق الشخصية . كانت في أعماق روحه قوةٌ دافعةٌ هائلة مجنونة عصيّة على الضبط ، وقد صادفَ أنها ولّدتْ تشويهاً معيّناً يدعى المازوشية ـ هذا كل ما في الأمر . إن تورطه في المازوشية ليس سبب الجنون الذي أوصله إلى انتحاره ، بل الأمرُ معكوس . وأنا أيضاً لديّ بذور ذلك الجنون غير القابل للشفاء...

لكني لم أقلْ شيئاً من هذا كله ، لزوجتي ، كما أن الفكرة ذاتها لم ترسل لامِساتُها الدقيقة الى تلافيف مخي المطموس بفعل الإنهاك . النزوة مثل الفقائع في الكأس ، تفور وقتاً ثم تختفي . مثل هذه الأفكار تمرّ بدون أن تخلِّف أي تجربة وراءها . يصحُّ هذا ، خصوصاً حين يظل المرء صامتاً إزاءها ، وكلُ ما يحتاجه هو أن ينتظر حتى تمرّ الأفكار غير المرغوب فيها ، دون أن تؤذي جدران الدماغ .

لو استطعتُ تدبير أمري الآن بهذه الطريقة ، فلسوف أكون قادراً على النجاة من السمّ ، حتى مجيء الهجوم المعاكس الكبير حين يتعيَّنُ عليّ أخيراً أن أتقبّله باعتباره تجربةً . عاضّاً على لساني ، وضعتُ يديّ تحت إبطي زوجتي من الخلف ، ورفعتُها على قدميها . كنت كمن يقوم بالتدنيس ، وأنا أسند زوجتي الحية ـ لغزو وهشاشة جسدٍ خُلِق ليمنح الولادة في ألمٍ وعُسْرٍ ـ بيدين لوّثهما رفعُ جسدِ صديقٍ ميت . ومع أن الجسدين ذوا ثقلٍ متساوٍ ، إلا أنني شعرت بقربٍ أكثر الى جسد صديقي الميت .

تقدمنا ، وئيدي الخطى ، نحو غرفة النوم حيث كان الطفل ينتظرنا ، لكن حين بلغْنا الحمّام توقّفَ تقدُّمُها مثل سفينة أنزلتْ مرساتها ، فشقّت طريقها عبر الهواء الدافئ الغسقي لمساء الصيف ، هواءِ الغرفة ، واختفت في الحمّام . تلبّثتْ هناك طويلاً ، وعندما خرجت أخيراً مع كآبتها الأعمق الآن ،

أخذتُها الى غرفة النوم ، وأبعدتُ فكرة خلع ثيابها ، فمددتُها على الفراش كما هي . غرقتْ سريعاً في النوم بعد أن أطلقتْ آهةً عميقةً كأنها تنتزع روحَها . تعلّقَ شيءٌ أصفرُ ذو ألياف مما تقيّأتْهُ بشفتيها ، ناعماً مثل شُعيرات بُرعم تشعُّ فجراً .

نظر إليّ الطفلُ ، كما يفعل دائماً ، بعينين واسعتين ، لكني لا أستطيع معرفة إن كان ظمآن أو جائعاً أو متضايقاً لسببٍ ما . إنه يرقد ، مفتوح العينين ، بلا تعبير ، مثل نباتٍ بحريّ في ماء الغسق ، متواجدٍ بكل بساطة وهدوء . لم يطلب شيئاً ، ولم يعبر عن أي عاطفة . بل لم يصرخ . وإن المرء ليتساءل إن كان حياً . لأفترضْ أن زوجتي كانت سكرى ، طوال اليوم ، منذ مغادرتي في الصباح الباكر ، وأنها تركت الطفل لشؤونه ، فماذا بمقدوري أن أفعل ؟ في هذه اللحظة ، لم تكن سوى مومسٍ سكرى تغطّ في نوم عميق . كان لديّ إحساسٌ بالكارثة . لكنْ ، مثل ما حدث مع زوجتي ، امتنعت عن التدنيس بمدّ ذراعين ملوثتين ولمسِ الطفل . وبالنسبة للطفل أيضاً ، أحسستُ بأني أقرب الى صديقي الميت ، منه . ومهما حدّقتُ إليه طويلاً ، يظل ينظر إليّ بعينين خاليتين تماماً من أي تعبير . أخيراً جاءني النعاس من تلكما العينين السوداوين وسحبني مثل موجة مدٍّ لا تقاوَم . وبدون أن آتيه حتى بزجاجة حليب ، التففتُ ونمتُ . على عتبة اللاوعي ، قلت لنفسي مع إحساس جديد بالصدمة ، إن صديقي الوحيد قد صبغ شعره بالأحمر القاني وشنق نفسه ، وإن زوجتي سكرتْ بصورة مفاجئة وغير متوقعة تماماً ، وإن ولدي كان معتوهاً . وتوّجتُ كل شيء ، بالنوم ، مندساً في فسحة غير كافية ، بين فراشي زوجتي وولدي ، دون أن أغلق الأبواب ، دون أن أنزع ربطة عنقي ، وشخصي لايزال مدنّساً بملامسة الموتى . لقد عُلِّق كل حُكمٍ ، مثل حشرة بائسة مثبتة بدبّوس...

كنت أنكمش أمام إحساسٍ بأن قوةً خطرة تتأكّلني ، قوة لا أعرف لها إسماً ، وهكذا استغرقتُ في النوم . في الصباح ، لم أستطع أن أستعيد تماماً ما أحسستُ به ، في مثل تلك القناعة ، البارحة . باختصار ، أخفق الأمرُ في أن يكون تجربةً .

في أحد أيام الصيف ، كان صديقي التقى أخي الأصغر في محل عقاقير بنيويورك ، وقد جاءني بشهادته عن حياة أخي في أميركا .

كان تاكاشي ذهب إلى أميركا عضواً في مجموعة مسرح من الطلبة . قائدة المجموعة كانت عضواً في البرلمان ، امرأة من الجناح اليميني لأحد الأحزاب السياسية التقدمية . تتألف المجموعة بكاملها من طلبة شاركوا في الاضطرابات السياسية لحزيران ١٩٦٠ ، لكنهم أعادوا النظر فيما فعلوه . كانت مسرحيتهم نصّاً تكفيرياً عنوانه : **العار كان عارَنا** ، يتلوه اعتذار إلى المواطنين الأميركيين نيابةً عن أعضاء الحركة الطلابية ، النادمين على عرقلتهم زيارة الرئيس الأميركي لليابان . حين أخبرني تاكاشي ، أول الأمر ، أنه ذاهبٌ إلى أميركا معهم ، قال إنه خطّطَ للهروب من الفرقة حال وصوله إلى أميركا ، وإنه سيطوف تلك البلاد حراً بنفسه . لكني بعد أن قرأتُ التغطيات شبه الساخرة ، شبه المتضايقة ، التي بعث بها المراسلون اليابانيون عن «العار كان عارنا» ، عرفتُ أنه لم يترك الفرقة بعدُ ، وأنه لايزال يظهر في عروضها ، في واشنطن ، وفي مدن بعيدة أمثال بوسطن ونيويورك . حاولتُ أن أجد تفسيراً لتخليه عن خطته الأصلية ، واستمراره في تمثيله دور ناشطٍ طلاّبيّ تائبٍ ، لكن المهمة كانت عسيرةً على تخيُّلي . لذلك كتبت رسالة أسأل فيها صديقي الذي كان في نيويورك ، مع زوجته التي تدرس في كولومبيا ، أن يبحث عن تاكاشي في مقر الفرقة . لكنه لم يستطع الاتصال بهم ، والتقى مع أخي بالمصادفة

المحض . لقد دخل مخزن عقاقير في برودواي وهناك عثر بتاكاشي ، هزيلاً ، ناتئاً عن النُّضد ، يشرب الليمونادة بتركيز شديد . جاءه متسللاً من الخلف ، وأمسك بكتف تاكاشي . استدار أخي بسرعة ، كأنه أفلتَ من نابضٍ ، حتى لقد فوجئ صديقي . كان تاكاشي زريَّ الهيأة ، متعرقاً ، شاحباً ، متوتراً . كان مظهره يوحي بشخص أُخِذ على حين غِرّة بينما كان يخطط للسطو على مصرف . أعلنَ صديقي : «هاي ، تاكاشي . ميتسو كتب إليَ وأخبرني بأنك في الولايات المتحدة . يبدو أن ميتسو ما إن تزوج حتى حبلت زوجته فوراً» .

قال تاكاشي بصوت غير هادئ : «أما أنا فلم أتزوج ، ولم تحملْ مني واحدةٌ» .

ضحك صديقي من أعماق قلبه كمن سمع للتو فكاهة ممتازة . قال : «أنا عائد إلى اليابان الأسبوعَ المقبل . هل من رسالة الى ميتسو ؟» .

«ألم يكن مفترضاً أن تظل في كولومبيا عدة سنوات ؟» .

«لم يعد الأمر كذلك . لقد أوذيتُ في المظاهرات . ليس جسدياً ـ حدثَ شيءٌ في رأسي . ليس الأمر سيئاً الى حد وضعي في مستشفى للأمراض العقلية ، لكنهم قرروا أن عليَ الاعتكاف في مصحّةٍ ما» .

هنا ، لحظ صديقي ارتباكاً عميقاً ينتشر مثل لطخة على وجه تاكاشي ، وأحسّ أنه أدرك مغزى إجفال تاكاشي المفاجئ حين أُخِذ على حين غِرّة . ولم يستطع صديقي إلا أن يشعر بالأسف ، فهو شخص عطوف . يبدو أنه أصاب من الآخر أكثر الأماكن حساسيةً لدى ناشطٍ تائب . خيّم الصمت على الإثنين كليهما ، وهما يحدّقان إلى صفّ المرطبانات محكمة الإغلاق على الرف خلف النّضد ـ مرطبانات مليئة بسائلٍ ورديّ ، حلوٍ ، يبدو نيّئاً مثل المصران . صورتاهما تنعكسان في زجاج القناني المشوّه ، وحيثما تحرّكا ،

ولو حركةً هيّنةً ، تمايلت الأشكال الوردية في هيأةٍ مبالِغةٍ ، حتى كاد المرء يتوقع اندفاعها ، في أغنيةٍ ، أيَّ لحظة .

في وقتٍ متأخر من إحدى ليالي حزيران ، عندما كان تاكاشي لايزال طالباً ناشطاً غير تائب ، كان خارج البرلمان الوطني ، وصديقي أيضاً ذهبَ إلى هناك ، لا بدافعٍ سياسي ، وإنما ليرافق زوجته الجديدة وهي تشترك في المظاهرة مع فرقة مسرحية صغيرة تنتسب إليها ـ وعندما اندلع الاشتباك شجّتْ رأسَه هراوة شرطيٍّ بينما كان يحاول حماية زوجته من هجوم شرطة مكافحة الشغب . لم يكن الكسر خطيراً بالمعنى الجراحي للكلمة ، لكن منذ ذلك الليل المتأخر ، ليل الهجمة وسط ضوع الأوراق الخضر الفتيّة ، افتقدَ صديقي شيئاً في رأسه ، وأُصيب بنوع من الكآبة المرَضيّة . لهذا فهو الشخص الذي يتجنب لقاءه أيُّ ناشطٍ طلابيّ تائب .

ظل صديقي ، وارتباكُه يزداد بسبب صمت تاكاشي ، يحدق إلى المرطبانات الوردية ، مع إحساسٍ بأن عينيه وقد ذابتا في حرارة ارتباكه ، تحوّلتا الى هذا السائل الوردي في المرطبانات ، وأنهما تسيلان خارج جمجمته . وتصوَّرَ حدقتيه الورديتين المائعتين تتقافزان ، مثل بيضٍ في مقلاة ، على النُّضد الفضي الذي ثبّت عليه الناس أكواعهم العارية المتعرقة ـ أميركيون من كل المنابت ، أوروبيون جنوبيون ، أنجلوسكسون ، يهود . صيفٌ ساخنٌ في نيويورك ، وتاكاشي إلى جانبه يمتصُّ ، بصوت عالٍ ، آخر ما تبقّى من الليمون بقصبته ، وينحني وهو ينفض العرَق عن جبهته...

بدأ صديقي يقول ، مودّعاً ، أو كالمودِّع : «إن كان عليّ أن أخبر ميتسو...» .

«أخبره ، أنني سأهرب من الفرقة . هل ستخبره ؟ إن لم أفعلها فقد يطردونني . وفي كلتا الحالين لن أكون مع الفرقة» .

« متى ستترك الفرقة ؟ » .

« اليوم » .

قال تاكاشي هذا في عزمٍ واضح .

توهَّمَ صديقي ، بنوع من الإلحاح ، بل الفزع ، أن أخي كان في مخزن العقاقير ينتظر شيئاً ما . كلُ ما تضمّنه إبداؤه الدهشة حين قفز فجأة مثل نابضٍ أُطلِق ، وما تضمّنه صمتُه المفاجئ ، وما تضمّنه الليمونُ المتبقي وهو يُمتَصُّ بسرعة ، هذه الأمور مجتمعةً ، انتظمت في حلقة واقعية . لكنه أحسَّ بالراحة وهو يلمح في علائم الشعور التي تظهر وتختفي في عيني أخي ـ عينين ذواتي غشاوة كابية شحمية تُذكِّر بمُصارعٍ محترف ـ ليس فقط شعورَ الإكراه لارتطامه بشخص قد لا يريد أن يلقاه ، بل موقفَ الإشفاق المتغطرس عليه أيضاً .

سأله صديقي في محاولة مزاح : « هل سيجيء عميلٌ سريٌّ إلى هنا ليساعدك في الفرار ؟ » أجاب تاكاشي في نبرة تهديد مزيّف : « هل أخبرك بالحقيقة ؟ أترى ذلك الصيدلي يملأ زجاجة صغيرة بالأقراص ، هناك في الطرف الآخر لرفوف الأدوية ؟ » . وعندما استدار صديقي بكامل جسمه ، مثل أخي ، رأى خلف الرفوف المثقلة بزجاجات أدوية لا تحصى ، وإزاء الخلفية المعتمة مثل فيلم سالب عن نيويورك في عز الصيف ، رجلاً أصلع ، ملتفتَ الوجه عنهما ، مستغرقاً في مهمته الدقيقة .

« هذا الدواء لي ، لقضيبي الملتهب المعذب . ما إن يبرأ بين يديّ حتى أهرب من « العار كان عارنا » ، وأمضي في سبيلي » .

أحسَّ صديقي بالأميركيين يتصلّبون للكلمة الانجليزية الوحيدة Penis (قضيب) المطعّمة مثل حجرٍ كريمٍ في حوار يابانيّ غير مفهوم . المظهرُ الشاسع الغريب لهما ، أكّد حقيقته ثانيةً .

«أنت تحصل على هذا الدواء بصورة سهلة ، أكيداً ؟» .

قال هذا صديقي برزانة صادقة إزاء المراقبة التي يتعرضان لها من جانب الناس حولهما .

أجاب تاكاشي غير مبالٍ بالاحتدام النفسي العادي لصديقي : «نعم ، إن ذهبتَ إلى مستشفى متبعاً الإجراءات اللازمة . لكن المسألة عسيرة جداً في أميركا إن لم تستطع . الوصفة التي أعطيتُها للصيدلي زوّرَتْها لي ممرضة في المكتب الصحي للفندق . لو عرف أحدٌ بالخدعة ، فإن ممرضة سوداء شابة سوف تُطرَد من عملها ، وأنا سوف أُرَحَّل ، كما أتصوّر» .

لمَ لم يتبع الإجراءات النظامية ؟ لأن إحليله مصابٌ بالسيلان ، والأكثر من ذلك أنه التقط المرضَ في ليلته الأولى بأميركا ، من ممارسته الجنس مع عاهرة سوداء ذات عُمْر أهَلَهُ ليراها مثل أمٍّ . لو عرفتْ عضوُ البرلمان العجوزُ ، قائدةُ الفرقة ، بالأمر ، لأعادت تاكاشي فوراً الى البلاد التي بذلَ الكثيرَ كي يخرج منها . كما أنه سقط فريسة شكٍ ممضٍ في أن إحليله مادام قد أصيب بالسيلان فقد يكون مصاباً بالسفلس أيضاً ، وهو شكٌّ قضى على إمكانية تكريسه مخيلتّه الإبداعيةَ لسبيلٍ جديد من العمل .

انقضت خمسة أسابيع على زيارته تلك المنطقة التي يختلط فيها البيض والسود اختلاطاً معقد التركيب ، لكن أعراض السفلس لم تظهر . بل إنه استخدم التهاب الحلق ذريعةً للحصول على جرعات صغيرة منتظمة من مضادّات الحيوية ، من مضمِّد الفرقة ، وبفضل هذه المضادّات خفّت متاعبُ إحليله ، آنذاك فقط نفضَ تاكاشي عنه غبار الكسل والقنوط .

تعرّفَ على ممرضة بالدائرة الصحية للفندق ، أثناء إقامتهم الطويلة بنيويورك (القاعدة التي استخدمتها الفرقة للانطلاق الى المراكز الأخرى) ، وأقنعها تاكاشي بوضع يدها على استمارة يستعملها الأطباء لتدوين

وصفاتهم . الممرضة ، وهي فتاةٌ سوداء متفانية في خدمة الآخرين ، لم تملأ الاستمارة فقط بالدواء المناسب لإحليله وكميته ونوعه ، لكنها أرشدته أيضاً الى مخزن عقاقير في الجزء المزدحم من البلدة ، حيث يُستبعَد اكتشاف المخالفة .

قال تاكاشي : «حاولت في البداية أن أتحدث عن أعراض قضيبي السيئة بطريقة مجردة غير عضويّة ـ بنوعٍ من الوصف البعيد ، أنت تعرف . أحسست أن كلمة سيَلان قد تكون صارخة ، صادمةً لها ، لذا قلت إنني قد أكون مصاباً بالتهاب الإحليل . لكنها لم تفهم المقصود . لهذا قلت إنني أعاني من «التهاب القناة» . كان عليك أن ترى الضوء الطريّ للفهم الذي التمعَ في عينيها . لا شيء يمكن أن يكون أقلَّ تجريداً وأقلَّ لاعضويةً ـ لقد أعادتْ إليّ ، من جديد ، الواقع اللزج المجسَّد للألم في قضيبي . وقالت : «أتحسُّ بالحرقة في قضيبك ؟» ، يا إلهي ، هل صُدمتُ! لقد بلَّغت الكلماتُ الحقيقةَ كأجود ما يكون التبليغُ ، حتى شعرتُ بأن جسدي كله يشتعل بلهب الارتباك ، هكذا!» .

قهقه عالياً ، وتبعه صديقي . غير اليابانيين الذين أرهفوا مسامعهم للكلمات الانجليزية الواضحة التي ترشُّ حديث تاكاشي ، صاروا ينظرون بريبةٍ إليهما . الصيدلي ظهر من وراء الرفوف وقد غرق وجهه بالعرق . غاضت الابتسامة ، فجأةً ، من وجه تاكاشي الملوَّح بالشمس ، الشبيه بالطير ، وحلّت محلّها نظرة أسقَمَها الحنينُ والقلق .

أحس صديقي ، وهو يراقبه ، بالتوتر أيضاً ، لكن الصيدليّ الأصلع ، الذي يبدو إيرلندياً ، لم يزد على القول بصوتٍ أبويّ : «هذا العدد من الأقراص يكلف مبلغاً كبيراً ، لِمَ لا تأخذ ثلثَ العدد فقط ؟» .

استعاد تاكاشي ، على الفور ، رباطةَ جأشه ، وقال ضاحكاً : «إنه

لَغالٍ . لكن أي شيء سيكون أفضل من وجع أنابيبي في الأسابيع القليلة الأخيرة» .

قال صديقي بصوتٍ حميمٍ : «سأشتريها لك . احتفالاً ببدء حياتك الجديدة في أميركا» .

تاكاشي الآن في منتهى الابتهاج . ألقى نظرة حبّ على الأقراص الملتمعة ، ناعمةً ، في زجاجتها ، ثم أعلن أنه سيحزم حاجياته ، وينطلق في تطوافه ، وحيداً ، عبر أميركا ، هذا اليوم بالذات . غادر وصديقي مخزن العقاقير ، متلهفين للابتعاد عن مسرح الجريمة بأسرع ما يمكن ، وسارا ، معاً ، الى موقف حافلة قريب .

قال صديقي وهو يشعر بنوع من الحسد للمواجهة بين وجه تاكاشي السعيد والأقراص في الزجاجة :

«ما إن تُحلَّ مشكلة ، حتى تبدو الأشياء التي كانت ترهقك غبية تافهة الى حدٍ بعيد» .

قال تاكاشي بعدوانية : «كل المتاعب تبدو تافهة حين تزول ، أكيد ؟ والأمرُ نفسه معك ، وأنت عائدٌ الى البلد لتدخل مصحّةً . أليس كذلك ؟ عندما تُفَكُّ العُقَد في رأسك ، لن يتخلف شيء سوى الشعور بأن كل شيء كان ضجةً حول أمرٍ غبيٍّ تافهٍ» .

قال صديقي وهو لا يخفي كآبته : «لو حُلَّتْ . أما إذا لم تُحَلّ ، فإن الغباوة والتفاهة ستكونان حظي من الدنيا» .

«ما هي بالضبط ، هذه العقد التي في رأسك ؟» .

«يصعب عليَ أن أعرف . ولو كان بمقدوري ذلك لتغلبتُ عليها ، ولبدأتُ آسَفُ على زمنٍ موصومٍ أمضيتُ فيه عدة سنين . ومن جهة أخرى ، لو أفسحتُ لها المجال ، ومضيتُ في طريق الدمار الذاتي ، فسأجعلها حظي من

الدنيا ، آنذاك ، وبالتدريج ، سوف تتضح طبيعة العُقد » . ثم شكا بتركيزٍ محزنٍ مفاجئ : «الفهمُ ، في تلك الحالة ، ليس بذي نفع لي ، شخصياً . ولن تكون ثمت طريقةٌ تدع أي امرئ سواك يعرف أن شخصاً ما أصابه الجنون ، قد رأى النور على عتبة الموت» .

بدا أن صديقي استثار اهتمام تاكاشي . لكن مسلك أخي ، في الوقت نفسه ، أبدى علائم رغبةٍ في الابتعاد بأسرع ما يمكن ، ومن هنا أدرك صديقي أنه لمس لُبّاً حسّاساً في نفس تاكاشي . عند هذه النقطة ، وصلت الحافلة . صعد تاكاشي ، وناولَ صديقي منشوراً من النافذة ـ مقابل ثمن الدواء كما قال ــ ومضى ، ليختفي ، بدون ضجة ، في شساعة القارة الأميركية . لم يتلق صديقي ، ولا أنا ، أي نبأٍ عنه ، مُذّاك . لقد وفى بما أسرّه لصديقي ، فترك الفرقة منذ تلك اللحظة ، وانطلقَ وحيداً في سِفاره .

بعد أن ركب صديقي سيارة أجرة ، فتح فوراً المنشور ، الذي أعطاه إياه تاكاشي . كان عن حركة الحقوق المدنية . المادة الأولى كانت صورة فوتوغرافية لرجلٍ أسود ، احترق جسمُه وتورّم الى حد غياب التفاصيل ، مثل اللُّعب الخشبية المنحوتة بطريقة فجّة ، مع عدد من الرجال البيض ذوي الملابس الرديئة يقفون حوله . كان هزلياً ورهيباً ومقرفاً ، عرضاً جدَّ مباشرٍ للعنف الصريح يستولي على المرء مثل فنطازيا مخيفة . النظر في الصورة يجعل الناظر يواجه قبح الهزيمة الأكيدة تحت ضغط الخوف الذي بلا هوادة . وفي حتمية امتزاج قطرتي ماء ببعضهما ، يصل المشهدُ نفسَه مباشرةً ، وعلى الفور ، بالمشكلة ذات التحديد السيئ التي في رأسه (أي الناظر) . وبدا له أن تاكاشي ترك المنشور معه ، لأنه عارفٌ جيداً أهمية إعطائه له ، مع الصورة ، وليس لشخصٍ آخر سواه . تاكاشي ، بدوره ، كان رأى شيئاً جوهرياً في ذهن صديقي .

قال صديقي : «يدرك المرء أحياناً ، بعد الحدث ، أن وعيه قد أمسك بشيء غير متوقع في حدِّهِ الخارجي . كأن شيئين قد رُكِّبا بصورة ما ، على بعضهما . خطر لي ، وأنا أطوف في الزوايا المعتمة من ذاكرتي ، أنني حين وقفت خلف تاكاشي كان ينظر في تلك الصورة الفوتوغرافية وهو يشرب الليمونادة . وبدا أنه يتصارع مع مشكلة كبرى . أعتقدُ أنه لم يكن قلقاً بصدد وصفة مضادّات الحيوية التي تحدث عنها بمثل ذلك التفصيل ، لكن بصدد أمرٍ أكثر جديّةً وجوهريّةً . أتظن تاكاشي من النمط الذي يثير ضجةً حول جرعة خفيفة للسيلان ؟ لقد صدمني حين قال : «هل أخبرك بالحقيقة ؟» ، وظننت أن لديه شيئاً يختلف عما أخبرني به ، ومازلتُ أتساءل» .

جالساً في قاع الحفرة ، ذلك الفجرَ الخريفيَ ، والكلبُ في حضني ، لم أستطع أن أتبيّن ماذا كان ـ ذلك الشيءُ الساكنُ ذهنَ أخي ، الذي أوضح صديقي وجوده . كما أني لم أستطع أن أتبيّن ذلك الشيء الذي ظل يكبر ويكبر في رأس صديقي حتى أدى به أخيراً الى الموت على تلك الصورة الغريبة . الموت يقطع ، بغتةً ، حبل الفهم . ثمت أشياء لا يخبَرُ بها الأحياء أبداً . ولدى الأحياء شكٌّ يتعمق باستمرار في أن سببَ اختيار الراحلِ الموتَ ، هو بالضبط متصلٌ بالأمور التي لا يمكن الإفضاءُ بها الى الآخرين . العوامل التي تظل سيئة التحديد قد توصل الحيَّ ، أحياناً ، الى موضع الكارثة ذاته ، لكن حتى هنا ، يظل الشيء الوحيد الواضح لدى المعنيَّ هو أنه جيء به إزاء شيء لا يمكن إدراكه . لو أن صديقي ، بدلاً من صبغه رأسه بالقرمز ، وشنقه نفسه ، أطلق صرخةً ولو وجيزةً عبر الهاتف ، لكان ثمت مفتاحُ ما . قد يقال ، طبعاً ، إن الرأس القرمزي ، والخيارة في شرج الجسد العاري ، نوع من الصرخة الصامتة ، لكن لو كان الأمر هكذا ، فلن تكون

الصرخة وحدها كافيةً لأولئك الذين خُلِّفوا . كانت المفاتيح أيضاً جدَّ ملتبسةٍ عليّ ، فلم أستطع متابعتها أكثر .

بالرغم من هذا ، ما كان أيٌّ من الأحياء في موضعٍ أفضل مني لفهم صديقي الميت . فمنذ سنتنا الأولى في الجامعة ، كنا شريكين في كل شيء . وقد ألِفَ زملاؤنا القولَ إننا كنا مثل توأمين . حتى في المظهر كنت أشبه صديقي أكثر من أخي . إن تاكاشي لا يشبهني في أي شيء . والحقُّ أنه استُغلقَ عليّ ما كان يدور في ذهن أخي وهو يطوف أميركا ، بينما لم يُستغلَقْ عليّ ، مرةً ، ما كان يدور في ذهن صديقي الميت . في مساءٍ خريفيّ ، عام ١٩٤٥ ـ مساء اليوم الذي قُتل فيه س ، ثاني أكبر إخوتي ، والوحيد الذي عاد حيّاً من الجبهة ، ضرباً حتى الموت في المستوطَنة الكورية التي توسعت مثل كيس دهنيّ ، بالضبط خارج الوادي حيث تقوم قريتنا ـ التفتتْ أمي ، الممددة على سرير مرضها ، الى أختنا ، وقدّمتْ هذا الحكمَ ، على تاكاشي وعليّ ، الرجلين الوحيدين الباقيين من عائلتنا : « إنهما لايزالان طفلين . وجهاهما لم يتشكّلا بعدُ . لكنْ ، تدريجاً ، سيكون ميتسو سابورو قبيحاً ، وسيكون تاكاشي جميلاً . الناس سوف يحبون تاكاشي ، وسوف يعيش حياةً ناجحة . لتكنْ علاقتك معه جيدة حين تستطيعين ، وتمسّكي به بعد أن تكبري » .

بعد أن ماتت أمي ، تبنّى عمٌّ لنا ، أختنا ، مع تاكاشي . وهكذا اتبعتْ ، في الواقع ، نصيحة أمنا ، لكنها انتحرتْ قبل سنّ البلوغ . ومع أن تخلُّفها لم يكن جدياً مثل طفلنا ، إلا أنها كانت متخلفة الى حد جعل أمي تقول إنها لم تكن قادرة على العيش بدون الانشداد الى أحدٍ . ولم تكن تستجيب إلا للموسيقى ، للأصوات بعامة...

نبح الكلب . ووثبَ العالم الخارجي الى الحياة من جديد ، مطبقاً عليّ

في قاع حفرتي من جهتين ، رأساً . كانت يدي اليمنى ، وقد دوّرتُها مثل مجرفة ، تخمش جدار الحفرة المقابل ، وقد استطعت حتى الآن أن أُسقط في حضني خمسَ طابوقات أو ستاً كانت دفينةً في طُفال كانتو ، وكان الكلب يلتصق بصدري اتّقاءً لها . ظلت يدي تجرف ، بإلحاحٍ ، جانب الحفرة ، مرةً ، مرتين ، ثم أدركتُ أن شخصاً ما ، مجهولاً ، كان يحدِّق إليها ، من فوق . جذبتُ الكلب إليّ بيدي اليسرى ، ونظرتُ إلى أعلى . سرتْ إليّ عدوى الكلب : كنت خائفاً خوفاً حيوانياً بالفعل . كان ضوء المصباح غائماً مثل عين مصابة بإعتام العدسة . والسماء التي كانت عالية في الفجر مع مسحة بياض ، تتدلى الآن ، خفيضة رصاصية . لو كانت عيناي كلتاهما مبصرتين لملأ نورُ الصباح المشهدَ بصورة أفضل (غالباً ما أقعُ في هذا النوع من الخطل) ، لكن هذا الصباح ، بالنسبة للعين الباقية ، كان معتماً موحشاً . جلستُ ، غير عابئ بالأوساخ التي تغطيني ، في وضع أحطَّ من أي ساكنٍ عاديّ في المدينة الصباحية ، أخمشُ بيديّ المجردتين الجدار الطيني ، والبردُ يهاجمني من الخارج ، والعار المحرق يهاجمني من الداخل .

مثل برجٍ يوشك أن يسقط ويمحو السماء الرصاصية ، كان شبحٌ عريضٌ لكائن بشريّ جالسٍ يغلق مدخل الحفرة . إنه يشبه سرطاناً أسود منتصباً على قائمتيه الخلفيتين إزاء السماء . صار الكلب متوحشاً ، وشلّني أنا الخوفُ والخجل . قعقعة أشياء زجاجية انهمرت في الحفرة مثل موجة بَرَدٍ . دقّقتُ نظري في محاولةٍ لمعرفة ملامح العملاق الذي كان يطلُّ ، من عل ، كالإله . مدوَّخاً بالخجل ، سمحتُ لنفسي أن أبتسم ابتسامةً واهنة .

قال العملاق : «ما اسم الكلب ؟» .

السؤال كان بعيداً عن كل الملحوظات الممكنة التي كنت أحصّنُ نفسي إزاءها . انتابني شعورٌ هائلٌ رخيٌّ بالراحة ، حين قُذفتُ ، سليماً ، تلك

اللحظةَ ، على الشواطئ اليومية . لا ريب في أن الشائعة ستنتشر في الجوار عبر هذا الرجل ، لكنها لن تكون فضيحةً خارج المألوف : ليست من ذلك النمط الذي كنت أفكر به ، قبل هنيهةٍ ، مرعوباً مرتبكاً . وليست من النمط الذي ينـدى له جبينُ المرء ، أو الذي يُذرّي كل ما هو إسانيّ هباءً ، لكنها فضيحة هادئة ليست أسوأ من شخصٍ شوهد يضاجعُ خادمةً كبيرة السنّ . أما الكلب الذي أحسّ بأن حاميه قد تحرر من المحنة ، فقد هدأ صامتاً ، رضيّاً ، مثل أرنب .

مضى الرجل مغرِقاً مسلكي في ممالك الحياة اليومية : «هل سقطتَ هناك ، وأنت سكران ؟ كان ضبابُ هذا الصباحَ» .

أومأتُ له برأسي ، حذِراً (كاملُ جسمه ماثلُ الآن في هيأة شبح أسود ، حتى أن وجهي مهما كان كالحاً هذا الصباح ، ليبدو كالنور إزاء الظلام) ، ثم وقفتُ ، والكلبُ لايزال بين ذراعيّ . قطرات ماء تحدّرت كالدموع من ظاهر فخذيّ ، مبللةً ما حول ركبتيّ اللتين ظلتا ناشفتين حتى الآن . تراجع الرجل خطوةً الى وراء ، متفهماً بغموض أن يمكنني من إلقاء نظرة عليه كاملاً ، من نقطة هي بمستوى كاحليه .

كان بائع حليب شاباً ، يرتدي بدلةً خاصة بحمل الحليب ، تبدو مثل سترة نجاة ، ألقيتْ زجاجةٌ في كل واحد من أنابيبها . كلما تحرّك تعالى رنين زجاج يقرع زجاجاً . يبدو تنفسهُ أثقلَ من المعتاد . وجهه مفلطحٌ مثل سمكة الهلبوت ، وليس من جسر لأنفه تقريباً ، أما بياض عينيه فلا يكاد يبين ، مثل الحيوانات التي هي بين الإنسان والقرد . نظر إليّ بتلكما العينين السوداوين ، ثقيل الأنفاس ، وأنفاسه تتعلق بحنكه الضعيف مثل لحية بيضاء . حوّلتُ نظري الى شجرة القرانيا التي تعرض ألوانها الخريفية وراء رأسها الكروي ، متردداً في أن أرى على وجهه أي تعبير قد يعني شيئاً .

كانت أسافل أوراق القرانيا ، إذ أراها على مسافة إنشين من الأرض ، متقدة الحمرة ، مهدِّدةً ، أليفةً ، في آن . وقد ذكّرتني حمرتها بألسنة اللهب في صور الجحيم التي رأيتها في معبد قريتنا ، كل سنة في عيد ميلاد بوذا (أهدى جدي الأكبر الصورة الى المعبد ، بعد حادث ١٨٦٠ المؤسف) .

كانت شجرة القرانيا شارةً لي ، معناها غير واضح كفايةً ، لكنها أثارت لديّ عزماً مفاجئاً . وضعتُ الكلب على الأرض حيث حُفِرَ التراب ليُنتج خليطاً قذر المرأى من الطين الأسود والعشب البني الذاوي . هرب الكلب وهو في كامل الابتهاج ، كأنه يؤكد ما كان فيه من عذاب حتى الآن . صعدتُ السلّمَ بعناية . بلغت سمعي أغنية ثلاثة طيور مختلفة في الأقل ، مع صرير عجلات سيارة . كان عليّ أن أرتقي السلّم بحذر ، فرجلاي اللتان ترتعشان من البرد قد تزلاّن في أي لحظة . وعندما ظهرتُ بكاملي ، على الأرض ، مرتجفاً ، مرتدياً مبذلتي الزرقاء المخططة القذرة ، تراجع بائع الحليب خطوةَ عارفٍ أخرى . كنت تحت إغراء إرعابه ، لكني امتنعتُ عن ذلك ، طبعاً ؛ وعندما دخلتُ المطبخ أغلقتُ الباب خلفي ، بدون مزيد من الصخب .

«حين رأيتك في الحفرة حسبتُك ميتاً» . صاح بي بائع الحليب ، مستاءً ، كأن دخولي بدون أن أعيره انتباهاً جعله يرى الأمر خدعةً نكراء .

توقفتُ لحظة أمام باب غرفة زوجتي لأرى إن كانت لاتزال نائمة . ثم خلعتُ مبذلتي وشرعت أفرك جسمي من أعلى إلى أسفل . فكّرتُ بتسخين ماءٍ وغسل الأوساخ ، لكني تخليت عن الفكرة . لقد فقدتُ الرغبة في البقاء نظيفاً ، بدون أن أدرك ذلك . ارتجاف جسدي يَصّاعَدُ باطّراد . شيء ما ترك لطخة سوداء على المنشفة . أشعلتُ الضوء فتبيّن لي أن إحدى أصابعي تدمى بسبب مسمارٍ عندما كنت أخمش الجدار الأرضي للحفرة . كان البحث عن مُطهّر مزعجاً ، فاكتفيتُ بلفّ منشفةٍ حوله ، وعدت مرتجفاً الى غرفة نومي/

مكتبي . لم يتوقف الارتجاف ، وسرعان ما أُصِبتُ بحمى . وأخذ جسدي ينبض بوجعٍ مكتومٍ ، منفصلٍ عن الألم الحاد في إصبعي الجريح . إنه نوع أقسى من الوجع الذي عانيته ، دوماً ، في الفجر . أدركت الآن أنني كنت أحاول في لاوعيي أن أنتزع قطع الطابوق المكسَرة لأهدَ جدار الحفرة فأدفن نفسي حياً . الارتجاف والوجع ازداد حدَّ الفظاعة . وفهمتُ قليلاً عن عادتي اليومية في الاستيقاظ ، حين أحسُّ ، فجراً ، أن جسمي يتقطّعُ ، ويتوجّعُ في كل شِلْوٍ منه .

العائلة تجتمع

عصَر اليوم الذي وصلتْ فيه تلك البرقية من أخي معلناً تخلِّيه المفاجىء عن تطوافه في أميركا ، ووصوله المرتقَب إلى مطار هانيدا ، التقينا ، زوجتي وأنا ، في المطار ، بأصدقاء أخي المراهقين . عاصفةٌ كانت تهب على المحيط الهادىء ، لذلك تأخرَ موعد وصول الطائرة . أستأجرنا ، نحن فريق الترحيب والإستقبال ، غرفةً في فندق المطار ، بانتظار وصول الطائرة . زوجتي أعطت ظَهرها للنافذة ذات ستائر البندقية البلاستيك (التي لا تحجب ضوء الخارج تماماً إذ أن ضباباً شاحباً يتمهّل في الغرفة مثل دخانٍ حبيسٍ) - وصار وجهها في الظل ، فلم يعد أحدٌ يعرف تعابيره - واقتعدتْ كرسيّاً منخفضاً ، وشرعت تحتسي الويسكي هادئةً . كأس زجاج منقوش كانت في يدها اليسرى التي تشبه غصن شجرة بليلاً ، وقنينة ويسكي وسطل ثلج إلى جانب الحذاء قرب قدميها العاريتين . كانت جاءت بالويسكي من البيت ، وطلبت من الفندق ثلجاً .

أصدقاء تاكاشي يجلسون على السرير الذي لا يزال مغطّى بمُلاءة ، متلاصقين مثل جِراءٍ في وِجارٍ ، يشاهدون وقد رفعوا رُكبَهم إلى ذقونهم ، برنامجاً رياضياً يعرضه جهاز تلفزيون ترانسستور يطنّ مثل سرب بعوض .

كنت التقيت هوشيو وموموكو مرتين من قبل . بعد فترة قصيرة من اختفاء أخي ، وسماحه لصديقي بدفع ثمن مضادات الحيوية ، زاراني ، آملين في أن يعرفا شيئاً عن مستقَرِّهِ . وفي زيارتهما التالية تبيَّنَ أنهما تلقيا منه للتو بطاقةً بريديةً أو نحوَها ، فهما قد عرفا عنواناً يمكن عبره الإتصالُ به ، لكنهما رفضا إعطائي العنوان ، مكتفيين بطلب نقودٍ كي يرسلا له بعض الضروريات . لم يكن لشخصيتيهما أيُّ وقعٍ خاص عليَّ ، أو على زوجتي ، مع أننا تأثرنا للطريقة التي افتقدا بها أخي ، مما يدلُّ على الوفاء .

وبينما كنت أحتسي بيرتي التي بدت سوداء في ضوء الغرفة الكابي ، كنتُ أنظر خلال رقائق الستارة إلى الفضاء الواسع حيث تهبط ، وتقلع ، الطائراتُ النفاثة ، وطائرات المراوح ، بدون انقطاع . المنطقة الواقعة بين المدارج والغرفة التي نقبع فيها خلف الستائر ، كان يقطعها ، على مستوى النظر ، ممشىً عالٍ من الفولاذ والخرسانة . اجتازت الممشى مجموعة تلميذات جئن يزرن المطار ، وكلهنّ في وضعية انحناءٍ حذرٍ . وعندما بلغت المجموعة ذات البدلات المدرسية الفضفاضة منحنى الممشى بَدَونَ صاعداتٍ إلى السماء مثل الطائرات على المدارج . كان التأثير مقلقاً . لكن ما بدا للوهلة الأولى أحذيةً تتساقط عن أقدام الفتيات كان في الحقيقة حمائم . سرب حمام دار في الهواء ، وحطت واحدة بحركات غير اعتيادية ، كأنها مصابة بإطلاقة ، على الحاجز الضيق المفروش بالرمل الجافّ خلف النافذة مباشرةً . حين أنعمتُ النظر رأيت الحمامة عرجاء . واضحٌ أنها أسمنُ بسبب قلة التمرين من أن تستطيع الهبوط بنعومة .

من رقبتها ، حتى بطنها ، يمتد ظلٌّ أسود يشبه بَشرةَ يد زوجتي . فجأةً ، طارت الحمامة السمينة (الفضاء خلف النافذة مانعة الصوت لا بدّ أن يكون مليئاً بالضجيج المتفجر الذي يُذعر الحمامة ، لكن لأن أي صوت من

هذه الأصوات لا يبلغ هذا الجانبَ ، يبدو كل ما يحدث خارجه منقطعاً) ، وتوقفت ساكنةً على مبعدة حوالي ستة إنشات أمام عيني مثل لطخة سوداء في اختبار رورشاش ، ثم طارت برشاقة مبتعدةً عن مدى البصر .

رددتُ رأسي إلى الوراء ، مجفلاً . التفتُ ورأيت أن حركتي المفاجئة قد أدهشت زوجتي التي لا تزال تمسك بالكأس في يدها ، وكذلك صديقي أخي الشابَّين مع أنهما لا يزالان يتابعان التلفزيون .

قلت لأخفي ارتباكي : « لا بد أن العاصفة سيئة جداً ، كي تتأخر الطائرة هكذا » .

« لا نعرف عن حجم العاصفة شيئاً » .

« لو سقطت الطائرة فإن تاكاشي سيرتعب . إن فكرة الموت مع ألمٍ جسديّ كثير تخيفه بمقدار ضعف خوف الآخرين » .

« يقال إن المرء لا يتعذب في سقوط الطائرة . كل شيء ينتهي في ثانية » .

« ليس تاكاشي من النوع الذي يخاف » . قال هوشيو هذا بصوت من لايطيق صبراً بعدُ.. انتبهتُ لقوله ، باعتباره الكلمات الأولى التي نطق بها ، خارج عبارات التحية ، عصر هذا اليوم . قلت : « صحيحٌ ؛ إنه يخاف . وهو من النمط الذي كان دائماً ضحية نوع من الخوف أو آخر . مرةً ، حين كان لا يزال صغيراً ، جُرح في إصبعه جرحاً صغيراً ، وسال من الإصبع دمٌ لا تزيد كميته على واحد بالمائة من المليغرام . وحصل أنه أفرغ أحشاءه وسقط مغشياً عليه » .

الدم موضوع السؤال سال من جرحٍ سبّبتُه أنا ، حين وخزتُ بطرف مُدْيةٍ الإصبعَ الوسطى من يد أخي اليمنى . وكان ادّعى أن بمقدوره فتح راحة يده بسكين دون أن تتحرك شعرةٌ منه . هكذا أعطيتُه الرعبَ الذي يستأهله .

غالباً ما أصرَّ أمامي على أنه لا يشعر بأي خوف ، لا من العنف ، ولا من أيّ ألمٍ ، ولا من الموت نفسه ؛ لكني في كل مرة كنت أُناقضه بصراحة . كانت النتيجة لعبتي الصغيرة . تاكاشي أيضاً ظل حريصاً على أن يُمتَحنَ ويُثبتَ نفسه .

قلت وأنا أصقل التفاصيل رغبة في السخرية من حرّاس أخي المخلصين : «قطرة دمٍ سالت بلطفٍ من نهاية إصبعه الوسطى . كانت تبدو مثل عين سمكة حنكليس فتيّة . كنا ننظر إلى القطرة معاً ، وإذ بتاكاشي يتقيأ ، ويُغمى عليه» .

«أنت لا تستطيع إخافة تاكا ، رأيتُ كم كان بارد الأعصاب في مظاهرات حزيران ـ لم يكن خائفاً ، البتة» .

وجدتُ نفسي ، أكثر فأكثر ، في حبائل العداء العنيد الساذج ، الذي يواجهني به صديقا أخي . زوجتي أيضاً كانت تنصت ، وعيناها على هوشيو . نظرت ثانيةً إلى الشاب الجالس الآن منتصباً على الفراش ، وهو يردُّ على نظرتي بنظرة ثابتة محملقة . كانت هيأته توحي بشابٍّ جاء البلدة فوراً مهاجراً من مزرعة . كانت ملامحه خشنة وإن لم تكن قبيحة حين تؤخذ واحدةً واحدةً . ملامح غير متوازنة ، كأنّ كلَّ مَلْمح قرر أن يهمل الآخر ، وهكذا صار الأثر العام مُضحكاً . جو الذكاء الخامل ، ومركّب الإنكفاء واليُسر ، اللذان يَمثُلان على وجهه مثل شبكةٍ شفّافة ، خليقان تماماً بفلاّحٍ فتي . وهو يرتدي سترته الصوف ذات الخطوط البُنية ، الخفيفة والداكنة ، بعناية واضحة ، مع أن هذه السترة سرعان ما تتدهور كومةً فضفاضةً مُجَعلكةً .

«أعترفُ ، بأن تاكاشي أراد حقاً أن يكون من النمط الشديد الذي يكون السلوك العنيف طبعه ، لكن حتى لو حدث أنْ نجحَ فإنه يظل يعطي

الإنطباع بأنه هاوٍ في هذا . ألا يختلف هذا عن الشجاعة ؟ » . كنت لا أزال غير مهتم بإقناعه ، لكنني أردت أن أضع حداً للنقاش بتسديد هذا السهم الأخير إليه : « ألا تشاركنا في ويسكي أو بيرة ؟ » .

« لا . وأشكرك! » . أجاب الشابّ بلهجة امتعاض صارخة باعثة على الريبة ، وفي الوقت نفسه أطلق إحدى يديه علامةَ رفضٍ شديدٍ . « قال تاكا إن من يشربون يكونون ضعفاء حين يهاجَمون . قال أيضاً : حين يتعارك شخصٌ يشرب مع شخص لا يشرب ، فالذي لا يشرب يكون المنتصر دائماً ، حتى لو كانا متعادلين في القوة والتقنية... » .

فاترَ الهمّة ، سكبتُ لنفسي كأس بيرة ، وكأس ويسكي لزوجتي التي بدت مسكونةً بتشوُّفٍ أكثرَ حيويةً من كل ما عرفته طيلة الشهور القليلة الأخيرة . قرعنا كأسينا في جو كحوليَّينِ تربطهما مقاومة الخندق الأخير إزاء قوة لا كحوليين متفوقة ، وواجهنا اليد الحمراء القصيرة التي لا تزال تمتد أمامنا . نظرة واحدة إلى هذه اليد كافية لتبين لنا كم هي قصيرةٌ المدّةُ التي فارقَ بها هذا الشابُ قريتَه الزراعية . قالت زوجتي للشاب : « أنا متأكدة من أن فكرتك عن تاكاشي هي الصحيحة . اليوم سيكون لقائي الأول مع نسيبي ، وأنا سعيدة بأن أسمع أنه شاب معقول هكذا » .

أشار الشاب بيده ليبيّن أنه لن يتقبل الهزء من امرأة سكرى ، وأشاح بوجهه ، فجأةً ، ليتابع البرنامج الرياضي التافه على التلفزيون . وفي أثناء ذلك تحدَّث بصوت منخفض ، متأكداً من أهداف الفريق المهاجم ، مع الفتاة التي لم تفارق عيناها التلفزيون أثناء تبادلنا الحديث . أنا وزوجتي ، بعد أن أُخرِسْنا هكذا ، انغمسنا في شربنا .

تأخر موعد وصول الطائرة ، ثانيةً . وبدا أنها سوف تتأخر إلى الأبد . حلَّ منتصف الليل ولم تصلْ بعدُ . كان المطار ، حين نظرت إليه من رقائق

الستارة ، قبة من ضوء شاحب ، من أضواء زرق متّقدة ، ومن ظلالٍ برتقالية حارّة تخترقها العتمة شبه البيضاء التي تغطي المدينة ، كأن الليل بلغ مشارف القبة ، وظل يحوم هناك بلا انتهاء ، دون أن يخطو خطوة أخرى إلى أمام . منهكين ، أطفأنا أضواء الغرفة ، فصار مصدر الإضاءة الوحيد ، الآن ، تلك الخطوط الضوئية الدقيقة المشعّة ، بلا معنى ، من جهاز التلفزيون ، الذي ظل أصدقاء أخي يراقبونه حتى انتهاء البرنامج الأخير . يبدو أن الجهاز لايزال يطنّ طنينَ أجنحة البعوض ، مع أني أتساءل عما إذا لم يكن هذا الطنين في رأسي أنا .

زوجتي مستغرقة في احتساء وِيسكيِّها ، وظهرها إلى المدارج ، كأنها تريد أن تصرف مقدَّماً أي زائر قد يدخل من بابٍ ما ، بابٍ خياليّ . زوجتي مجهزة بحاسّة عجيبة تسبر عمقَ سُكرها . مثل سمكة تظل على مستوى معاشها ونشاطها . هي تهبط الى عمق معين ، لكنها لن تمضي أكثر ، تحت أي ظروف ، ولن ترضى بالإفاقة من جانب آخر . وقد ورثتْ هذه الحاسّة ، جهاز الأمان الذاتيّ هذا ، من أمها التي كانت كحولية . فإن بلغتْ حداً معيّناً مقرراً من الطبقة الآمنة للسكر ، اعتزمت النومَ وانسحبتْ ، بلا ضجة زائدة . وبما أنها لم تعانِ ، قطُّ ، من خُمارٍ ، فإن كل غدٍ يبدأ ببحث جديد عن ذريعةٍ تجعلها تعود أسرع ما يمكن إلى ذلك المستوى المعروف .

أخبرتُها : «أنت مختلفة عن الكحوليين الآخرين ، في نقطة واحدة ، في الأقل ــ أنتِ تستطيعين أن تقدِّري مبلغ سكركِ فتظلي في المستوى نفسه ، بإرادتك الحرة . وأعتقدُ ، خلال أسابيع قليلة ، أن رغبتك المفاجئة في الشرب سوف تمرُّ . عليكِ ألا تقرني رغبةً في الكحول عابرةً ، بذكريات أمك ، محاولِةً عَقْلنتَها ، أو اعتبارها أمراً لا فكاك منه» . قلت هذا مراراً وتكراراً ، لكنها فعلتْ ما تفعله في الغالب : أبعدتْ كلَّ محاولاتي .

«الأمر على الضد تماماً . إن هذه القدرة على التحكم بالسكر ، طواعيةً ، هي التي تجعلني كحولية . وكان الأمر هو هو مع أمي . سبب توقفي حين أصل إلى درجة معينة ليس أني أتراجع عن إغراء المضيّ أكثر في السكر ، لكنه خوفي من الإنزلاق خارج الحالة البهيجة التي بلغتُها » .

أشكال الخوف والامتعاض المختلفة هي التي انحدرتْ بها الى السكر ، لكنها مثل البطة الجريحة التي تغوص تحت الماء ، تعرف أن السطح يعني أن تواجه وابلاً فورياً من المتاعب المقلقة ، ولهذا فهي غير متحررة من الخوف والامتعاض حتى في سكرها . حين تسكر تحمرّ عيناها بصورة غير اعتيادية ، مما ادّى الى قلقها . وفي إحدى المرات قالت مسكونةً بالمماثلة مع الولادة المخترمة لطفلنا المسكين : «في الحكايات الشعبية الكورية يقال إن المرأة ذات العينين الحمراوين كالدرّاق ، لا بد أنها أكلت لحماً بشرياً » .

رائحة أنفاسها المثقلة بالويسكي معلّقة في الغرفة . خفَّ تأثير البيرة فيّ ، وكلّما تنفستْ شعرتُ بأنفساها مع انتظامٍ حادٍّ في النبض . التدفئة كانت ممتازة فاضطررنا لفتح النوافذ المزدوجة كي يدخل إلى غرفتنا هواء . فجأةً اندفع في الفتحة الضيقة الهديرُ الشرس مثل زوبعة لطائرةٍ نفاثةٍ متأخرة . صوَّبتُ عيني الوحيدة ، مقاتلاً وحيداً ، خاملَ ردود الأفعال بسبب الإنهاك ، كي ترود الفضاء بعصبية بحثاً عن الطائرة التي تكون وصلتْ . لكن كل ما رأته كان ضوءين متوازيين يتحركان على شفا الإختفاء في أعماق العتمة الحليبية .

كانت محركات طائرة نفّاثة تقلع هي التي أجفلتني . ومع أني أدركت هذه الحقيقة ، فقد أجفلتُ مراراً بالطريقة نفسها ، مع أن حركة الإقلاع قلّت وتباعدت ، وبدا المطار بأسره نصف مشلول . الليل وحده ، لا يزال ماثلاً ، كسيراً ، لا مهرب لديه من الأضواء الكشّافة التي لا ترحم . الطائرات ساكنة

قرب بعضها ، لونها لون السمك المجفف وسط فوضى الأزرق المتّقد والبرتقاليّ الحارّ . نحن في غرفتنا ، ننتظر صامتين ، الطائرة المتأخرة . عودة أخي ليست بذات أهمية لي ولزوجتي ، مهما كان قدْر المسألة عند حرّاسه ، لكننا جميعاً كنا ننتظره باهتمامٍ بالغ كما لو أنه سوف يجيئنا بقوةٍ تحرِّك في كلٍ منا شيئاً أساسياً .

قفزت مومِوكو ، في صرخة صغيرة ، على الفراش . كانت نائمة ، ملتفة مثل جنين فوق المُلاءة . هوشيو الذي كان ممدداً على الأرض ، نهض بطيئاً ، واعتلى الفراش . زوجتي جلست وكأس الويسكي لاتزال في يدها ، ورأسُها مُتْلَعٌ مثل ابن عرس . أنا ظللت واقفاً ، خَلِيّاً ، وظهري إلى الستارة . ولأننا عاجزون عن فعل أي شيء لهذه الفتاة وهي في قبضة أحلامنا ، ظللنا ننظر إليها ، إلى مثلث وجهها المائل ، المغضّن بالتوتر ، والمبلل بالدموع التي تلتمع بيضاء كالفازلين في النور الآتي من أنبوب برون Braun .

انتحبتْ : «الطائرة تحطمت ، إنها تحترق! إنها تحترق!»

قال الشاب مستنكراً ، بصوت خشنٍ ، بادي الخجل نيابةً عنها : «لم تتحطم طائرة . كُفي عن البكاء!» .

«الصيف... الصيف!» تنفست ، وغاصتْ ثانيةً في الفراش ، ملتفةً ، ومضت لتدخل في حلمٍ آخر .

حقاً ، كان هواء الغرفة جديراً بالصيف . راحتاي شرعتا تعرقان . تساءلتُ في سرِّي ، لمَ يتوجَّبُ على شابّينِ أن يشعرا بهذه الحاجة الماسّة إلى أخي باعتباره معبودهما الحارس ، حتى أنهما لينتظرانه على امتداد هذا الليل الطويل ، مرهقَينِ حتى في أحلامهما ؟ هل أخي هو النمط الذي يحقق آمالهما ؟ تكلمت مع هوشيو ، وأنا أحس بالشفقة على أصدقائه الشباب :

«ألا تشرب قليلاً من الويسكي ؟» .

«لا . وأشكرك» .

«أتعني أنك لم تذق شراباً قطُّ ؟» .

«أنا ؟ كنت أشرب . بعد أن تركت المدرسة الثانوية التي كنت أداوم فيها ، وقتاً إضافياً ، اشتغلتُ عاملاً ، وكنت أعمل ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أظل أشرب الجنّ بلا توقفٍ ، من الصباح حتى الليل . أحياناً ، كنت أغفو إغفاءةً قصيرة ، لكنني ، بطريقة أو أخرى ، كنت سكران ـ سكران يقظاً ، أو سكران نائماً . وكنت أحلم أحلاماً مزعجة» . كان صوته وهو يتكلم أجشَّ من التأثر ، وهو أمرٌ لم أكن اتوقعه .

جاء ليقف إلى جانبي ، حاشراً ظهره لصق الستارة بقعقعةٍ كبيرة . فجأةً ، علت وجهَه أولُ ابتسامةٍ رأيتُها ، والتمعت عيناه في العتمة ، فأدركتُ أنه يتباهى بالقصة .

«لِمَ توقفتَ عن الشرب ، إذاً ؟»

«التقيت تاكا ، وقال لي عليك ألاّ تشرب ، إذ ينبغي أن تتعامل صاحياً مع الحياة . وهكذا توقفتُ عن الشرب ، ولم أحلم حلماً واحداً بعد ذلك» .

إذاً ، أظهرَ تاكاشي غريزة التعليم : لم أفكر ، بتاتاً ، أنه من هذا النمط . أن يستطيع تاكاشي إخبارَ مُراهقٍ ، مع جوٍّ سيطرةٍ ، ألا يشرب لأن على المرء أن يتعامل مع الحياة صاحياً . وبدا لي أن هذا وحده ، كافٍ ، لجعل شغِّيلٍ شابٍّ يتخلى عن طريقة حياته المدمَّرة . والفتى نفسه استطاع أن يستعيد الفترة مبتسماً ابتسامات مستريحة واثقة .

«أمّا عن تاكاشي إن كان شجاعاً أم لا...» شرع يتحدث ، متناولاً الآن نقاشنا السابق بعد أن رأى ما تركه حديثنا عن الشرب من أثر في نفسي . في هذه الأثناء كان متمدداً على الأرض مثل كلب ، وكان يرهق دماغه باحثاً عن طريقة لإعادة الإعتبار إلى شرف معبوده الحارس . «في مظاهرات

حزيران ، لعل شيئاً مختلفاً تماماً عن الآخرين ، بمبادرةٍ منه . أنت لم تعرف ذلك» .

كان معنيّاً بأن يتحداني في منطق جديد ، لهذا عدَّلَ من وضعه بحيث يتمكن من النظر في عينيَ مباشرةً . نظرت بإحساس ريبةٍ مبهم إلى عينين لم تكونا الآن أكثر من ثقبي رصاص أسودين .

«في أحد الأيام انضَمَّ إلى عُصبةٍ وساعدَ في ضربِ أصحابه ـ الناس أنفسهم الذين حارب إلى جانبهم حتى ذلك الوقت ، وحاربَ معهم ثانيةً في اليوم التالي» .

أطلقَ ضحكةً عالية . كانت الضحكة مع رنين بهجتها الطفولي المحراكَ الذي خبطَ المياه الموحلة لكراهيتي .

قلت : «هذه (المأثرة العظيمة) تبين تماماً أن تاكا ولدٌ مفسَدٌ ذو نزوات ، ولا ثبات في أعماله . ليس للأمر علاقة بالشجاعة» .

«أنت تكره تاكا لأن صديقك أُوذيَ عندما ضُربَ أمام البرلمان ، ولأنك سمعت الآن أن تاكا كان يستعمل عصا إلى جانب الطرف الذي قام بالضرب» أجاب الشاب بعداوة مكشوفة .

«ولهذا ، أنت لا تعترف بأنه شجاع» .

«الشرطة هم الذين ضربوا صديقي . لايمكن أن يكون تاكا . ليس من علاقة بين الأمرين» .

قال الشاب بخبث : «من يدري ـ ظلام مثل ذلك يُطْلق الأيدي حرّةً...» .

«لا أصدق أن بمقدور تاكا أن يضرب رأس شخصٍ ضربةً تكفي لفَلْقِ هامته ، ضربةً تؤدي بالرجل إلى أن يُجَنَّ ويقتل نفسه . لا تنس أنني عرفته منذ كان صغيراً . أعرف كم هو خجولٌ» .

حتى حين تكلمتُ ، كنت أفقد ، تدريجاً ، حماستي لهذا النقاش الفارغ . الإنهاك مع قرفٍ غريب جعلاني أحسُ كأنه سنٌ متسوسة شرعت تدْمى ، وبدا لي أن فمي مليء بطعمٍ كريه ـ طعم اللاجدوى . ذكرى صديقي الميت استفاقت ، وشرعتْ تعنِّفني ، متسائلة عما إذا كان هذا النقاش التافه مع صبيّ ، كلَّ ما أستطيع فعله من أجل الرجل الميت الذي يعني لي الكثير . هذه الذكرى وشوشتني أيضاً أن الأحياء عاجزون عن فعل شيء للموتى . من غير سبب ، كنت في الشهور القليلة الماضية فريسة تطيُّرٍ غامض . في تلك الشهور مات صديقي ، وبدأت زوجتي شرب الويسكي ، وأُرغمنا على وضع طفلنا الأبله في معهد ، مع أن التطيُّر يعود أيضاً إلى شيء كان يتنامى حتى قبل ذلك . وقد غذّى هذا التطيُّر لديّ اعتقاداً بأنني سوف أموت بطريقة أكثر عبثيةً ، ولا معقولية ، وخَراقةً ، من صديقي . واعتقدتُ أيضاً أن الذين يعيشون بعدي سيعجزون عن فعل الشيء المناسب نيابةً عني .

اشتكى الشابُ : «أنت لا تفهم تاكا . أنت لا تعرفه بتاتاً . أنت لا تشبهه في شيء . أنت لستَ سوى فأر . لماذا جئتَ اليوم تلتقي تاكا ؟» . تحدثَ بصوتٍ دامعٍ مؤثرٍ لمباغتته . وعندما أشحتُ بنظري عن وجهه المتألم ، تركني وتمدد إلى جانب رفيقته على الفراش . ولم يَعُدْ يُسمع منه أي صوت .

أخذتُ من قرب قدمي زوجتي ، قنينة الويسكي ، وكوباً ورقياً جاء مع علبة غداء للمتفرجين في المطار ، وشربتُ شيئاً من هذا المشروب الخام ذي الرائحة النتنة . لقد اشترت أسوأ أنواع الويسكي . لقد أحرق حلقي ، ولفظتُ منه قليلاً .

نادتني زوجتي : «اسمع ، أيها الفأر ، أتريد أن تقضي الليل بطوله وأنت تنظر الى المطار ؟ لديّ ما أقوله لك» .

كانت هادئة ، غارقة بارتياح ، في مستواها المألوف من السكر .

ذهبت ، وأنا أمسك قنينة الويسكي والكأس بعناية ، وجلستُ عند ركبتيها .

«ماذا تظننا سنقول لو سأل تاكا عن الطفل ؟ »

«ليس علينا أن نقول أي شيء » .

«لكن ، لو سأل سؤالاً تالياً ، لماذا أشربُ ، فلن أستطيع السكوت» . قالت هذا عارضةً الموضوعية الباردة التي تكتسبها ، دائماً ، من السكر . «مع أني لو أجبتُ عن أحد السؤالين ، بالطبع ، لاستغنيتُ عن إجابة الآخر ، مما يجعل الأمور أسهل» .

«ليس بهذه السهولة . لو فهمتِ العلاقة العابرة بين الأمرين ، كماأظنك تفهمين ، فلسوف تحصلين على الأفضل من الإثنين ، مسألة الطفل ، ومشكلة شربكِ . سوف تكونين صاحية ، وحبلى بطفل جديد » .

«أتساءل عمّا إذا كان تاكاشي سيعظني أيضاً ؟ اتركي الشرب ، إذ ينبغي أن نعيش الحياة صُحاةً! المشكلة هي...» وأضافت صريحةً : «إنني لا أرغبُ في إعادة تثقيفي» . سكبتُ شيئاً من الويسكي في كأسها «ألا تظن أنه يتوقع أن نأتي بالطفل إلى هنا كي يلقاه ؟ »

«إنه ليس في سنٍّ تجعله يتخيل شيئاً محدداً هكذا عن أي طفل . إنه بالكاد بالغٌ» .

يبدو أنها كانت تنظر إلى خيالٍ للطفل بين ركبتها اليسرى وركبتي اليمنى . وضعت كأسها متوازنة بصورة خطرة على ذراع الكرسي ، ومدّت يدها الفارغة الآن وبدت كأنها ترسم خطوطاً لطفلٍ سمينٍ في حركة واحدة مستمرة زادت من ضيقي وإحساسي العام بالإستياء . «لديّ مثلاً ، إحساسٌ ، بأن تاكا قد يأتي بدبٍّ لعبةٍ ، أو شيء آخر ، للطفل ، مما يجعلنا جميعاً في حَيص بَيص» .

«لا أتصور أن لديه ما يشتري به دببةً» ، قلت هذا ، مدركاً أنني في الوقت الذي لا أريدها أن تتحدث فيه إلى أخي عن الطفل في أول لقاء ، فإنني أيضاً مترددٌ في أن أحمل عبء المهمة .

«أهو حسّاسٌ أم غليظٌ ؟»

«هو خليط ـ حسّاس جداً في طرقٍ ما ، عديم الحساسية في أخرى . وعلى أي حال ، هو ليس من النمط الذي يليق بكِ أن تقدّمي إليه وأنتِ في وضعك الراهن» . على الفراش ، تحرَّك الشابّ ، ثم التفَّ مثل قملة خشب ، ودندنَ بخفوت . جلاّد تاكاشي أحتجَّ احتجاجاً خفيفاً .

«لا أريد أن يستجوبني أحد» . قالت مدافعةً عن نفسها ، مهتاجةً بصورة مفاجئة ، ثم مُخْمَدةً بصورة مفاجئة ، كأنها نطقتْ في ذات اللحظة التي انقذفت فيها كرة العاطفة في الهواء ، وبلغتْ أوجَها ، نقطَة ثباتها .

«وليس عليكِ أن تخضعي لذلك» ، قلت لأُطَمْئنها في حال انحدارها على سلّمٍ حلزونيَ داخليَ من هستيريا جَلْد الذات أوالشفقة ، «ليس لديك سبب خاصٍّ لتخافي من تاكاشي . أنتِ متوترةٌ ، فقط لأنك ستلقين فرداً جديداً من أفراد العائلة . ليس من شيء آخر تخافينه ـ كما أني لا أعتقد أنكِ خائفة» . سكبتُ مزيداً من الويسكي في كأسها . إن لم تقرر بنفسها أن تنام ، فيجب أن تخطو خطوة أخرى أبعد من المستوى المألوف لسكرها . ذهنها ، المفتوحُ دائماً ، كان مهدداً ، ومحاصَراً بشيء ، بأمرٍ شريرٍ أسوأ من أي ألم جسديّ .

شربتْ جرعة ويسكي ، وهي تُغالب التقيؤ . دقّقتُ النظر بعيني الوحيدة ، المجهدة ، المتوجعة من صراعها ضد العتمة ، فرأيتُ وجهها : مسكيناً ، متوحداً ، منكفئاً على نفسه . بين حين وآخر ترتفع على مستواه . والملامح الحادّة تلين على الوجه الذي تحمله مُثْلَعاً قليلاً مع عينين

مغمضتين ، فيظهر وجه فتاةٍ شابّة مكانه . اليد الممسكة بالكأس تترنح في الفراغ فوق ركبتيها . أخذتُ الكأس منها ، فسقطت اليد الهزيلة في حِجْرها مثل عصفور يموت . كانت نائمة بالفعل . وبعد أن أفرغت ما تبقّى في الكأس ، تثاءبت ، وحذوتُ حذوَ الشابّ ، إذ تمددتُ على الأرض (أنتَ لستَ سوى فأر) وتهيأت لامتطاء عربة النوم المهتزّة .

في أحلامي كنت أقف على مفترق طرق ، حيث شارع عريضٌ ذو سيارات ، يتقاطع مع شارع جانبي . عددٌ كبير من الناس اصطدموا بجانبيّ ، وخلفي ، دون انقطاع ، وهم يتجاوزونني من الوراء . من أوراق الشجر الممتد مع الشارع يتبيّن أن الوقت هو أواخر الصيف . كانت الخضرة كثيفةً كثافتها في الغابة العميقة المحيطة بالوادي حيث تقع قريتنا . وبالضد من الضجيج اليومي لعالمي ، كان هذا العالم الآخر الذي راقبتُه كمن يضع رأسه تحت ماء نهر ليرى القاع ـ ينكشف أمام عيني ، ملتفّاً بصمتٍ عميقٍ غير أرضيّ . وإذ تساءلتُ عن سبب سكونه المطلق ، ادركتُ أن السبب هو في أن جميع الناس الذين يسيرون جدّ بطيئين على امتداد الممشى المقابل ، كانوا كبار السنّ . والناس الذين يقودون سياراتهم في الاتجاهين كانوا كبار السنّ أيضاً . والناس الذين يعملون في دكاكين الخمور ، ومخازن العقاقير ، ومخازن الخمسة والعشرة ، والزبائن كذلك ، كانوا جميعاً كبار السنّ . كان الى يمين المدخل نحو الشارع الفرعي ، حلاّق . وكان أصحاب محل الحلاقة ملتفّين حتى أعناقهم بالأبيض ، وكنت أراهم في المرآة الواسعة عبر النوافذ الموارية ، وهم كبار السنّ أيضاً يرتدون بدلاتٍ سوداً ، ويعتمرون قبعات مُرخاةً على آذانهم ، وفي أقدامهم ما يشبه جزمات مطر محْكمة على كواحلهم .

هؤلاء الشيوخ الملتفّون بالسكينة ـ شعرت أنني أصارعُ لأتذكر شيئاً

أقلقني ـ كانت لهم أهمية عميقة . ثم عرفت أن صديقي الذي شنق نفسه والطفل الأبله المودع لدى معهد كانا كلاهما حاضرينِ بين الشيوخ الذين ملأوا الشارع ، وكانا أيضاً يرتديان بدلتين سوداوين وقبعتين مُرخاتَينِ على آذانهما وجزمات مطر في أقدامهما . كانا يختفيان ويظهران بين الجمع . وبما أنهما متماثلان مع الشيوخ الآخرين ، صار من المستحيل تمييزهما طيلة الوقت ، ومعرفة أيهما صديقي وأيهما الطفل . لكن الإلتباس لم يشكل بحد ذاته عقبة أمام التجربة العاطفية ؛ كل الشيوخ الذين ملأوا الشارع كانوا ذوي صلةٍ بي . حاولت أن أقتحم عالمهم ، فواجهت مقاومةً غير مرئية ، وأطلقت صرخة يأس :

«لقد هجرتُكم! »

لكن صرختي تبددت في أصداء لا تُعَدُّ ولا تُحصى تحلِّق حول رأسي ، ولم أستطع حتى معرفة إن كانت بلغتْ عالم الشيوخ . ظلوا يتمشون هادئين ، يقودون سياراتهم مبطئين ، ويختارون الكتب معتنين ، ويجلسون أمام مرآة الحلاق ثابتين... هكذا ، إلى الأبد...

تولاني ألمٌ كأنَ أحداً يدوس على أحشائي : بأي طريقة هجرتُهم ؟ قلتُ لنفسي : بأني لم أشنق نفسي بدلاً منهم ، ورأسي صبيغٌ بالقرمز ، بأني لم أُودَعْ في معهدٍ وأُترك لأنحطّ إلى جرو حيوان وحشيٍّ : لمَ صار هذا واضحاً جداً لي الآن ؟ السبب واضحٌ جداً ، ذلك لأني لم أكن معهم في شارع أواخر الصيف ذاك ، شيخاً هادئاً يرتدي بدلةً سوداء ، وقبعة مرخاة على الأذن وجزمة مطر...

«لقد هجرتكم! »

ادركتُ ، بالفعل ، أنه كان حلماً . لكن الإدراك لم يخفف الشعور بالاضطهاد الذي سبّبه هؤلاء الهادئون لي . لقد جرَّبتُهم بطريقة لا مثيل لها .

يدٌ ثقيلة وُضعتْ على كتفي . ظلَّ جفناي مغلقين بقوّةٍ ما ـ ليس واضحاً إن كان ذلك من الخجل ، أو من الحساسية إزاء الضوء . فتحتُهما بالرغم من ذلك ورأيتُ أخي ، يرتدي كالصياد ملابس ليفي Levis وسترة ذات ياقة من جلد الغُرير (قد يكون مقلداً) ، وهو ينظر إليّ . كان وجهه مُلوَّحاً بعمق ، كأنه صديء .

قال في صوت مشجِّعٍ : «هاي!»

عندما جلستُ ، رأيت الفتاة ، كانت عارية ، تنحني لتلتقط ثوباً بنّياً غامقاً . كانت توشك أن ترتديه ، في وسط الشتاء ، ولا شيء تحته سوى قطعتين صغيرتين من الملابس الداخلية . زوجتي وهوشيو يراقبانها في حرص الراعيين . كانت وهي عارية تشبه فرخةً منتوفة ، ومنظرها لا يثير الشهوة بقدر ما يثير الإشمئزاز .

قال تاكاشي : «إنه ثوب جلدٍ هنديّ . الشيء الوحيد الذي عدتُ به من أميركا . كان عليَّ أن أبيع مُدَلاّةَ أختي للحصول على المال» .

قلت مخفياً انزعاجي من فقدان آخر ما يُذَكّر بأختنا الميتة : «لا بأس...» .

«أنا مسرورٌ لقولك» ، نطقَ العبارة سعيداً ، كأن عبئاً انزاح عن ذهنه . مشى إلى النافذة ، راكلاً بسرور واضح قنينة الويسكي والكأس وعلبة الغداء الفارغة ، وانتهى بأن رفع الستارة ، التي كانت نصف مرفوعة .

ضوءٌ صباحيٌّ واهنٌ أبيض ملأ الهواء تحت سماءٍ مُحْكمة الغيم ، والطائرات المتشبثة بالأرض مثل الجراد كانت مغلفة بغشاوة كريهة . المشهد ملأني بالوحشة القاسية ذاتها ـ ولو على نطاق أوسع بكثير ـ مثل ما فعلت المراهقةُ العارية ، وهكذا اقتنعت بأن العاطفة غائرة الجذور فيّ ، بسبب قلة النوم ، والسكر المستمر ، وإنهاك الليلة السابقة .

في الضوء الضعيف من النافذة المكشوفة بالكامل ، أستطيع أن أرى موموكو قانطةً ، تهزّ رأسها الصغير البازغ من الياقة البيضوية للثوب الجلدي . حاشية الثوب التصقت بردفيها ، تاركةً مؤخرتها نصف مكشوفة ، لكن وجهها كان متألقاً بتباهٍ ساذجٍ ، لأنها المخلوق الوحيد الذي جاءه تاكاشي بهدية . حتى حين تتأفف ، كأنها تلوم الثوب الجلدي نفسه ، فإن تأففها يبدو مثل أغنية لمعنوياتٍ عالية غير مسؤولة .

«بشرتي ، وهذا الجلد ، يحتكّان بطريقةٍ خطأٍ . وليست لي أي فكرة عن الخيوط والثقوب المناسبة . انظرْ يا تاكاشي... كم عدد الخيوط! أنا أتساءل كيف يستطيع الهنود تدبير الأمر ـ لا بدَّ أن رياضياتهم ليست متقدمة جداً! »

تدخَّلَ هوشيو بلهجة مبتهجة ، مقدِّماً يد المساعدة : «لا تتعبي نفسكِ . أأنت متأكدة من أن هذه الشرائط الجلدية ليست غير تزويق وزينة ؟ »

«زينة ، أو لا زينة ، ليس من سبب يدعوك إلى انتزاعها! »

انضمّت زوجتي الى العصبة السعيدة حول الثوب الهندي ، وساعدت ، طائعةً ، موموكو في ارتدائه . ولقد دُهشتُ بالمسلك الطبيعي لاندماجها مع حرّاس تاكاشي هذا الصباح . اثناء إغفاءتي المؤلمة المهينة ، كان أخي هبط من طائرته المتأخرة ، واستطاع بسحرِ ساحرٍ أن يوائم بين زوجتي وأصدقائه الشباب . أما القنوط الذي أصابها طيلة بعد الظهر الماضي ، وانتقلتْ عدواه إليّ ، فقد أمسى من نصيبي وحدي الآن .

قلت : «أنت تعرف ، كان الطفل شديد التخلّف العقلي ، وكان علينا أن نودعه معهداً في نهاية الأمر» .

«مـ مـ م . لقد سمعت» قال تاكاشي هذا مواسياً .

«ذهبنا لنستردّه بعد خمسة أسابيع ، لكنه كان تغيَّرَ في الفترة تماماً . كانت حالته من السوء بحيث لم تعرف حتى زوجتي ، وأنا أيضاً ، إن كان وَلدَنا . الطفل لن يعرفنا ، طبعاً ، في الحالين . ويبدو أن أمراً فظيعاً قد حدث له . أنت تشعر بأن الحاجز قد هبط بالكامل أكثر مما لو كان مات بالفعل . هكذا رجعنا بدونه» . كنت أتكلم بصوت خفيض لئلاّ تسمع زوجتي .

وبينما كان أخي ينصت صامتاً ، كانت تعابير وجهه رضيّةً مخلصة ، استطاعت أن تتغلغل في ثنايا عواطفي بدون أن تثير أيَّ عداء ، وهو أمرٌ يشبه ما لحظتُه في وجهه الملوَّحِ غير الاعتيادي حين أفقتُ ، أمرٌ تسلَّلَ إلى صوته وهو يخبرني أنه سمع بمحنة الطفل . لم أكن أتصوَّر أنني سأجد بعضاً من جِدِّ الكبار فيه ، وأدركتُ أني ألحظُ أحد تأثيرات حياته في أميركا .

سألته : «أسمعتَ عن ذلك أيضاً ؟»

قال أخي وهو يخفض صوته ويتكلم بدون أن يحرك شفتيه : «لا . لكني عرفت أن لا بدَّ من أمرٍ شنيع حدث» .

«أسمعتَ أن صديقي انتحر ؟»

«نعم . كان حوله شيء خاص... أليس كذلك ؟»

عرفت أن تاكاشي مُلمٌّ أيضاً بتفاصيل الكيفية التي مات بها صديقي . هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها ثناء على صديقي من خارج الدائرة المباشرة لعائلته .

قلت : «يبدو أني محاطٌ برائحة الموت» .

«إن كان الأمر هكذا ، يا ميتسو ، فانفض عن نفسك ما يقيدها ، وكن حرّاً ، واصعد إلى عالم الأحياء من جديد ، وإلاّ التصقت بك الرائحة» .

قلت : «أيعني ذلك أنك أُصبتَ بالعقلية الخرافية في أميركا ؟»

«هذا صحيح» ، ومضى أخي بلا هوادة ، يدقق في محاولتي إزالة

الأصداء التي تركتها كلماته في الفراغ بداخلي «لكن كل ما فعلتُه ، في الواقع ، كان استعادة شيء وُسِمْتُ به عندما كنت صغيراً ، وحدَثَ أني نحَّيتُه عن حياتي من بعد . اتتذكر كيف بنيتُ وأختي كوخاً من أغصان الشجر عشنا فيه وقتاً ؟ كنا نبدأ حياة جديدة ، محاولين الخلاص من رائحة الفَناء . كان ذلك ، مباشرةً ، بعد أن ضُرِب س حتى الموت ، كما تعرف ،...

راقبتُه صامتاً ، بدون أن أنطق واحداً من الأجوبة المناسبة ، وبينما كنت كذلك تصاعدَ شكٌّ متفجرٌ في العينين اللتين تواجهانني ، شكٌّ يهدد بأن يتطور إلى شيء متصل بموت أختنا . وبدا لي أن الأمر هو هو حتى الآن . لكن ، كما يفلت الفولاذُ فجأةً ، حين يُوَتَّرُ فوق طاقته ، اختفى فجأةً من عيني تاكاشي كلُّ ما كان يتشكَّلُ . وجرّبتُ إحساساً متجدداً بالدهشة . قال في نبرةٍ إقناعٍ رزين : «جوهر الأمر ، أنها ماتت ، لكن سحر الحياة الجديدة أدّى فِعلَه بالرغم من ذلك . كان موتها ، مقدَّراً ، كي يدعني أستمرّ في الحياة . موتُها هو الذي أثار تعاطف عمي فأرسلني إلى جامعة طوكيو . ولو ظللت أعيش في القرية التي عاش فيها لمُتُّ من الكمد . ألا تظن أنّ عليك أن تبدأ حياةً جديدة ، قبل فوات الأوان ؟» .

«حياة جديدة ؟ وأين تظنني واجداً كوخي ؟» ، قلتُ هذا ساخراً ، مع أن الحديث بدأ يوثِّر فيَّ ، حقاً .

سألني ، مخلصاً ، كأنه أدرك قلقي : «أي نوع من الحياة تحيا ، هذه اللحظة ؟»

«ما أن مات صديقي حتى تخليت عن عملي في الجامعة ، حيث كنا نعطي محاضرات . وليس من تغيير خاص ، عدا هذا» .

منذ تخرجي في فرع الآداب بالجامعة ، كنت أكسب عيشي ، في الغالب ، من ترجمة معلومات عن أناسٍ ينصبون فخاخاً وشراكاً للحيوانات

المتوحشة ، والإبقاء عليها سجينةً . أحد كتب الحيوان هذه نجح نجاحاً جيداً ، وطُبع عدة مرات ، وضمنتْ عائداتُه حياة مستقرة لزوجتي ولي . أعترفُ بأننا نعتمد على أبيها في البيت الذي نسكنه ، دع عنك نفقات إبقاء الطفل في المعهد . وأعتقد أيضاً أن والد زوجتي ، صار يتحمل المصاريف الزائدة ، بعد أن تخليتُ عن محاضراتي في الجامعة . بدءاً أحسستُ بنوعٍ من المعارضة لفكرة شراء بيتٍ لي ، لكن بعد أن شنق صديق نفسه ، لم أعد اهتم بمدى اعتماد زوجتي على والدها .

«وماذا عن حياتك الداخلية ؟ ثمت أمرٌ خطأٌ ، أليس كذلك ؟ لقد صُدمتُ حين رأيتك منطرحاً نائماً على تلك الأرضية القذرة . وعندما استيقظت أيضاً كان وجهك وصوتك مختلفين عمّا عهدتُهما . لأقُلْ بصراحة إنك تهوي أسفل التلّ ، وإنك تعطي الإنطباع بكونك على المنزلَق» .

قلتُ في تبريرٍ للذات ، مترددٍ : «أعترفُ بأن موت صديقي أثّرَ فيَّ كثيراً ، وهناك مسألة الطفل أيضاً» .

شدَّدَ تاكاشي : «ألا ترى أن المسألة استمرت أطول مما ينبغي ؟ لو طال الأمر أكثر لثبتتْ على وجهك نظرة المنحدرِ . في نيويورك التقيتُ طالب فلسفةٍ يابانياً يعيش حياة منعزلة ، نوعاً من الطرد الإجتماعي . كان ذهب إلى أميركا ليدرس تراث ديوي ، ففقدَ إيمانه بالحياة تماماً ، وانتهى هكذا . أنتَ تذكّرني به ، يا ميتسو ـ وجهك ، صوتك ، كل كيانك الجسمي والعقلي . أنتما صنوان» .

«حارسك الشخصي سمّاني فأراً» .

قال تاكاشي : «فأر ؟ الإسم المحبب للفيلسوف كان «الفأر» أيضاً . لا أظنك تصدقني... أليس كذلك ؟» .

قلت : «أصدقك» ، وخجلتُ للمَسْكنة التي أُترِعَ بها صوتي .

أمرٌ لا ريب فيه ، أنني كنت أغدو مثل الفأر ، تماماً كالفيلسوف الذي فقد إيمانه بالحياة . منذ الدقائق المائة التي قضيتُها ، فجراً ، في الحفرة المخصصة لصهريج البالوعة ، ظللت أفكر في التجربة . كنت عارفاً تماماً ، أنني أنحدر ، جسدياً وعقلياً ، أسفل التل ، وأنّ المنزلَق الذي أنا فيه سوف يؤدي بي ، أكيداً ، إلى موضع حيث رائحة الموت أشد نتانةً . الآن صرت أعرف ، بوضوح ، معنى ما بدا للوهلة الأولى أوجاعاً لا تُفَسَّرُ ، أوجاعاً متفرقة ، في أجزاء عدة من بدني . لكن وعيي بطبيعتها السيكولوجية لم يجعلني أتغلب عليها . بل على الضد من ذلك ، صارت النوبات أكثر ، كما أني لم أستعد حاسة الاستقبال اليقِظة .

أعاد تاكاشي قوله ليزيد الضغط : «نعم . عليك أن تبدأ حياة جديدة ، يا ميتسو» .

قالت زوجتي وهي تدقق النظر فينا نحن الإثنين ، بعينين ضيَّقتْهما بسبب الضوء ، بينما نحن واقفان جنباً إلى جنب والنافذة خلفنا : «نعم . يجب أن تفعل مثل ما قال . حتى أنا أستطيع أن أرى ذلك» .

الآن ، دجّجت مومو كو نفسها ، مثل عروس هندية مصغّرة ، بالجلد ، حتى زينة شعرها . زوجتي انتهت للتو من مساعدتها في ارتداء ثوب الجلد الهندي ، وهي تتجه نحونا . في تلك اللحظة لم تكن فاقدة الجاذبية ، حتى في ضوء الصباح .

قلت جاداً : «طبيعي أنني أرغب في حياة جديدة ، لكن المسألة هي أين أجد كوخي ؟ كوخ أغصان الشجر ؟» . أحسست ، بمعنى الكلمة ، أنني أحتاج إلى مثل ذلك الكوخ برائحته التي أتذكرها جيداً ، ضوع الأغصان الخضر .

«لمَ لا تترك كل ما تفعله في طوكيو وتأتي الى شيكوكو معي ؟ لن يكون هذا بدايةً سيئة يا ميتسو» ، قال هذا تاكاشي باذلاً جهده لإغرائي مع

أنه صرّح بخوفه من رفضي الفكرة رفضاً قاطعاً . «على أي حال ، هذا هو سبب عودتي في طائرة نفّاثة الى البلد » .

تدخَّلَ الشابّ : «تاكا ــ إن كنا ذاهبين الى شيكوكو ، فلنذهب بالسيارة! أنا سوف آخذُ ثلاثتنا بسهولة حتى مع الحقائب ، وبإمكان أحدنا أن ينام في الخلف على الطريق . لقد ابتعتُ سيارة سيتروين عتيقة استعداداً لارتحالنا » .

بادرتْ مومو كو الى القول : «هوشي كان يعيش ويعمل في مرآب لتصليح السيارات خلال العامين الماضيين وقد اشترى الستروين العتيقة ـ ولم تكن أفضل كثيراً من الخردة ـ وضبَّطها حتى غدت قيادتها ممكنة . كل هذا فعله بنفسه! » .

احمرّ خدّا الشابّ ، وكذلك البشرة حول عينيه ، الى حد يكاد يكون معيباً .

قال في نوع من التأثر الساذج غير الإعتيادي : «لقد أخطرتُ المحل . أخبرتُ المديرَ يوم وصول رسالة تاكاشي ، ومجيء مومو كو لتخبرني» .

تاكاشي ، بالرغم من ارتباكه إزاء ما يسمع ، كان على وجهه تعبير رضاً معين ، طفوليّ .

قال : «إنهم جمع خائب . لا يستعملون رؤوسهم أبداً» .

قلت : «أعطني تفاصيلَ عملية أكثر عن هذه الحياة الجديدة في شيكوكو . لا أظن أنك عازمٌ على العمل في الحقول مثل ما فعل أسلافنا ؟ » .

قالت مومو كو : «عملَ تاكا مترجماً لمجموعة سياح يابانيين عندما ذهبوا في جولة بسوبر ماركت في أميركا . أحدهم اهتمَّ حين سمع باسم تاكا . صارا يتحدثان ، ويبدو أن الرجل يملك سلسلة سوبر ماركتات في شيكوكو . إنه فاحش الغنى . وهو يسيطر الآن على كل منطقتكم في الريف ، وتبيَّنَ أنه يريد شراء المستودع في مكان مولدكم . وهو يريد أن ينقل المبنى كله إلى طوكيو ، ويحوِّله الى مطعم يقدِّم المآكل الريفية .

تناول أخي طرف الحديث ، ومضى قائلاً : «باختصار ، هناك مُحْدَثُ نعمة عَرضَ أن يأخذ المبنى الخشبي البشع العتيق من بين أيدينا . فإن وافقتَ على البيع ، تعيَّنَ أن تمضي معنا ، لتشرف على تفكيكه . كما أني سوف أغتنم الفرصة لأستفسر في القرية عن الوقائع الصحيحة لقضية جدي الأكبر وأخيه الأصغر . وهذا سببٌ ثانٍ لعودتي من أميركا» .

لم أكن لأقتنع ، رأساً ، بعملية خطّته . حتى لو افترضنا أنه وجد في نفسه ، فجأةً ، المواهب الدفينة ، كرجل أعمال ، فمن المستبعد أن ينجح في بيع مبنى متداعٍ إلى رجلٍ ذي أفكارٍ جدّ راهنة باعتباره يملك سلسلة سوبرماركتات . مطعم يقدم مآكل ريفيّة! لكن المبنى لا يملك ذلك النوع من السحر المطلوب . كان مستودعاً يعود الى مائة سنة . إلا أنّ ما أثَّر فيّ أكثر من هذا الحديث ، هو الإهتمام الذي لا يزال تاكاشي يتابعه عن حقيقة ما جرى لجدي الأكبر وأخيه الأصغر . في أحد الأيام ، عندما كانت العائلة توشك على التفكك ، بالرغم من إنها لا تزال تعيش في الوادي ، التقطَ أخي طَرفاً من فضيحة تخص عائلتنا قبل قرنٍ أو نحوه .

قال تاكاشي معيداً ما سمعه بصوت مرتعب : «جدي الأكبر قتل أخاه الأصغر ليسوّي النزاع في القرية ، وأكل لحمةً من فخذ أخيه . فعلَ ذلك كي يبرهن لزعماء العشيرة أن لا علاقة له بالمتاعب التي آثارها أخوه» .

شخصياً ، ليست لديّ معلومات دقيقة عن الحادث . خلال الحرب ، خصوصاً ، بدا الكبار من أهل القرية يتحاشون أي إشارة إلى القضية ، وعائلتنا أيضاً حاولت أن تتظاهر بأن الإشاعة القبيحة لم توجد بتاتاً . حتى هكذا ، وبُغيةَ مواجهة رعب تاكاشي ، أخبرتُه بإشاعة مختلفة تذكّرتُ أنها رُويتْ مرةً روايةً خاصة جداً .

قلت : «ذلك لم يكن صحيحاً . بعد الشغب ، ساعد جدنا الأكبر أخاه

في الهروب عبر الغابة ، والوصول إلى كوچي . ذهب بحراً الى طوكيو ، حيث غيَّرَ اسمه ، وحَسَّنَ أمرَه . عددٌ من رسائله وصل إلى جدنا الأكبر في عهد الميجي . وقد ظل جدّنا الأكبر متكتماً بصددها حتى النهاية ، مما أدّى إلى هذه الأقاويل . أمّا سبب تكتمه فيعود إلى أن أناساً كثيرين من أهل القرية ، قُتلوا ، بسبب غلطة أخيه ، وقد أراد أن يتجنب غضب عوائلهم... »

« على أي حال ، لنعد إلى بيتي » ، اقترحت ذلك ، مستعيداً ما كان لي من تأثيرٍ هائلٍ في أخي الأصغر لفترة عدة سنوات بعد الحرب . « بإمكاننا أن ندرس خططنا لحياةٍ جديدة ، بعد أن نصل الى هناك » .

« حسناً . مادام الأمر يعني أن مستودع العائلة سوف يختفي من قرية الوادي حيث كان قائماً لمائة عام ، فلا بأس من أن نتحدث عن الموضوع حديث المستريح » .

قال الشاب في مناورة حادّة لدفعي وزوجتي خارج حلقتهما الصغيرة الضيقة : « إن ذهبتما في سيارة أجرة ، فسوف أتبعكما مع تاكا وموموكو بسيارتي » .

« أريد أن أشرب جرعة واحدة قبل ركوب السيارة » ، قالت زوجتي هذا ، وقد أزاحت أي كلفة بينهما وبين تاكاشي . وعبثت آسفةً ، بطرف حذائها ، بقنينة الويسكي الفارغة المنقلبة على جنبها ، في الأرض .

قال أخي مسرعاً إلى النجدة : « لديّ قنينة بوربون اشتريتها من السوق الحرة في المطار » .

« هل عدتَ الى الشرب ، إذاً ؟ » ، خاطرتُ بالسؤال ، آملاً في سري أن أحقق قليلاً من تحطيم الأصنام في ما يهتمُ به حرّاسُ أخي .

سحب القنينة من حقيبته : « لو أني سكرتُ مرةً سكرةً حقيقية في أميركا ، لضُربتُ حتى الموت في ركنٍ مظلم . أتعرف كيف أغدو ، حين

أسكرُ ، يا ميتسو ؟ لقد جئتُ بهذه القنينة لزوجة أخي الجديدة » .

« يبدو أنكما تفاهمتما جيداً أثناء نومي » .

قال تاكاشي مواجهاً تهكمي بقوة : « كان لدينا متسعٌ من الوقت لذلك . هل تصرف دائماً ، وقتاً طويلاً ، في أحلامك المزعجة ؟ » .

سألته ، منزعجاً بعمق : « هل قلتُ شيئاً وأنا نائم ؟ » .

قال تاكاشي مشفقاً عليّ : « لا عليك . لا أظنُّك تتخلى عن الناس ، هكذا ، وتتركهم لأقدارهم . لا أحد يظن هذا . أنت تختلف عن جدنا الأكبر . لستَ من النمط الذي يؤذي الناس اذىً بالغاً » .

بعد أن رأيت زوجتي تأخذ جرعة بوربون ، من القنينة مباشرةً ، أخذتُ أنا أيضاً ، جرعةً ، لأخفي ارتباكي .

« هيّا! إلى ستروين هوشي! » . أصدرت موموكو الأمر ، متوهجةً بالسعادة ، جَسوراً في ثيابها الجِلد الهندية ، فتبعناها ، نحن أفراد العائلة التي اجتمعت ، وانطلقنا . متخلفاً باعتباري ، الأكبر سنّاً ، والشخصَ ذا المرأى الفأريّ ، والمظهر المنزلِق ، تولَّدَ لديَّ إحساسٌ بأنني قد أمضي مع خطة تاكاشي المهتزّة المتطرفة . أمّا في هذه اللحظة فقد فقدتُ الخشونة المحضَ اللازمة لمواجهته . وحالما خطرتْ لي هذه الفكرة ، اتصلَ دفء جرعة الويسكي مع إحساسٍ بالإستقبال في الأعماق الداخلية لجسدي . لكنني حين حاولت التركيز عليه ، أعاقني الإحساس السليم الصاحي الذي يرى متاعب كثيرة ، ومِحَناً ، في أي محاولة لتحقيق الانبعاث عبر تحرير الذات .

الغابةُ الجبَّارة

في قلب الغابة توقفت الحافلة بدون إنذار ، كأن محرِّكها تعطَّلَ . كانت زوجتي نائمة في المقعد الخلفي ، ملتفةً بالبطانيات من صدرها حتى أصابع قدميها ، وعندما أوقفتُ هيأتها التي تشبه المومياء عن التدحرج إلى أمام ، وأعدتُها إلى الوضع الطبيعي ، شعرت فجأة بالخوف من التأثيرات الممكنة لقطع نومها هذا القطعَ غير الطبيعي . العقبة التي واجهتها الحافلة أمامها ، كانت ، فلاّحة شابّة تحمل حزمة كبيرة على ظهرها ، وشيئاً مثل حيوان ، يقعي ساكناً تماماً ، عند قدميها .

حين دققتُ النظر رأيت أن ذلك الشيخ كان طفلاً مقعياً ، ووجهُه إلينا . بإمكاني أن أتبيّن المؤخرة الصغيرة العارية ، صفراء شاحبة بصورة غير طبيعية ، إزاء عتمة الغابة ، وكذلك كومة الخراء الصغيرة .

طريق الغابة الذي تحفّه من جانبيه أشجار ضخمة متقاربة ، ارتدَّ عن مقدمة الحافلة ، وبدت المرأة والطفل تحت قدميها كمن يطفوان قدماً فوق الأرض . وبدون أن أدري ملتُ بنصف جسمي الأيسر من النافذة ، وأنا أرقب . كنت أستعدُّ ، وأنا أشعر بخوفٍ غامضٍ ، لشيء مخيفٍ ، غير مسمًّى . سوف يثب عليَّ من وراء الصخور الغائرة التي وضعتها عيني

المطلمسة ، داكنةً ، في مجال نظري . طال إفراغ الطفل حتى صار مدعاةً للشفقة . وقد تعاطفت معه ، لكن هذا التعاطف تغلبت عليه الحاجةُ إلى الإسراع ، والخوفُ والخجلُ ذاتُهما .

فوق طريق الغابة شريط ضيق من سماء شتائية تسوِّرُه خضرةٌ كثيفة معتمة من أشجار دائمة الخضرة ، وكأن هذا الشريط في قاع خندق عميق ، يمتد فوق رؤوسنا حيث توقفنا . بطيئةً هبطت سماء الأصيل من ناحيتنا ، تشحب وهي تأتي مثل جدولٍ يغيّر ألوانه في جريانه .

قلت لنفسي ، في الليل ، ستُطبق السماء على الغابة الواسعة إطباقاً محكماً مثل قوقعة أذن البحر حين تغلِّف لحمها . أثارت الفكرة فيَّ شعور الخوف من الأماكن الضيقة . لقد ولدتُ وترعرعت في أعماق هذه الغابة ، لكني ، حتى الآن ، لستُ بمنجاةٍ من الإحساس الخانق ذاته كلما مررت بها في طريقي إلى وادينا . في لبّ هذا الإحساس تكمن مشاعر موروثة من أجداد بادوا منذ زمن طويل ، توغلوا أعمق فأعمق في الغابة ، خوفاً من شوسوكابي ، حتى بلغوا غوراً يشبه المغزل لم يستطع شوسوكابي التسلل إليه ، فأقاموا هناك ، حيث نبعٌ من ماءٍ نافعٍ . إحساسي بالإختناق لا يزال مشحوناً بالمشاعر ذاتها التي ألهمت زعيم أولئك الهاربين ، «الرجل الأول» في شجرة عائلتنا ، وهو يقتحم الظلال المهدِّدة ، ظلال الغابة ، بحثاً عن الغور الذي رآه في مخيِّلته . الشوسوكابي مخلوق ذو حجمٍ هائل يوجد في كل زمان ومكان . جدتي كانت تستعين به كلما عصيت لها أمراً : «الشوسوكابي سيأتي من الغابة ويأخذك!» . وقْعُ كلماتها يُعيد ، ليس الى الطفل فقط ، وإنما إليها أيضاً ، هي ذات الأعوام الثمانين ، الحقيقة الحاضرة دوماً ، للمخلوق المهول الذي لا يزال يعيش في مثل عمرنا نحن...

الحافلة كانت تسير لخمس ساعات منذ مغادرتها منطلَقها في البلدة الريفية . وفي المفتَرق ، حيث يمضي الطريق صاعداً نحو التلال ، نُقل الركّاب ، باستثنائي وزوجتي ، إلى حافلة اخرى تهبط حول طرف الغابة نحو البحر . الطريق الآتي من البلدة ، الذي يخترق اكثف جزءٍ من الغابة ، ويصل إلى تجويفنا ، ثم يستمر هابطاً بمحاذاة مجرى النهر من الوادي ليتصل بطريق الحافلة الذي يتفرع ، من قبل ، نحو البحر ، هذا الطريق يغدو ، تدريجاً ، صعباً ، بلا صيانة . فكرة أن هذا الطريق الذي نقطعه في قلب الغابة آيلٌ ، ببطءٍ ، إلى الخراب ، تصيبني بصدمة مكتومة سيئة ، في مكان ما من مؤخرة دماغي . باعتباري فأراً ممسوساً بطريقٍ يُحتضَر ، شعرت بعين الغابة ترمقني من بين أشجار الأرز والصنوبر وأنواع السرو ، ذات الخضرة العميقة التي تكاد تكون سوداء .

رأيت الفلاّحة وقد انسحب نصفها الأعلى إلى الخلف بسبب ما تحملُ ، حتى أن رأسها وحده هو المنحني إلى أمام ، وهي تحرك شفتيها بكلامٍ شديد . الطفل استقام . سحب سرواله إلى أعلى ، ببطء ، ونظر إلى ما خلّفه ، وكاد يلمسه بطرف حذائه . فجأةً ، لطمتْه الأمّ على أذنه . ثم جرَّتْه بخشونةٍ أمامها ، وبينما كان يحمي رأسه بيديه كلتيهما ، استدارت الى جنب الحافلة . وبعد أن صعد الراكبان الجديدان ، عادت الحافلة تشق طريقها في صمت الغابة المخيف . المرأة والطفل جاءا ، بكل إصرار ، إلى مؤخرة الحافلة ، وجلسا في المقعد الذي يواجهنا مباشرةً . المرأة جلست عند النافذة ، والطفل انتحى جانباً ، ينعسُ على الذراع الخشبية التي تلي الممشى ، بحيث أن الرأس الحليق ، والوجه الصغير الشاحب في وضعه الجانبي ، فرضا نفسيهما على أبصارنا . بعينين محتقنتين ، حمراوين كالبرقوق ، ولا يزال عليهما أثر السُكر ، انتبهت

زوجتي الى الطفل ، أنا أيضاً وجدتُني مسحوباً ، بصورة لا تقاوَم ، صورةٍ لعينة ، إلى الطفل . كان رأسه ولون بشرته يأتياننا بأسوأ الذكريات . كنت متأكداً من أن الرأس وشحوب البشرة الناصل كانا مليئين باستثارة خفيّة للأشياء التي أتخمت كينونتها الداخلية ، حدَّ الإستعداد للتبلور عند أدنى استفزاز . كانا إثارةً مباشرة لليوم الذي اجريتْ فيه العملية على طفلنا بسبب ما في رأسه .

زوجتي وأنا ، كنا ننتظر ذلك الصباح ، أمام مصعد المرضى ، في طابق العمليات نفسه . انفتحت الأبواب الخارجية ، معلنةً وصول القفص الحديد للمصعد . لكن القسم الثاني من الأبواب ، على القفص المشبَّك الأخضر ، استعصى ، ولم تفلح جهود الممرضة في فتحه . قالت زوجتي ، ناظرةً من خلال المشبَّك ، ومنسحبةً في رعبٍ ، كأنها تريد الفرار : «الطفل لا يريد أن تُجرى له عملية» .

خلال مشبَّك الأسلاك الأخضر ، في الضوء الكابي المخضرّ ، مثل نور شمس مصفّى عبر شجرٍ صيفيّ ، رأينا رأس الطفل ، حليقاً مثل رأس مجرم ، وهو ممددٌ على السرير ذي العجلات من ردهة الأطفال . عيناه المغمضتان شديداً كانتا مثل حَزَّينِ في جلدٍ مبْيضٍّ أشبه بالميت كأنه مرشوشٌ بمسحوق . واقفاً على أطراف أصابعي ، استطيع أن أرى في الطرف البعيد من الرأس ، وبتضادٍّ كامل مع مرآه الموحي بالعجز والتوتر القلق ، الزائدةَ ذات اللون البرتقالي ناتئة مع الدم وسائلِ الحبل الشوكي ، شيئاً حيّاً ذا علاقة قوية ، لكن حمقاء ، برأس الطفل . كان النتوء مثيراً للإنزعاج ، شاهداً حياً على حضور قوة شديدة كامنة في الداخل ، لكنها خارجة على سيطرة الذات . ألا يجوز أننا أيضاً ـ الزوجين اللذين أنجبا هذا الطفل ، وهذه الزائدة المليئة بالقوة المستعصية ـ نستيقظ ذات صباح لنجد زوائد مماثلة ، صارخةً

بالحياة ، ناتئة من رأسينا ، بينما السائل الشوكي مُؤَيَّضٌ بسرعة ، وبكميات كبيرة ، في الأورام ، وكل الأجهزة المتعلقة بروحينا ؟ ألا يجوز أن نؤخذ ، بدورنا ، إلى قاعة العمليات ، وقد حُلق رأسانا كالمجرمين ؟ ركلت الممرضة الباب المشبَّك ركلة قوية . هذه الخضّة جلعت الطفل يفتح فمه ، ادردَ ، قاتم الحمرة ، مثل جرح ، ويبدأ يبكي . آنذاك ، كان لا يزال بمقدوره التعبير عن نفسه بالبكاء .

قالت زوجتي وهي ترى الممرضة تنقل سرير الطفل عبر أثوابٍ لا حصر لها ، إلى قاعة العمليات : «كأني بالطبيب يأتي ويقول : حسناً . ها أنذا أعيد الطفل إليكما . ثم يقدم لنا النتوء المبتور» .

ذكّرتني كلماتها بأننا كلينا شعرنا بحقيقة إيجابية في النتوء الوردي المتورم ، أكثر من الطفل الشاحب ، الهامد الأطراف ، الممدد هناك مغمض العينين .

استمرت العملية عشر ساعات . وأثناء انتظارنا ، منهكين ، الانتهاءَ ، استُدعيتُ أنا ، لا زوجتي ، ثلاث مرات الى قاعة العمليات لأنقل إليه من دمي . في آخر مرة ، حين رأيت رأس الطفل ملطخاً بدمه ودمي ، شعرتُ أنه كان يطهى في مَرَقٍ يفور . قدراتي العقلية وهنتْ كثيراً من فقدان الدم حتى ولدت في ذهني هذه المعادلة : إزالة نتوء الطفل تساوي البتر الفيزيقي لعضوٍ من جسدي . بل لقد أحسست ، فعلاً ، بألمٍ حادٍّ في أعماقي ، جعلني أصارع رغبةً ملحّةً في أن أقول للأطباء الماضين في إجراء العملية : «هل أنتم متأكدون من أنكم لا تسلبونني وإبني شيئاً حيوياً فعلاً ؟» .

بعد حين ، عاد الطفل إلينا ، مخلوقاً لم يعد قادراً على أي رد فعلٍ إنسانيَ باستثناء النظر إلى الشخص بعينين هادئتين سوداوين ، وشعرتُ

أنا أيضاً بأن جملةً عصبيةً كاملة قد بُترتْ مني ، مكتسباً بذلك عدمَ حساسيةٍ عميقاً ، باعتباره خاصِّية جديدة . ولم تكن الخسارة واضحة فقط لدى الطفل نفسه ولديّ ، بل لقد كانت ذات وضوحٍ مباشِرٍ ، اكثر ، لدى زوجتي .

مع توغُّل الحافلة في الغابة ، استسلمت زوجتي للصمت ، وهي تحتسي الويسكي ، بلا انقطاع ، من قارورة جيب . أعرفُ أن مسلكها سيثير نوعاً من الفضيحة بين الريفيين المحترمين ركّاب الحافلة ، لكن لم تكن لديّ رغبة في إيقافها . إلا أنها ، قبل أن تنام ، قرّرت أنّ عليها أن تكون صاحيةً كي تبدأ حياةً جديدة في قرية الوادي ، ورمت ببقية الويسكي ، القارورة ، وكل شيء ، بعيداً بين الشجر . تمنيت أن لحظة سكرها آنذاك المؤدية بها إلى النوم ، ستكون الأخيرة من نوعها . الآن ، مع أني أشعر ، إلى جانبي ، بالحقيقة الساخنة لعينيها اللتين مازالتا حمراوين من النوم ، مثبتتين على رأس الولد الفلاّح ، فقد تخليتُ عن كل أملٍ مفرط التفاؤل في أنها سوف تبدأ ، فعلاً ، حياة جديدة ، وهي صاحية . رغبتي الوحيدة هي في أن أمنع الانبعاث الحاد ، بين حين وآخر ، للحالة العاطفية الخطرة المرتبطة بورم الطفل . لكنني صرت أهجسُ ، بصورة متزايدة ، أن هذه الأمنية لن تتحقق . وأسفتُ حقاً على الويسكي الذي رَمَتْه بعيداً عنها .

المتسلِّمة سارت نحو مؤخرة الحافلة ، منبعجة البطن إلى أمام ، حفاظاً على توازنها . الفلاّحةُ أهملتها ، وأشاحت بوجهها عنها ، ناظرةً من النافذة . الطفل أيضاً لم يستجب للمتسلمة ، لكني استطيع القول بعد مراقبتي إياه باستمرار إنه يغدو متوتراً أكثر فأكثر . وبدا الأمر كما لو أنهما اختارا الجلوس في المقعد ، جنبنا ، كي يتجنبا المتسلمة .

أعلنت المتسلمة : «التذاكر» . أهملت المرأة ، الطلبَ ، حيناً ، ثم انفجرت فجأةً في خطبة جهيرة . هاجمت المتسلمةَ لأنها طلبت الأجرة المقررة لكامل المسافة من قمة التل الى الوادي ، بينما سارت هي والطفل ثلثي المسافة من أعلى ، ولو لم يشعر الطفل بوجع في معدته (هنا غمزت كتف الطفل وهو متشبث بذراع الخشب) لقطعا المسافة كلها . بيَّنت المتسلمةُ أن المسافة من القمة الى الوادي قد اعتُبرت ، مؤخراً ، الأجرة الدنيا الجديدة . وهذه سياسة جديدة من شركة الحافلات أملتها قلةُ عائدات هذا الطريق ـ قلتُ لنفسي إنها علامة اخرى على تداعي الطريق الذي يخترق الغابة . بدا ، مؤقتاً ، أن منطق المتسلمة تغلَّبَ على الفلاّحة الشابة . بغتةً ، ظهرَ على وجهها السّحاقي المحمرّ ، المتّقد استنكاراً ، ردُ فعلٍ أدهشني وأمتعني في آن . بضحكةٍ صغيرة ، أعلنت واثقة النبرة : «ليس لديّ نقود» .

الولد ، شاحبُ ومتوترُ ، بالطبع ، كعهده . المتسلِّمةُ ترددتْ لحظةً ، ومرةً اخرى ذهبت البنت الريفية التي لا حول لها ، إلى السائق لتبحث معه الأمر . وبدا لي أن أغتنم فرصة ضحكة الفلاّحة القصيرة ، كخطوةٍ أولى لتخليص زوجتي من توترها .

التفتُّ إليها وابتسمتُ ، لكني رأيت عنقها والجزء الأسفل من وجهها قد غُطِّيا بنوع من الطفح ، بالرغم من أن العينين المثبتتين على رأس الطفل التمعتا بضوء محموم . نفضتُ يدي مما اعتزمتُه . اندلع الإستياء في داخلي في سعارٍ هائج : لمَ لم أمنعها إلقاءَ قنينة الويسكي ؟ وفي يأسي ، غامرتُ ، وقرّرتُ . قلت : «لننزل من الحافلة . قد يكون تاكا في موقف الحافلات ليلقانا ، هكذا نستطيع أن نطلب من المتسلِّمة إخباره بأن يأتي ، ويأخذنا بالسيارة» .

نظرتْ زوجتي إليَ مرتابةً ، وحنتْ رأسها ببطء ، مثل غطّاسٍ يتحرك ضد ضغط الماء في أعماق الخوف . أستطيعُ أن أهجس ذهنها يترجّح بين الخوف الذي في داخلها والخوف من أن تخلِّفها الحافلة في قلب الغابة .

مدركاً أنني أردت إقناعها قبل أن يستفحل رعبُها من الغابة فيُسَمِّرها إلى مقعد الحافلة ، أعترفُ أني أنا ، لا هي ، من كان يحاول ، فزِعاً ، الهربَ من شبح الطفل ، هذا الشبح الذي استثاره رأسُ الولد الفلاّح الحليق ، وبشرتُه المريضة .

« وماذا ، لو لم تصل البرقية ، ولم يكن تاكا ورفاقه هناك ينتظروننا ؟ »

« حتى لو كان علينا أن نمشي ، فإننا سوف نهبط الى الوادي قبل هبوط الليل . كان الولد سيمشي ، أليس كذلك ؟ » .

« إذاً ، أريد أن أنزل » . قالت ذلك في جوٍّ من التحرر مختلِطٍ بتباطوٍ غامض جعلني أشعر بالراحة والشفقة ، في آن .

أشرتُ إلى المتسلِّمة التي كانت منهمكة في حديثٍ مع السائق ، ومحافِظةً في الوقت نفسه ، على نظرةٍ يقِظةٍ تراقب الفلاّحة المفلسة وولدها .

قلت : « المفروض أن أخي ينتظرنا في موقف الحافلة بالوادي . هل بإمكانك إعطاؤه حقائبنا ، وإخباره أن يأتي ليأخذنا بالسيارة ، رجاءً ؟ نحن سوف نمشي من هنا » . تحت تحديقة المتسلِّمة التي بدأت تتكون فيها غيمة كابية من الدهشة ، ادركتُ ، مذعوراً ، أنني لم أقدِّم أي عذرٍ لفعلنا ، يكون مقْنعاً للآخر .

« أنا اعاني من مرض الحركة » ، قالت زوجتي وقد شعرت سريعاً بمحنتي ، لكن المتسلِّمة لاتزال مرتابة ، أو إنها ظلت تلوك ما قلتُه في محاولةٍ للفهم .

قالت : «الحافلة لا تصل إلى الوادي . فالفيضان قد اكتسح الجسر» .

«فيضان ؟ في الشتاء ؟» .

«الجسرُ اكتُسح في الصيف» .

«وظلَّ على حاله ، مذّاك ؟»

«موقف الحافلة الجديد ، في هذا الطرف من الجسر . الحافلة تصل إلى هذا الحدّ» .

قلت : «إذاً ، سيكون أخي هناك ، ينتظر . اسمه نيدوكورو» . لكني استغربت لإهمالهم حتى الشتاء ، جسراً دُمِّرَ في الصيف .

تدخلت الفلاحة التي كانت تنصت بانتباه إلى حديثنا : «أنا أعرفه . جاء في سيّارة . إن لم يكن في موقف الحافلة ، فبمقدور ولدي أن يجري إلى هناك . إنه يعرف عائلة نيدوكورو في المستودع» .

واضحٌ أنها تظن «المستودع» الإسمَ الجغرافي للمرتفَع الذي ينتصب عليه بيتُنا . وغالباً ما وجدت الفهم المغلوط ذاته عند الأطفال الذين اعتدتُ اللعب معهم قبل عشرين عاماً . على أي حال ، شعرت بالإرتياح . إذ لو تعيَّنَ علينا أن نسير خلال الغابة حتى هبوط الظلام ، فإن التجربة سوف تَبْذر ، بدون أدنى شك ، بذورَ متاعب جديدة في ذهن زوجتي . ولو حدث ضبابٌ في الليل ، فإن الغابة ذات الظلام المطْبق سوف تُغرق زوجتي ، لا محالة ، في فزعٍ من هذا النوع أو ذاك .

عندما شرعت الحافلة تتدحرج مبتعدةً ، تاركةً إيانا على الطريق ، ظهرَ وجها الفلاّحة والمتسلِّمة ، جنباً الى جنب ، في نافذة المؤخرة ، يراقباننا أما وجه الطفل فلم يكن بادياً ، وربما كان لا يزال نعسان مستنداً الى ذراع المقعد . أومأنا إليهما ، فلوَّحت المتسلمةُ مبتهجةً ، مستجيبةً . لكنَ الفلاحة التي لاتزال تضحك مع نفسها ، وضعتْ سبّابتها في راحة يدها الثانية وأشارت

إلينا إشارة فاضحة . أحسست بوجهي يحتقن انزعاجاً وارتباكاً ، لكن زوجتي رأت في هذه الإهانة مصدر ارتياح . جانبٌ كبير من ذهنها كان مسكوناً بالحاجة إلى جَلد الذات ؛ والأمُّ الشابة المسؤولة عن الطفل ذي الرأس الحليق والبشرة المريضة ، والطفلُ الذي جلس بلا حراك مثل طفلنا ، أرضيا جزءاً معيناً من هذه الحاجة .

محتضنين جسدينا بمعطفينا ، في النسيم الرطب البارد المتضوع الذي يلهو بجوانبنا ، شققنا طريقنا خلال الأوراق المتعفنة التي تغطي الطين الأحمر لدرب الغابة . وكلما ركلت مقدمةُ الحذاء صُعُداً ، الأوراقَ المتساقطة ، تكشفت تحتها الأرض العارية ، حِرْباءَ مدهشةً ، مثل بطن سمندل الماء . اليوم ، حتى التربة الحمراء تبدو ذات تهديدٍ لم أعرفه ، بتاتاً ، في ذكريات طفولتي . إنه لأمرٌ متوقَّعٌ ، بعد أن غدوتُ مخلوقاً شكّاكاً مثل فأر ، أن تنظر إليّ الغابةُ نظرة شكٍّ ، الغابة التي هربت منها ، والتي أعود الآن راغباً في الإلتحاق بها من جديد .

كانت أمارات المراقبة جدّ قوية ، حتى أن عبور سرب طيور تصيح عالياً فوق الأشجار ، كان كافياً لجعلي أشعر بأن الأرض الحمراء ترتفع كي تمسك بساقيَّ .

«أنا مستغرب . لمَ لم يخبرنا تاكاشي ، هاتفياً ، أن الجسر قد اكتسحه الفيضان ؟ »

قالت زوجتي مدافعةً عنه : «كان لديه من الحديث ما يكفي حتى بدون هذا ، أليس كذلك ؟ ليس ما يعدو إلى الدهشة في أنه لم تخطر على باله الإشارة إلى حالة الجسر ، عندما تكون لديه مثل تلك القصة العجيبة ليرويها » .

كان تاكاشي مضى الى الوادي ، قبلنا بأسبوعين . ذهب في سيارة

الستروين مع حرّاسه ، وجعل من الذهاب إلى الوادي رحلة طويلة بالسيارة . طيلة النهار ، وخلال الليل ، كان وهوشي يتناوبان القيادة ، مسرعين ، بدون توقف ، ما عدا ساعة لنقل السيارة بالعبّارة الى شيكوكو . وصلوا قرية الوادي بعد يومين من انطلاقهم ، مكالمة هاتفية من مكان بعيدٍ ، أُجريتْ في مكتب البريد ، كانت أخبارنا الأولى عن أمرٍ معيّنٍ أثّر تأثيراً فورياً فيه . هذا الأمر متعلقٌ بزوجة مزارع في أواسط العمر ، إسمها جنّ ، تعتني بمنزلنا مقابل السماح لها بزراعة قطعة الأرض الصغيرة المتبقية لنا . كانت جاءتنا حاضنةً عندما ولد تاكاشي ، وظلت مع العائلة منذ ذلك الحين . حتى بعد زواجها ، لاتزال تسكن المنزل مع زوجها وأطفالها .

إثر إيقافهم الستروين في الفسحة المفتوحة قبل مكتب القرية بوسط الوادي ، حمل تاكاشي وأصدقاؤه حاجياتهم على أكتافهم ، وجعلوا يتسلقون الدرب الضيق المنحدر المفروش بالحصا ، نحو منزلنا ، وإذا بهم يلتقون زوج جن والأطفال ، هابطين إليهم ، لاهثي الأنفاس . صُدم تاكاشي والآخرون بهزالهم ، ولون بشرتهم غير الصحي ، وعيون الأطفال الواسعة الشبيهة بعيون الأسماك التي ذكّرتهم تعابيرها بالأطفال اللاجئين من أميركا الوسطى والجنوبية . هؤلاء الأطفال الهزيلون ، أنفسهم ، أنقضّوا على الحقائب ، وأخذوها ، ثم حملوها صاعدين التل ، بينما زوج جن الكئيب يحاول أن يشرح لهم شيئاً بصوت يشي بالغضب . لقد اعتراه الخجل لأن كل ما فهمه تاكاشي منه هو أنّه أراد أن يشرح لهم أمراً خطيراً أصاب جن ، قبل أن يلقوها . بعد ذلك ، وبتردد واضحٍ ، أخرج الزوجُ من جيبه ، مقتطَعاً مطوياً أربع طيّات ، من صحيفة محلية ، وقدّمه الى تاكاشي . هذه المادة الصحافية ذات النهايات المتغضنة ، تحمل صورة فوتوغرافية كبيرة جداً ، لا بدّ أنها أزعجت مصممَ الصحيفة ، يومَ

ظهورها . أُصيبَ تاكاشي بصدمةٍ لدى رؤيتها . النصف الأيمن من الصورة يضم أفراد أسرة جن الهزيليين ، متوترين كما في مجموعة زفاف ، مرتدين ملابس صيف خفيفة الألوان . النصف الأيسر احتلته هيأة جن المنتفخة المتورمة .

داخل ثوبٍ من القطن المطبوع ، كانت تجلس جلسة جانبية ، مستندةً الى ذراعها اليسرى ، مثل منفاخَين . الجميع ، وبينهم جن ، ينظرون إلى آلة التصوير ، حزانى ، صبورين ، كأن اذانهم مرهفةٌ لسماع صوتٍ ما .

مرضٌ غريبٌ يصيب قرويّةً

نهمٌ لا يشبع ـ « فوق طاقتي » يقول الزوج

يبدو أن هذه الدائرة تفخر بأن منها أضخم إمرأة في البلاد . « أسمنُ أمرأة » في اليابان هي السيدة جن كاناكي ، التي تسكن قرية أوكوبو . عمرها خمسة وأربعون عاماً ، أمٌّ لأربعة أطفال . متوسطة الطول ـ خمسة أقدام ـ لكن وزنها مدهش ٢٩١ باوند . قياس صدرها ٤٧ إنش ، وكذلك عجيزتها . واستدارة ذراعيها ١٦ انش . لم تكن على الدوام مفرطة السمنة . كان وزنها قبل ست سنوات ٩٥ باوند ، كانت في القسم النحيل . بدأت مأساتها ، بغتةً ، في أحد الأيام ، قبل ست سنوات ، حين شعرت بتشنجات في ذراعيها وساقيها وبفشل في تزويد الدماغ بالدم ، مع نوبة إغماء ناتجة عن ذلك . استعادت وعيها بعد بضع ساعات ، ومنذ ذلك الحين أمست فريسة لنهمٍ مَرَضيّ لا تمكن السيطرة عليه . وعرفت أنها لا تستطيع الحركة إلا إذا ظلت تطعم نفسها شيئاً . أقل تأخير في الوجبة يسبب لها ارتجافاً ، ونوبات بكاء ، وسُباتاً في النهاية .

هذه الأيام ، تتناول وجباتها كل ساعة . تبدأ صباحها بالتهام مقلاة كاملة من الخضروات المسلوقة ، والبطاطا الحلوة ، والرز المخلوط بالشعير . بعد ذلك عجينة الحنطة السوداء أو الشوربة كل ساعة حتى الظهر . ظهراً ، غداءٌ مثل فطور الصباح تقريباً ، ثم عجينة الحنطة السوداء أو الشوربة كل ساعة حتى العشاء . في العشاء مقلاة أخرى من الخضروات المسلوقة ، فجل مجفف ، ولسان الشيطان مع بطاطا حلوة ورز ـ شعير . هذه هي قائمة طعامها اليومية . بفضل هذه الشهية غير الطبيعية زاد وزنها ثلاثة أضعاف في ست سنوات ، ومازالت تسمن .

زوج جن ، هو الخاسر الأكبر . إذ أن تزويدها بالطعام الكافي لشهية معدتها ليس لعبة طفل . فالكميات الهائلة من الشوربة الفورية ، خاصةً ، هي عبء ماليّ ثقيل . جن نفسها تكسب قليلاً من الخياطة ، لكن ما تكسبه قطرة في جردل مقارنة بمتطلبات معدتها المزعجة . سلطات القرية التي شعرت بسوء وضع العائلة ، تقدم مساعدة في تكاليف الطعام ، لكن الحال تظل صعبة .

تقول جن : يصعب عليّ المضيّ في خياطتي . أقضي معظم نهاري جالسةً حسبُ . ولا أستطيع السفر بالحافلة ، ويتعيّن علينا الحصول على شاحنة كلما ذهبت الى مستشفى الصليب الأحمر . وفي الليل ، لا أنام نوماً مريحاً . أنا أحلم أحلاماً كثيرة...

تاكاشي ظل ينظر فقط . هكذا بيّنَ زوج جن أن الحصول على مالٍ أكثر ، في هذه الظروف دفعهم إلى تأجير المبنى الرئيس إلى معلم من المدرسة الإبتدائية ، لكنهم أقنعوه بالنوم في غرفة المعلم الليلية طيلة بقاء تاكاشي وأصدقائه هناك . وهو يأمل في أنهم يفهمون الأمر . إن هذا كان يزعجه أكثر من أي شيء آخر .

قال تاكاشي : «جن ذاتُها ، كانت جالسة في ركن معتم من المكان ذي الأرضية الخشب في مدخل المبنى . يبدو أن نحْسَها لم ينل منها . فقط ظلت تردد : أمرٌ معذِّبٌ أن أسمن هكذا ـ لو اردتم أن تأتوا بهدية ، فالأفضل أن تأتوا بصندوق كبير من الشوربة الفورية» .

كانت زوجتي أشارت الى الأمر عندما زارت والديها قبل مغادرتنا . وأبوها الذي يتمتع بمرونة ذهن لازمةٍ للتعاطف مع تراجيكوميديا كهذه ، أرسل اثني عشر صندوقاً من الشوربة الجاهزة ، كما اقترح تاكاشي ، كي تسلَّم إلينا من طرف شركة تتعامل مع هذه الأشياء . وقد أرسلنا هذه التجهيزات إلى «أسمن امرأة في اليابان» قبل سفرنا .

الدرب الذي كنا نسلكه ، والغابة الضاغطة عليه من الجانبين ، يمتدان بلا انتهاء ، وبرتابةٍ . ومع بؤس الإحساس بالمنظور ، الذي تسببه العينُ الوحيدة ، شعرت بأننا نعدّ الوقت في بقعة ثابتة .

قالت زوجتي : «السماء تبدو لي حمراء نوعاً ما . اهذا بسبب عينيّ ؟ ألا يجوز أن للأشياء مظهراً أحمر لأن عينيّ محمرتان ؟ أيجوز ذلك ، يا ميتسو ؟» .

صعَّدتُ نظري . الظل الذي يتعمّق فوق الأشجار الضخمة يخلق الوهم بستائر تُسحب من الجانبين ، لكنّ الحمرة المنتشرة فوق الشريط المعتم الضيق بينها لم يكن وهماً .

«إنه الغروب . كما أن عينيك لم تعودا حمراوين» .

قالت : «هذا ، من المكث المستمر في المدينة . لا يخطر على بال أحد أن هذا اللون هو لون الغروب ، حسبُ . إن السواد المظلل بالأحمر هو تماماً مثل الصور الملوّنة للمخّ في بعض المعاجم الطبية ، أليس كذلك ؟»

كانت لاتزال تدور ، بلا هدف ، حول مجموعة الصور ذاتها ، المتصلة بذاكرتنا المؤلمة : من الرأس الحليق للطفل في الحافلة ، الى رأس طفلنا ، وهكذا إلى المادة المخرَّبة في الجمجمة . كل آثار السكر اختفت من عينيها ، وتراجع الدم ، تاركاً حفرتين سوداوين معتمتين . بشرةُ وجهها كانت مغطاةً تماماً برقانق مرتّبة ، متقاربة ، مثل أوراق أرز الغابة . خطرتْ لي فكرة ، أنبأ بمجيئها طعمُ خوفٍ حامض في فمي .

ظهرت سيارة جيب ، مندفعة نحونا مثل وحشٍ مسعور ، مُزَوبِعةً الأوراق والتراب . أعاد وصولُها إحساسي بالمنظور وحرّرني من الشعور بأن الزمن متوقف .

« إنه تاكا! »

« ماذا حدث للستروين ، إذاً ؟ » ناورتُ ، متصرِّفاً ضد سرورها الصارخ المتبدي في صوتها بالرغم من أنني ميّزتُ في اندفاعة الجيب ، علامةِ تاكاشي الفارقة ، رجلَ العنف المعتمدَ على نفسه .

أصرَّتْ واثقةً : « ميتسو ، إنه تاكا » .

وسط عاصفة التراب الأحمر ، غرزت الجيب مقدمتها في كومة من العشب الذابل إلى جانب الطريق ، صادمةً شجرة بمانع الصدمات ، ثم توقفت ، واندفعت الى الوراء بالسرعة المجنونة نفسها ، وفجأة توقفت عن إشارة الاتجاهات ، لتهمد هموداً . افتكّت زوجتي نفسها بشدة ، من ذراعي التي أحطتها بها لأحميها من الجيب المندفعة ، تاركةً الذراع الممتدة تتدلى مرفوضةً . تمنيت أن عيني تاكاشي لم تلتقطا المشهد ، حين استدار من مقعد السائق ومدَّ رأسه خارج الجيب .

« هاي ناتسو! هاي ميتسو! » حيّانا بحرارة . كان يشبه رجل مطافىء ، بمعطفه المشمّع ذي القلنسوة المتدلية على الكتفين .

« شكراً لمجينك ياتاكا » ، ابتسمت له زوجتي ، مستعيدةً أخيراً ، الحياةَ التي افتقدتْها منذ استيقاظها في الحافلة .

قلت : « يبدو أن الجسر منهار » .

« صحيح . استطعنا أن نوصل الستروين إلى الوادي ، لكن كان من العسير سحبها إلى الخلف والمجيء بها إلى هنا ، فقط لملاقاتكما انتما الإثنين . لذا أقنعت حارس الغابة بإعارتي سيارته . لقد تذكرني ، ورمى معطفه المشمع داخل الجيب » . كان يتكلم بتباهٍ ساذج . « ميتسو ـ أنت اركب في الخلف . الأفضل لناتسو أن تجلس في المقدمة » .

« شكراً ، تاكا » .

قال تاكاشي : « هوشي يأخذ الحقائب . لو حملها على ظهره وقطع بها النهر فقط عند الموضع الذي كان فيه الجسر ، فبإمكاننا استعمال الستروين في الجانب الآخر » . شغَّلَ الجيب بحذرٍ مختلفٍ تماماً عن قيادته قبل لقائه معنا .

سألته : « وماذا عن جن ؟ »

« كانت صدمةً لي حين رأيتها أول مرة ، حتى الآن تبدو لي فظيعة أحياناً ، لكن وجهها يبدو أكثر فتوةً ولُطفاً بعد أن سمن . بل يمكنك القول إنها جذابة ـ بالنسبة لامرأة من الوادي تعدَّت الأربعين » . ضحك . « والواقع أنها حبلت بأصغر الأولاد عندما بدأت تسمن ، هكذا يعتبرها زوجها جذابة جنسياً ، بالرغم من أنها تزن حوالي ٣٠٠ باوند! »

« هل يَبدون معوزين ؟ »

« ليس كما تفترض من قراءة المقال الصحافي . أنا متأكد من أن المراسل الصحافي ، مثلي ، كان مخدوعاً بالوجه الكئيب المخيف ، وجه زوجها . إن أمورهم حسنة ، لأن أهل الوادي يأتونهم بكل أنواع المآكل . أنا

مستغربٌ ، لماذا يفعل الجمعُ البائسُ هذا منذ ست سنوات . ولهذا عندما رأيت الكاهن في المعبد ، والذي كان زميل س في المدرسة ، سألتُه عن الأمر . يقول الكاهن إن مَرَدَّ ذلك هو أن أهل الوادي يجدون صعوبةً في تحسين مستوى معيشتهم . وفجأة يجدون أمامهم هذا المخلوق الغريب الذي انتفخ إلى ٣٠٠ باوند . لهذا صنعوا منها مادةً للعبادة : إن جن ، في إصابتها بهذا المرض الغامض الذي لا شفاء له ، أصبحت كبش فداء يحمل وزرَ كل أهل الوادي الآخرين . هذا هو تأويل الكاهن على أي حال . عليك أن تلقاه يا ميتسو ـ فهو صاحب أرجح عقل هنا » .

أثّرتْ فيّ ، عميقاً ، خطبة تاكاشي . إن فكرة الحمل الذي يكفِّر عن خطايا الوادي كله أثارتْ لديّ ذكرى تغور إلى جذور كينونتي .

مضى تاكاشي في كلامه ، بينما كنتُ صامتاً ، غارقاً في ذكرياتي : « هل تتذكر المجنون المسمّى جي ، يا ميتسو ؟ »

« جي الناسك ، الذي اعتاد العيشَ في الغابة ؟ »

« صحيح . المجنون الذي يهبط إلى الوادي مع حلول الظلام » .

« إنني أتذكر . اسمه الحقيقي كان جيشيرو . لقد عرفته جيداً . بعض أطفال الوادي يعرفه كأسطورة ، بل أن بعضهم يرى أنه من الجان ، ينام طيلة النهار في الغابة ، ويتجول في الوادي فقط مع العتمة . لكن منزلنا يقع بين الوادي والغابة »... شرحتُ ذلك لزوجتي التي لم تستطع مقاسمتنا حديثنا « ولهذا كنا نراه أحياناً ، في الغسق ، يهبط إلى الوادي ، على طريق الحصباء . كان ينحدر على سفح التل ، بخفّة عجيبة ، مثل كلب متوحش . كنا نراقبه يمضي ، وحين يختفي تماماً عن البصر ، يكون الظلام قد خيَّمَ على الوادي .

كان دقيقاً جداً في استغلال الفسحة الضيقة بين النهار الليل . وكما اتذكره ، كان على الدوام ، منحني الرأس إلى أمام ، حزناً ، ومسرع الخُطى في الظلال » .

قال تاكاشي مهملاً ذكرياتي المتعطافة : « التقيتُ به . أنت تعرف . كنا نبحث عمّا نأكل في وقت متأخر من الليل ، فأخذنا السيارة في دورة حول الوادي . كنا نسينا التسوُّق . لكن السوبر ماركت كان مغلقاً ، والدكاكين الأخرى أيضاً ـ وهو أمر طبيعي لأن هذه الدكاكين مفلسة إلى هذا الحد أو ذاك . الشيء الوحيد الذي فعلته هو لقائي بـ « جي » .

« جي ، الناسك ، لا يزال حياً ؟ أية أخبار! لا بدّ أنه هرِمٌ . لم أكن لأظنّ أن مجنوناً كان في الغابة ، ذلك العددَ من السنين ، يمكن أن يعمِّر طويلاً هكذا » .

« إنه لا يعطي أي انطباع بالهَرَم . لم أستطع أن اتبيّنه جيداً في الظلام ، لكنه بدا في الخمسينيات ـ أوائل الخمسينيات . أذناه جدُّ صغيرتين . وليس فيه ما يشي بالجنون سوى هاتين الأذنين اللتين تفضحان كل التأثير المتراكم لسنوات من الجنون . أثارت سيّارتنا اهتمامه ، فبرز فجأةً من الظلام . وعندما حيّته مومو كو ، غلبه الجِدُّ ، وقدَّم نفسه باعتباره جي الناسك . وعندما أخبرته بأنني من أولاد نيدوكورو ، تذكَّرني ، وأفاد أنه تحدَّث معي مرةً . المشكلة أنني لا أتذكرُ شيئاً من هذا » .

« أنا من كان يعني . عندما عاد س من الجيش ، جاء جي الى المنزل ، وبقي ليتكلم مع س ومعي . أراد أن يعرف إن كانت الحرب انتهت فعلاً أم لا . تجنُّبُ أن يلقي الجيشُ عليه القبض ، كان سبب هروبه إلى الغابة ، في المقام الأول ، لقد كان الهارب الوحيد من الخدمة العسكرية ، في القرية .

س أخبره بأنْ لا حاجة الى الاستمرار في الاختفاء ، لكنه لم يستطع أن يدبِّر العودة الى الحياة في القرية . في البلدة ، ربما اعتُبر بطلاً ، لفترةٍ بعد الحرب . لكنْ من غير الممكن ، هنا ، لمجنونٍ عاش طويلاً في الغابة ، أن ينضمَّ من جديد إلى مجتمع الوادي . حتى في وقت الحرب ، بالطبع ، اعترف الجميع بأن لمجنون الحقَّ في الحياة ، ولهذا يستطيع ، بعد الحرب ، أن يحيا حياته التي اعتادَها » . حالةٌ مألوفة ، منسيّةٌ منذ أمد ، اصَّاعدتْ في داخلي ، مستنزفةً القوةَ من أطرافي .

قلت : « إذاً ، جي الناسك لا يزال حيّاً! لا بدَّ أنه مرَّ بأوقاتٍ عسيرة » .

أضاف تاكاشي : « إنه ليس شيخاً متداعياً بأي حال . إنه سوبرمان الغابة! » . ضحك .

« تركْنا جي ، درنا دورة حول الوادي ، وكنا في طريق عودتنا حين رأيناه يمرُّ ، في ضوء السيارة الأمامي ، ماضياً في سبيله ، مثل أرنبٍ حريصٍ . إنه عجيب الإنتباه . للوهلة الأولى تحسبه يحاول الهروب من الأضواء ، لكني أرى أنه كان يحاول أن يرينا مبلغ صحتهِ وأُلفتِه . إنه حقاً مجنونٌ محبوب! » .

عندما كنت طفلاً ، كان ثمت ، دائماً ، مجنونٌ ، يقيم في مكانٍ ما من الوادي . ومع أن للمكان نصيبه الكامل من المنهارين عصبياً أو بُلهاء القرية ، فلم يكن ، البتةَ ، سوى شخص واحدٍ يعترف الجميع بأنه مجنونٌ أصيلٌ . ولا يمكن أن يتواجد مجنونان شرعيّان في وقت واحدٍ ، كما لا يمكن للمجنون الواحد أن يغادر الوادي ، كأنّ لمجتمع القرية تكملةً محددة في مجنونٍ واحدٍ ، عضوٍ في المجتمع لا يُستغنى عنه ، باعتباره خارجاً على المألوف . في عدد من المناسبات ، يبدو أنني اتذكر ، تبدُّلاً في هؤلاء المجانين ، الذين يأتون ، كالملوك ، بالواحدِ ، كل مرة .

لكن ، قُبيل انتهاء الحرب ، أخذ جي دورَ الناسك الذي لاغنى عنه .

مرةً ، جاءت الشرطة العسكرية من البلدة لتحقق في الشائعات الدائرة حوله . جمعية قدماء محاربي القرية بحثت عنه في التلال ، لكني أشكّ في أن واحداً منهم كان جاداً في هذا البحث ، وفيما عدا الأشجار الساقطة والنباتات المتسلقة التي تسدّ الطريق إلى قلب الغابة ، كانوا بين حين وآخر يتوقفون عند حدود أرض غابات حكومية ممنوع دخولها . وهكذا ، وبصورة طبيعية جداً ، لم يُقبَضْ على جي ، بتاتاً .

انتظر رجال الشرطة العسكرية في سقيفة أقيمت في المساحة قبل مكتب القرية (تقع تماماً أسفل التل من بيتنا ، بحيث أستطيع مراقبة ما يحدث وأنا جالسٌ على حافة السور الحجري) ، وطيلة النهار ، كانت أم جي ، تزحف على ركبتيها ، وتبكي وتندب قبالة الستائر المخططة بالأحمر والأبيض ، ستائر السقيفة . لكنها في اليوم التالي ، بعد أن غادر رجال الشرطة العسكرية الوادي ، أصبحت فجأةً امرأة ريفيةً عاديةً ، وعادت إلى شؤونها ، والإبتسامة تعلو وجهها .

جي الناسك ، كان من تسمّيه القرية «رجلاً متعلماً» : كان في مدرسةٍ مسائية ، واشتغل مساعد معلِّم . في إحدى المرّات ، انتظره جمعُ من السكارى كانوا سُرِّحوا للتو من الجيش ، بينما كان يطوف الوادي ، ليلاً ، بحثاً عن الطعام ، وأثاروا ضجة كبرى .

بعد عدة صباحات ، وجدوا أن جي الناسك كتب قصيدة على لوحة إعلانات خارج مكتب القرية مخصصة لحملة ديمقراطية القرية . أصرَّ س على أن القصيدة من شعر كينجي ميازاوا ، والحقُّ أنني عثرت على القصيدة ، فيما بعدُ ، في أعماله :

رياضة لطيفة ، قلت لكم يا من تشاركون
في رمي الأحجار
ـ بالنسبة لي ، هو الموت .
رأيتم كيف كان فمي مزموماً حينَها ،
كم شاحبة وغريبة كانت نظرتي ؟

وبينما أنا أقرأ القصيدة بين الجمهور المبتهج أمام لوحة الإعلانات ، سألتُ س عمّن يكون الشخص ، الذي قال جي : الموت له ، ذلك الذي كان يراقب الوجه الشاحب الغريب ، لكنّ س بدلاً من الجواب ، زَمَّ شفتيه ، ومضى شاحب الوجه ، غريبَه ، ملوِّحاً بقبضته ، بعد ان طردني .

قال تاكاشي : «استفسرت من جي عمّا إذا لم تكن حياة الناسك في الغابة ، مزعجةً ، الآن ، بعد أن أخذ الإنسان يتوغّل عميقاً هناك . لكنه انكر ذلك بقوة ، وقال إن الغابة على الضد من ذلك ، كانت توسِّعُ سلطتها باستمرار ، وأصَرَّ على أن الغابة سوف تلتهم في وقتٍ غير بعيدٍ ، القريةَ القائمة في الوادي . وقال إن الغابة استقوتْ فعلاً ، في السنوات القليلة الماضية ، وبدأت تلتهم الوادي . وادَّعى أن من براهين ذلك الطريقة التي اكتسح بها النهرُ ، النابعُ من الغابة ، الجسرَ ، للمرة الأولى منذ خمسين عاماً . لو كان مجنوناً ، فأعتقدُ أن ذلك النوع من الحديث علامة على شذوذه» .

تدخلت زوجتي التي كانت صامتة طيلة الوقت : «لا أجد شذوذاً في قوله . فمنذ ركوبي في تلك الحافلة تردَّدَ لديّ شعورٌ بأن قوّة هذه الغابة في ازدياد ، وأنها شديدة الوطأة ، حتى كاد يغمى عليّ . ولو كنت جي

الناسك لتجنبت اللواذ بمثل هذا المكان المخيف ، ولفرحتُ بالإلتحاق بالجيش » .

قال تاكاشي : « قد تشعرين الشعور ذاته ، ياناتسو ، فالشخص الذي يخاف الغابة إلى هذا الحد ، هو المضادّ تماماً للنمط الذي يغدو مجنوناً ويلوذ بالغابة . لكني أرى ، من المنطلق السيكولوجي ، أن الإثنين واحدٌ ، ومن النمط نفسه » .

أعطتني كلماته مفتاحاً لما كان سيحدث لو لم يصل بالجيب ، ولو أن براعم الخوف التي كانت واضحة على وجه زوجتي المرتعب الطافح تُركتْ لتتفتح . وما أن شرعت أتخيل هربها المجنون في الغابة ، حتى قطعتُ سريعاً سلسلة الترابط . على عتبة أفكاري شيء كان أحد الفولكلوريين كتبه : « امرأة ، عارية إلا من خرقة حول حقويها ، شعرها متّقدٌ ، عيناها زرقاوان لامعتان... ثمت مفتاح بالغ الأهمية في حقيقة أن الريفيات اللائي يندفعن إلى التلال مصابات ، في الغالب ، بجنون النِّفاس » .

سألتُ مدفوعاً بغريزة الحفاظ على الذات : « أتظنهم يبيعون الويسكي في مخزن خمور القرية ، ياتاكا ؟ » .

« ميتسو تحاول كسر اعتزامي البقاء صاحياً ، يا تاكا » .

« لا . أنا لا أحاول . أنا ، نفسي ، أريد أن أشرب . بإمكانك الإنضمام إلى حارس تاكا الهمام » .

قالت : « الأمر الوحيد الذي يقلقني ، هذه اللحظة ، هو هل بمقدوري النوم بدون شرب . الأمر ليس أني كنت أشرب مؤخراً لغرض واحدٍ ، حسبُ ، هو أن أسكر . ماذا عن هوشي ـ ألم تظهر عليه علامات الأرق بعد أن امتنع عن الشرب ؟ » .

قال تاكاشي : «تعرفين ، أنه ليس مؤكداً كونه شِرِّيباً . كل حديثه هذا قد يعني أنه لم يذق قطرة واحدة في حياته . إنه في السنِّ التي يتباهى فيها المرء بماضٍ مجيدٍ حتى لو لم يكن لديه ما يسند هذه المباهاة . دعي عنك مقدار الأكاذيب . وعليك أن تسمعيه يحاضر موموكو عن الجنس ـ سوف تضحكين . إنه من النمط الذي يريد الحديث بكلمات كبيرة ، مثل خبير ، مع أنه يفتقد تماماً الخبرة الجنسية» .

وضحكَ .

«حسناً ، إذاً . عليَّ أن أمارس صحوي ، وحدي ، وبلا مساعدة» ، قالت زوجتي ذلك باستياء واضح . وكان في ملحوظتها رنينٌ مثيرٌ للإشفاق ، فلم أعترضْ عليها .

السماء ، المضغوطة بين الأشجار الضخمة التي اعتادت أغصانها العليا أن تميل مع اتجاه الريح ، هذه السماء شرعت تكتسب لوناً احمر مسوَداً ذكّرني باللحم المحروق . قُزَعُ ضباب تتحرك مُسِفَّةً على الدرب . بخارٌ عفنٌ صاعدٌ من أعماق النباتات الخفيضة التي تحاصر الدرب ، يزحف بطيئاً على مستوى عجلات الجيب . وعلينا أن نغادر الغابة قبل أن يرتفع إلى مستوى العيون . أسرع تاكاشي بحذر . بعد حين خلّفت الجيب الأشجار ، وبرزت ، فجأةً ، في حقل للرؤية متَّسع ، على هضبة صغيرة . أوقفنا السيارة ، ونظرنا إلى الغور الذي يشبه المغزل ، محاطاً بغابة كثيفة تمتد على مرأى العين في ظلٍ بُنيٍّ عميق تحت السماء الحمراء المعتمة . الدرب الذي سلكناه في الجيب ، ينعطف يميناً عند الهضبة ، ثم ينحدر في خط مستقيم يتبع انحدار الغابة إلى عنق الوادي ، هنا يواجه المفترقَ بين طريق الحصباء ، الذي يقطع الجسر ويغطس في الوادي ، وبين طريق الاسفلت الذي يتبع النهر الصاعد من الغور وهو يستدير على أسفل

الهضبة ، ويمضي هابطاً إلى الساحل . من موقعنا المسيطِر ، بدا طريق الوادي يصعد الغور ، فقط ليختفي فجأةً ، مثل نهر يتلاشى في الرمل ، على الطرف القصيّ حيث بدأت الغابة . من الهضبة تبدو كمشةُ المساكن البشرية والحقول ومَناقع الرزّ المحيطة ، صغيرةً حدَّ ضمِّها في كفٍّ واحدة ، هكذا كانت قوة الغابة الكثيفة العميقة قادرةً على تشويه إدراك الحجم . إن غورنا ، كما أشار الناسك المجنون ليس سوى حضور واهنٍ ، متخندقٍ ، إزاء القوة الكاسحة للغابة .

الواقع ، أنّ الأكثر طبيعيةً ، أن ترى الغور الشبيه بالمغزل ، ليس كحضورٍ بحد ذاته ، وإنما كغيابٍ للأشجار المكتظة . وعندما يألف المرء فكرة أن الغابة المحيطة هي الحقيقة الوحيدة التي لا تضاهى ، فإنه ليكاد يرى غطاءً واسعاً من النسيان يطبق على التجويف .

كان الضباب يصَّاعد من النهر في قاع الوادي ، مغطياً وسط الغور ، والقرية التي تثوي الآن في أعماقه . بيتنا العائلي ينهض على تل صغير ، لكنّ كل ما حوله كان مشوشاً غامضاً ، ولا تكاد العين ترى سوى بياض السور الطويل . أردت أن أشير الى موقع بيتنا ، لزوجتي ، لكن الوجع في عيني منعني من التحديق طويلاً في نقطة واحدة .

قالت زوجتي في نبرة خفيضة مُواسية : «أعتقُد أنني سوف أرى لو استطعت أن أضع يدي على قنينة ويسكي» .

نظر تاكا إلينا ، باهتمام عميق .

قلت لها : «لمَ لا تجربين قليلاً من الماء ، بدلاً ؟ ثمت نبعُ يقول عنه أهل الوادي إنه يقدم أفضل ماء في الغابة كلها . هذا إذا لم يكن النبع نشِفَ» .

النبع لم ينشف . في أسفل المنحدر ، على جانب الغابة من الطريق ، مسيلُ ماءٍ غيرُ متوقَّعٍ ، يشكل برْكةً بقدر دائرة ذراعين . الماء ، الأكثر غزارةً من أن ينبع من هذه البدايات الضئيلة ـ كوَّنَ قناةً تنحدر لتصبَّ في الوادي . الى جانب البرْكة عدد من المواقد ، بعضها قديم ، والآخر جديد ، الطينُ والحجرُ مسودّان ، والداخلُ فظيع . في طفولتي ، بنينا ، أصدقائي وأنا ، مثل هذه المواقد عند النبع ، وطبخنا رزّاً وحساءً هناك . وفي طقس ، يجري مرتين في العام ، يختار كلٌ منا ، الجماعة التي سيخيِّم معها ، مقرِّراً بهذا تقسيم القوى بين أطفال الوادي . يستغرق الخروج يومين فقط كل ربيع وخريف ، لكنّ تأثير الجماعات التي شكّلها الأطفال يظل قائماً طيلة العام . ولا شيء أكثر إذلالاً من أن يُطرد الشخص من الجماعة التي انضمَّ إليها .

عندما انحنيتُ على النبع لأشرب مباشرةً ، أحسستُ إحساساً مفاجئاً بالوثوق : الوثوق من أن كل شيء ـ من الحصا المستدير الصغير ، أزرقَ كابياً ، وقرمزياً ، وأبيض ، مستقراً في قاع الماء الذي يبدو أن بريقه لايزال يؤوي نور الظهيرة ، الرمل الناعم المندفع إلى أعلى ، مُغيماً الماء بصورة خفيفة دوماً ، والرجفة الهيّنة التي تجري على سطح الماء ـ كان مثل ما رأيته ، بالضبط ، قبل عشرين عاماً ؛ وثوق آتٍ من الحنين ، لكنه مقنعٌ بالنسبة لي ، في الأقل ، من أن الماء الذي ينبع ويرتفع الآن ، هو الماء ذاتُه الذي نبع وارتفع وجرى في تلك الأيام . هذا الوثوق نفسه ، تطوَّر مباشرةً إلى شعورٍ بأنّ « الأنا » المنحنية الآن هناك هي ليست الطفل الذي حنى ، يوماً ، ركبتيه العاريتين ثمت ، وبأن لا استمرارية ، ولا صلة بين أنا ، وأنا ، الإثنتين ، وأن أنا التي تنحني الآن هناك هي غريبةٌ بعيدة . أنا ، الراهنة ، فقدتْ هويتها الحقيقية . ولا شيء ، في داخلي ، أو في خارجي ، يقدم أي أمل بالتعافي .

أكاد أسمع الفقاعات الشفافة ترنّ على البركة ، متهمة إياي بأني لستُ أفضل من فأر . أغمض عينيّ ، وأمتصُّ الماء البارد . تنكمش لثتي ، تاركةً مذاق دمٍ على لساني .

حين نهضتُ ، ركعت زوجتي في تقليدٍ مطيع كأني موضع ثقةٍ في كيفية شرب الماء من النبع . والواقع أني كنت ، مثلها ، غريباً عن النبع ، هي التي جاءت للتو ، وللمرة الأولى ، خلال الغابة . ارتجفتُ . البردُ القارس تغلغل في وعيي ثانيةً . وقفت زوجتي ، مرتجفةً أيضاً ، وحاولت الإبتسام كي تظهر أن الماء كان ذا طعم جيد ، لكن أسنانها ، وقد انكمشت شفتاها القرمزيتان ، بدت مكشِّرة غاضبة . كتفاً لكتف ، صامتينِ ، ومرتعشينِ برداً ، عدنا إلى الجيب . حوّلَ تاكاشي نظره عنا ، كأنه رأى شيئاً أكثر إثارةً للشفقة من أن يراه .

هبطنا إلى الوادي ، خلال ضباب يكثُفُ ويعمُق . وبينما الجيب تنحدر بحذر كانت الأصوات الوحيدة حولنا ، هي للعجلات إذ ترسل أحجاراً صغيرة في الريح ، والهسيس الخفيف للأوراق المُساقطة في الأجمات المفتوحة ـ الجوز الطويل ، والزان مع نثير من الصنوبر الأحمر ـ التي تفرش الأرض المنحدرة ، بشدّة ، من الدرب ، إلى الطريق المعبَّد في الوادي . الأوراق تدفعها قوةٌ أفقياً ، حتى أن الأوراق المتناثرة من الأغصان العليا لا تتساقط بل تنجرف ببطءٍ إلى جانب ، مرسلةً حفيفها وهي تمضي .

تساءل تاكاشي في منتهى الجد : «هل بمقدورك أن تصفري ، ياناتسو ؟»

أجابت قلقةً : «نعم . لماذا ؟»

«لو صفرتِ هنا ، بعد هبوط الظلام ، فإن أهل الوادي سيمسون

مجانين ، مجانين فعلاً . ألا تتذكر ، يا ميتسو ، ذلك التابو القديم في الوادي ؟ » سألني في نبرة خفيضة لا تتناسب مع حالتي الراهنة .

« بلى . اتذكر . هم يؤمنون بأنك لو صفرت في الظلام فلسوف يأتي مخلوق خرافيّ من الغابة . اعتادت جدّتنا أن تقول إن الشوزوكابي سوف يأتي » .

« أقالت ذلك ؟ الآن وأنا في الوادي ، أدركُ أنني لا أتذكر الكثير . وحتى عندما أتذكر شيئاً لا يبدو ما أتذكره دقيقاً . في أميركا ، كثيراً ما سمعت تعبير « المقتلَع » ، لكني الآن وقد عدت الى الوادي في محاولة للتأكد من جذوري ، أجِدُ أن هذه الجذور كلها قد اقتُلعتْ . وبدأت أشعر أنني مقتلَعٌ . ولهذا يتعيَّنُ عليَّ أن اغرس جذوراً جديدة هنا ، ولتحقيق ذلك ينبغي القيام بعملٍ ما ضروريّ . ما هذا العمل ؟ لست أدري . فقط لديّ تنبّؤٌ متزايدٌ بأن العمل سيكون ضرورياً...

على أي حال ، إن العودة إلى مسقط رأسك لا تعني أنك واجدٌ جذورك هناك ، متاحة ، دفينة ، في المكان الصحيح . قد تظنني عاطفياً يا ميتسو ، لكن كوخ الأغصان ، كوخ الأزمان السالفة ، قد ولّى » . تحدَّث في جوٍ من الإعياء الشديد الذي لا يناسب سنّه . « أنا لا أتذكر جن بوضوحٍ . حتي لو لم تسمن فإني متأكد من أنني لم أكن استطيع التعرف عليها باعتبارها جن التي عرفتُ . وعندما بدأت تبكي لأنها توسَّمتْ فيّ علامات الطفل الذي ربّتْهُ ، كنت خائفاً بالفعل من أن تلفّ هذه المرأة الغريبة ذراعيها الهائلتين حولي وتحتضنني . تمنيتُ فقط ألاّ يتبدّى هذا الخوف الصغير لجن نفسها » .

في الأسفل ، في الوادي ، حلَّ الظلام . ومن الجهة الأخرى للجسر

المؤقت المتعرج فوق السنادات الكونكريتية ، كان الفتيان يشيرون إلينا بتزميرٍ بهيجٍ من بوق الستروين ، لكن السيارة لم تكن مرئية بسبب الظلام . تاكاشي الذي كان في كوخ حارس الغابة ليعيد الجيب ومعطف المشمّع ، كان يلبس ملابس صيد ارتداها من قبل ، في عودته من أميركا ، لكنها تبدو ضيقة ومغضّنة ، كأنها انكمشت فجأةً . حاولتُ عبثاً أن اتصوَّر تاكاشي نفسه يؤدي دور الناشط الطلابي التائب أمام جمهورٍ أميركيّ... لكني فكّرتُ بأن الغابة السوداء التي تُرى من أسفل في الوادي كانت أكثر جبروتاً من أي جمهور ، وأنني أنا ، لا أخي ، من سيواجه زعيقها ، حين تنادي : «لستَ سوى فأر!» .

متوتراً كنت وأنا أساعد زوجتي في عبور الجسر المؤقت الخطر ، وأحسست أن براعم السرور بعودتي الى الوادي ، تنكمش ، وتذبل في داخلي . الهواء الذي يهبّ مباشرة من المياه القاتمة تحتنا يطعن عيوننا بأشواكه الثلجية ، مهدِّداً حتى عيني الوحيدة بالعمى . ومن الخلف ، ومن أسفل ، تأتينا الوقوقةُ المفاجئةُ لطيرٍ مجهول .

قال تاكاشي : «دجاج . جمعية شباب القرية لديها مزرعة دجاج حيث كانت المستوطَنة الكورية» .

على مبعدة حوالي مائة ياردة من الجسر ، وتحت الطريق المبلط الذاهب الى البحر ، تقع مجموعة مساكن كانت تؤوي كوريين يؤدون أعمال سُخرةٍ ، حطّابين في الغابة .

كنا وصلنا الى منتصف الجسر تماماً ، وبلغت قوقأة الدجاج آذاننا بدون عائق .

«هل يقوقىء الدجاج ليلاً ، في العادة ؟»

«الـنـاس يـقـولـون إن الـدجـاج يـكـاد يـمـوت جـوعـاً . عدة آلاف مـن الدجاج . واضحٌ أن الدجاج يشكو الجوع» .

كانت زوجتي ترتعش باستمرار في ذراعي التي تطوِّقها .

قال تاكاشي باحتقار فاضح : «شباب الوادي لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ذا قيمة بدون قائد . إنهم كسيرون ، حتى يأتي واحدٌ مثل الأخ الأصغر لجدنا الأكبر . إنهم عاجزون عن إخراج أنفسهم من ورطتها بجهودهم الذاتية . عندما عدت الى الوادي ، يا ميتسو ، كان هذا أول شيء عرفته عن الغرباء الذين كانوا يعيشون هنا طيلة الوقت» .

أحلامٌ داخل أحلام

صباح يومنا الأول في الوادي ، تناولنا الفطور حول المدفأة المفتوحة في الغرفة ذات الأرضية الخشب التي تلي المطبخ الواسع ذا الأرضية التراب ، مطبخ المبنى الرئيس ، حيث يوجد موقد وبئرٌ مغطّاة جيداً بألواح ثقيلة . أولاد جِن الأربعة ، كانوا دخلوا ، بدون أن يراهم أحد ، أول الأمر ، المطبخ ، لانذين بزواياه المظلمة ، واقفين وهم ينظرون إلينا بعيون ذات اتساع غير طبيعي ، في مثلثات وجوههم الهزيلة . وعندما دعتهم زوجتي ليأكلوا معنا ، أطلقوا آهةً متناغمة تطوَّرت ، في ما بعد ، إلى رفض صريح . آنذاك فقط أعلن أكبرهم أن جن تريد أن تتحدث معي .

كنت التقيتُ جن ، البارحة . ومثل ما قال تاكاشي ، كانت ضخمة ، إلا أنها في لحظات معينة لا تبدو قبيحة إطلاقاً . عيناها الحزينتان ، غائمتا الحدود ، والمغرقتان بدمع أبيض ، كانتا مثل حدقات عيون السمك في وجهها الذي يشبه قمراً مسطحاً ضخماً . بريقُ عينيها هو الأثر الوحيد المتبقي من جن التي عرفتُها يوماً . جن تطلقُ رائحة حيوانية ، هكذا أُغمي على زوجتي قبل مرور وقت طويل ، وانهارت ، فاضطررنا الى اللواذ بالمبنى الرئيس . هوشيو ومomوكو اللذان أرادا الاستمتاع برؤية جن ،

بقيا . كان وجهاهما محمرَّين ، وقد أمسكا بأنفيهما ، وشرع أحدهما يغمز جنب الآخر ليتجنبا الإنفجار ضحكاً ، وعيونهما تتفرج مستطلعة على كل جزء من جسم جِن بطريقة أدّت إلى إغضاب أولادها وإثارة عدائهم . ربما كان حضور هذين المراهقين ، قليلَي الأدب ، المتهامَسينِ وحدهما ، هو السبب في رفض الأطفال الأربعة الهزيلين دعوة زوجتي هذا الصباح . عندما انتهت الوجبة ، أخذ تاكاشي زوجتي ، والمراهقين ، ليروا داخل المستودع ، بينما ذهبت ، مع الأطفال ، الى المبنى الخارجي حيث تعيش جن وعائلتها .

«مرحباً ، جن ، هل تنامين جيداً ؟» .

حيّيتُها ، وهي جالسة في المدخل . وجهها الضخم المستدير يتطلّع إليّ من الظلمة ، تماماً ، كما فعلَ ، البارحة .

محاطة من كل جهة ، بقدور ومقلايات قذرة ، مثل صانع فخّارٍ حوله ما صنع ، كانت جن متمددة على ظهرها ، ناظرةً في وضع غير مريح إلى أعلى ، مستندة الذقن على طبقة شحم في رقبتها . ظلت صامتة بصورةٍ لافتةٍ . في ضوء الصباح الذي يعبر كتفي ويسقط في حِجرها الواسع ، أستطيعُ القول إنها كانت جالسةً جانبياً على كرسي بلا قوائم من صنعٍ بيتيّ ، مثل سرجٍ مقلوب . مساء أمس ، حين حسبتُ الكرسيّ جزءاً من جسم جن السمين ، بدتْ لي مثل هاونٍ حجريّ مخروطيّ . زوجها الراكع الى جانب الكرسي كمن يريد النهوض على قدميه ، ظل ماثلاً هناك ، ساكناً ، ساكتاً . البارحة أيضاً انتظرَ في انتباهٍ صامتٍ ، وجهه المتعب متأمِّلٌ ، وهو مستعدٌ للوثوب بخفّة غير ضرورية وإطعام جِن مغارف مسودّة من عجينة الحنطة السوداء ، كلما صدرت منها أهون إشارة الى حاجتها للطعام .

ربما كانت شهية جِن ، لا تمنحها قسطاً من الراحة ، حتى في

الدقائق الخمس التي قضيناها معها ، لكن الأمر بدا لي مثل عرضٍ يقدِّم لصالحنا ، باعتباره شاهداً عملياً على الورطة التعيسة التي وجدت نفسها فيها .

بعد حين ، زفرت جِن ، بمشقّةٍ ، كمية هواء ضخمة ، من رئتيها ، وقالت ، ناظرةً إليّ باستنكار : «لا ، أنا لم أنم جيداً! ليس سوى أحلام معذِّبة ، أحلامٍ بأنني تُركتُ بدون بيت!» . أدركتُ رأساً ، سبب رغبة جن في رؤيتي ، وسبب ركوع زوجها إلى جانبها ونظرته إليّ نظرة حزينة .

قلت : «المستودع فقط سوف نفككه وننقله إلى طوكيو . وليس من داعٍ لهدم البيت الرئيس والمبنى الخارجي» .

اصرَّت جن : «ستبيعون الأرض ، أليس كذلك ؟» .

«سوف اترك الأرض ، والبيت الرئيس ، والمبنى الخارجي ، كما هي ، حتى تُحَلّ مسألة المكان الذي ستسكنينه» .

لم تُبدِ جِن ، ولا زوجُها ، أي علامة ارتياح ، لكن الأطفال الأربعة ، الذين جاؤوا ووقفوا خلف والديهم ، وظلوا يراقبونني ، أخبروني بابتسامتهم المتناغمة أن مخاوف عائلة جِن قد ابتعدتْ هذا الوقتَ ، في الأقل . شعرتُ بالإمتنان .

«ماذا ستفعل بقبر العائلة ، ميتسوسابورو ؟» .

«أظن أننا سنتركه على حاله» .

قالت جن : «أعتقدُ أنك عارفٌ بأن رماد س هو في المعبد ؟» .

غير أن هذا الحديث الطويل أرهقها منذ الآن ، وتجمعت ظلال سود تثير الإشمئزاز ، لا محالة ، حول عينيها ، وصار صوتها يقعقع كأنّ عدداً لا يحصى من التجاويف الهوائية تشكَّلَ في حلقها . لا شك في أن جن ، في

أوقاتٍ كهذه ، كانت شنيعة الى حدٍ يتجاوز القبحَ البشري الإعتيادي ، أشحتُ ببصري عنها ، مفكراً في شعورٍ بالرعب ، أن جن ستموت بسبب نوبة قلبية . كانت ، بالفعل ، أخبرتْ تاكاشي عن تنبؤها بالموت ، وعن قلقها حول جسدها الضخم... هل سيدخل فرنَ المحرقة ؟

كان تاكاشي قال : «جن أكثر بدانةً من أن تقوم بأي عمل ، لكنها لاتزال مرغمةً على أكل كميات هائلة ، يومياً ، وعلى السمنة أكثر فأكثر . تشعرُ بأنَ حياتها ليست ذات معنى .

إنه لنوعٌ من الكشف ، أن تسمع امرأة هائلة البدانة في الخامسة والأربعين ، تقول إن أيامها المتصرِّمة في الأكل فقط ، هي أيامٌ بلا معنى .

إن هذا ليس مزاجاً عابراً لديها ـ بل هي مقتنعة تماماً ، ومن كل وجهة نظر ، أن وجودها عديم الفائدة . ومع هذا ، عليها أن تظل تأكل تلك الجبال الغبية من الطعام ، من الصباح حتى المساء . هنا ، شخص ذو أسس حقيقية للتشاؤم » .

وعدتُ جن وأنا أخرج من المطبخ : «سوف آخذ رماد س من المعبد . اليوم أذهبُ وأسأل عنه ـ أريد أن أرى صورة الجحيم التي يحتفظون بها في المعبد ، بينما أنا هناك» .

غمغمت في مغادرتي ، بصوت مبحوح : «لو كان س حياً ، لما باع المستودع بتاتاً ، لكن ، ماذا تتوقع إن كان ميتسوسابورو رئيس العائلة ؟» .

أهملتُها ، ومضيتُ ابحث عن الآخرين في المستودع القائم خلف الحوش المطوَّق بالبيت الرئيس والمبنى الخارجي . كانت الأبواب مفتوحة ـ ليست الأبواب الخارجية ذات الجص المقاوم للنار ، وإنما الأبواب

الداخلية من اللوح ومشبَّك الأسلاك . الغرفتان التحتيتان مفعمتان بضوء ما بعد الظهر الذي يضع خشب الزيلكوفا وبياض الجدران في تقابُلٍ حادٍّ . خطوتُ الى الداخل ، وتفحَّصتُ ضربات السيوف الكثيرة التي جرَّحت الخشب . إنها لاتزال تبعث الرسالة الشديدة ذاتها التي هدّدتني في طفولتي . رسمُ المروحة المعلَّق في رازونة الغرفة التالية ، ذو ألف باء رومانية ، خشنة الكتابة بالحبر الصيني ، ولا تكاد تبين الآن على الورق الذي أمسى بُنّياً مع الزمن .

قبل عشرين سنة ، حين علّمني س ، للمرة الأولى ، كيفية قراءتها ، كان توقيع «جون مانج» في أسفل زاوية اليد اليمنى ، أما الآن فلا أكاد أتبيَّنُ هذا التوقيع . جدنا الأكبر كان التقى الشريدَ في عودته من أميركا ، حين انسلَّ خارج الغابة ومضى في سبيله الى ناكانوهاما في كوشي . الكتابة ، كما روى س ، كلّفَ جدُّنا الأكبرُ ، ما نجيرو ، كتابتَها له ، في تلك المناسبة .

صوتٌ ضعيفٌ ، مثل شخصٍ يوقِّعُ الوقت ، صدرَ من أعلى . أخذت أصعد السلَّم الضيق ، فارتطم رأسي ، مباشرةً ، بالنهاية الحادّة لعارضةٍ ناتئة . تأوّهتُ ألماً ، وتطايرت ذرّاتٌ حمرٌ ساخنةٌ داخل العتمة المكوَّرة لعيني المطموسة مثل مسارب أجزاءِ انشطارٍ في غرفة غيم . لقد استعدتُ ، أيضاً ، الإحساس بالتابو ، الذي ظلَّ يبعدني ، دوماً ، عن المستودع . توقّفتُ ، مصعوقاً ، لحظةً ، ثم مسحتُ خدِّي بيدي ، فرأيت عليها دماً ودموعاً . كنت أضغطُ منديلاً على رأسي حين أطلَّ عليَّ وجه تاكاشي من الطابق الثاني .

قال مداعباً : «حين تكون زوجتك وحيدة مع رجل آخر ، فهل تحذِّرهما دائماً ، بالضرب على الحائط ، والإنتظار ، يا ميتسو ؟» .

« ستكون الزوج المثالي بالنسبة للزُّناة! » .

« إذاً ، حرّاسُك ليسوا معك ؟ » .

« إنهم يفحصون السترويين . إن مراهقي الستينيات ليسوا بالضبط مهتمين ببناء السقف في المباني الخشب التقليدية . أخبرتهم بأن هذا هو المستودع الوحيد من نوعه في منطقة الغابة بأسرها ، لكنّ قولي لم يغيِّر من قلة اهتمامهم » . لقد كشفت ملحوظتُه التباهي الساذج لديه ، وهو يبيِّن ، المعمارَ ، لزوجة أخيه التي كانت واقفةً في الخلف . صعدتُ ، ووجدت زوجتي تُصَعِّدُ بصرَها إلى العوارض الضخمة لخشب الزيلكوفا التي تُسند مجموع السقف ـ كانت جدَّ مستغرقة ، فلم ترَ الدم الذي كان يسيل من صدغي . وقد امتننتُ لهذا ، باعتبار أنني فريسةٌ ، دوماً ، لشعورٍ بالخجل ، كلما صدمتُ رأسي بشيء . بعد حين ، أطلقت آهة إعجاب ، واستدارت .

«أي ألواحٍ عظيمةٍ مدهشة! كأنّ بمقدورها الصمود مائة عام أخرى! » .

لحظتُ أن وجهيهما كليهما محتقنان ، مما جعلني أشعر أن صدى هيّناً لكلمة «الزاني» التي استعملها تاكاشي كان لايزال يتردد في مكان ما من عوارض المستودع .

لكني قلت لنفسي إن الشعور ، هو بدون أساس . كانت زوجتي جدَّ واعيةٍ بما حدث للطفل ، بحيث صارت ، مُذّاك ، تقمع أي إيماءة الى الجنس ، رأساً . بالنسبة لنا ، كلينا ، صار الحديث عن الأمور الجنسية يعني أننا نفرض على أنفسنا إحساساً مشتركاً بالإشمئزاز والتعاسة ، لسنا مستعدينِ لمواجهته . لذا يتم التخلص ، رأساً ، من أي مسعى في هذا الشأن .

قالت : «مع ما تقدمه الغابة بلا حدٍ ، من خشب الزيلكوفا ، يمكن بناء مستودع ، بالمجّان تقريباً» .

«لا تصدّقي ذلك» ، قلت هذا بصورة عابرةٍ جداً ، غير راغبٍ في أن تعرف كم أعاني من إخفاء الوجع الذي سبَّبه الجرحُ في رأسي . «يبدو أن هذا النوع من البناء ضغطَ بتكاليفه على جدنا الأكبر . والحقيقة أن بالإمكان القول إن هذا البناء غير اعتيادي . حتى لو توافرَ الكثير من الخشب ، فعلينا أنْ نتذكر أنه بُنيَ وقتَ كانت موارد القرية منهكةً تماماً . وأنا متأكد تماماً أن كل شخص رأى البناء جدَّ متميز . ولقد حدثت انتفاضة فلاحين في شتاء العام نفسه الذي بُنيَ فيه» .

«أمرٌ غريبٌ حقاً» .

«أتصوَّرُ أن جدي الأكبر ، بسبب توقُّعه انتفاضةً ، شعر بضرورة أن يشيد مبنىً مقاوماً الحريق» .

قال تاكاشي : «جدنا الأكبر ، يُسْقمني . كان محافظاً جداً ، معتنياً جداً ، بعيد النظر جداً . وأنا متأكدٌ من أن أخاه الأصغر كان يشعر بما أشعرُ أنا به ، إزاءه . وإلا لما وقف ضد أخيه ، وأصبح قائد الفلاحين . كان واحداً من الذين قاوموا ، وكانت عينه على اتجاهات الزمن» .

«ألا تعتقد أن جدّنا الأكبر كانت عينه هو أيضاً على اتجاهات الزمن ، تماماً مثل أخيه ؟ قطعَ الطريق كله الى كوشي ، فقط ليلتقط آخر معارف الغرب ، أليس كذلك ؟» .

«أكيدٌ ، أن الأخ هو من ذهب الى كوشي ؟» اعترضَ تاكاشي . هذا ما أراد أن يؤمن به ، ولهذا السبب أهملَ حقيقة أن ذلك خطأً . قلت وأنا أستمتع ، خبيثاً ، بتخريب ذاكرته المغلوطة : «لا . جدنا الأكبر هو من ذهب أولاً إلى كوشي ، لا أخوه . الأمر هو أن بعض الناس يذكر أن

أخاه ، هرب ، بعد الإنتفاضة ، الى كوشي ، ولم يعد البتةَ . لو صَحَّ أن أحد الأخوين ترك الغابة ، ولقي جون مانجيرو ، وعاد بالمعرفة الجديدة ، فبالإمكان ، حينئذٍ ، البرهنة على أنه كان جدنا الأكبر . جون مانجيرو كان في كوشي لسنة واحدةٍ فقط ، بعد عودته إلى اليابان ، من ١٨٥٢ إلى ١٨٥٣ . وقت اضطرابات ١٨٦٠ كان عمر شقيق جدنا الأكبر ثماني عشرة سنة أو تسع عشرة ، وهكذا ، لو أنه ذهب الى كوشي في ١٨٥٢ أو ١٨٥٣ ، فهذا يعني أنه ترك الغابة ، وهو في حوالي العاشرة من عمره . وهذا ليس ممكناً » .

قال تاكاشي مصراً ، بالرغم من اهتزازه : «لكن الأخ الأصغر هو الذي نظّفَ مساحة ، عميقاً في الغابة ، ودرّبَ عُصبةً من أبناء المزارعين المتحمسين ، من أجل الإنتفاضة . ولا بد أن طرائق التدريب اعتمدت على المعارف الغربية التي جاء بها من كوشي . من غير المعقول أن جدنا الأكبر الذي انضم الى من قمعوا التمرد ، كان سيعلِّم أخاه التكتيكات الضرورية للأنصار ؟ أم أنك تظن الطرفين المتضادَّين تآمرا لبدء الإضطرابات ؟ » .

« ربما » قلت هذا متظاهراً بالبرود ، بالرغم من أنني أكاد أسمع صوتي يحتدُّ انزعاجاً . منذ كنا صغاراً ، تعيَّن عليَّ أن أحاربَ ميل أخي إلى إضفاء مشاهد المقاومة البطولية على شقيق جدنا الأكبر .

صاحت زوجتي وعيناها على صدغي : «ما هذا ، يا ميتسو ؟ إنك تدمى . كيف تستطيع أن تستغرق في هذه الأساطير القديمة ، بينما أنت تعاني الأذى والنزف ؟ » .

«ثمت شيء يمكن أن نتعمله حتى من الأساطير » . قال تاكاشي هذا ، منزعجاً . وكان هذا أول مزاجٍ سيء يواجهها به .

أخذت المنديل الذي مازلت أمسكه بيدي المتدلية إلى جانبي ، ومسحت صدغي ، وبعد أن بللت إصبعها باللعاب مرّرته على الجرح ، تطلّع أخي إلينا كأنه يراقب التقاءً غامضاً للجسد . ثم هبطنا نحن الثلاثة ، السلّمَ ، صامتين ، محتفظين بمسافةٍ تفصل كلاً منا عن الآخر ، كأننا نتحاشى الاتصال الجسدي .

لم يكن المستودع مترباً ، لكنني بعد أن أمضيتُ في داخله وقتاً ، جفّ نخراي وأُغلقا ، كأن طبقة رقيقة من التراب معلّقةٌ داخلهما .

في الأصيل ذهبنا ، تاكاشي ، وزوجتي ، وأنا ، مع المراهقَينِ ، الى المعبد ، لنستعيد رماد س . كان أولاد جن سبقونا راكضين الى هناك كي يُعْلموهم بوصولنا ، فيُخرجوا صور الجحيم التي كان جدنا الأكبر أهداها إلى المعبد ، ويعرضوها تماماً مثل ما يفعلون في عيد ميلاد بوذا . حين بلغنا الستروين المتوقفة في المساحة المفتوحة قبالة مكتب القرية ، جعل الأطفال المحليون يتسلّون بالسخرية من السيارة وعمرها ، ومن شريط اللاصق العريض على أذني اليمنى . نحن ، جميعاً ، أهملناهم ، باستثناء زوجتي ذات المزاج الرائق المناسب لفترة «النقاهة» ـ لم تشرب شيئاً منذ البارحة ـ التي بدت مستمتعةً بهذا كله ، حتى بالشتائم التي أطلقها الأطفال على الستروين حين انطلقتْ .

عندما وصلنا إلى أرض المعبد ، كان الكاهن وهو زميل س في المدرسة ، واقفاً في الحديقة يتحدث مع شابّ . لحظتُ أن مظهره لم يختلف عمّا اتذكره . رأس حليق ، لامع مع شعر مبيضٍّ قبل الأوان ، يتوِّج وجهاً طيّباً ، باسماً ، ناعماً ومعقّماً مثل بيضة . كان تزوج معلمة من المدرسة الإبتدائية ، لكنها هربت الى البلدة مع زميل سابق ، ليس قبل أن تثير فضيحة مكشوفة عرف بها أهل الوادي جميعاً . استطاع أن يحافظ على ابتسامةٍ مثل

طفلٍ عليلٍ طيلة الفترة كلها ، وهي حقيقة يتأثر بها كل شخص يعرف الوطأة القاسية لمحنةٍ كهذه على امرىء يعيش في جماعةٍ وادٍ . والحقُّ أنه تحمّلَ الأزمة بدون أن يفقد ابتسامته اللطيفة ، ولو مرّةً .

الملامح الشنيعة للشابّ المتحدث معه ، كانت على تضادٍّ تام مع ملامح الكاهن . معظم الوجوه في وادينا يمكن تصنيفها الى واحدٍ من صنفين ، لكن الوجه الذي يراقبنا الآن بحذر ، ونحن ننزل من الستروين ، كان صنفاً وحده .

«إنه الشخص الذي يتزعم مجموعة الشباب مُرَبِّي الدجاج» ، شرح تاكاشي الأمر لزوجتي ولي . عندما نزل تاكاشي من الستروين سار الى الشاب وبدأ يتحدث معه بصوتٍ خفيضٍ ، ويبدو أن الشابّ كان ينتظره عند المعبد . أما نحن البقية ، فقد أُرغمنا على البقاء في الخلفية ، متبادلين ابتساماتٍ غامضة ، اثناء هذا الحوار الإستثنائي . للشاب رأس مستدير ضخم ، وتعطي الإنحناءة العريضة لجبهته التي تشبه الدقّة ، الرأسَ كله ، مظهرَ كونه استمراراً للوجه . الوجنتان البارزتان ، والحنك المستدير الفظُّ لا يذكّران المرءَ إلا بقنفذ بحر في هيأة إنسان . والأكثر من ذلك أن العينين والشفتين قريبتان جداً من أنفه بطريقة توحي بأن الوجه قد سُحِبَ الى الخارج بفعل قوةٍ طاردةٍ . ليس الوجه وحده ، وإنما غطرسة السلوك أيضاً ، أيقظتْ فيّ شيئاً ، قد لا يكون ذكرى ، وإنما هو نبوءة بخراب ، بكارثة .

عليّ الإعتراف بأن ميلي المتزايد إلى الإنغلاق العاطفي يجعلني أبدي رد الفعل ذاته إزاء أي شيء غير مألوف ، أي شيء قويّ الشخصية...

تاكاشي جاء بالشاب الى الستروين ، وهو يتحدث معه بالصوت الخفيض نفسه ، المراهقان لا يزالان في السيارة ، عرينهما المفضل . أجلس

تاكاشي ، الشاب ، في المقعد الخلفي ، وأصدر أمراً الى هوشيو الممسك بالمقود ، وبدون مزيد من الضجة ، انطلقت الستروين باتجاه المدخل الى الوادي .

«الشاحنة الصغيرة التي يستعملونها لنقل البيض ، تعطّلت ، ولهذا جاء ليطلب من هوشي تصليح المحرِّك» . شرح تاكاشي الأمر ، ساذج التباهي بأن كل اتصال مع جماعة الشبان يتم عن طريقه . واضحٌ أن هذا يرضي إحساسه الطفوليّ بالمنافسة ، الذي أوذيَ في النقاش حول رحلة جدنا الأكبر إلى كوشي .

سألت : «أليس مفترضاً أن الدجاج جائع حتى الموت ؟» .

«ها هي ذي المشكلة ـ للشبّان أولويات مغلوطة ، » أجاب الكاهن عن تاكاشي ، بابتسامةٍ خجلى ، كأنه وهو ساكن الوادي يخجل من نفسه ، وكذلك من الشبّان «مبيعات البيض سيئة جداً ، بحيث لا يستطيعون شراء العلف ، وعليهم أن يتوصلوا إلى سياسة اساسية لمعالجة الوضع ، لكن كل ما يفكرون به هو شاحنة صغيرة لنقل البيض . طبعاً لو ان الشاحنة الصغيرة تعطلت أيضاً فإن كل شيء سوف ينتهي» .

خطونا الى قاعة المعبد الرئيسة وتفحّصنا صورة الجحيم . ذكّرتني أنهار وغابات النار بالحمرة الملتهبة التي رأيتها في أعالي أوراق القرانيا عندما غمرتها الشمس في ذلك الصباح الغائم بعد دقائقي المائة في الحفرة . اللُّطَخ السود على أمواج نهر اللهب القرمزية اتصلت في مخيلتي ، مباشرةً ، بذكرى البقع التي شرعتْ تلطخ أوراق شجر القرانيا ، الآن ، وقد جاوزَ الخريف أوجَه . لقد انغمستُ فوراً في صورة الجحيم . لون نهر النار ، والخطوط الناعمة للأمواج ، المرسومة بعنايةٍ بالغةٍ ، جاءتني براحة ذهنٍ غريبة . سلامٌ غامرٌ انسكب من نهر اللهب في كياني

الداخليّ . وبين ألسِنة اللهب يصرخ الموتى ، مرفوعي الأيدي ، شُعْثَ الشعر ، كأنّ ريحاً سَموماً تعصف به . بعضهم لا يُرى منه سوى أطراف وأرداف منتصبة في الهواء . لكن حتى تعابير العذاب المختلفة تحتوي على ما يجلب لي الطمأنينة ، إذ أن الأجساد ، برغم الألم الظاهر ، تبدو كأنها تشترك في حركات رياضية جليلة . يبدو أن الأجساد متكيفة والعذاب . وأشباح الذكور الذين يقفون على إحدى الضفاف ، مكشوفي الأُيور ، ويتلقّون الصخورالملتهبة على رؤوسهم وبطونهم وأردافهم ، يعطون الإنطباع ذاته . أشباح النساء اللواتي يسوقهن الى غابة اللهب زبانيةٌ يحملون هراوات ، يبدون حريصات على صيانة السلاسل المألوفة المريحة ـ علاقة المعذِّب والمعذَّب ـ التي تربطهن بالزبانية .

شرحتُ ما أحسستُ به ، للكاهن .

اتّفقَ الكاهن معي : «الموتى في الجحيم ظلوا يتعذبون وقتاً رهيب الطول حتى صاروا يألفون عذابهم الآن . ومن المحتمل أنهم يُظهرون المعاناة ، فقط ليحافظوا على نظام الأمور . تعرف أن طريقة احتساب مدة العذاب في الجحيم البوذي عجيبة جداً . مثلاً يوم وليلة في النار المحرقة يتكونان من ١٦ ألف سنة من الأيام والليالي ، وكل واحدة منها تساوي ألفاً وستمائة سنة من سنوات عالم البشر . إنه لوقتٌ طويلٌ جداً! والأكثر من ذلك أن الموتى في هذا الجحيم بالذات يجب أن يقضوا المدة الكاملة أي ١٦ ألف سنة ، وهو زمن يكفي حتى أشد الأشباح تخلُّفاً ليألف الأشياء!» .

قالت زوجتي : «ذلك الشيطان هنا الذي يبدو مثل كتلة صخر ـ ذلك الملتفت الى الناحية الأخرى والذي يعمل في كل شيء يناله ؟ جسده مغطى بثقوب سود ، لست أدري إن كانت ظلال عضلاته أو ندوباً ، لكنه يبدو

مستنفداً تماماً ، أليس كذلك ؟ ذلك الشبح الأنثوي الذي يتعرض لضربه ، ألا يبدو أفضل صحةً ؟ أنت على حقٍ ، يا ميتسو ـ كأن الموتى أَلِفوا الزبانية فلم يعودوا يخافونهم » .

اتفقتْ مع آرائي ، لكنها لم تُبد علامةً على اكتسابها الراحة الذهنية من الصورة . وعلى أي حال ، يبدو أن المزاج الرائق المتألق الذي تمتعتْ به منذ الصباح ، أخذ يأفل . لاحظتُ أيضاً أن تاكاشي تحاشى الجميع ووقف صامتاً ، يواجه البريق الذهبي لحرم المعبد .

« ماذا تعتقد يا تاكا ؟ » سألته ملتفتاً ناحيته بلا كُلفة . أهمل سؤالي ، وبعد أن تلفّتَ حوله ، قال فجأة : « لمَ لا نأخذ رماد س ونذهب ، دون أن نزعج أنفسنا بالصور ؟ » .

أخبر الكاهن أخاه الأصغر الذي كان يراقبنا بفضول من شرفة القاعة الرئيسة أن يصطحب تاكاشي ويأخذ الجرَّة .

قال الكاهن : « تاكا يخاف صورة الجحيم ، منذ طفولته » . ثم حوَّلَ الحديث ناحية القروي الشاب الذي جاء لرؤية تاكاشي ، منتقداً الحياة اليومية في الوادي . « مهما كانت المسألة التي تواجههم ، فإنهم يرفضون أن يكوِّنوا رأياً طويل المدى . يغوصون فوراً في ماء عميق ويبدأون يخوِّضون ويضربون أخماساً بأسداس ـ مثل ما جاء الشاب ليأخذ صديق تاكاشي كي يصلِّح الشاحنة الصغيرة . إنهم يتناقشون دهوراً حول التوافه ، متبنين فكرةً غير مسؤولة تقضي بأن الأمور حين تخرج نهائياً من أيديهم ، فإن الوضع سوف يتغير ، ويحلّ مصاعبهم لصالحهم . والمثال على ذلك قضية السوبر ماركت .

كل دكان منفرد في القرية ، ما عدا مخزن المشروبات والمجَفّفات ـ في المشروبات فقط ـ صار تحت سيطرة السوبر ماركت . لكنهم لم يفعلوا

شيئاً لحماية أنفسهم ، ومعظمهم مدينٌ للسوبر ماركت بهذه الطريقة أو تلك . ولديّ فكرة أنهم ينتظرون معجزة ، ذلك لأن الوضع خرج من أيديهم وليس لديهم أملٌ في الوفاء بديونهم . المعجزة هي أن يختفي السوبر ماركت في غيمة دخان ، فلا يعود أحدٌ يطالبهم بسداد ديون . لقد أوصلهم السوبر ماركت إلى نقطة ، لو كانت في سالف الزمن ، لتعيَّنَ على القرية كلها أن تحزم حقائبها وترحل» .

هنا عاد تاكاشي من المُعْظَمة حاملاً رزمة ملفوفة بقماش قطن أبيض ، وقد تحولت غطرسته وسوء مزاجه إلى ابتهاج .

قال لي : «وجدت إطار الفولاذ لنظّارات س في الجرّة مع الرماد . وقد ذكّرني بشكله تماماً حين يضعها على عينيه» .

ركبنا في السترووين ، التي جاء بها أحد الشبان إلى المعبد لهوشيو وموموكو .

قال تاكاشي بصلافة : «أمسكي بجرَّة س ، ياناتسومي . إن ميتسو ليس موضع ثقة كي يحتفظ بها . فهو غير قادرٍ حتى على حمل رأسه والتحرك بدون أن يرطمه» .

إنه لم يعطِ الإنطباع بحب س واحترامه ، لكنه انطباع أن يبعدني ، أنا الفأر ، عن س ، قدر الإمكان . أجلس زوجتي ، والجرَّةُ بين ذراعيها ، في المقعد المجاور له ، وتحدث معها عن س وهو يقود السيارة . جذبتُ ركبتيّ ، وتمددتُ على المقعد الخلفيّ وتركت ذهني يتأمل لون اللهب في صورة الجحيم .

«هل تتذكرين البدلة الشتوية للطلبة الضبّاط ، ياناتسومي ؟ س جاء على طريق الحصباء في عز الصيف مرتدياً بدلته الشتوية الزرقاء الغامقة ، وهو يحمل سيفاً عسكرياً ، ويحتذي جزمة طويلة تبلغ بطّةَ الساق . وكلما

لقي أحداً من الوادي ، دقّ كعبي جزمته مثل ما اعتاد العسكريون النازيون أن يفعلوا . لا أزال أسمع الوادي يرنّ بدَقّة الكعبين الجلد المتينين ، وبصوته الرجولي قائلاً : نيدوكورو س ، عائد من الجيش! » .

مع كل حديث تاكاشي ، كانت ذكراي عن س بعيدةً تماماً عن مثل هذا التبجُّح . فحينَ سُرِّح س ، على سبيل المثال ، رمى قبعته وجزمته وسيفه من على الجسر في الماء ، وخلع سترته ، وصعد طريق الحصباء منحني الظهر ، والسترة تحت ذراعه . هكذا ، في الأقل ، أستعيد عودته الى البيت .

أخبر تاكاشي زوجتي : «أتذكر ، بصورة أفضل ، يومَ ضُرِب حتى الموت . غالباً ما أحلمُ بالمشهد ، حتى الآن . وبإمكاني رؤية المشهد بوضوحٍ استثنائيّ» .

قال إن س كان ممدداً ، ووجهه إلى أعلى ، على سطحٍ من الطين الذي جفَّ فصار مسحوقاً ناعماً ، مع حصى ناعم مستدير بسبب وطء الأقدام . في شمس الخريف الرائقة لم يكن الطريق وحده يعكس النور ، بل حوض النهر أيضاً المغطى بالأعشاب ، ووسط هذا البياض كله ، كان النهر متوهجاً ببياض ليس له مثيل . حتى تاكاشي الذي زحف قدماً او قدمين من رأس س حيث يتمدد ، خده على التراب ، يواجه النهر ، والكلب المندفع هنا وهناك وهو يعوي عواءً موحشاً ، كان هذا كله أبيض . والثلاثة ـ الجثة ، وتاكاشي ، والكلب ـ ملتفّون بغيمة من النور الأبيض . دمعة وحيدة شكلت بقعة سوداء على الغبار الأبيض الذي يغطي حصاةً كانت الى جانب إبهام تاكاشي . لكنها جفّت رأساً ، تاركة نُدبةً طباشيرية على سطح الحجر .

رأس س ، العاري ، المهشم ، كان مثل حقيبة سوداء مستوية ، مع

شيء أحمر ينتأ منها . الرأس نفسه والمادة الناتئة كانا يابسين مثل مادة ليفيةٍ تُركت في الشمس .

الرائحة الوحيدة كانت للتراب والصخر اللذين حَمَصتْهما الشمسُ . حتى رأس س المهشم كان عديم الرائحة مثل قطعة ورق جديد . ذراعاه مرفوعتان فوق كتفيه باسترخاء كذراعي راقص . ساقاه مستقرتان في وضع واثب حواجز في الهواء . جلد الرقبة والذراعين والساقين البادي خارج الفانيلة والشورت اللذين يرتديهما الطلبة الضباط في البحرية والقوة الجوية للتمارين الرياضية ، هذا الجِلد كان بدلةً ذات لونٍ مسودٍّ مثل الجلد المدبوغ ، زادت في بياض الطين الملتصق . وقبل مرور وقت طويل ، لاحظ تاكاشي أن خطّاً من النمل يدخل رأس س من خلال المنخرين ويخرج عبر الأذنين ، وكل نملة تحمل خرزة صغيرة حمراء في فمها . وخطر له أن الجسد منكمش وهزيل وبلا رائحة ، بسبب هذا النمل . من المحتمل أن يظل س يجفّ حتى يمسي ممصوصاً كالسمكة المجففة . كان النمل أكل العينين كاملاً تحت الجفنين المنطبقين شديداً ، تاركاً حفرتين بحجم جوزتين ، ذواتي ضوء واهنٍ محمرٍّ يقود الأقدام الصغيرة للنمل وهي تمشي جيئةً وذهاباً ، سالكةً الممر الممهد للأذنين والأنف . ومن خلال الرُّقاقة شبه الشفافة كالزجاج المضبّ ، التي هي جِلدُ وجهه ، بالإمكان رؤية قطرة دمٍ واحدة وهي تُغرق نملةً...

سألته : «أنت لا تعني أنك رأيتَ هذا كله ، بالفعل ؟» .

«أعترفُ ، أن أحلامي زوّدتني بطَرفٍ . لكني الآن غير متأكد من الحد الفاصل بين الأحلام وما رأيته فعلاً على الطريق ، على مبعدة مائة ياردة مع مجرى النهر عن الجسر ، يومَ ضُرب س حتى الموت . الذاكرة تغتذي الأحلامَ ، كما تعرف» .

شخصياً ، ليس لديّ ما يستحثني على نبش ما أتذكره عن موت س . لكني من أجل صحة تاكاشي العقلية ، شعرتُ بأنّ عليّ أن أشير إلى أن القدْرَ الأعظم من ذكرياته معتمدٌ على ما لقّنتْه الأحلام ، وهو ما لم يدركْه .

قلت : «تاكا ، ما تعتقد أنك رأيته فعلاً ـ الذكريات التي تستثيرها دائماً ـ ليس أكثر من أحلام ، طيلة الوقت . صورة جسد س الناشف لا بدّ أنها مبنية على شيء آخر رأيتَه ـ ضفدعة ، مثلاً ، سحقتْها سيّارة . نعم . إن الصورة التي تُركِّبها عن رأسه ، مهشَّماً ، أسود ، مع مادة ناتئة يوحي بضفدعة مسحوقة ، ضفدعة خرجت أحشاؤها ، فاستوتْ» . مع هذا النقد العام ، مضيت في تقديم اعتراضي على ذكرياته : «غير ممكنٍ إطلاقاً أنك رأيت س ميتاً ، دع عنك رؤيته ممداً على الطريق . الوحيدون الذين رأوا س ، آنذاك ، كانوا ، أنا ، حين ذهبت مع عربة لأنقل جسمه ، وسكان المستوطَنة الكورية الذين ساعدوني في حمله الى العربة . ربما ضربه الكوريون حتى الموت ، لكنهم بمجرد أن مات ، صاروا في منتهى اللطف والإحترام ، وعاملوا الجثة بطريقة تحسبُ بعدَها أن الميت هو من لحمهم ودمهم . أعطوني أيضاً مُلاءةً بيضاء من الحرير كي أغطيه بها ، فغطّيتُه وهو ممدد في العربة ، ووضعتُ أحجاراً صغيرة على الملاءة لأمنع تَخافُقها ، ثم دفعتُ العربة عائداً إلى الوادي . دفعتُ العربة ، ولم أسحبها ، لسببين أولُهما أن الدفع يجعلها متوازنةً بصورة أفضل ، وثانيهما أني أردت أن يكون الجسد نُصبَ عيني مخافة أن يسقط ، أو يُمسخ شيطاناً يستفيق ويحاول نهشي بأسنانه .

«حين عدت به الى الوادي ، كان الوقت غسقاً ، لكن لم يظهر أحدٌ من البيوت المصطفّة على جانبي الطريق . الأطفال فقط هم الذين كانوا يسترقون

النظر من داخل البيوت ، ونادراً ما تُستطاع رؤيتُهم . كانوا مذعورين من أي علاقة بالجثة والشرّ المستطير الذي تمثّلهُ .

«تركت العربة ، فترةً ، أمام مكتب القرية ، وذهبتُ الى المنزل . وجدتُك هناك ، واقفاً خلف المطبخ ، وفي فمك قطعة حلوى ، بينما يسيل قَطْرٌ بُنيٌّ مُسْوَدٌّ من زاويتي شفتيك . القَطر جعلك تبدو مثل شخصية في احد عروض صندوق الدنيا ، يسيل الدم من بين الأسنان المنطبقة بعد تناول السمَ . أمي كانت في الفراش مريضة . وأختي ممتدة بجوارها تلعب لعبة المريضة أيضاً . بتعبير آخر ، لم أستطع أن أجد أحداً من العائلة يساعدني . لهذا ذهبت الى جن التي كانت تقطع خشب الوقود في الحقل خلف المستودع . كانت لاتزال نحيفةً آنذاك ، قوية ، ومعافاةً . حين هبطنا الى مكتب القرية ، وجدنا الملاءة الحرير قد سُرقتْ ليُترك جسد س مكشوفاً . مازلت استطيع رؤية جثته ملتفّة على نفسها ، ليست أكبر من طفلٍ نائم . كان الطين الجافُّ يلطخه بالكامل ، ورائحته تفوح دماً . حاولنا ، جن ، وأنا ، أن ننقله الى البيت برفعه من ساقيه وذراعيه ، لكنه كان ثقيلاً . ولقد تلطخنا بالدم نحن أيضاً . لهذا طلبت مني جن أن أذهب وآتي بمحفّة الإسعاف التي نستعملها في تمارين الغارات الجوية . كنت أجهد لإنزالها من افاريز المطبخ حين سمعت أمي تدمدم عن ظهوري وظهورك . لكأني أتذكر أنك كنت لا تزال سعيداً متلذذاً بالحلوى في زاوية المطبخ المظلمة بحيث لن تعيرني انتباهاً . كان الليل حَلَّ ، حين استطعنا إدخال جثة س في البيت سالكين الممر الدائر أسفل السور الحجري ، وقد أخذناه مباشرةً إلى المستودع ، ؛ ولهذا ، من البداية حتى النهاية ، ليس بمقدوري أن أعرف كيف استطعتَ رؤية أي شيء » .

كان تاكاشي ينظر ، بانتباه ، إلى الطريق أمامه ، مركِّزاً على السياقة . علامات التأثر الوحيدة التي تبيَّنتُها كانت ارتجافاً خفيفاً واحمراراً ينتشران

في أعلى رقبته وحول أذنيه ، والدمدمة المكتومة التي تصل من الأعماق إلى حلقه بين حين وآخر . لقد اهتزَّ ، تماماً ، بإعادة التقويم الأساسية التي فرضتْها ذكرياتي على عالم ذكرياته . ظللنا صامتين . ثم قالت زوجتي كأنها تواسي تاكاشي :

«لكن ، أليس من الغريب ، ألاّ يبدي تاكاشي الواقف في المطبخ طويلاً ، أي اهتمام بجسد س عندما نُقل إلى البيت على عربة ؟» .

قلتُ ، متوغلاً في الطبقة الثانية من ذكرياتي : «أتذكرُ الآن ، أني أخبرتُه ألاّ يخرج من المطبخ . أعطيتُه قطعة الحلوى لأجعله يحفظ عهده ، أمّا سبب تجشُّمنا عناء حمل الجثة على امتداد الممر المحيط بالسور الحجري فهو رغبتُنا في ألا ترى أنت الجثة من المطبخ ، وألا تراها امُّنا وأختنا وهما ممددتان على السرير في الغرفة الأمامية» .

قال : «اتذكرُ أمر الحلوى جيداً ، س أعطانيها . لقد استعمل مقبض خنجره ليكسر قطعةً من كتلة كبيرة نَهبَها في الغارة الأولى على القرية الكوريّة . أتذكرُ بالضبط شكل الخنجر ولونه . كان خنجراً بحريّاً . بعد ذلك ، بالضبط ، خرج في الغارة الثانية ، وضُرِب حتى الموت . على أي حالٍ ، رأى الحلوى من غنائم الحرب ، وكان متهللاً حين أعطانيها . وأظنه استعمل ، عامداً ، مقبض الخنجر كي يجعل اللحظة أكثر تأثيراً فيَّ ، أنا أخيه الصغير ، وفيه هو أيضاً . لا أزال أرى المشهد في أحلامي ـ الطالب الضابط البحري الجوي ، في قميص أبيض ناصعٍ وبنطلون ، ممسكاً بالخنجر ، والقبضةُ إلى أسفل ، يهوي بها على الحلوى . في أحلامي ، أرى س ، دائماً ، ممسكاً بخنجر لامع ، وعلى وجهه ابتسامةٌ أخّاذة» . كان يتكلم بحرارة ، كأنه يؤمن بأن كلماته سوف تشفي ، فوراً ، الجراح التي فتحتها آرائي المخالفة .

وجدتُ متعةً خبيثة في انتظار ما ستثيره تصحيحاتي في ذاكرة تاكاشي ، من تعبيرات ، وفي اقتناص هذه التعبيرات وهي في الهواء بمجرد ظهورها . لقد قمعتُ اشمئزازاً معيناً في نفسي ، وشرعتُ أمحو ، بقوةٍ ، الهالة البطولية التي نسجها تاكاشي حول س ، وقدَّمها الى زوجتي .

«تاكا ـ إن ما قلتَه هو من الذاكرة الحالمة أيضاً . هذه المخترعات من حياتك الفنطازية تجذّرتْ في ذهنك بقوَّة الأحداث الحقيقية . صحيحٌ أن س وأصدقاءه سرقوا كحولاً وحلوى من القرية الكورية في الغارة الأولى . لكن س ، الذي كان على علاقة سيئة مع أمنا ، منذ عودته من الجيش ، والذي حاول أن يضعها في مستشفى للأمراض العقلية بُغية مراقبتها ، أخفى الحلوى في حزمة تبنٍ بالهُرْي ، لأنه كان خجلاً ، بعد كل ما حدث ، أن يدع أمنا تعرف أنه قد سرق هذه الحلوى . أنا سرقتُ شيئاً منها ، حين لم يكن أحدٌ حولنا ، أكلتُ قليلاً ، وأعطيتُك قليلاً ، ياتاكا . كما أنه كان مستحيلاً أن يكون عالي المعنويات بعد الغارة الأولى ـ لسبب بسيط هو أن رجلاً قد قُتل في القرية الكورية . الغارة الثانية ، كانت غير عدوانية أساساً ، لأن المقصود بها إيجاد ضحية من بين اليابانيين في الوادي أيضاً ، وهكذا يمكن تولِّي الأمر ، بدون رفعه الى الشرطة . ولقد كان تقرَّرَ ، مقدَّماً ، مَن سيُقتل في تلك الغارة التعويضية . باختصار ، عرف س أنه من سيُقتل . لديّ ذكرى واحدة ، مثل صورة فوتوغرافية ناصلة ، عن مظهر س في الفترة بين الغارتين . بينما كان البقية يسكرون بالكحول المسروق ، كان س في صورتي الذهنية ، يستلقي صاحياً ، ملتفاً ، على الأرض في الغرفة خلف المستودع . كان يستلقي بلا حراك ، يواجه جزء الظلال من الغرفة . ربما كان ينظر الى رسم مروحة جون مانجيرو في الرازونة . حوالي ذلك الوقت ، كما

أتذكر ، عثرت على الحلوى التي قد خبّأها ، وشعرت بالخزي عندما رآني س نفسه ، متلبساً بالحلوى في فمي . لكن هذه الذكرى قد تخطر في حلمٍ مثل أحلامك . لقد ركّبتُ الأمر هكذا بعد أن صرت أدرك الأهمية المخجلة والغبية التي في ذهن س عن السرقة في القرية الكورية . أنا أيضاً ، حلمت كثيراً بـ «س» ، كما تعرف . كان لموته تأثيرٌ عميق فينا ، ونحن نكبر . ولهذا السبب نحلم به أحلاماً مختلفة هكذا . أما الآن ، ونحن نناقش الأمر ، فإنني أدرك أن أحلامنا كانت لها أجواء مختلفة تماماً ، دون ريب» .

وإذ شعرت بأنني مضيتُ بعيداً في الضغط على تاكاشي ، قلتُ مقدّماً نوعاً من المساومة :

«يبدو أن لموته تأثيراً مختلفاً فينا ، نحن الإثنين» .

تاكاشي ، وهو غارقٌ في التفكير ، أهمل حركة المصالحة التي قدمتُها . كان ينقّب في الظلال المعتمة للذاكرة وملكوت الأحلام عن شيء يقلب ، دُفعةً واحدةً ، هيمنةَ ذاكرتي . ومن سوء الحظ أن نقاشنا أثار انجرافاً خطراً من القلق لدى زوجتي التي عاملناها ، حتى هذا الوقت ، باعتبار أن ليس لها شأن في هذا .

«لماذا اشترك س في غارةٍ إن كان يعرف أنه سوف يُقتل فيها ؟ ولماذا قُتل حقاً ؟ لمَ رضيَ أن يُقتل دِيَةً ؟ من المرعب التفكير به ، متمدداً ، ساكناً تماماً ، في الظلام ، بمؤخرة المستودع . الفكرةُ ترعبني ، فكرة شابٍّ ينتظر فقط أن تأتي الغارة الثانية . والأنكى أنني رأيت داخل المستودع هذا الصباح . لم أستطع أن أراه إلا كما كان . أنا قادرة على رؤية انحناءة ظهره بكل وضوح!» . كانت تنحدر بسرعة على المنزلَق الذهني لمسكن النمل المؤدي إلى الويسكي . حياة الصحو الجديدة ، غدت منذ الآن ، جزءاً من

الماضي . «لِمَ تَقَرَّر أن يكون س هو المقتول دِيةً ؟ ألأنه هو الذي قتل الكوريَّ في الغارة الأولى ؟» .

قال تاكاشي مخلصاً : «لم يكن الأمر كذلك ، أكانَ يا ميتسو ؟ قُتل لأنه كان القائد . أعرف حتى بدون أن يخبرني ميتسو أن هذا ذاكرة حلم ، لكن يبدو أنني أتذكر مشهداً ممتازاً ـ س في بدلة طالب ضابط في البحرية الجوية ، يقف على رأس مجموعة من الوادي في معركة ضد نخبة رجال من القرية الكورية» .

قلت : «تاكا ، إن تشويهات ذاكرتك تقترح دعوى رديئة من التمنيات . هذا واضح . الأمر ليس أنني لا أستطيع أن اتعاطف... لكن س لم يكن ، بتاتاً ، قائد شبّان الوادي . والحقُّ أنه كان على الضد . حتى أنا ، الأخ الصغير في العاشرة ، استطيع قول ذلك بسهولة . كان شبّان القرية يهزأون به ويسخرون . وعلى أي حال ، ليس مفترضاً في أي شخص من الوادي بعد الحرب مباشرة ، أن يتفهم الدوافع الداخلية لسلوك س الغريب ، بعد عودته من الجيش . ولأقُلْها صريحةً ، كان س أضحوكةً ، وموضع سخرية الناس . لا أتخيَّلَ أن بمقدور أيٍّ منكما أن يفهم القوة المدمرة الرهيبة لهذا النوع من الضحك الخبيث في قرية متخلفة بالتلال . قد يكون س العائد الوحيد من الحرب الى الوادي ، الذي لم يضاجع واحدة من النساء . صحيحٌ أنه وجد لنفسه ، باعتباره رجلاً ، مكاناً في مجتمع الوادي . لكنه كان لا يزال الأصغر سنّاً في عصبة الجنود السابقين الذين كلَّفوا أنفسهم مهمةَ الغارة على القرية الكورية . كان ضنيلاً ، ضعيفاً ، وخجولاً أيضاً . كما أن السبب الحقيقي للغارة على القرية الكورية هو أن مجموعة الكوريين المتعاملين في السوق السوداء ، كشفوا أكثر من مرة ، رزّاً خبّأه مزارعو القرية ، فأخذوه ليبيعوه في البلدة . شيخ القرية وأعيانُها المزارعون حرَّضوا الشباب الى حدٍّ

لم يجدوا فيه بُدّاً من العمل . كان المزارعون يقدمون بيانات زائفة ويخفون بعض ما ينتجونه من الرز . أي إبلاغ للشرطة سيكون في غير صالحهم ، ولهذا عقدوا آمالهم على جماعة كانوا أبناء مزارعين ، ولهذا كانت « حتميةٌ طبقيةٌ » في مشاركتهم الغارة . لكن مزرعتنا كانت مفلسة حتى قبل الإصلاح الزراعي الذي جرى بعد الحرب . ولم يكن لدينا حتى حبة رزّ واحدة نخفيها ، بل أن جن اتصلت مع الكوريين لتشتري أرز السوق السوداء . لكن س ، انضمَّ إلى الغارة ، مع ذلك ، وتحمَّلَ دور كبش الفداء بعد أن قتل أصدقاؤه كورياً . كان هذا واضحاً لي حتى وأنا طفلٌ . كانت أمي مريضة ، ولن تأتي لرؤية الجسد في المستودع بعد أن جعلته جن مقبولاً . قالت إن س كان هو المجنون الذي أراد أخذَها إلى مستشفى المجانين . كانت جدَّ غاضبة على العمل اليائس الذي فعله حتى صارت تكرهه . ولهذا لم تكن عندنا خبازة . قدَّمتْ جن طلباً إلى الكبار في جميعة الجيران ، التي لم تزل قائمة منذ أيام الحرب ، فأحرقوه عنّا .

ولهذا السبب ، ظل رمادُه ، بلا مُطالِب ، في المعبد ، مُذّاك . لو كنا اردنا جنازة مقبولة ، لكان من السهل وضع الجرة في المقبرة العائلية ، أليس كذلك ؟ رماد أختنا هناك » .

« أكان مرغَماً على فعلها ؟ » سألت زوجتي ، تاكاشي ، لكنه لم يجب . كانت شفتاه مزمومتين ، لسبب بسيط ، هو أني أشرت الى موت أختنا .

قلت : « لا أظنه كان مرغماً . لقد تطوَّعَ . لكن هذا لم يمنعهم من ترك جسده حيث كان ، ولهذا تعيَّنَ عليَّ أن آخذ العربة وآتي به » .

أصرَّتْ ، مرتعبةً : « لكن ، لماذا وجبَ عليه ذلك ، لماذا ؟ »

قلتُ : « لم يكن في وسعي أن أتحقق من الأمر ، بعد أن انتهى .

الآخرون المشتركون في الغارة ، الذين هربوا عائدين الى القرية بعد أن تأكدوا من أن س ضُرب حتى الموت ، لم يكونوا يريدون أيَّ علاقة مع عائلة س بعد ما حدث ، ولهذا ما كان ممكناً الحصول منهم على تفاصيل . الآن لا أتصور أن كثيرين منهم ظلوا في الوادي . أحدهم ذهب الى المدينة وصار مجرماً محترفاً . وقد رأيت شيئاً عنه منشوراً في صحيفة محلية أيام دراستي في الثانوية . وأظنُّ أنه هو الذي قتل الكوريّ في الغارة الأولى ، ولهذا أنعمتُ النظر في الصورة الفوتوغرافية بالجريدة ، وعرفتُه فوراً . يبدو أن القتل عادةٌ تتكوَّن » .

كنت أحاول أن أوجه الحديث إلى قنوات أكثر عموميةً ، لكن زوجتي كانت مضت بعيداً في مسكونية رعبها ، فلم يعد بمقدورها الإستجابة الى مناورتي . بدلاً من ذلك ، ضغطت على تاكاشي ، الذي أراد أن يظل ساكتاً .

حثّتْهُ : «تاكا ، ماذا تقول ذكريات حلمك ؟ لماذا ، لماذا وجبَ عليه ؟» .

«ذكريات حلم ؟...» بدأ ، يتحدث ، بصبرٍ غير معهود في تاكاشي الذي عرفتُه منذ الطفولة المبكرة ـ ليس ذاك الذي يقدم جواباً لتساؤل زوجتي .

مضى يقول : «في أحلامي ، لم يعتورني أدنى شك في سبب لعب س الدور . س الفنطازيّ ، عندي ، وُلد ليكون ، بالضبط ، ذلك البطل ـ الضحية . ثم أني لا أنظر إليه ، نقدياً ، كما ينظر إليه ميتسو ، سواء في أحلامي أو خارجها . إني أُصْدَمُ حين أُسأل : لماذا ؟ في أحلامي ، لا أحتاج إلى أن أوجه أسئلة مثل هذه مع س . وفي الواقع ، أن فمي قبل عشرين عاماً كان ملآن بالحلوى ـ هكذا يقول ميتسو ـ فلم أكن قادراً على أن أسأله لماذا ؟ ، حتى لو أردتُ» .

«لماذا ؟ لماذا وجبَ عليه هو ؟» لم يعد صوتها موجهاً الى تاكاشي ، أو إليّ ، لكنه كان يطارد أصداء في فراغٍ داخلها : لماذا ؟... لماذا ؟... لماذا ؟... لماذا ؟...

كرّرتْ : «لماذا وجبَ عليه ؟ إني اتساءل... من المخيف رؤيته ، شاباً ، متمدداً ، ساكناً تماماً ، في ظلال المستودع . أنا موقنةٌ أني سأحلم به الليلة ، ولن استطيع أن أبعده عن ذهني أيضاً ، مثل تاكا...» .

طلبتُ من تاكاشي أن يقود الستروين الى مخزن المشروبات والمجفّفات الذي ذكره الكاهن . عدنا إلى المساحة المفتوحة أمام مكتب القرية قبل الوقت ، وظللنا نتحدث داخل السيارة المتوقفة . بعد شراء قنينة من الويسكي الرخيص ، عدنا الى الطريق المفروش بالحصباء .

في البيت ، شرعت زوجتي تشرب . جلستْ ، منتصبةً ، مهملةً تاكاشي وأنا ، تواجه الموقد في وسط الغرفة ، غارقة ببطء ، لكن بثقة ، في السُكر . ملتقَطَةً ، بين الضوء غير الكافي للبيت غير الإقتصادي في الوادي ، ونار الفحم الحجري في المدفأة المفتوحة ، بدتْ تماماً مثل ما كانت حين رأيتُها ، للمرة الأولى ، ذلك اليوم ، سكرى في المكتبة . أمورٌ كثيرةٌ اتّضحتْ ، ولو من حقيقة أنني أتسطيع أن أقرأ كل تجربتي العاطفية ذلك اليوم ، في عيني تاكاشي الآن ، وهو يراقب ، للمرة الأولى ، كيف تغدو سكرى بهذه الطريقة ، وفي نظرة الصدمة التي لا تُضاهى بالرغم من ادّعاء ابتعاده . كانت سكرى أمامه عدة مرات ، منذ عودته الى اليابان ، لكن كان ذلك في داخل حلقة الأسرة دائماً ، ولم يكن السكر الذي يجعل المرء يرى ، في عينيها ، وعلى بشرتها ، المدخلَ الى ذلك السلّم الحلزوني المؤدي بها هبوطاً إلى الظلمة المرعبة في داخلها .

حبّاتُ عَرَقٍ صغيرة ، متقاربة ، تتعلق بجبهتها الضيقة ، وبمناطق الظلال حول عينيها ، وبشفتها العليا المنفرجة ، وعنقها . الحمرة الشديدة في عينيها تبيِّنُ انها خارج حقل جاذبيتنا . ببطءٍ ، لكن بثقةٍ ، كانت تهبط السلّم نحو تلك الأعماق القلقة الفوّاحة برائحة الويسكي الرديء ، واللزجة بالعَرَق .

وبما أنها لم تُبدِ ، إطلاقاً ، أي اهتمام بما حولها ، تولّتْ موموكو ، التي كانت عادت للتو ، إعداد الوجبة بدلاً منها . كان هوشيو فكّك المحرك وجاء به الى المطبخ ، حيث كان يصلّحه ، تحت رقابة عيون أربعةٍ من الأطفال الهزيلين ، وحوله رائحة خفيفة من بنزين مثل ضباب شفّاف . هوشيو نجح ، في الأقل ، مع الأطفال ، في تحويل الكره الى احترام . حتى أنا ، الذي لم أر مثل هذا المراهق الماهر ، من قبل ، اضطررتُ الى التخلي عن أفكاري المسبقة . كان يبدو مفعماً بثقة جديدة منذ وصوله الى القرية ، وهكذا بان على وجهه شيء يقترب من التناسق في ملامحه المضحكة . استمرت زوجتي تشرب صامتةً ، بينما تمددنا أنا وتاكاشي على الجانب الآخر من المدفأة ، منصتين إلى اسطوانة قديمة من مجموعة أختي الميتة ، بجهاز فونوغراف محمول . إنه ليپاتي ، يعزف فالس شوبان في آخر كونسرت سجّله في حياته...

قال تاكاشي ، هادئاً ، بصوت متهدج : «الطريقة التي تنصت بها الى البيانو كانت غير عادية . إنها لم تهمل نوتةً واحدة . ومهما عزف ليپاتي سريعاً فإنها تلتقط كل صوت مفردٍ يصدر عن البيانو . بل يشعر المرء كأنها تكسر الهارموني وتمسك بالنوتات المفردة . مرةً أخبرتني بعدد النوتات في هذا الفالس الـ E-flat . مثل أحمق دوّنت الرقم في دفتر ملحوظات صغير ، ثم أضعته ، لكنّ أذنها كانت بالفعل ذات خصوصية» . وخطرَ لي أن هذه أول إشارة صدرت طوعياً منه ، وسمعتُها ، متعلقة بأختنا منذ موتها .

سألته : «أكان بمقدورها العَدُّ إلى هذا الحدّ ؟» .

«لا . كانت لديها ورقة كبيرة مغطّاة بنقاط القلم ، مثل ذرّات غبار . كانت مثل صورة للمجرّة ، فقط الأجرام السماوية تظهر نقاطاً سوداء . القطعة الموسيقية ١٨ فالس كانت كلها هناك . أمضيتُ دهراً أجمع الأرقام من سجِلِّها . لكني ذهبت وفقدتُ النتيجة . الأمر يدعو إلى الحزن ، لأنني متأكد من أن عدد نقاط القلم التي سجّلتها كان صحيحاً» . وفجأة أبدى إشارة مصالحة غيرمتوقعة إزائي ، فأضاف : «زوجتك ، تبدو أيضاً ذات خصوصية» .

تذكرت كيف استعمل التعبير ذاته عن صديقي الذي صبغ رأسه بالقرمز وشنق نفسه ، ولأني تأثرتُ عميقاً ، وضعتُ قوله ذاك ، مع ما قاله الآن . س أيضاً كان «ذا خصوصية» : إن كان تاكاشي يعنيها ، فليست لديّ أي رغبة في محاولة تعديل لأحلام ذكرياته . لقد بيّنت كلماتُه أنه التقط وجودَ شيء في أعماق كل الذين ماتوا ـ ماتوا في قبضة الخوف من أنهم غير قادرين على الإتصال مع أحد .

إمبراطور السوبرماركتات

في صباحٍ صافٍ ، قارس البرد ، عندما تجمّدت المضخة اليدوية في المطبخ ، متَحْنا الماء من البئر الخارجي . البئر الخارجي ذو الدلو الثقيل والرشاء هو في الحديقة الخلفية الطويلة الضيقة التي لا يفصلها سوى بستان توت صغير عن سفح التل كثيف الشجر الذي سمّيناه مرةً « سيداوا » .

احتكر أخي الدلو الأول ، مغتسلاً بلا حساب ـ وجهه ، رقبته ، حتى ما خلف أذنيه ـ ثم تعرّى حتى وسطه ، وفركَ بشدةٍ صدره وكتفيه . وبينما كنت أقف ضائعاً إلى جانبه ، أنتظر دوري مع الدلو ، قلت لنفسي إن تاكاشي الذي كره البرد طفلاً ، لا بدّ أنه بدّل من طبعه . ظهره العاري ، أمام نظرتي ، عن وعيٍ منه ، لا شكَّ ، يحمل ندوباً كان جلدها ولحمها قد تَسلَّخا بفعل ضربات أداة عمياء . أثناء رؤيتي الندوب للمرة الأولى أحسستُ بانقباضٍ في معدتي ، كأن المنظر أحيا ذكرياتِ ألمٍ يحمله جسدي ذاته .

كنت لا أزال انتظر دوري حين خرجت مومو كو وقنفذ البحر في رعايتها ، من المطبخ ، الى الحديقة الخلفية . بالرغم من برد الصباح الشديد كان الشاب ذو الملامح الشنيعة لا يرتدي سوى بنطلون جينز أزرق خفيف ،

وفانيلة ذات كُمَّين طويلين يبلغان أصابعه . وقف يرتجف ارتجافاً شديداً ، ورأسه الضخم غائصٌ بين كتفيه ، ولم يُبدِ أي محاولة للتكلم مع تاكاشي مادمتُ هناك . كان شاحباً ، ليس من البرد فقط ، بل كأنه منَهكٌ من أعماق كينونته .

في النهاية ، تخليتُ تماماً عن فكرة الاغتسال ، وعدت الى المدفأة ـ لا لأنَ إخفاقي في غسل وجهي أزعجني ، الآن ، خصوصاً ؛ فأسناني ، مثلاً ، لم أفَرِّشْها منذ عدة شهور ، وهي صفراء مثل أسنان حيوان . الحقُّ أنني لم أغيِّر ، عن وعيٍ ، طبعي . لكن موت صديقي والطفل الذي ذهب الى المعهد ، أورثاني طبعاً جديداً .

سألتني زوجتي بصوت منخفض كي لا يسمعها تاكاشي والآخرون : « ميتسو ، أتظن الشابَّ لا يشعر بالبرد ؟ » .

« إنه يشعر به تماماً . وهو يرتجف شديداً . لكنه يريد أن يبيِّن لكل شخص أنه من النمط الرواقيّ غير المألوف ، وهكذا يرفض أن يرتدي معطفاً أو سترة حتى في عزّ الشتاء . هذا الأمر بحدّ ذاته ليس كافياً للحصول على احترام الناس حتى هنا في الوادي ، لكن مظهره كله ، وما يبديه من إهمالٍ للآخرين ، يساعدان كذلك في عزله » .

« إن كان هذا كافياً لجعل أحدهم قائداً في مجموعة شبّان ، فالأمرُ كله يُعتبر بدائياً ، أليس كذلك ؟ » قلت : « بلى ، لكن في التجربة ، قد لا نجد الشخص الذي يقدم مثل هذا العرض الساذج ، بسيطاً بالضرورة في تكوينه السيكولوجي . وهذا يجعل السياسة لدى فتيان الوادي معقدةً جداً » .

قبل مرور وقت طويل ، عاد تاكاشي الى المطبخ ، والشابُ يمشي الى جانبه في جو صداقةٍ مبالَغٍ فيه . ثم صافحنا بحرارة يشعر معها حتى الغريب

بأن المقصود هو التشجيع ، ثم انتظر حتى يغادر الآخر الذي ظلّ صامتاً . ما أن خرج الشاب من العتبة حتى غمرتْ وجهَه العريض الواضح في الشمس ، كآبةٌ حادّةٌ ، أجفلتني .

«هل من خطأ ، ياتاكا ؟» سألتْ زوجتي بصوتٍ خجولٍ ، وقد أجفلتْ كما أجفلتُ . لم يردّ عليها مباشرةً ، لكنه جاء ووقف قرب المدفأة ، والمنشفة حول رقبته مثل ملاكمٍ يتدرب ، وتعابيرُ وجهه ممزَّقةٌ بين عاطفتين وحشيتين متصارعتين . بدا كأنه يُصارع في وقتٍ واحدٍ إحساساً استثنائياً بالمهزلة ، وصدمةً لمواجهة أمرٍ مُغِمٍّ تماماً . ثم تطلَّعَ إلى زوجتي ، وإليّ ، بعينين مفعمتين انفعالاً وكِبْراً ، وقال مرتفع الصوت :

«الجوع أو البرد ، قتلا الدجاج كله . عدة آلاف من الدجاج» . وضحك ضحكةً قصيرة . لم أقل شيئاً ، بعد أن استولى عليّ الإحساسُ ذاته ، إحساسُ اللامعقولية والرعب ، إزاء تلك الآلاف من الدجاج المسكين ، وهي ميتة . من بعد ، حين امتدت مخيّلتي الى مشهد قنفذ البحر وأصدقائه ، وهم يرتجفون بلا انقطاع ، حتى لو تظاهروا باللامبالاة أمام البرد ، فإن الرعب الكامل لدعواهم قد أثار فيّ إحساساً بالإمتعاض والضيق .

«هكذا جاؤوا يسألونني أن أذهب وأرى الإمبراطور وأناقش معه ما نحن فاعلون بالدجاج الميت . لا استطيع أن اتركهم وشأنَهم . أنا ذاهبٌ الى البلدة» .

«الإمبراطور ؟ أوه ـ تعني مالك سلسلة السوبرماركتات . حتى هو ، كما أتصوَّر ، عاجزٌ عن تحويل الدجاج الميت الى ربح . إلا إذا صنعوا من الدجاج الميت مكعّبات شوربة» .

«معظم المال المخصص لتربية الدجاج جاء من الإمبراطور . مجموعة

الشبّان أرادوا الاستقلال عن السوبر ماركت ، لكن الحاجة الى شراء العلف ونقل البيض جعلت الإفلات من نفوذ الإمبراطور أمراً صعباً . الآن وقد فني الدجاج كله ، صارت خسارة مجموعة الشبان ، خسارةً للإمبراطور أيضاً . وهم الآن يتطلّعون إليّ لأتفاوض معه ، وأردّ أي تُهَم باللامسؤولية قد يوجهها ضد المجموعة . بالطبع ، هم جمعٌ بليدٌ ، وأراهنُ على أن الأذكى فيهم ما يزالون يأملون في أنه سيفكر بطريقة مربحة للتخلص من الدجاج الميت » .

« ليس حسناً أن يأكل أهل الوادي الدجاج الميت ، فيحصل عندهم تسمُّمُ طعام ، أو مثل ذلك » ، تأوهتُ ، وقد تعمَّقَ إحساسُ الكآبة لديّ .

« لو أن الدجاج تجمَّدَ حتى الموت ، مع أحشاء فارغة ، فسوف يكون مماثلاً تماماً ، من الناحية الصحية ، للخضروات المجمدة النامية كيمياوياً . والحقُّ أنني سأطلب منهم إعطائي ثلاث دجاجات سمانٍ مقابل ذهابي إلى المدينة ، وسأستخدمها لإعطاء جن بعض البروتين . ما رأيك ؟ » .

قالت زوجتي : « هي لا تكاد تأكل أي بروتين حيواني بالرغم من شهيتها الفظيعة . سيكون ذلك مضراً بكبدها » .

أثناء فطورهما المتعجل تحدثَ تاكاشي مفصَّلاً مع هوشيو بصدد الوقت المطلوب للذهاب الى البلدة في شاحنة الشبّان الصغيرة ، والمسافة بين أماكن التزوُّد بالبنزين .

كان حوارهما ذا وتيرة سريعة . إذ أن معرفة هوشيو بالسيارات عمليةٌ وتفصيلية ، وليس على تاكاشي إلا أن يلقي سؤالاً كي يأتيه الجواب شافياً كافياً . بيَّنَ هوشيو عيوب المحرِّك ، وإمكان حدوث عطل ميكانيكي أثناء الرحلة التي تستغرق عدة ساعات ، خلال الغابة ، ولهذا قرر تاكاشي في النهاية ، أن يصحبهم هوشيو في رحلتهم الى البلدة .

قالت موموكو : «هوشي خبير في تصليح الصناديق العتيقة ، وباستطاعتكم أن تسرقوا ، معه ، أي سيارة ، لأي مسافةٍ تريدون ، بدون أي قلق . وكلما كانت السيارة أقدم كانت قدرته على تصليحها أفضل . سيكون عوناً حقيقياً » ، بعد هذا الجهد اندفعت في آهةٍ مفعمة بالحسد الطفولي : «آه ، تُرى أي أفلام تُعرض الآن في العالم المتحضر ؟ أتساءَلُ إن كانت بريجيت باردو لا تزال تُعرَض...»

قال تاكاشي : «سنأخذكِ معنا . هؤلاء المراهقاتُ يُستثَرن لكل شيء » ، ثم ابتسم متجاوباً مع الفرح الظاهر في جسم موموكو كله .

قالت زوجتي : «سُقْ بحذر ، ياتاكا . هناك جليد على الطريق الذي يخترق الغابة» .

«حسناً . وسأكون حذراً ، خصوصاً في عودتي ، إذ سأجلب معي ست زجاجات ويسكي ، ذات نوعية أفضل مما تجدينها في القرية . وأنت يا ميتسو ؟ أتريد شيئاً ؟» .

«لا » .

قال تاكاشي ساخراً من ثقتي : «ميتسو لم يعد يتوقع شيئاً ، لا من الآخرين ، ولا منه» .

لم يخطىء ، حين أحسَّ لديَّ بغياب أي شعور استقبالٍ ، فأنا أعرف ، حقاً ، أن علامات هذا الشعور قد غادرتني ، حتى بات أي شخص يلحظ ذلك من مظهري الجسماني وحده .

تدخلت زوجتي : «وبعض القهوة ، رجاءً ، يا تاكا» .

«سآتي بحمولة كاملة من التجهيزات ـ سأحصل على تسبيقةٍ من الإمبراطور عن المستودع . ولكما ، أنتما الإثنين ، حق أن تفرحا بذلك المال» .

قالت زوجتي وقد بدأت تفكر ، هي الأخرى ، بالبلدة : «إن كان ممكناً ، فأرجو أن تأتيني بجهاز تقطير للقهوة ، مع قهوة طُحنتْ للتوّ ، يا تاكا» .

بعد إنهاء الفطور ، توجه تاكاشي وحراسه ، في مجموعة ، الى الستروين المنتظرة في الفسحة أمام مكتب القرية . زوجتي وأنا ، قطعنا وجبتنا ، وراقبناهم يذهبون ، من الحديقة الأمامية ، حيث كان الوقوف قلِقاً بسبب أكوام إبر الجليد .

قالت : «تاكا اندمج سريعاً مع شباب الوادي ، ليس مثلك ـ فحالُكَ هنا ، مثل حالك هناك في طوكيو ، رهين غرفتك» .

أجبتُ : «تاكا يحاول أن يمدّ له جذوراً ، من جديد . أنا لا أبدو ذا جذور كي أمدّها» الشعور بالرثاء في صوتي ، جعلني أشمئزُّ أنا أيضاً .

قالت : «يبدو أن هوشي يفكر بأن تاكا يغدو أكثر حميمةً مع الشباب» .

«لكنه يتعاون مع تاكا في العمل من أجل جمعيتهم ، أليس كذلك ؟» .

«إنه يتعاون بحماسة تزيد أو تقلّ ، مع أي شيء يفعله تاكا . مع هذا يبدو ، غير مرتاح ، في سرِّهِ ، هذه المرة . قد يشعر بالغيرة من أصدقاء تاكا الجدد» .

«لو كان هذا ، فأحسُّ أنه يشعر بنوع من الإحتقار إزاء الشبان الآخرين . لكنْ لم يمض وقتٌ طويلٌ على عيشه هو نفسه في مزرعة . أتصوَّر أنه يعرف نمطَ المزارع جيداً ، فلا يمنحه الثقة مثل ما يفعل تاكا . لقد نسي كل شيء عن الحياة هنا» .

«أتشعر الشعورَ ذاته ؟» . لكنني لم أُجبْ .

هدير الغاز العادم من سيارة الستروين التي تحمل تاكاشي والآخرين

ارتفع في ضجة غير متوقعة الى السور الحجري حيث كنا واقفينِ ، ثم تطامَنَ في مستطيل السماء الذي تحدُّه الغابة العظيمة ، مخلِّفاً أصداء مضاعَفَةً تتقاطع عبر الوادي ، وعندما اختفت السيارة بسرعةٍ مثل صداها ، طفا في هواء الصباح المبكر لوادٍ لم تعد فيه أي حركةٍ ، بيرقٌ مثلثٌ من ضوءٍ أصفر فاقعٍ غريب . البيرق يخفق بهيجاً من سارية العَلمَ على مخزن الساكي العائد إلى صانعي الخمر ـ وهي عائلة قديمة مثل عائلتنا ، وكانت مع عائلة نيدوكورو ، إحدى اثنتين هوجمت منازلهما في انتفاضة الفلاحين العام ١٨٦٠ . صانعو الخمر تركوا القرية الآن . وقد اشتُري مخزنهم ، وهُدَّ أحد جدرانه ليقوم سوبرماركت .

قلت وقد ازداد فضولي : «البيرق مطرَّزٌ عليه "3S2D" ، ماذا يعني ذلك بحق الجحيم ؟» .

«Self- Service Discount Dynamic Store ، طبعاً . رأيت ذلك أمس في منشورٍ إعلانيَ وُزِّع مع الصحيفة المحلية . يبدو أن مالك السوبر ماركت أتى بالفكرة من زيارته اميركا . على أي حال ، أنا أحب هذا التعبير بالرغم من لغته الإنجليزية اليابانية . إنه تعبير لطيفُ قويّ» . قالت ذلك في نبرة صوتي أثارت ريبتي .

قلت : «أتساءلُ ، كم أنت متأثرة حقاً ؟» وكنت أبحث في ذاكرتي المتعبة عن مرأى الوادي المألوف كي أقرر إن كان البيرق يُرفع عادةً كل يوم . «لا أظن أنني رأيت البيرق من قبلُ» .

«أعتقدُ أنهم رفعوه بسبب التنزيلات ، اليوم . تقول جن إن الناس في أيام التنزيلات ، يأتون ليتسوقوا ، ليس فقط من البيوت الممتدة على حافة الغابة ، وإنما من القرية المجاورة أيضاً . وهم يأتون بالحافلة ، على الطريق الذي يحاذي النهر» .

«على أي حال . الإمبراطور ذكيّ» . قلت مشيراً الى البيرق المثلث وهو يخفق في نسيمٍ أصَّاعدَ للتوّ .

«نعم...» قالت ذلك ، لكنها كانت مشغولة بفكرة مختلفة ، «افترضْ أن كل الأشجار في هذا الوادي قتلها البرد وتعفنت حيث هي واقفة الآن ـ فإنني أتساءل كم سيتحمل أهلُ التجويف ، الرائحة ؟» .

كنت أوشك أن أجيب بالتطلع الى الغابة حولنا ، غير أن هاجساً منعني ، فظللتُ أنظر إلى الأرض حيث إبر الجليد بدأت تتكسر . نَفسي المتجمدُ هبط نحو الإبر ، وظلَّ معلّقاً ، ينتشر أفقياً ، مع إحساس متزايد بالانكماش ، لكنه لم يختفِ نهائياً . وبينما كنت أراقبه استفاقت فيّ ذكرى ، ذكرى العَطَن الخانق المنبعث من الأوراق السمينة لنباتات الزينة المتعفنة من ضربة الصقيع .

استعجلتُها مرتعشاً : «حسناً ، إذاً ، لنُنهِ فطورنا في وقته» .

لكنها ما ان استدارت وخطت خطوةً إلى أمام ، حتى تحركت إبر الجليد تحت قدميها . فجأة فقدت توازنها وسقطت ، ملطخةً يديها وركبتيها بالوحل المتجمد . إن إحساسها بالتوازن ، المعطل بعد ليلة طويلة من السكر ، كان مهيّأً للإنقلاب دوريّاً ، بفعل أي قوّةٍ ، جسمانيةً كانت أو سيكولوجيةً . والأكثر من ذلك ، في تلك اللحظة بالذات ، أن الذكرى المتجددة لتلك الرائحة في منخريها ، ربما قلبتْ توازنها أكثر . يبدو أنها سقطت ، بسبب أشباحٍ لنباتات زينة كانت ماتت في بيتنا بطوكيو .

منذ زواجنا ، ظلت تتعهد نباتات مطاط ، ونباتاتٍ قزمةً ، وسراخس ، واوركيدات ، في دفيئة زجاج صغيرة أقامتها في الجهة الجنوبية من غرفة الطعام والمطبخ المشتركة . أواسط الشتاء ، وكلما جرى التنبؤ بموجة البرد ، كانت تبقي نار الغاز موقدة طوال الليل في غرفة الطعام ، وتستيقظ

كل ساعة لتجعل الهواء الدافىء يدخل الدفيئة . لقد اقترحت اقتراحات عدةً تُيَسِّر الأمر ، مثل ترك الفاصل بين غرفة الطعام والدفيئة مفتوحاً قليلاً ، أو وضع موقد فحمٍ في الدفيئة ، لكنها كانت جدَّ مرتعبة من اللصوص والنيران منذ طفولتها فلم تتحمل حتى التفكير بهذه الإقتراحات . وبفضل هذه اليقظة العصابية امتلأت الدفيئة من أرضيتها الى سقفها بموجة متوحشة من النبات . لكن كان صعباً عليها ، هذا الشتاء ، وهي تشرب الويسكي لتنام ، كما تفعل كل مساء ، أن تهتم بالدفيئة من أواخر الليل حتى الفجر . كما كنتُ أنا مذعوراً أيضاً من فكرة استعمالها المدفأة الغازية وهي سكرى في ساعات الفجر الأولى . وعندما أعلنت الإذاعة ، التنبؤات الجوية ، محذّرةً من الوصول الوشيك لأول موجة برد في الشتاء ، انتظرنا الموجة في الحالة الذهنية ذاتها ، التي تنتظر فيها قبيلةٌ ضعيفةٌ اقتراب جيشٍ جبّار .

في صباحٍ مبكر ، بعد ليلة باردة جعلت النوم صعباً ، ذهبت الى غرفة الطعام ، ونظرت الى الدفيئة عبر الباب الزجاجي ، لأجد أوراق النباتات مبقّعةً بُقعاً مُسودّة ، بل أن عينيَ لم تكتشفا شيئاً منذراً بسوء ، الأوراق متضررة كلها ، لكنها لم تذبل بعدُ . فقط حين فتحت الباب الزجاجي ودخلت ، ادركت في صدمة شديدة ، المدى الحقيقي للضرر الذي لحق بنباتات زينتنا . لقد تراجعت أمام الرائحة الطاغية الفجّة مثل نتانة فم كلبٍ يسيل لعابه ، التي ملأت المكان . بعد أن سيطرت الرائحة على ذهني ، رأيت نباتات المطاط ، والنباتات القزمة ، وكلها ذات أطياف مختلفة من الخضرة الحقيرة ، مثل عمالقة طوالٍ ، يموتون حيث يقفون ، وأوراق الأوركيد الواسعة الفاسدة تزحف عند قدميّ مثل حيوان مريض . خانتني قواي ، وعجزت عن فعل أي شيء ، فعدتُ الى فراشي ونمت ، وأنا لا أزال مسكوناً بالرائحة التي يبدو أنها تسللت إلى كل جزء من

جسدي . عندما استيقظتُ قبل الظهر بقليل ، وجدت زوجتي تتناول ، صامتةً ، فطوراً متأخراً ، لكن الرائحة الكلبية المألوفة المنبعثة منها ذكّرتني فوراً بالدقائق التي أمضيتُها في الدفينة ، بينما هي تنام غير واعية . من كل مظاهر الخراب التي ظهرت في منزلنا منذ شرعت زوجتي تنجرف مع الأعماق السفلى لسُكرها ، لم يدهمنا مظهرٌ ، كما دهَمنا هذه المرة بمثل هذه الفوريّة الفجّة . تغلبتُ على قرفي ونظرت ثانيةً عبر الباب الزجاجي ووجدت في ضوء الشمس القوي ، أن العلامات السود قد انتشرت فعلاً على الخضرة كلها ، وأن الأوراق الذابلة تتدلى من سوقها مثل أكفٍّ من أرساغٍ مكسورة . كان احتضار النباتات واضحاً جداً .

أجل ، فكرتُ لو أن كل أشجار الغابة المطبقة على الوادي تضررت بالصقيع ، لغمرت أهل القرية نتانةٌ مثل نتانة أفواهٍ مريضة لمليون كلب . الفكرة جعلتني أشعر بأنني أنا أيضاً قد أفقد توازني على إبر الجليد المتداعية . عدنا ، سوية ، إلى البيت ، في صمت مصعوق ، وأنهينا فطورنا في جو من الكآبة ، مختلفٍ تماماً عن الجو السابق ، حين كان تاكاشي يتوسط مجموعتنا .

عصراً ، جاء ساعي البريد برسالة من موموكو ، وأخبرنا أن لدينا رزمةً تنتظر في دائرة البريد . الرزمة تحتوي على « مقعد سهل » كانت زوجتي قرأت عنه في مجلة إعلانات وطلبت من أهلها شراءه لها . وحسب التعليمات المرفقة كان هذا المقعد كرسياً بلا مقعد . وحين يوضع فوق المرحاض الياباني التقليدي يمكن لمستعمله الإفراغ وهو في وضعية المرحاض الغربي ، وبلا ضغط على الركبتين . لقد أرادت أن تزود جن بواحدٍ ، كي تريح « أسمن امرأة في اليابان » من عبء جسمها الهائل في أوقات كهذه . يمكن الإعتراف بأن ثمت شكاً في تحمُّل الأنابيب المعدنية الخفيفة التي رُكِّبَ منها

«المقعد السهل» ، ثقل ٢٩٠ باونداً أو أكثر ، أو في اقتناع جن التقليدية باستعمال شيء كهذا . لكنّ وصول « المقعد السهل» شجّعَنا ، ولأننا منزعجون من البقاء في المنزل منتظرين الآخرين ، خرجنا فوراً ، منحدرين على الممشى ذي الأحجار المبثوثة .

بينما كنا نمرّ بالسوبرماركت ، توقفنا لنتفرج على الحركة غير الاعيتادية للناس هناك . الجو المفعم بالحيوية ، ذكّرني ، فوراً ، بالجموع في مهرجان المزار أثناء سنواتي بالوادي .

بعيدين قليلاً عن الإزدحام على الأبواب ، كان أطفالٌ في أفضل كيمونو مستغرقين في لعبة قديمة لركل الأحجار ، وقد ذكّرني مرحهم أيضاً بأيام المهرجان . إحدى البنات كانت ترتدي كيمونو قرمزياً مع شكل لأبي الهول مَحيكٍ بالذهبي والأخضر . الكيمونو الذي لا بد أنه وقع في أيدي والديها أيام شحّة الطعام ، لقاء كمية معينة من الرز ، كان مربوطاً بنطاق فضيّ ، وعلى الظهر جرس كروي ذهبيّ بحجم قبضة رجل ، وحول رقتبها ياقة قرمزية من فروٍ مقلّد . كلما ركلتْ حجراً صدرت عن الجرس صلصلةٌ عالية يجفل لها الأطفال الآخرون . علمٌ أحمرُ زاهٍ يتدلى من أفاريز المستودع الذي هُدَّتْ جدرانُه ، واستُبدل بها البلاستيك . العلم يحمل بحروفٍ خُضرٍ ، الأسطورةَ :

3S2D مخزن كل شيء
المخزن الذي يتحدث عنه كل شخص
يعلن الآن ، امتناناً لرعايتكم
تنزيلات كبرى خرافية!
لا تَفُتكم هذه التنزيلات الخاصة الأخيرة لهذا العام!
المخزن مُدَفَّأٌ بالكامل

قلت : «مخزن مدفأ بالكامل . إن هذا لشيء معتبرٌ . أليس كذلك ؟» .

« كل ما يعنيه هذا ، أن هناك بضع مدافيء بَطينة في المكان » . قالت زوجتي ذلك ، وكانت اصطحبت مومو كو إلى المخزن ، عدة مرات ، من قبل ، لابتياع حاجيات .

النسوة اللائي تسوّقن ، لم يبدين أي حركة للمغادرة ، بل مكثن أمام النافذة الزجاجية العريضة الممتدة بين المخرج والمدخل (كان الزجاج مغطى بأسعار المواد المختلفة ، مكتوبة بطلاء أبيض ، ولهذا لم يكن بمقدورنا أن نرى ما بالداخل ، من موقفنا) . إحدى النساء ضغطت جبهتها على الزجاج ، متطلعةً الى ما وراء الحروف البيض . قبل مرور وقت طويل ، خرجت زوجة مزارع ترتدي بطانية متعددة الألوان على كتفيها ورأسها مثل امرأة هندية من أميركا الجنوبية ، وتحمل في ذراعيها حقيبةً ملأى بالمشتريات . موجةٌ من التأوهات الحاسدة تصاعدت من النسوة الواقفات في الخارج . وعندما مدّت النسوة حولها مخالب قردٍ ليلمسن البطانية ، أخذت زوجة المزارع ، وهي امرأة ضئيلة ، توصوص وتزعق ، في ضحكة عالية ، كأنما كنّ يدغدغنها .

لأني كنت بعيداً عن الوادي ، مدةً طويلة ، ظننتُ أنهن قد يكنّ غريباتٍ عن القرية ، لكن الأمر كان مختلفاً . فهذا النوع من السلوك لا بدّ أنه نشأ ، عفوياً ، بين أهل الوادي .

كنا نبتعد صامتينِ ، حين رأينا الكاهن الشابّ من المعبد ، يخرج وراء النسوة ، ضامّاً رزمة من المشتريات إلى صدره . تعمقت الحمرةُ باطّرادٍ على وجهه السمح الباسم ، حين رآنا ، وجاءنا . تحت الشعر الأشيب مبكراً ، القصير ، المغسول جيداً ، التوردُ الخجولُ على خديه ، وحول عينيه ، مما يعطي الإنطباع عن أرنبٍ حديث الولادة .

شرح لنا الأمر ، مرتبكاً : «جئت أشتري فطائر رز للسنة الجديدة» .

«فطائر رز ؟ هل ترك الكهنة عادة جلبِها الى المعبد ؟» .

«لا أحد في عوائل الوادي يهرس الرز ليصنع فطائره هذه الأيام ، كما ترى . والناس يشترونها من السوبرماركت مقابل الرز الخاص المستعمل فيها ، او يشترونها نقداً . إنها حالةٌ أنموذجيةٌ للطريقة التي تتفكك فيها وحدات حياة الوادي تدريجاً ، قطعةً بعد قطعة . إنها كالطريقة التي تتكسر فيها خلايا ورقة العشب . لا بد أنكِ رأيتِ ورقة عشب تحت المجهر عندما كنتِ في المدرسة ، يا ناتسومي ؟» .

«نعم» .

«لو تذكرتِ ، فإن لكل خلية في الورقة شكلاً محدداً . وعندما تنهار ، وتغدو بلا حدود ولا شكل ، فمعنى هذا أن الخلية متضررة أو متينة . وعندما يزداد عدد الخلايا التي بلا شكل ، تتعفن الورقة . والأمر ذاته مع الحياة في الوادي ، أليس كذلك ؟ لن تتوقعي أن تمضي الحياة عندما يفقد كل عنصر من عناصرها الأساسية شكله . لكنني لا أستطيع أيضاً أن أدعو أهل الوادي الى وجوب عودتهم الى مدقاتهم القديمة وهاوناتهم الحجر التي استعملها آباؤهم . سيقولون إني دعوتهم الى ذلك ، لسبب واحد هو أني أردت الفطائر!» ، وأطلقَ ضحكةً صغيرة .

المماثلة مع النبات كان لها تأثير عميق فينا . وكل ما استطعناه من ردٍّ على ضحكة الكاهن ، كان ابتسامةً واهنةً من زوجتي . امرأتان أو ثلاث خرجن من السوبرماركت فحيّتهنّ الأخريات المنتظرات في الخارج ، لكنّ إحداهن ، وهي فلاّحةٌ وَسَطٌ ذات وجه محتقن مثل لون النحاس العميق هتفت فجأة ، مهتاجة : «أي قُمامة!» بصوت حاد . وكانت في الوقت نفسه تنحني وتضحك حاملةً لعبة بلاستيك زرقاء في شكل مضرب غولف .

قالت زوجتي متعجبة : «مضرب غولف ليس له فائدة في الوادي ، أليس كذلك ؟ حتى لو كان لعبةً ، وإنني مندهشة لشرائها أشياء كهذه» .

قال الكاهن ملتفتاً عنّا : «هي لم تشتره . المواد التي بدون أكياس هي هدايا ـ البطانية ، اللعبة ، وكل هذه ، هدايا . هناك يا نصيب في أول المدخل حيث بإمكانك أن تربح كل أنواع الجوائز الغبية . ولهذا تأخر حتى الذين أكملوا تسوُّقَهم كي يشاهدوا حظوظ الآخرين» .

أثناء ذهابي مع الكاهن ، وناتسومي بيننا ، الى دائرة البريد ، تحدثنا عن الكارثة التي حلت بالدجاج ، وبجمعية الشبّان . كان سمع عن موت الدواجن ، لكن لونه شحب حين سمع أن تاكاشي ذهب الى البلدة ليبحث كيفية معالجة الكارثة مع الإمبراطور .

«إن كانوا يريدون أن يطلبوا من تاكاشي فعل ذلك ، فلماذا لم يتصلوا بالإمبراطور قبل موت الدجاج ؟ لكن كل ما يفعلونه هو ضرب أخماس بأسداس! إنهم لا يتصرفون إلا بعد فوات الأوان» .

غامرت باعتباري مراقِباً محايداً : «ربما أرادوا أن يظلوا مستقلين عن الإمبراطور قدر الإمكان ، حتى لو تعيَّنَ عليهم أن يخلقوا وضعاً يُرغمون فيه على الإستسلام الكامل له» .

«الواقع ، أن السبب الحقيقي لإخفاقهم في المقام الأول ، هو أنهم لم يريدوا عقداً يسلِّمون بموجبه ، البيض كله ، مباشرةً ، إلى السوبرماركت ، وحاولوا التمسك بحقهم في توسيع قنوات مبيعاتهم الى الأسواق الأخرى ، ومخازن البيع بالمفرد . إنها لفكرةٌ خرقاءُ بدأوا بها . فالأرض والمبنى حيث يُربَّى الدجاج يعودان الى مالك السوبرماركتات . نظرياً ، الأرضُ التي قامت عليها المستوطَنة الكوريةُ ، بيعتْ بعد الحرب الى الكوريين الذين كانوا يقومون بأعمال سخرة ، حطّابين في الغابات ، لكن لم يمرَّ وقتٌ طويلٌ حتى

احتكر أحدهم الأرضَ ، بشرائها من البقية . ظلت ثروة هذا الرجل تزداد وتزداد ، والنتيجة : الإمبراطور الذي تراه الآن » .

أصابتني صدمةٌ عميقة . إذ حتى بعد أن سمعوا أن تاكاشي وأنا سوف نبيع المستودع الى مالك السوبر ماركت ، لم تتحدث عائلة جن ، ولا معارفنا القدامى في الوادي ، عن مهنة الإمبراطور السابقة .

قالت زوجتي : « آملُ فقط أن يحيط تاكا بالظروف في مفاوضاته مع الإمبراطور . أنا قلقة حول إن كان مجموعة الشبّان أخبروا تاكاشي ، حقاً ، بالقصة الكاملة » .

كانت تشك ، خصوصاً ، بقنفذ البحر ، لأنه تكلم مع تاكاشي بصوت منخفض ، متناسياً إيّانا ، بإصرار .

لديَ الكثير مما يشغلني عن التفكير بالإحباطات الحقيرة التي سيلقاها تاكاشي في محاولته التعاون مع الإمبراطور . ولقد أصاب الإعياء ذهني ، بسبب صمت أهل القرية عن الطبيعة الحقيقية للإمبراطور .

قلتُ : « حتى لو حصل على الجنسية اليابانية الآن ، فإنّ منح رجلٍ كوريّ الأصل ، لقب « امبراطور » يعني خبثاً مؤصَّلاً . إنه فعلٌ من أفعال أهل الوادي . لكني مستغربٌ لأن أحداً لم يخبرني » .

قال الكاهن : « الأمر بسيط يا ميتسو ، فأهل الوادي لا يريدون الإعتراف في هذه المرحلة بأنهم تحت السيطرة الإقتصادية لرجلٍ كوريّ كان يقطع الخشب ، باعتباره عامل سُخْرةٍ في الغابة ، قبل عشرين سنة فقط . وأعتقدُ أن الشعورَ ذاته ، الكامن في أنفسهم ، هو الذي جعلهم يختارون ، عن عمدٍ ، لقب امبراطور يخلعونه عليه . إن الوادي منحطٌّ ، ولا أمل فيه » .

وافقتُ بكآبة : « قد تكون على حق » ينبغي عليّ الإعتراف بوجود

أفكارٍ عن انحلال وانحطاط شنيعين ، عن شيء قذرٍ وشرّير يكمن في قرارة العلاقة بين القرويين والإمبراطور . «لكني لم أجد شيئاً مباشراً يشير إلى الإنحطاط ، خاصة في ما رأيتُ وسمعتُ منذ عودتي إلى الوادي» .

قال الكاهن : «لقد اعتادوا الأمر ، وتعلموا فنَّ إخفائه عن الغرباء» ، كان يتكلم كمن يفشي سراً .

«ترى ، أي نمط من الناس ، هذا الإمبراطور ؟» .

«تعني ، أهو شرّيرٌ أم لا ؟ أعترفُ يا ميتسو ، بأنني لا أملك شيئاً ضده مباشرةً . في ما يخص الممارسات التجارية ، أرى أهل الوادي ، أسوأ منه مع هذا ، فهو الذي يحسّ بالوخزة في المدى البعيد . وأمامك قضية الدجاج . أحياناً أقلقُ ، متسائلاً عمّا يدّره لأهل الوادي ، لكني لا أستطيع أن أقول شيئاً هذه اللحظة وقد مضت الأمور إلى هذا الحدّ» .

«تظل الأمور كريهةً . إنها تجعلني أدرك بصورة متزايدة أن ثمت خطأً في الوادي بمجموعة» .

«بالنسبة لنا ، الأمور أكثر من كريهة» ، ثبّتَ عينيه عليّ في نظرةٍ حادَّة ، ثم مضى يقول حزيناً : «أنا عاجزٌ عن الشرح ، يا ميتسو . الشيء الوحيد المؤكد هو أن الوادي منحطّ» .

عدّل وضع كيس فطائر الرز في ذراعيه ، ومضى خفيفاً كأنه خائف من أن أسأله المزيد .

أسرعتُ في طريقي ، أما زوجتي التي خلّفتُها ، فقد تبعتني مهرولةً . تسلمنا الرزمة التي تحتوي «المقعد السهل» من دائرة البريد ، وعدنا على طريق الحصباء ثانيةً . توقفت زوجتي عند السوبرماركت واشترت فطائر رز لنا ولعائلة جن . هي لم تكن بعيدة تماماً عن الشعور بالإستياء والغضب الذي أحسُّ به من تحويل مستودع الى سوبر ماركت ، لكنها ، في الأقل ، لا تجد

في الأمر عقبةً كأداء . خرجت من السوبرماركت ومعها ضفدعة بلاستيك خضراء ربحتْها . اشتكتْ مستاءة : «تصوَّرْ... هذه أول يانصيب ربحتُه منذ زواجنا!» .

فككنا رزمة «المقعد السهل» واكتشفنا جهازاً بسيطاً مكوناً من حني أنبوبين على شكل U وربطهما بمساند . قدَّمَ لنا الواقع غذاءً للتفكير : ليس سهلاً إقناع جن باستعمال الجهاز . وقد تعتبره «زبالة» بتعبير مليء سُمّاً ، أو محاولةً مني للهزء بها . هكذا تركت لزوجتي مهمة شرح «المقعد السهل» . وفي الوقت نفسه استدعيتُ أطفال جن الى الحديقة الأمامية ، وأشعلنا ناراً صغيرة من الحبال وصندوق الورق المقوّى ، أي من رزمة المقعد . وفي إشعالي النار كنت مشغولاً بالشرر المتطاير من التوقعات المتصلة بالامبراطور الذي عليّ أن ألقاه فيما بعد .

الأطفال سمعوا بموت دجاج جماعة الشباب . وحسب أولاد جِن ، كان الشباب يقومون بدوريات حراسة لبيوت الدجاج خشية أن يأتي أهل الوادي فيسرقوا الدواجن الميتة . إن ما كان مستوطَنةً كورية كان مثل قفيرِ نحلٍ قذر ، مدفونٍ بالكامل تحت أقنان الدجاج ذات الطبقات المتعددة ، والرفوف التي يجفّ عليها الذرقُ ، والمنطقة بأسرها مغلّفة بأبخرة كثيفة منتنة . ذلك الصباح كانت المخلوقات المسكينة منطرحةً ميتة ، كل واحدة في قفصها الضيّق . أولاد جن كانوا مع الأطفال الآخرين يتفرجون ، وقد أبعدتهم دوريةٌ من الشبان . شكا ابن جن الأكبر : «كانوا في غاية الجنون ، كأننا نحن الذين فعلناها! من يريد أن يسرق دجاجاً ميتاً ؟ إنني أسألكم ؟ إن لم يكونوا غاضبين جداً ، فقد فعلوها هم أنفسهم» . كان كلامه مزيجاً لا يوصف من الرقة والحدَّة .

أطلق أولاد جن الهزيلون ضحكةً عالية . واضحٌ أن ضحكتهم الساخرة

تخفي اللامبالاة الباردة ذاتها إزاء جماعة الشباب ، وإخفاقهم في تربية الدواجن ، اللامبالاة التي يظهرها الكبارُ في الوادي . للمرة الأولى شعرت بالرثاء للجماعة المحصورة بين الإمبراطور ـ الذي صرتُ أعتبره وحشاً مخادعاً ـ وكبار الوادي المخادعين مثله . والأمر نفسه كان مع جماعة المسرَّحين الشباب الذين أدّت أنشطتُهم العنيفة الى موت س : الموقف المتخذ إزاءهم من جانب الكبار الذين استخدموهم لأغراضهم ، كان مؤسساً على الحذر والإحتقار . أنا لم أدرك هذه الحقيقة ، إلا بعد أن نجوت الى العالم الخارجي حيث بمقدوري النظر موضوعياً إلى الحياة اليومية في القرية ، وإلاّ بعد أن تجاوزتُ السنَّ التي مات فيها س . هناك فرق واحدٌ ، بالطبع ، هو أن الأطفال في الماضي وقفوا ضد الكبار ، وألّهوا الشباب ، أما الآن فالأطفال غير مبالين إزاء الشباب ، شأنهم شأن الكبار أنفسهم . انطفأت النار ، مخلِّفةً قرحةً سوداء دافئة في التراب المتجمد . الأطفال سحقوها بأقدامهم . قالت زوجتي عائدة من البناية الخارجية : « بمقدوركم الدخول الآن ، هناك فطائر رزّ لكم » .

لكنهم أهملوا معلومتها المقصودة ، وظلوا يخمدون النار ، دوساً بأقدامهم . كانوا ذوي عزّةٍ في كل ما يتصل بالطعام . وقد يكون سبب نحولهم أن أمهم التي تكره نهمها كرهاً شديداً ، تشعر أن في كل طعامٍ أشواك العذاب ، وقد زرعت هذا الكره في أنفسهم أيضاً .

قالت زوجتي : « كانت جِن جدَّ راضية » .

« ألم تغضبْ ؟ »

« عندما رأت الجهاز للوهلة الأولى ، قالت إنك تمازحها ، لكني جعلتها تفهم أخيراً أنني أنا طلبتُه . لقد استعملت بالفعل كلمة « مزاح » .

« نعم ، تستعلمها ، كانت كلمة استعمالٍ يوميّ في الوادي ، هنا ، حتى

وقت كنتُ صغيراً ، في الأقل . كنت كلما أطلقتُ فكاهةً ، قالت أمي إني كنت « أمزح » مع والديّ . وماذا عن هذا الجهاز ؟ أتظنينه نافعاً جن ؟ » .

« أظن ذلك . وعليها أن تنتبه فلا تسقط جانباً ، وتتأذى ، لكن التجربة الأولى ، في الأقل ، كانت ناجحة » . امتنعت عن ذكر تفاصيل اخرى بسبب الأطفال الذين كانوا متحلِّقين ، مرهفي الأسماع ، ثم قالت بدون مقدمات : « سألتني جِنْ ، وهكذا أخبرتُها عن الطفل » .

« آه ، حسناً . كل شخص يأتي معه بجهاز كهذا ، يحتاج ، طبعاً ، إلى تقديم اعترافٍ ما ، حتى لو كان الغرض جعل الشخص الآخر أقلَّ ارتباكاً » .

« لن تكون مرتاح المزاج حين تسمع ما قالته جِن . ليس لأني أومنُ بما تقوله ، طبعاً » ، تبدو كأنها تصارعُ حاجزاً ما وهي تتحدث « قالت جِن إنها تتساءل عمّا إذا كانت تشويه الطفل ناتجاً عن سببٍ وراثيّ لديك » .

تدفّقتْ فيَّ موجة من غضب حارق . وللحظةٍ كان يكفي أن أطهِّر ذهني من الظل الماثل للإمبراطور . ناضلتُ لأرتِّبَ دفاعاتي ، محتقناً بإدراكٍ مشتّت ، كأنّ عدوّاً غامضاً يهاجمني .

« أسسُ شكها واهيةٌ حقاً » تحدثت متعجلةً ، محمرّة الوجه استجابةً للإحتقان الذي انتشر على وجهي كله . « مرةً ، فقط ، عندما كنت أصغر من أن تدخل المدرسةَ الإبتدائية ، حدثت لديك نوبة تشنّجات » .

« حدثت لديّ نوبة ، وأُغمي عليّ ، بينما كنت أشاهد مسرحية المدرسة » . قلت ذلك وأنا أحس بالراحة ، بالراحة العميقة في حجمها قياساً بالصدمة الأولى ، مع إني لا أزال أشعر بحرارة الغضب في كل زاوية من جسدي .

زعق أولاد جن ضاحكين . ربما أفادت ضجتُهم الطفولية المصممة على إهانتي وزوجتي في تصفية حساباتنا السيكولوجية ، فحين عنّفتُهم تراجعوا مسرعين ، ضاحكين ، وغير مستائين ، بحثاً عن أمهم البدينة وفطائر الرزّ . أما نحن فقد عدنا الى المدفأة . أحسستُ بأن عليّ أن أخبرها الخبرَ اليقينَ عن الروح الشرير الذي زارني بلا مقدمات في هيأة طفل صغير عندما كنت أشاهد المسرحية المدرسية ، وأنّ عليّ أن أسحق بذور الشكّ ، وإلاّ نمتْ في داخلها ، هذه الليلة ، عندما تسكر .

المسرحية موضع السؤال ، التي غالباً ما تُعتبر آخر مسرحية تقدَّم في المدرسة الإبتدائية ، حتى إعادة المسرح المدرسي بعد الحرب ، لا بدَّ إنها تلك التي قُدمت في خريف السنة التي بدأت فيها الحرب . أبي كان في شماليّ الصين يؤدي عملاً ذا طبيعة غير محددة ظلت سرّاً ليس لنا نحن الأطفال فقط ، وإنما لجدتي أيضاً التي كانت لا تزال على قيد الحياة ، ولأمي كذلك . ومن أجل ذلك العمل كان يبيع من الحقول ما يكفي للحصول على مال ، كي يعبر المضايق ، ويقضي أكثر من نصف العام في الصين . أخي الأكبر كان في جامعة طوكيو ، وس في المدرسة المتوسطة بالبلدة القريبة ، ولهذا تتألف العائلة في منزل الوادي من جدتي وأمي وجن والأطفال ـ أنا وأخي الأصغر وأختي حديثة الولادة . هكذا ذهبنا نحن الأطفال الثلاثة وجن ، ذلك اليوم ، حاملين الدعوة وهي موجهة الى أبي ، كي نحضر المسرحية المدرسية . أنا وتاكاشي جلسنا الى جانبي جن ، بينما كانت تحمل الطفلةَ على ظهرها ، وكانت أرجلنا متدلية من الكراسي الخشبية في منتصف الصف الأمامي ، بأوسع غرفة من غرف المدرسة الإبتدائية . بإمكاني استعادة المشهد بوضوح كأنه لي عيناً ثالثةً في سقف الغرفة المدرسية تمنحني الرؤية من علُ .

على مبعدة ياردة أمامنا ، أقيمت خشبة المسرح ، بوضع منصّتين متلاصقتين ، وعلى هذه الخشبة أدّى التلاميذ الأكبر سنّاً مسرحيتهم . بدأت المسرحية بعدد منهم يرتدون مناشف قطنية حول رؤوسهم (من عدد الفصول المتقدمة يمكن القول إن العدد يتراوح بين أربعة عشر وخمسة عشر ، لكنّ عينيَ الطفوليتين رأتهم حشداً صغيراً) ، يؤدون حركات الزراعة في الحقول . كانوا ، باختصار ، مزراعي أزمنة قديمة . وسرعان ما رموا مجارفهم جانباً وشرعوا يتقاتلون مستخدمين الفؤوس والمناجل أسلحةً . برز قائدهم ، وهو شابٌ ذو جمال خارق ، حتى بالنسبة لعينيَ غير الناضجتين ، وتحت قيادته تدرَّبَ الفلاحون المسلّحون للمعركة التي سيقطعون فيها رأس أقوى رجل في العشيرة . صرّةٌ سوداء مثّلت الرأس ، وقد انقسم المزارعون الى مجموعتين تأخذ كلٌ منهما الرأسَ من الأخرى . في الفصل الثاني ظهر رجلٌ يرتدي ثياباً فاخرة وحذّر المزارعين من أخذ رأس النبيل ، لكنهم كانوا أكثر هيجاناً من الإنصات إليه ، ولهذا أخبرهم أنه سيأخذ هو نفسه الرأس . شخص يرتدي قناعاً مرَّ بالمكان المظلم حيث أعدَّ المزارعون كميناً ، لكن ، على حين غرَّةٍ ، يهوي الرجل ذو الثياب الفاخرة بالسيف عليه . دور الرجل المقنّع أدّاهُ تلميذٌ يعتمر السواد مع كرة سوداء مثبتة في الأعلى ، مما يجعله شخصيةً مخيفة أطول من الممثلين الآخرين . الرأس «الحقيقي» للرجل الذي هُوجم بالسيف سقط على خشبة المسرح بصوت عالٍ ، بينما صرخ المهاجم بالمزارعين المختبئين :

«واحسرتاه! رأس أخي!»

نزع المزارعون القناع ، وعرفوا رأس قائدهم الشاب ، فبكوا عارهم بكاءً مريراً . كانت جن أخبرتني بقصة المسرحية ، كما أني رأيت المسرحية عدة مرّات في التمرينات ، ولهذا كنت أعرف تفاصيل المشاهد

جيداً ، لكن حتى هكذا (إما في لحظة سقوط الرأس «الحقيقي» المصنوع من سلة خيزران ملأى بالصخور على الخشبة ، أو في صرخة «واحسرتاه! رأس أخي!» التي أجفلتني ، أو ثانيةً ـ حين أروي الأشياء كما أتذكرها ـ في اللحظة الحرجة حين يجتمع الأمران) كان الرعب ينتابني ، فأسقط صارخاً على الأرضية ، وأتشنّج ، وأفقد الوعي . حين أفقتُ من غشيتي ، كنت حُملت الى البيت ، وجدتي بجانبي تقول لأمي ، «الوراثة شيء مخيف ، حتى في ابن حفيدٍ» . كنت جدَّ خائفٍ حتى لقد أبقيت عينيّ مغمضتين ، وجسمي ساكناً ، متظاهراً بأنني لاأزال غائباً عن الوعي .

قلت لزوجتي : «هل تتذكرين عندما ظهرت أولى ترجماتي ، أنني تلقيت رسالةً من معلمٍ متقاعد في المدرسة الإبتدائية ؟ كان مساعد مديرٍ وقتَ المسرحية المدرسية ، كانت مادته الرياضيات ، لكنه كان يدرس أيضاً تاريخ المنطقة ، وهو الذي كتب المسرحية . لكن الحرب اندلعتْ ذلك الشتاء . وتحوّل النظام في السنة التالية إلى «المدارس القومية» . قال في رسالته إن ضجةً أثيرت حول المسرحية ، وبسببها خُفضتْ وظيفته الى معلم عاديّ . رددتُ على رسالته ، أسأله ، إن كان جدي الأكبر ، قتلَ ، حقاً ، أخاه الأصغر ، فأجابني قائلاً إنه الآ يتبنى الرأي القائل بأن جدي الأكبر ، في واقع الأمر ، سمح لأخيه الأصغر ، زعيم الإنتفاضة ، بالهرب إلى كوشي . كما سألته أيضاً عن الظروف الدقيقة لموت أبي ، لكنه قال في جوابه إن أمي التي لا بدَّ إنها تعرف شيئاً عن الأمر ، كانت غير راغبة في فهم أهمية الأمر ، بل حاولت ما أمكنها أن تنساه ، لهذا السبب ، لا أحد يعرف ، الآن ، أي شيء محدد عن موته» .

قالت زوجتي : «ألا يخطط تاكا للقاء ذلك المعلم ؟» .

«صحيحٌ أن تاكا مهتمٌ بالحصول على أسرار ووقائع عن الناس الذين

ماتوا في عائلتنا ، لكني أشكّ في أن المؤرخ سيكون قادراً على إرضاء ذوق تاكا في البطوليّ » ، قلتُ هذا ، وقطعتُ الحديث .

عند اندلاع الحرب ، أعلمَنا أبي أنه سيترك عمله في الصين ويعود ، لكنه اختفى دون أن يترك أثراً ، وبعد ثلاثة أشهر سلَّمَ شرطة شيمونوسيكي جثمانه إلى أمي . كانت ظروف موته مثار شكوك ، والشائعات كثيرة : مات بنوبة قلبية وهو في العبّارة ، رمى نفسه في البحر حين اقتربت العبّارة من الميناء ، أو مات تحت استجواب الشرطة ، لكن أمي التي عادت الى القرية ، بعد أن ذهبت لتأخذ الجثمان ، رفضت أن تقول شيئاً عن موته . بعد الحرب انزعج أخي س كثيراً ، بسبب الرفض الباتّ الذي يلقاه منها كلما حاول أن يحصل على تفاصيل موت أبي منها ، وكان هذا ، الدافع المباشر لخطته في إيداعها مستشفى للأمراض العقلية ، بُغيةَ فحصها .

في الأصيل ، هبَّ نسيمٌ مفاجىءٌ في مدخل الوادي ، مثيراً الغور الشبيه بالمغزل ، في هبوبه ، وحاملاً الى بيوت الوادي رائحةً غريبة ، مثل أكداس من الروث المحترق ، تبعث في النفس الكآبة الفوريةَ ، والغثيان . زوجتي وأنا خرجنا إلى الحديقة الأمامية وقد وضعنا المناديل على أنفينا وفمينا ، وانحدرنا ببصرنا الى الوادي ووراءه ، لكن كل ما استطعنا رؤيته كان دخاناً أبيض قليلاً يصعد في الهواء . حتى هذا لم يكن متميزاً ، وسرعان ما اختفى الدخان ذاته في دفعات الضباب الجديد ، التي لم تترك في الأعماق السود المحمرّة للسماء الشفقية سوى مِزَقٍ من دخان حاولت الارتفاع فوق طبقة الضباب الكثيفة ، كي تتكسر وتتناثر . وحيثما تمنحها الغابة السوداء أرضية ، تقف هناك بيضاء مشعّة مثل قطع لُعاب .

زوج جن وأولادها خرجوا من المبنى الخارجي ، ووقفوا جماعةً خلفنا

ببضع خطوات ، يراقبون أيضاً السماء الخفيضة . الأولاد كانوا يستافون الهواء محاولين تعيين الرائحة . أنوفهم الصغيرة ، مثل أصابع معتمة ، أكّدتْ بصخبٍ وحِميّة ، وجودهم في الظلام الذي يتعمق باطّراد . أمام مكتب القرية ، أيضاً ، ظهر عدد من الأشكال السود ، وكانوا يتطلعون الى السماء .

حين عاد تاكاشي وحرسُه الشخصيّ كان الظلام مطْبقاً . كانوا جميعاً قذرين منهكين على حدٍّ سواء ، لكن هوشيو كان صامتاً ، بينما تاكاشي وموموكو يتمتعان بروح معنوية عالية . أخي وفى بوعده وأحضر ست قناني ويسكي لزوجتي ، التي جفلت لا إرادياً حين رأت القناني واقفةً صفّاً . كما أنه اشترى سترة جلد لهوشيو ، وتنورة لموموكو . لكن بالرغم من ملابسهم الجديدة ، فإن الرائحة الغريبة ذاتها التي غلّفت الوادي ، انتشرت حولهم انتشاراً أوضح ، مثل غشاءٍ واقٍ .

سألنا تاكاشي وهو يناكد ، عامداً ، رد فعلنا تجاه الرائحة المنبعثة منهم : «لماذا تنظران إلينا مرتابينِ هكذا ؟ أي امرىء سيظنّ أننا قُتلنا في حادث ، عميقاً في الغابة ، وعُدنا لنخيفكما . اعترفُ بأننا جئنا ، في سرعة قصوى ، على درب جليدي ، وفي الضباب ، نسوق شاحنة عتيقة ، ذات دوّاسة قابض سائبة ، لكن هوشي دبَّرَها مثل عبقريّ . لقد قطع ذلك الطريق المعتم في الغابة بأقل المتاعب ، مثل كلبٍ يجري بمخالبه على طريق جليد . واضحٌ أن العصر الميكانيكي ينتج سلالة بشرية خاصة ، تكون حاستها السادسة موجَّهة إلى المكائن» .

قلت بكل صراحة : «تاكا ، أنت لستَ شبحاً ، لكنك ذو رائحة منتنة» .

أطلق ضحكةً قصيرة : «من لا تكون رائحته منتنة ، بعد حرق عدة آلاف من الدجاج ؟ لقد أنزلنا الألواح كلها من المداجن وأحرقنا كل شيء ـ الدجاج المتجلد ، الذرق ، وكل شيء . يا إلهي ، النتانة! أنا متأكدٌ من أنها سرتْ في دمنا» .

«ألم تتلقوا شكاوى من الناس ؟» .

«قُلْ إننا تلقَّينا! لكننا تركناهم يتكلمون ، حسبُ . في النهاية جاء شرطي ـ على أي حال ، كانت شعليلةً بحقٍ . لكنه حين رأى أربعة أو خمسة من الجماعة يسدّون نهاية الجسر ، آثرَ السلامة ، وعاد . هكذا اكتشف الشباب أن لديهم القدرة على مواجهة الشرطة . وكان ذلك مصدر تباهٍ لديهم . ربما ذهبت عدة آلاف من الدجاج في النار ، لكن بفضل الدجاج صارت الجماعة أكثر حكمةً . هكذا لم تكن الخسارة كاملة» .

انفجر هوشيو كأنه لم يعد يطيق صبراً : «لم يكن هناك داعٍ لإخافة الشرطي وإبعاده . لقد تغلبوا عليه لأنه كان وحيداً ، لكن لو جاءت التعزيزات فلن تكون أمامهم فرصة» .

ذكّرني هذا ، بإصراره على أن يتحداني حتى أواخر الليلة التي انتظرنا فيها تاكاشي بالمطار . واضحٌ أن هوشيو شابٌّ يصرّ على أفكاره المفضّلة لا دفاعاً فقط عن معبوده الحارس ، بل حتى لو تحوّل فعلُ هذه الأفكار ضدّه هو أيضاً .

«لكن ، يا هوشي ـ ما أن يبدأ الثلج ينزل ، والمواصلات تنقطع مع البلدة وقرية الساحل ، حتى لا يتبقّى سوى شرطيّ واحدٍ للتعامل معه بأي حال . عندما كنتَ صغيراً ، أُراهنُ أنهم كانوا يهددونك قائلين : سنخبر الشرطيّ إن لم تكن جيداً» .

قال هوشي قويَّ المواجهة : «لا أقول إن عليكم ألا تحاربوا الشرطة . في حزيران ذاك كنت معك ، مهما فعلتَ ، أليس كذلك ؟ لكن ، لماذا تدخل في متاعب مع الشرطة ، من أجل كمشةٍ من مُربِّي الدجاج ؟ هذا مايزعجني » .

موموكو ، التي كانت حتى الآن تقرأ رسائل من عائلتها ، تطلَّعتْ ، وتدخلت بصوتٍ ساخرٍ رنّانٍ ، كأنهم كانوا محض أطفال : «هوشي يتكلم هكذا ، لأنه يريد أن يحتكرك يا تاكاشي . لا داعي للنقاش ، سيظل هوشي يتشكّى مثل فتاة . لنأكل عشاءنا ونذهب الى النوم . لقد طبخت ناتسومي طعاماً جيداً» .

استدار الشاب شاحباً ، وعنّف موموكو ، لكن الهياج أفقده الكلام . وهكذا انتهى الجدال هنا .

«ماذا عن المفاوضات مع الإمبراطور ؟» سألتُ ، مع أني تأكدتُ الآن ، عبر تردد تاكاشي في دخول تقريره عن الإجراءات الرئيسة ، من أن الجواب لن يكون مفضَّلاً .

«لا فائدة . يبدو كأن الشبان يريدون أن يُنهوا كلَّ شُغلهم كي يتجنبوا السقوط أكثر فأكثر في قبضته . الإقتراح العملي الوحيد الذي قدّمه هو إحراق الدجاج ، كل الدجاج . أظنه كان خائفاً من أن يأكل أهل الوادي الدجاج الميت فتنخفض مبيعات الأطعمة في السوبر ماركت . حينما عدتُ ، وقلت إننا سنحرق الدجاج ، نظر إليّ عدد من أهل القرية نظرات شزراء ، هكذا يبدو أن لمخاوفه ما يبررها . لو سألتني ، ما الجدوى الوحيدة ، من سكب البنزين على الآلاف العديدة من الدجاج وإحراقها ، لقلتُ لك إن هذه الجدوى ، في الأقل ، هي تحويل الجشع الكامن في أدمغتهم نصف الناضجة . إلى كُرهٍ أحدَّ وأشدَّ» .

سألتُ مثقلَ القلب : «أي نهاية سعيدة كانوا ينتظرونها من إرسالك الى البلدة ؟» .

«ليس في أذهانهم أي شيء . لا مخيَّلة لديهم إطلاقاً . ربما توقعوا أن استخدم مخيَّلتي نيابةً عنهم . لكن غرضي من الذهاب إلى البلدة لم يكن تقديم مخيلتي على طبق . أردتُ أن افتح عيونهم المشوشة على الحقيقة ، وأجعلهم يدركون الجوع الكافر في أحشائهم!» .

ثم ضحكَ .

«أتعرف أن أصل الإمبراطور من المستوطَنة الكورية ؟» .

«هو أخبرني ذلك بنفسه ، اليوم . قال إنه كان في المستوطنة يوم قُتل س . ولهذا لديّ سببٌ شخصيّ في الإنضمام إلى الجماعة ، لمجابهته» .

«لكن ياتاكا ـ تولَّدَ لديَّ انطباعٌ ، مثلاً ، عن أنك لو أردتَ إيجاد تبريراتٍ لتكوين عصابة مع جماعتك ضد شرطي القرية البائس ذاك ، لأمكنك الحصول على أي عددٍ من التبريرات ، العامّ منها ، والخاصّ» قلتُ ذاك عائداً بالحديث الى جداله مع هوشيو في محاولةٍ لمنع ملحوظاته من إثارة أمواج قلقٍ جديدةٍ لديّ ، تتصل بإمبراطور السوبر ماركت . «يبدو لي مدخل هوشيو أكثر عدلاً منك» .

«عادل ؟ أما زلتَ تتحدث عن العدالة ؟» ، سألني ، وقد أفصحت ملامحه عن طُغيانٍ جعل الدم يبرد في عروقي حين راقبتُه . ثم صمت فجأةً ، بينما موموكو التي كانت قبل وقتٍ يسيرٍ تغمغم «دعونا نأكل» محاولةً أخذنا إلى المائدة ، تستغل الفرصة فتتوجه إليه مباشرةً ، معلنةً :

«كل الناس ، هناك ، قرأوا ذلك الكتاب عن الغوريللا الذي ترجمه ميتسو . يقولون إنهم الآن أسعدُ بعد أن عرفوا أني تحت سقف واحدٍ مع الباحث الشهير . أليس ميتسو عضواً حقيقياً في المؤسسة ؟» . واضح أن إبداء التأثر كان زائفاً .

قالت زوجتي التي كانت كرعتْ منذ الآن كأس الويسكي الأول : «ربما انسحب ميتسو من الحياة الإجتماعية ، لكنه لا يزال عضواً في المؤسسة ، بحقٍّ . ينبغي أن يتوضَّحَ ذلك أمام أمثالك ، يا تاكا ، وأنت النمط المقابل تماماً» .

قال تاكاشي مشيحاً بنظره عني : «هذا صحيح . واضحٌ تماماً ـ جدي الأكبر ، وجدّي ـ وزوجتاهما أيضاً ـ كانا من نمط ميتسو نفسه . معظم الأفراد الآخرين في عائلتنا ماتوا قبل الأوان ، أمّا هم فقد عاشوا مرتاحين سعداء طويلي الأعمار . تعرفين ياناتسومي ، أن ميتسو سيبلغ التسعين قبل أن يصاب ، مثلاً ، بالسرطان . حتى آنذاك سوف تكون الحالة خفيفة!» .

واجهتُه متردداً في ترك الأمر ، لكن هوشيو فقط كان المنتبه : «لوسألتني . فإنك متلهفٌ على إيجاد أنماط في شجرة عائلتنا . فإن لم تجد أنك أنت ذلك النمط ، فكلُ جهودك ستكون موجَّهة إلى عالم خياليّ ، لا فائدة فيه إطلاقاً» .

بعد العشاء ، أعطى تاكاشي زوجتي ، نصفَ التسبيقة التي أخذها من الإمبراطور ، لكنها كانت سكرى ، فلم تُبدِ اهتماماً . وكنت أوشكُ أن آخذ المبلغ ، حين قال :

«ميتسو ـ ماذا لو تبرعتَ بخمسين ألف ين لفريق كرة القدم الذي

أُشكِّلُه لتدريب جماعة الشبّان ؟ اشتريت عشر كُراتٍ من البلدة ، وهي في الستروين ، لكن المصروفات تتضخم » .

سألتُه بلومٍ : « هل كرات القدم غالية الى هذا الحدّ ؟ » . كان تاكاشي في فريق كرة القدم ، بجامعته .

« اشتريت الكرات بنقودي الخاصة . لكن عدداً ممن سيكونون أعضاء في الفريق ، يذهبون الى البلدة المجاورة ، كي يعملوا ، شغيلةً ، كما ترى . ولو لم أُعطهم ، يومياً ، مخصصاً يومياً ، لما طرفتْ عيونهم لمرأى كرة قدم » .

رياضةٌ غريبة

في الظلام الذي يلفّ هيأتي المعتمة ، وأنا نائمٌ ، بمقدوري أن أسمع صوت تشقُّقِ الخيزران في البرد . الصوت يتحول إلى مخلب فولاذ حاد ، ويخلّفُ خدشاً على رأسي الحارّ النائم . حلمي ذو مشاهد متغيرة ؛ مسلسل صور عن انتفاضة الفلاحين في الوادي تتصل ، دون انقطاع ، بذكريات اليوم ، قُبيل نهاية الحرب ، حينَ جُنِّدَ بالغٌ واحدٌ من كل بيت ، لقطع الخيزران في أجمة الخيزران الكبرى . ثم رجع المسلسل من تلقاء ذاته الى حلقة جديدة أدّتْ ، ثانيةً ، الى سنة ١٨٦٠ المشؤومة . غرقتُ ثانيةً في أعماق النوم ، منغمساً في إغراءٍ شريرٍ ، مُقلقٍ ، يترك الأحلام السيئة المألوفة تمضي بلا انتهاء بدلاً من الإستيقاظ ومواجهة الإمبراطور ، بجمسه الكوريّ القويّ ، وتعبير وجهه الذي لا يُقرأ ، وكل الأمور الجديدة المقلقة التي تصاعدتْ لتزعجني...

في حلمي الجديد ، الذي يجري في وقت بين ١٨٦٠ وآخر أيام الحرب ، الفلاّحون ـ مرتدين ملابس خاكي اعتيادية ، مع خوذ فولاذ على ظهورهم ، لكن شعرهم منعقد عُقداً إلى أعلى حسب الطراز القديم ـ كانوا منهمكين في قطع كميات ضخمة من أسل الخيزران . في أشخاصهم ،

الرجالُ الذين امتشقوا هذه الرماح أمامهم في معركة ١٨٦٠ كانوا يماثلون أولئك الذين كان عليهم في ١٩٤٥ أن يقوموا بهجمات الخندق الأخير على دروع الطائرات وسفن الإنزال . أمي كانت معهم هناك ، تخرب جذور الخيزران ملوِّحةً بفأسها . كانت تخاف أي نوع من آلةٍ حادّة ، ويكفي مجرد إمساكها بفأس كي يغمى عليها ، ولهذا كانت تقطع الخيزران عشوائياً ؛ العَرَق ينحدر على وجهها المرمد ، وعيناها مغلقتان بشدَّة . كان الخيزران ينمو لصق بعضه ، ولهذا كان وقوع الحادث حتمياً . فجأةً لوَّحت أمي بالفأس ، تلويحةً قوية ، كانت نتيجتها اندفاع المقبض وظاهر الكف على الخيرزان خلفها . أفلتت الفأس وضربت هامتها ضربةً مدوِّيةً . خفضت الفأس على الأرض ، غير متعجلة ، وبالهدوء نفسه لمست رأسها بيدها ، ثم وضعت يدها أمام عينيها ، ناظرةً إلى اللطخة الحمراء ـ حمراء غامقة مثل الفطائر الملونة المقدَّمة في طقوس إحياء الذكرى البوذية ـ في وسط راحتها . وقفتُ مسمَّراً إلى الأرض ، بامتعاض ورعبٍ بلغا أعماقي . لكن أمي ، على الضد مني ، بدت تستعيد حيويتها ، وقالت لي منتصرةً :« لقد ألحقتُ ضرراً بنفسي! الآن سأُعفى من التدريب! » ، تركت الفأس ، والخيزران المتضرر ، ومضت تهبط المنحدَر ، كأنها تتزلج على ركبتيها فوق النبات .

وبينما كنت وأمي مختبئين في المستودع ، جاءت كوكبة من الفلاحين الذين يحملون رماح الخيزران ، صعُداً ، على درب الحصباء . كان قائدهم تاكاشي ، في سنٍّ غير معلومة . وباعتباره رجل الوادي الوحيد الذي رأى اميركا والأميركيين ، فقد توسَّموا فيه ، دون ريب ، الرجلَ المعتَمد لقيادتهم مع رماحهم ضد القوات الأميركية التي سوف تنزل على الشاطىء وتهاجم البلدة . لكن هدف الكوكبة الأول كان المستودع ، حيث أمي وأنا مختبئان .

قالت أمي التي كان شعرها يتساقط بطريقة مزعجة عند جبهتها ، فوق وجهها العريض : «بإمكانهم هدم المبنى الرئيس وتسويته بالأرض ، لكن المستودع لن يحترق! لم يحترق في ١٨٦٠ أيضاً! تعرف أن جدك الأكبر أبعدَ المنتفضين بإطلاق مدفعه من مزغلٍ في المستودع» . بين يديّ بندقية من الطراز العتيق جداً ، لكن لم تكن لديّ أدنى فكرة عن استعمالها ، بالرغم من كل تحريضات أمي . وفي لمح البصر دُمِّر البيت الرئيس ، وأشعلت النار في المبنى الخارجي . أستطيع أن أرى شكل جن الضخم يتدحرج في ضوء اللهب . لقد قُطع عنها دربُ النجاة ، والسائل ينزّ من جسمها المعذَّب . تاكاشي ، باعتباره زعيم الغوغاء ، يشبه الآن تماماً ، الأخ الأصغر لجدنا الأكبر ، في ١٨٦٠ ، وهو يوجه التحديات إلى أمي ، وإليّ ، وإلى أرواح العائلة ، بينما نحن مختبئان في المستودع . أتباعه المحتشدون حوله كانوا أعضاء جماعة الشبان الذين درّبهم بخبرته في كرة القدم . قنفذ البحر والشباب الآخرون كانوا يرتدون زيّاً موحداً ، مكوناً من بيجاما قديمة الطراز مخططة أفقياً ، وشعرهم منعقد الى أعلى في عُقد سوداء لامعة كبيرة . وبصوتٍ واحدٍ استفردني الحشد ، للهجوم :

«أنت لست سوى فأر!» .

حتى ذلك الحين ، كان وعيي في الحلم ، مكوَّناً من مقلتين سليمتين تحلقان عالياً فوق الوادي ، وتنسحب وراءهما حزمة أعصاب أشبه بالميكروفون . لكن صرخات الحشد أسقطت المقلتين ، ومعهما انهارت قواي ، وأنا أجلس بلا حول ، في المستودع ، والبندقيةُ العتيقة على ركبتيّ .

أستيقظُ متأوهاً . حتى الآن ظل الوجع العاطفي للحلم مستمراً في جسمي . والأكثر من ذلك أن الحلم لم يقدم واقعاً مقابلاً ، فبقي القلق

الكئيب مخيماً على ذاتي اليقظة . حننتُ الى حفرتي المستطيلة ، لكنها الآن ، وياللأسف ، محتلةُ بصهريج بالوعة ، ومغلقة بغطاء كونكريت . زوجتي ترقد بجانبي ، هامدة ساكنة في نومها ، ساخنةً مثل طفل صغير ، مع بقايا تأثيرات الكحول وحرارة النوم ، أما أنا فقد شرع جسمي يبرد باطِّرادٍ بعد أن استيقظتُ .

خلف الوادي ، بعيداً عن القسم المركزي من التجويف ، يجري النهر في طبقات مخفيّة من الغابة تضغط على كل من الجانبين ، بحيث ان الواقف على أرض مرتفعة في مدخل الوادي يحسب أن الوادي مغلقٌ في هذه النقطة . من هناك ، صعوداً مع المجرى ، يتحول قاع النهر الى أحجار مكشوفة ، وتطبق أجمةُ خيزران عظيمة على الجانبين كليهما ، مرغمةً طريق الحصباء على مجانبة ضفة النهر ، والتحول في صعود حادٍّ إلى أعلى التل . الناس الذين يعيشون في منازل متناثرة على امتداد الطريق الصاعد يُطلق عليهم «أهل الريف» من جانب سكان التجويف . تشكل أجمة الخيزران العظيمة حزاماً عريضاً يصل في زوايا قائمةٍ ، الفتحةَ التي يشكلها الغورُ الشبيه بالمغزل ، بالغابة ، ويفصل الغورَ و«الريف» .

مرةً ، حين كان أهل الوادي مجتمعين في المدرسة القومية ، مسلّحين برماحٍ قُطعت من أجمة الخيزران العظيمة ، فإن الموظف الصغير الذي جاء من مكتب المحافظة ليشاهدهم يتدربون ، أغضب شيخ القرية ورجالاتها حين أشار الى أن أهل قرية أوكوبو «اعتادوا صنع رماح الخيزران» . ونتيجة ذلك ذهب شيخ القرية الى البلدة ليشتكي ، ونُحِّي الموظف عن منصبه .

كان لغزاً لا يصدَّق ، بالنسبة لأطفال القرية ، الغضبُ المفاجيءُ الذي أوصل الكبار الهادئين في العادة ، الى مجابهة مكتب المحافظة الجبار ، وإلحاق الهزيمة به في ما يشبه المعجزة .

كل صباح ، حين اصحبُ أمي ـ التي تخاف الفؤوس والأدوات الحادة تماماً كما في أحلامي ـ الى أجمة الخيزران العظيمة ، مع الكبار الآخرين ، والصوت المتجدد لتشقق الخيزران يردد صداه باستمرارٍ وقوّةٍ حولي ، مستعيداً ذكرى غضب الكبار الوحشي ، يملأ خوفٌ مجهولٌ ذهني الطفوليّ . بعد انتهاء الحرب فقط ، وفي صفٍّ للدراسات الإجتماعية في المدرسة ، سمعتُ عن انتفاضة الفلاحين سنة ١٨٦٠ ، للمرة الأولى .

أبدى المعلم إشارة خاصة الى أن رماح الخيزران التي استعملها الفلاحون أسلحةً ، كانت قُطعتْ من أجمة الخيزران ، وفهمت أخيراً سبب غضب شيخ القرية والآخرين .

كانت أجمة الخيزران خير ما يُذكّر بانتفاضة ١٨٦٠ ، التي كان يُنظر إلى ذكراها ، زمنَ الحرب ، باعتبارها عاراً على كل سكان الوادي . ومن سوء الحظ ، أن أهل الوادي ، أُخرجوا ليقطعوا الخيزران من الأجمة ذاتها ، وأن يصنعوا من هذا الخيزران رماحاً كالتي صُنعتْ آنذاك . ولهذا لم يكن ممكناً أن يسامحوا الموظف على ملحوظة أبداها ، فأيقظت بصورة حادّة ، ذلك الإحساس القديم بالعار .

بِبَريهم ، طائعين ، الرماحَ ، في خدمة الدولة ، كان شيخ القرية والآخرون ذوو الميل المماثل الى المصالحة ، الخجِلون من أن أسلافهم قطعوا الخيزران لاستعماله في تمردٍ ضد المؤسسة ، هؤلاء كانوا يأملون في إبعاد شبح ١٨٦٠ الذي لايزال معلّقاً فوقهم .

كلمات أمي في الحلم ، استعادت ايضاً ، بعد عقدين ، كلماتٍ كنتُ سمعتُها مرةً ، في الواقع . بعد موت أبي ، ترك أخي الأكبر الكلية والتحق بالجيش بعد فترة قصيرة ، بينما تطوَّع س كطالب ضابط بحري جوي ، أما أمي التي ولّدتْ خيباتُها الكثيرة ، أوهامَ اضطهادٍ لديها ، فقد أخذت

تتنبأ ، بين وقتٍ وآخر ، بأن القرويين سوف يهاجمون منزلنا ، ويحطمونه ، ويشعلون فيه النار . وقالت إن علينا الإستعداد للهرب وتحصين أنفسنا في المستودع بمجرد ظهور المغيرين . وعندما اعترضتُ أخبرتني بما جرى لبيتنا في ١٨٦٠ ، آملةً في إيصال مخاوفها الى ابنها الصغير .

أرجعتْ أمي انتفاضة ١٨٦٠ إلى طمع الفلاحين ومَسْكنتهم . وقالت إن الإنتفاضة بدأت حين طلب الفلاحون قرضاً من شيخ العشيرة الذي يمتلك قلعة وأراضي تدرّ عليه دخلاً قدره ثلثمائة وخمسون ألف بوشل من الرز سنوياً ، وتقع الأراضي في النقطة التي يبلغ فيها النهرُ الجاري خلال الوادي ، البحرَ الداخليَ ، فيصبّ فيه . رُفض طلب الفلاحين ، ولهذا أقرضتهم عائلة نيدوكورو ، وهم سادات القرية ، مبلغاً مساوياً . لكن الفلاحين اشتكوا من نسبة الفائدة العالية ، فتسلَّحوا برماح قطعوها من أجمة الخيزران العظيمة ، وهاجموا منزل نيدوكورو ، وسوَّوا المبنى الرئيس بالأرض . ثم أغاروا على المستودع العائد إلى خمّاري الوادي ، وتَعتعهم السكرُ ، فاندفعوا يهاجمون منازل الأُسر الغنية ، مكتسبين انصاراً جداً وهم لا يلوون على شيء ، حتى وصلوا البلدةَ القلعةَ عند البحر . ولو لم يتحصَّن جدنا الأكبر في المستودع ، ويقاوم وحيداً ، مطْلقاً المدفع الذي كان أتى به من كوشي ، لكان من المحتمل أن يستولي المنتفضون على المستودع أيضاً . أخوه الأصغر ، باعتباره الشخصية المركزية بين جماعة الشباب الذين حرّضهم كبارُ فلاّحي الوادي ، المحنّكون ، خلع على نفسه لقب «الزعيم» على الوادي كله ، ولم يكتف فقط بالذهاب الى شيخ العشيرة ليتفاوض على القرض ، بل قاد العنفَ فعلياً أيضاً حين رُفض القرضُ . ولهذا صار أفراد أسرة نيدوكورو ، في الأقل ، ينظرون إليه باعتباره مجنوناً صِرفاً ، انطلقَ

من عقاله وأحرق بيديه منزله . أبي الذي خسر حياته وما يملك في سبيل قضية غامضة ، ولا ربح فيها ، في الصين ، ورثَ خيط الجنون ذاته من العائلة . أمّا أخَواي ، فالأكبر ـ الذي تولى ، بالرغم من قِصر المدّة ، عملاً بعد تخرجه في قسم الحقوق ـ لم يكن بالغ السوء ، باعتبار أنه لم يلتحق بالجيش متطوعاً ، لكن س الذي خرج عن طريقه ليتطوع ، فقد ورث من أبيه ، الدمَ نفسه ، مثل الأخ الأصغر لجدنا الأكبر . وقد أعلنت أمي أنه ليس ابنها .

وكانت تقول : «لكن جدك الأكبر! هنا رجلٌ رائع!» . وبينما كان الغوغاء مسلحين برماح الخيزران ، كان جدي الأكبر مستعداً بمدفع . لقد بنى مستودعاً ممتنعاً على الهدم والحرق ، وقد أطلق عليهم المدفع من الطابق الثاني . مَن مِنّا سيتحول الى مثل جدنا الأكبر : تاكاشي أم أنا ؟

إن بقيتُ صامتاً ، رافضاً الإجابة عن هذا السؤال التلقيني ، فستظل أمي تضغط عليّ بلا انتهاء ، وإن أعلنتُ بترددٍ أني سأكون مثل جدي الأكبرِ ، فسيكون جوابُها الصمتَ مع ابتسامة شكٍّ خفيفة .

المعلم السابق ، والمؤرخ المحلي ، الذي تبادلت معه الرسائل ، لم ينفِ ، ولم يؤكد آراء أمي في أصول الإنتفاضة . وقد فضَّلَ المدخلَ الأكاديمي ، فأعطى أهمية كبيرةً لحقيقة أنه حوالي ١٨٦٠ حدثت كل أنواع الإنتفاضات ، ليس في منطقتنا حسبُ ، وإنما في كل إقليم أهيمي أيضاً ، وأن هذه الانتفاضات بمجموعها تعتبر أعراضاً لإحياء ١٨٦٨ القادم . الظرف الوحيد الخاص الذي استشفّه في عشيرتنا هو أنه قبل ١٨٦٠ بعشر سنوات أو نحوها ، عندما كان شيخ العشيرة يحتل منصب وكيل وزير الأضرحة والمعابد ، أنهكَ ماليّة أملاكه ففرضَ ضريبةً يومية صغيرة على كل سكان البلدة في مقاطعاته ، تحت اسم «مدخّرات

شاملة» . من الفلاحين استحصلَ أولاً ما سمّاه «تسبيقة على ضريبة الرز» ، وفيما بعد «تسبيقة إضافية» . في نهاية رسالته أورد المؤرخ المحلي ملحقاً اقتطعه من إحدى الصحف المعاصرة التي كان جمَعها . يقول المقتطَف : «عندما يعاني الينغ يحيا اليانغ ، وعندما يعاني اليانغ ينبعث الينغ . السماء والأرض تدوران سرمداً . ولا شيء يذهب فلا يعود . الإنسان سيد الخليقة ؛ عندما الحكومة تسوء والناس يعانون ، فلمَ لا يُحدث تغييراً ؟» . لكن هذه العواطف الثورية التعليمية تصلح لتاكاشي أكثر مني . ربما وجبَ على تاكاشي أن يلقى المؤرخَ المتقاعد مثل ما قالت زوجتي ، هذا إذا لم يكن وقع صريع السرطان أو النوبة القلبية إذّاك... من جانبي ، لم أكن قادراً على الإنضمام إلى غوغاء ، سواء في منامي او في يقظتي . قد ألتجيء إلى المستودع ، لكن لن استطيع القتال بمدفع . وأنا بطبعي ، بعيدٌ تماماً عن أداء أي شيء في الإنتفاضة . غير أن تاكاشي عازمٌ على أن يكون النمط المضادّ تماماً ، وأعتقدُ ، ولو في أحلامي ، أنه حقّق هذا الهدف فعلاً .

صدر صوتٌ من ناحية المبنى الخارجي . قد تكون المرأةُ الوسَطُ ذات النهم الذي لا يشبع ، استيقظتْ ، إثر كابوسٍ مخيفٍ ، لتطعمَ نفسها في الظلام ، مزيداً من حشو المعدة ذي التغذية القليلة جداً . الوقت بواكير الصباح . مددتُ يداً في الظلام أتلمس زجاجة الويسكي التي تأكدتُ من أن زوجتي أبقت فيها شيئاً . اتصلت يدي ، رأساً ، بشيء بارد مثل قشرة سرطانٍ قُوِّرَ لحمُه . أشعلت المصباح اليدوي ، الذي كان بجانب الفراش ، فوجدتُ علبة سردين فارغة . نقّلْتُ دائرة الضوء الصغيرة ، متحاشياً وقوعها على وجه زوجتي النائمة ، وباحثاً عن زجاجة الويسكي حتى وجدتُها ، شربت مباشرةً من القنينة ، في ضوء المصباح

اليدوي . حاولت أن أتذكر ما إذا كانت تأكل السردين وهي تشرب الويسكي ، المساءَ السابق ، فلم أفلحْ . الآن صار شربُها جزءاً ثابتاً من حياتي اليومية . وغالباً ما استطيعُ أن أراقبها تسكر على الويسكي ، بدون أن اهتمَّ ، كأنها تدخن سجارة .

ثبَّتُّ نظري على علبة السردين الفارغة وأنا أشرب . في وسط الفتحة الشبيهة بالأظفر التي شقّتها فتّاحةُ العلب ، في الغطاء ، كانت شوكة صغيرة موضوعة بدقّة متناهية . كان قصديرُ خارجِ العلبة أبيضَ مُضبّاً بالزيت ، لكن داخل العلبة يلمع ذهبياً بالطبقة الخفيفة المتبقية من فُتات السمك والزيت . أستطيع أن أراها تلفُّ الغطاء بالمفتاح الرقيق ، طاويةً القصدير المحْكَم الى جهة من العلبة ، مستمتعةً ، وهي ترى ذيول السردين الرقيقة ، بالفرح البدائي لامرىء يوشك أن يقوِّرَ اللحم الناعم لمحارةٍ من صَدَفتها التي تجرح الشفة ، ويأكلَ هذا اللحم . لقد أكلت السردين ، وشربتْ جرعة ويسكي بشفتين رطّبهما الزيتُ ولحم السمك ، ثم لعقت ثلاث أصابع استعملتها في تناول السمك . في ما مضى ، كانت أصابعها واهنةً جداً ، حتى انها كانت تسألني ، دوماً ، أن افتح علب السردين لها . لكنها منذ اكتسبت عادة الشرب وحيدةً ، قويتْ أصابعها ، وهذه حقيقةٌ لها حسابُها في تقوية أثر الإنحطاط المؤلم . شربتُ ، مغمضَ العينين ، جرعة ويسكي كبيرة ، في محاولةٍ لإعادة الألم الذي أحسستُ به تجاهها ، الى موضعه ، مع كل الغضب العاطفي الغامض المتصاعد داخلي ، إلى حد التهديد بإفلاته من السيطرة . الويسكي أحرق حلقي وجوفي ، ثم أحرق السواد في رأسي ، فغططتُ في نومٍ بلا أحلام .

في الصباح التالي ، انطلق تاكاشي وحرسُه الى المدرسة الإبتدائية ، التي هي الآن في عطلة ، للالتحاق بشبان القرية الذين سيجتمعون في

الملعب من أجل تمرينهم الأول على كرة القدم . وبعد أن تُركنا وحيدين ، أحست زوجتي ، وأنا أيضاً ، بنوع من الإحساس المحبط بالفراغ ، كانَ علينا ، نحن أيضاً ، أن نبدأ شيئاً . كانت الحالة المزاجية شديدة ، حتى أني استدعيت أولاد جن ليساعدوني في نقل البواري وجفنة فحم حجري الى الطابق الثاني من المستودع ، وشرعتُ من جديدٍ في ترجمةٍ كنت أعملُ عليها مع صديقي الميت . الكتاب حصيلةٌ ممتعة يرويها رجلٌ انجليزيّ من هواة الطبيعة ، عن طفولةٍ أُمضِيَتْ في بحر إيجة . وكان صديقي يفضل هذا الكتاب الذي اكتشفه هو . حين بدأتُ أعمل ، قررت زوجتي أن تبدأ في قراءة طبعة قديمة من أعمال سوسيكي ناتسومي عثرنا عليها ونحن نبحث عن الجفنة في الغرفة الإضافية للبيت الرئيس ، وهكذا استطعنا أن نشغل أنفسنا نوعاً ما .

جَدَّةُ صديقي الحازمة ، كانت وعدتني أن تجمع مسوَّدة ما أُنجزَ من الترجمة ، مع الملحوظات والأوراق الأخرى ، وتودعها لديّ . لكن أقرباءه احتجوا ، وبعد الجنازة ، أحرقوا كل ما كتبه صديقي . كانوا خائفين ـ خائفين من وحشٍ آخر ذي رأس صبيغٍ بالقرمز ، وخيارةٍ في شرجه ، يقفز عارياً من المخطوطات والملحوظات التي خلَّفَها ، ويهدد عالم أولئك الذين لايزالون أحياء . حتى أنا ، أعترفُ ، بأنني لم أستطع أن أقمع ، نهائياً ، الإحساس بالراحة الذي أوقدَهُ فيَّ ، اللهبُ الضئيلُ من الأوراق والملحوظات المحترقة . لكن هذا لم يكفِ ليحررني تماماً من تهديد الوحش . وعندما مضيتُ مع كتاب بنجوين الذي تركه لي ، مع كل شخبطاته ، وخطوطه أسفل السطور ، مفكراً بترجمة الأقسام التي كان مسؤولاً عنها ، وجدتُ مهاويَ كثيرة تنتظر نفسي التعبى . في حاشية مَوردٍ يصف سلحفاة يونانية تحبّ الفراولة ، رسم صديقي تخطيطاً لسلحفاة ، حجمها إنشٌ مربع ، استنسخه

من كتاب حيواناتٍ مصوَّر . وهو يكشف عن الجانب المرح لحساسيته في ألطف أحوالها ، وأكثرها طفولةً .

وثمت مقطعُ آخر علَّمَ عليه بخطٍّ يبدو مثل رسالةٍ إليّ بصوت صديقي :

> «لنقلْ وداعاً إذاً» . لكن صوته ارتعش وانكسر ، وانهمرت دموعه وانحدرت على خديه المغضَّنين . «اللعنة عليَّ إن بكيتُ!» ، انتحبَ وأبرزَ كرشه الضخمَ ، «لكن هذا كمن يقول وداعاً للحمه ودمه . أحسستُ كأنك مني» .

زوجتي التي كانت تقرأ سوسيكي ، صامتةً ، تبدو كمن وجدت أشياء كثيرة تحرِّك مشاعرها . قبل أن يمر وقتُ طويل ، جاءت واستعملت قاموساً كنتُ استعمله . بحثت عن كلمات انجليزية اقتطفَها سوسيكي ، ثم قالت :

«أتعرف أن سوسيكي يستخدم كثيراً من الكلمات والتعابير الإنجليزية في اليوميات التي كتبها حين كان في شوزينجي يعاني من قرحة المعدة ؟ كأنهم جميعاً يناسبونك هذه الأيام ، يا ميتسو . اسمعْ : «سكونٌ واهنٌ» ، «حالة ضعيفة» ، «بلا ألم» ، «سلبية» ، «طيبة» ، «سلام» ، «هدوء»...

«بلا ألم ؟ أتظنين هذا وصفاً لوضعي ؟ ربما لم تعد لدي القدرة إلا على «الطيبة» ، لكن أتعتقدين أني في حالة «سلام»... ؟» .

أصرَّتْ في الهيأة المبالِغة لكحوليّ في نوبة صحو : «هكذا تبدو لي ، أنا ، في الأقل . كنت الأكثر هدوءاً خلال الأشهر القليلة الماضية من أي وقت آخر منذ تزوَّجنا» .

جهدتُ كي أتجنب الصورة المخيفة التي أثارها فيَّ هذا الكلامُ : أن أبلغ

منتهى الهدوء الممكن في الحيوان ، ثم ادخل في النهاية الى الهدوء المطلق في النبات . قرأتُ مرةً أن الرهبان في العصر الوسيط ، الذين يبلغون من العمر أرذله ، ويريدون أن يحوّلوا أنفسهم إلى مومياءات ، يخففون ، تدريجاً ، ما يتناولونه من طعامٍ ، وهكذا حين يكونون مهيّأين لدخول قبورهم ، ليس عليهم سوى قطع تنفُّسهم ، كي يبدأ اللحم يجفُّ . بطريقة تكاد تماثل هذه ، قمتُ بدور اللاحيوان أثناء تجربة إقامتي في الحفرة ، أوائلَ ذلك الصباح الخريفي ، مستدعياً ، عمداً ، الموتَ ، كي يأتي بأقل ضجة ممكنة . بعد ذلك ، ومن فرط إحساسٍ بالخوف ، أقنعتُ نفسي بالعودة الى الحياة الإعتيادية . لكن يبدو أنني لاأزال ، في عيني زوجتي ، ذلك الذي كان يجلس ، دون حراك ، في قاع الحفرة المهيأة لتكون صهريج بالوعة ، مبللَ المؤخرة ، والكلبُ بين الذراعين .

تناهبَ العار كلَّ خلية من جسدي ، باعثاً موجات من التعاسة في الفأر الذي كُنتُه . لو كانت شكواي واضحة حتى لشخص مستديم السكر ومنسحبٍ مثل زوجتي ، فسوف يكون تأسيس علاقة مع ذلك الإحساس بالأمل ، أمراً أصعب . حياة جديدة ؟ كوخ من أغصان الشجر ؟ قد أقرر الإستغناء عن الإثنين ، الى الأبد...

قلت : «وماذا عنكِ ؟ أتشعرين أنك بدأتِ حياة جديدة ؟»

«لمَ تسألُ ؟ أنت تعرف أنني أشرب الويسكي مثل ما كنت على الدوام ، أليس كذلك ؟ لن استطيعَ ، حتى لو أردتُ ، أن أُخفي أن الويسكي الذي نحصل عليه في الوادي هو من النوع القويّ ، حتى أن رائحته كافية للفضح» . لقد أخطأتْ في تفسير سؤالي فاعتبرته سخريةً يُقصد بها إيذاؤها ، فكانت كلماتها شائكةً متحديةً : «أنتَ بالتأكيد ، لا أنا ، من اقترحَ عليه تاكاشي أن يبدأ حياةً جديدةً» .

وافقتُها منكمشاً في نفسي : «أنتِ على حق . المشكلة مشكلتي . لكن هناك شيئاً واحداً أريد التأكد منه ، وهو متعلق بسُكرك» .

«أظنك تريد أن تعرف ما إذا كانت كحوليتي تجربةَ صِبا تنتهي من تلقاء نفسها ، أم أنها ستُعايشني حتى أموت ـ باعتبارها علامة سقوط من الصبا الى الشيخوخة . حسناً . المصدر الحقيقي هو الوراثة ـ أمي . وأنا لم أعد صبيةً بحيث أن سكر اليوم يكون صحواً غداً . لهذا أتوقع أن أتعايش مع السكر . أنا في سنٍّ ، كلما رأيتُ فيها تجعيدةً ، قررتُ أن آخذها معي الى القبر» .

قلت : «إن كنتِ تذكرين هذا ، منطلقةً من رغبة طفولية في أن تصدميني ، فالأفضل أن تعيدي التفكير ، لأنك في تلك السن ، ولأن التنفيذ لا ينتظِر . إن كنتِ تريدين طفلاً آخر ، فعليكِ أن تقرري قبل انتهاء السنة . لن تكون رجعةٌ في السنة المقبلة» .

أسفتُ فوراً ، وعميقاً ، لما قُلته . كان المكر في كلماتي قاسياً حتى عليّ . صمتْنا فترةً ، ثم ثبّتتْ عليّ عينين حمراوين من الدمع لا من الويسكي ، ومليئتين بعداء يائس ، وقالت :

«حين يأزف الوقت ، كما تقول ، ولا تكون ثمت رجعة ، فربما تعيَّنَ علينا أن نكون أكثر لطفاً مع بعضنا» .

«لمَ لا نذهب ، فنشاهد تاكا والبقية يلعبون كرة القدم ؟» ، أجبتُ هكذا ، منحيًّاً ملحوظتها جانباً ، مع شيء من احتقار النفس .

«إذاً ، سأهيئ عبوات غداء للفريق ، يا ميتسو» ، قالت ذلك ، وهي تمضي عائدة إلى المبنى الرئيس . «لو أني أفعل شيئاً ، فإن التطلّع الى حياةٍ جديدة سيُشرق قليلاً ـ وينزاح ضباب الفضيحة في الوادي قليلاً ، أيضاً» . كانت تهزأ بنفسها وبي ، أما ما أشارت إليه من

«فضيحة» فهي الشائعة التي سرت في الوادي عن أن زوجة الإبن الثالث لعائلة نيدوكورو هي امرأة كحولية رخيصة . ولقد سمعتْ ذلك بنفسها في السوبرماركت .

الطريقة التي احتجت بها على ما قلتُ توحي بأن إرادتها في مقاومة الإنهيار ، لم تتبدَّدْ تماماً بفعل الكحول . كان عليَّ أن أمدّ لها يد العون ، لكنّ انهياراً مماثلاً كان يهدد باكتساحي أنا أيضاً .

ركّزتُ على الترجمة ، محاولاً إهمال أصوات أسلافي ، التي تملأ المستودع بصرخات : «فأر ، فأر!» . في البعيد أكاد أسمعُ صيحات تجمِّدُ الدم في العروق ، وصوتَ كرةٍ تُركلُ ، لكن هذا قد يكون ضجيجاً في رأسي .

بعد الظهر ، جاء أصغر أولاد جن ليقول إن الكاهن الشابّ من المعبد ، جاء ليراني . حين عدت الى المبنى الرئيس وجدتُ المطبخ مليئاً بالبخار المتصاعد مع ضوعٍ من ورق الخيزران . كانت زوجتي توشك أن تأخذ إناء تبخيرٍ عتيقاً ومعروفاً من جفنةٍ على الموقد ، بينما يراقبها ولدان من أولاد جن ، والكاهن ، مغلفين بالبخار من رؤوسهم الى صدورهم ، حسب حجمهم . الولد الذي جاء يأخذني ، انضمَّ الى أخويه ، وهو يسعل عالياً ، واختفى في البخار .

«ستحرقين نفسكِ» صاح أولاد جن في تحذيرٍ مرتفع ، بينما زوجتي ، محمرة الخدين والأذنين ، تمدُّ يدها الى محتويات إناء التبخير . وعندما ارتدّت أصابعها إلى شفتيها أطلقوا ضحكة مدوِّية بريئة .

«ماذا تصنعين ؟» سألتها مرتاحاً ، وأنا ادخل دائرة البخار حولها .

«لُقيمات رز ملفوفة بأوراق الخيزران . أرتني جن الطريقة . الأولاد أتوني بالأوراق من الغيضة» ، كان في صوتها رنّة صِبا ، مفتقدة بالكامل ، أثناء حديثنا في المستودع .

«يبدو أن اللقيمات ناجحة . أتتذكرها ، يا ميتسو ؟» .

قلت : «أهل الوادي يأخذونها دائماً معهم ، حين يذهبون لقطع الأشجار في الغابة والد جن ، كان في الأصل حطّاباً ، ولهذا تكون طريقتها أصلية» .

أعطت كلَ واحدٍ منا ، واحدةً من لُقيماتها «الأصلية» ، وتبلغ في حجمها ضعف قبضة الرجل . الكاهن وأنا ، كسرناها قِطعاً في صحون قبل أن نأكلها ، ولهذا كانت أوراق الخيزران التي لا تزال تقطر ماءً ، زائدةً بالنسبة لنا ، لكن أولاد جن أمسكوا باللقيمات في أيديهم ، مدحرجينها على راحاتٍ رطبة ، وهم يقضمون أطرافها بمهارة ، دون أن يفسدوا شكلها .

تتكون اللقيمات من عجين رز مطيّب بصلصة الصويا ، ومحشوّ برُبَ لحم الخنزير والفِطر الطريّ . أوراق الخيزران التي لُفّتْ بها اللقيمات ، كانت جافّةً ومبيضّةَ الحواشي ، ومع انها مهترئة إلا أنها كلفت الأولاد جهداً كبيراً ، لا شك في ذلك ، إن لم تكلّفهم خوفاً فعلياً من جمعها في هذا الوقت من السنة . وبينما كنت أراقبُ خبرتهم في أكل لُقيماتهم ، لم أستطع تصديق أن كره أطفال الوادي التقليدي لدخول الغابة شتاءً ، قد تبدّلَ .

قلتُ منتقداً : «هذه اللقيمات ليست رديئةً إطلاقاً ، لكنّ فيها طعم الثوم . عندما كنت أعيش هنا ، لم يكن الناس يضعون الثوم ، قَطُّ ، في أي طعام ، دعي عنك اللقيمات» . كانت تتناول بقية اللقيمات من إناء التبخير وتضعها في صناديق غير عميقة من نوع مألوف كذلك في طفولتي . ولقد جيء بإناء التبخير والصناديق من المستودع بناءً على نصيحة جن .

هتفتْ مرتابةً : «ماذا ؟ جن قالت لي خصوصاً أن أضع بعض الثوم ، ولهذا اشتريت كميةً عندما ذهبت الى السوبرماركت لآتي بلحم الخنزير » .

قال الكاهن ، وقطعة من الطعام بين أصابعه : «أنت على حق ، يا ميتسو . هكذا تتغير طريقة حياة الناس في القرية . قبل الحرب لم يكن للثوم دورٌ في حياة القرية إطلاقاً . لا أفترضُ أن معظم الناس لم يسمعوا بنبات كهذا ، لكن القرويين اكتشفوه عندما بدأت الحرب ، كلُ هذا بسبب المستوطَنة التي بناها الشغيلةُ الكوريون وقد جيء بهم ليقطعوا الأخشاب في الغابة .

إن احتقار القرويين للناس الذين يستطيعون أكل مثل هذا الجذر المنتن ، هو الذي جعلهم يعرفون ، لأول مرةٍ ، الثوم . أنت تعرف ما أعنيه ، يا ميتسو ؟ حسناً ، عندما أخذ القريون الكوريين ليعملوا بالسخرة في الغابة ، أخبروهم عمداً ، بسخافة أنهم لن يُسمح لهم بدخول الغابة إلا إذا جاؤوا باللقيمات معهم . كانت طريقة لتأكيد تفوقهم . هكذا بدأ الكوريون يصنعون اللقيمات أيضاً ، لكنهم وضعوا فيها الثوم إرضاءً لذوقهم هم . ولقد أثَّر هذا بدوره في القرويين الذين بدأوا باستعماله لتطييب اللقيمات التي يصنعونها لأنفسهم . هذا يبيِّن كيف أن الكبرياء الغبية للسكان المحليين وافتقادهم المبادىء ، يأتيان بالتغيير في عادات الوادي . لم تكن القرية تستخدم الثوم للتطييب ، إطلاقاً ، أما الآن ، فالثوم هو الأكثر مبيعاً في السوبرماركت . ولهذا يجد الإمبراطور أكثر من سبب ليتباهى بنفسه» .

قالت زوجتي بلهجة عدوانية : «أنا لا أهتم ، مادام «افتقاد المبادىء » نافعاً في طبخي ، حتى لو وقفت ضد التقاليد » .

قلت : « كان نافعاً بصورة ممتازة . ولو سمحتِ لي بتقديرٍ عاطفيَ مألوف ، فسأقول إن لقيماتك خيرُ من تلك التي كانت تصنعها أمي » .

هتف الكاهن : «لا ريب في ذلك!» نظرت إلينا ، مع ذلك ، نظرة مرتابة ، ورفضتْ أن نذللها .

قال الكاهن ملتفتاً إليّ : «لكني لم آت إلى هنا ، حقاً ، من أجل وجبة مجّانية» . كان وجهه المستدير السمحُ واضح الإرتباك . «المسألة ، أنني عثرت على يوميات أخيكم الأكبر التي تركها س معي ، ولهذا جئتُ بها» .

قلت : «تعال نتحدث في الطابق الأعلى ، بالمستودع . لن اذهب الى تمرين كرة القدم ، فليس لديّ ما أفعله» . لم أكن أريد أن أهتمَّ به فقط ، بل أردت أن اتحدث فعلاً . «هل حدثَ أن اهتممتَ بانتفاضة ١٨٦٠ ؟» .

قال متلهفاً ، بادي السعادة ، لحسن تخلُّصه : «نعم . لقد درستُها قليلاً ، ودوّنت ملحوظاتٍ عنها . تعرف... الدور الثاني الأكثر أهميةً فيها ، بعد أسلافك ، قام به أحد أسلافي في المعبد ، وإن لم تكن بيننا قرابة دم» .

مهملةً أي حساسية إزاء ردود أفعال الكاهن ، كانت زوجتي توجه تعليماتها إلى أولاد جن . عليهم أن يأخذوا لقيماتٍ إلى أمهم ، ويذهبوا ليخبروا هوشيو الذي كان في ملعب المدرسة الإبتدائية ، أن يأتي ليأخذ الطعام بالستروين . وبينما كنت والكاهن نغادر البيت الرئيس ، هتفت وراءنا متحديةً :

«أنا ذاهبة لأشاهد تمرين كرة القدم ، عصر هذا اليوم أيضاً ، يا ميتسو . أريد أن اسمع رأيهم في اللقيمات» .

مضينا ، أنا والكاهن الشاب المرتبك الى المستودع ، نتنفس أبخرة الثوم ، مثل الوحوش التي تنفث النار في أفلام الخيال العلمي . اليوميات التي أحضرها كانت دفتراً صغيراً مجلَّداً بقماش ارجوانيّ . كان أخي الأكبر كائناً متباعداً ، نائياً بنفسه ، على الدوام ، عن البيت ، سواءً في فندقه

بالبلدة ، أو في مسكنه بطوكيو ، ونادراً ما يعود حتى في العطل . وذكراي الواضحة الوحيدة المتعلقة به ، كانت الإنطباع السيّء الذي خلقه كبار القرية الذين حكموا ، بعد أن مات في أقل من عامين على تركه الجامعة ، بأن الإنفاق على ابنٍ في التعليم العالي استثمارٌ غير مُجْدٍ . أخذت اليوميات ووضعتها على كتاب بنجوين الذي تركه صديقي الميت . وتولّد لدي إحساسٌ بأن الكاهن استاء لأنني لم أبدأ قراءة اليوميات رأساً . لكن الحقيقة أن شهادة أخي الأكبر ، بدلاً من أن تلهمني حب الإستطلاع ، وتثير حيويةً في ذهني ، عملتْ على إخماد ذهني بنوع من التطيُّر الغامض . وقررت أن أتصرف كأني غير مهتم ، إطلاقاً ، باليوميات ، وبدون أن انتظر ، قلتُ :

«اعتادت أمي القول إن جدي الأكبر ، أبعدَ الغوغاء ، بإطلاقه بندقية من نافذة الطابق الثاني بالمستودع . هذه النافذة ، في الحقيقة ، هي بشكل مزغل ، بحيث تجعل القصة جدَّ ممكنة ، مما يدفعني ، بالضد ، إلى التشكيك في صحتها . ماذا تظن ؟ قالت إن البندقية اشتراها جدي الأكبر حين عاد من سفره إلى كوشي . وإني لأتساءل إن كان ممكناً لفلاحٍ في اهيمي ، في عام ١٨٦٠ أن يتسلح ببندقية ؟» .

قال الكاهن : «كلمة (فلاّح) لا تكاد تنطبق ، إذ كان جدك الأكبر أغنى مشرفٍ في المنطقة ، ولا غرابة في أن يكون عنده مدفع ، وإن كان يبدو أنه لم يأت بالبندقية معه ، في عودته من كوشي ، ولكن جهَّزَها له من كوشي رجلٌ تسلل الى القرية قبيل بدء الإضطرابات . نظريةُ أبي ترى أن رجلاً من كوشي أقام في المعبد واشتغل على جدك الأكبر وأخيه ، عبر الكاهن آنذاك ، للبدء بالإضطرابات . قد يكون هذا المتدخلُ محارباً ساموراي من عشيرة توسا ، لكن ليس من برهان قاطع . على أي حال ،

كان المتدخل ، من الطرف الثاني من الغابة . ومادام الكاهن هو الذي عقد الصلة بينه وبين جدك الأكبر وأخيه ، فربما جاء عبر الغابة متنكراً في هيأة راهبٍ جوّال . ذلك الوقت لم يكن الوادي وحده متأثراً بالقلاقل ، بل العشيرة كلها ، مما يعطي مدىً لأنشطة عميلٍ أرسلته قوى وراء الغابة ، قوى تستفيد من أي شيء يزعج النظام الحاكم .

أتصوَّرُ أن الكاهن وجدك الأكبر كانا يريان أن الانتفاضة وحدها هي القادرة على مساعدة فلاحي الوادي . الكاهن لم ينحزْ الى طرف ، بينما كان المشرف الى جانب المؤسسة ـ لكن خراب الجماهير سوف يعني تدهور وضعهما كليهما . لذا كان السؤال الحقيقي الذي يتأكّلهما هو على أي نوع من الإنتفاضة سيحرِّضان ، وأين . أفضلُ طريق ، كما ترى ، هو فتحُ منفذٍ للطاقات العنيفة يؤدي الى انتفاضة ، قبل أن تسوء الأمور ، انتفاضةٍ يتركز فيها الهجومُ على المشرف نفسه ، ويبقى العنف في الوادي عند حده الأدنى ، بينما توجَّهُ البقيةُ الى البلدة القلعة . لكن الانتفاضة تحتاج الى قادة ، مع معرفة أنه مهما كان نوع النجاح الذي حققته الإنتفاضة ، فالمقررُ لقادتها أن يلقى عليهم القبضُ ويُعدموا . إذاً ، كيف يختارون هذه المجموعة التي سوف يضحَّى بها ، فيما بعدُ ، بينما ستمارسُ أثناء الإنتفاضة ، السيطرة على الفلاحين ، ليس في الوادي فقط ، وإنما في المنطقة بأسرها ، حتى البلدة القلعة ؟ هنا ، أخذ الناس يلاحظون عصبة الشبّان التي بدأ أخو جدك الأكبر يدرِّبها . ربما ضمت العصبةُ عدداً قليلاً من الأبناء الكبار المؤهلين لوراثة أرض آبائهم ، لكن أغلب شبان العصبة كانوا أصغر سنّاً ـ سكاناً فائضين ، لا مستقبل لهم في تملُّكِ أرضٍ . التضحية بمثل هذه العصبة لن تشكل ضربةً للوادي . بل أنها ستساعد في التخلص من إزعاجٍ عامٍّ .

«هذا يعني أن الرجل القادم من وراء الغابة ، والكاهن ، وجدك الأكبر ، عاملوا ، منذ البداية ، الأخَ الأصغر ، باعتباره شيئاً يمكن التخلص منه ؟» .

«ويبدو لي ، أن الأخ ، بخلاف البقية ، اتّفقَ سراً على أنه سيهرب ، بعد الانتفاضة ، الى كوشي ، ويقطع البحر من هناك ، إلى أوساكا أو إيدو . الغريب سوف يكون مسؤولاً عن تنفيذ الوعد . لقد سمعتَ بالنظرية الشائعة ، القائلة بأن أخا جدك الأكبر ترك الغابة ، واتخذ اسماً جديداً ، وصار موظفاً سامياً في حكومة الإحياء ؟» .

«هذا يعني ، إذاً ، إنه كان أحد الخونة منذ البداية . على أي حال يبدو أني متحدِّرٌ من سلالة خونة» .

«كيف لك أن تقول ذلك ، يا ميتسو ؟ إن السبب الذي حدا بجدك الأكبر إلى إطلاق مدفعه خلال الغارة ، هو ، بالتأكيد ، أنه بدأ يشكّ فيما إذا كان الإتفاق مع أخيه حول عدم إحراق المستودع ، سوف يُراعى حقيقةً . حتى لو أُتُّفق على وجوب تهديم المبنى الرئيس - إذ لو لم يهاجَم بيت نيدوكورو إطلاقاً فسيكون جدك الأكبر مسؤولاً أمام كبار العشيرة - فإني اعتقد أن ذلك الشك هو الذي جعل السلاح يُجهَّز له من الخارج ، بدون أن يسلِّمه الى الشبان . الشبان ، في الواقع ، احتلوا المستودع فيما بعد . ونتيجةً للإنتفاضة التي استمرت خمسة أيام وليالٍ ، أُلغي نظام «تسبيقة الضريبة» ، كما طالبَ الفلاحون ، أما الفقيه الكونفوشيوسي الذي أوصى رئيسَ العشيرة به ، فقد أُعدم . بعد ذلك ، قاتلَ أخو جدك الأكبر وجماعته ، في المستودع ، كي لايؤخذ بعضهم أكباش فداء . ولأن القادة حاربوا ، سوياً ، في الإنتفاضة ، تولَّدَ لديهم إحساسُ بالتضامنِ ، مُركَّزٌ على شخص الأخ الأصغر لجدِّك الأكبر» .

بعد انتهاء الإنتفاضة ، تحصَّنَ الأخُ الأصغر والجماعة الملتفة حوله ، في المستودع ، وتحدَّوا رؤساء العشيرة المحققين . هؤلاء المسلّحون العارفون ، المحبَطون لمحاصرتهم في المستودع ، أبقَوا مضاربَ سيوفهم على الأعمال الخشبية ، آثاراً ألهمت ذهني الطفولي بفنطازيات دموية . الفلاحون امتنعوا عن تزويد المجموعة الذين كانوا قادتهم حتى اليوم السابق ، بالماء والغذاء ، فأحسَّ الرجالُ المحاصَرون بأنهم معزولون . استسلموا ، وأُغروا بالخروج من المستودع ، فقُطعت رؤوسهم على المرتفع الصغير الذي يشكل الآن المساحة المفتوحة أمام مكتب القرية . أما الرجل المسؤول عن خداع الشبان الظامئين الجياع ، وإخراجهم من المستودع فكان الجد الأكبر .

جعل فتيات القرية يلبسن أفضل ما لديهنّ ، وأقام مطبخاً مؤقتاً أمام المستودع ، ثم جاء بالمحققين ليمسكوا بالشبان حين يسقطون سكارى نائمين . اعتادت جدتي أن تروي الحكاية متباهيةً بأصالة أسلافها ، أسرة نيدوكورو . أتذكر أن أمي أخبرتني أيضاً أنها حين جاءت الى الوادي عروساً ، كانت إحدى الفتيات اللواتي استُخدِمن في خديعة الجد الأكبر ، لاتزال على قيد الحياة . وقت المذبحة كان الأخ الأصغر للجد الأكبر هو الناجي الوحيد من الإعدام ، وقد هرب الى داخل الغابة . لقد تخلى ، في النهاية ، حتى عن رفقة أصحابه المتمردين . وإني لأتساءل عن الأخ الأصغر ، وهو يهرب في الغابة ، ألم يلتفت بعد أن بلغ أعلى نقطة ، الى الوراء ، الى الغور ، فيرى رفاقه التعساء ، تحته ، وقد اقتُحمت عليهم نومتُهم السكرى ، ثم قطعت رؤوسهم على المرتفع بالوادي ؟ في اللحظة ذاتها ، أيضاً ، لا بد أن الجدّ الأكبر كان هناك ، حاضراً الإعدام ، أو ناظراً الى أسفل ، من نقطة عاليةٍ على السور الحجري .

«أمّا لماذا بدأ الأخ الأصغر يدرب الشباب تدريباً خاصاً ، فأظنُّ السبب هو أن الـ « كانرين ـ مارو» بدأت الرحلة الى أميركا » . قال هذا الكاهن الشابّ وقد أحسَّ باكتئابي ، فغيَّرَ الحديثَ بلطف . وبالرغم من كل الحساسية ، فإن الرجل ذاته هو الذي استطاع أن يحيا كلَّ القصص المختلفة ، ومن بينها شائعة خبيثة تقول إنه كان عاجزاً جنسياً ، وأنه يدور حول الوادي متتبعاً فرار زوجته الى عشيقها .

ومضى قائلاً : «لنفترض الآن أن هذا الأخ سمع إشاعة مفادها أن جون مانجيرو الذي لقيه جدك الأكبر في كوشي ، كان يرحل ثانيةً إلى اميركا على الكارين ـ مارو . سوف يتمرد بالتأكيد على كونه محتجزاً في وادٍ صغير بينما أولاد الصيادين وراء الغابة يعيشون عيش المغامرة في مكان مفتوحٍ لممالك جديدة من التجربة . ورد تقريرٌ في بداية صيف تلك السنة ، حول أن الناظر أعطى رجال عشيرته الموافقة على الذهاب والدراسة في الأكاديمية البحرية ، كما بذل جهده ، من خلال كاهن المعبد ، ليتمَّ اختياره ، هو ، طالباً بين الطلبة . اعتاد أبي القول إنه قرأ نسخة من الطلب ، وأتصوَّر أن هذا الطلب يمكن العثور عليه في المعبد ، إذا جرى بحثٌ دقيقٌ في مستودع المعبد . ليس مستحيلاً على الإبن الثاني لمشرفٍ غنيّ أن يشقّ طريقه الى المراتب الدنيا للساموراي . والحقُّ أنه حوالي ذلك الوقت كان أبناء مالكي الأراضي المحليين في الطرف الآخر من الغابة ، نشطين في الحركة الموالية للإمبراطور ، المعادية للأجانب . ينبغي الإعتراف بأن محاولته لم تنجح ، لا لعيبٍ فيه ، وإنما لإخفاق العشيرة في إظهار روح المغامرة المطلوبة كي يرسَلُ أحدُ إلى الأكاديمية البحرية . أعتقدُ أن إحساسه بالكرامة المهدورة هو الذي حوّله الى ناشطٍ ضد المؤسسة يخطط لتدريب شبان القرية تدريباً خاصاً ، ويتولى تمثيل

الفلاحين في طلب قرضٍ من العشيرة . والعميلُ الذي جاء عبر الغابة مع الكاهن وجدِّك الأكبر ، انتبه إلى هذا القائد الشابّ الخطر ، فبدأ يشتغل عليه . هذه هي النتيجة التي توصلتْ إليها أبحاثي ، في الأقل...

اعترفتُ قائلاً : «إنها بالتأكيد أفضل نظرة إلى أحداث ١٨٦٠ بلغتني حتى الآن . لو أخذتَ الأمور مجتمعةً مع الحدث الذي جرى بعد الحرب مباشرة ، حين قُتل س ، فإن الدور الذي يلعبه شقاة القرية الشبّان مستمر . وهناك معنى في كل الأشياء» .

الكاهن الشاب اعترفَ ، أيضاً ، بصراحة : «الحقُّ ، أن بمقدورك القول إنني توصلت الى فكرةٍ ذكية ، من مراقبتي حادث القرية الكورية ، مما أدّى الى تفسيري أحداث ١٨٦٠ . في تصرُّف س ما يوحي بأن انتفاضة ١٨٦٠ كانت في ذهنه حين قرَّر طريقه في العمل . ولا أظن أنني أفرض المماثلةَ فرضاً ، بين ١٨٦٠ وصيف ١٩٤٥» .

«أتعني أن س كان متألماً لأن الأخ الأصغر لجدي الأكبر كان القائد المتمرد الوحيد الذي نجا من الإعدام ، ولهذا قرر ، عمداً ، وبالمقابل ، أن يكون القتيل الوحيد في الغارة على المستوطَنة الكورية ؟ إن كان الأمر هكذا ، فإنه أرأفُ تفسير ، في الأقل ، خاصةً الآن ، وهو ميت» .

«كنتُ صديقَه... كما ترى» قال الكاهن الشاب ذلك بارتباك واضحٍ ، ووجهه الصغير يحمرّ تحت شعر أبيضَ قبل الأوان . «لم أكن صديقاً جدَّ نافع... عليك الإعتراف...» .

قلت : «تاكاشي مثل س . يبدو أنه يريد أن تتأثر أفعاله بحوادث ١٨٦٠ . اليوم ، مثلاً ، بدأ يدرب شبان الوادي على كرة القدم ، فقط لأنه أُعجب بالقصة التي تتحدث عن تنظيف الأخ الأصغر فسحةً في الغابة ، كساحة تدريب يتهيأ فيها الشبّان للقتال» .

أجاب الكاهن الشاب مستعيداً ابتسامته المعهودة : «لكن نوع الانتفاضة التي حدثت في ١٨٦٠ سيكون غير ممكنٍ ، اليوم . كما مضى ذلك الزمن الذي تحدث فيه لعبة قتلٍ بين المستوطنة الكورية وأهل الوادي ، بدون أن تتدخل الشرطة ، كما حدث بعد الحرب . وفي عصرٍ مسالمٍ كالذي نحن فيه ، لا يستطيع حتى تاكاشي أن ينصِّبَ نفسه قائداً لاضطرابات ، ولهذا فأنا غير قلقٍ ، حقاً» .

قلتُ ، مستفيداً من الإبتسامة لأُظهر مِجَساً : «بالمصادفة ، هل في هذه اليوميات ما يزعج مُسالماً طيباً ؟ إن كان فيها ذلك ، فالخير أن تعطى إلى تاكاشي . من بين الأنماط المختلفة في أسرة نيدوكورو ، أنا من يرفض استلهام أفكار بطولية من أحداث ١٨٦٠ .

والأمرُ ذاتُه حتى في منامي . وبدلاً من التماهي مع الأخ الباسل لجدي الأكبر ، أحلمُ أحلاماً تعيسة أكون فيها ، المتفرج ، المختبىء في المستودع ، العاجز حتى عن إطلاق بندقية مثل جدي الأكبر» .

قال الكاهن الذي تجمدت ابتسامته برهةً : «تعتقد ، إذاً ، أن الأفضل تسليم اليوميات الى تاكاشي ، أليس كذلك ؟» .

أخذت اليوميات الأرجوانية من على كتاب بنجوين لصديقي الميت ، وبعد أن وضعتُها في جيب معطفي ، هبطتُ مع الكاهن الى ملعب المدرسة الابتدائية حيث كان تاكاشي يدرِّب رفاقه الجدد على كرة القدم .

في الريح القوية ، الهابّة هوجاء في الوادي ، تحت سماء زرقاء ، كان الشبان يركلون كرة القدم دائرين ، في صمتٍ ، وفي استغراق خانقٍ . قنفذ البحر ، خاصةً ، كان يندفع مستميتاً ، وقد لفَّ منشفةً ثخينة حول رأسه فبدا ضخماً على جذعه القصير . لقد عثر مرّات عدة ، لكنّ الغريب أن أحداً لم يضحك . حتى أطفال القرية الواقفون حول حدود الملعب كانوا غارقين

في صمتٍ ثقيل ، على الضد تماماً من المرح الحيوي لأطفال المدينة حين يشاهدون الألعاب .

تاكاشي وهوشيو اللذان كانا واقفين في الوسط ، يعطيان التوجيهات ، لم يقوما بأي حركة لإيقاف اللعب ، حتى بعد إشارة الكاهن لهما . غير أن مومو كو وزوجتي جاءتا بالسترويين لتتكلما معنا ، قاطعتين دورة واسعةً حول الملعب .

قلت : «أليس منظراً مرعباً ؟ لماذا يرمون أنفسهم في الأمر بهذه الحماسة ، بينما هم في الواقع لا يستمتعون ، كما يبدو ؟» .

قالت زوجتي رافضةً مشاركة شكواي : «أن يرموا بأنفسهم في كل شيء ، هي الطريقة الوحيدة التي يعرفونها . مومو كو وأنا نحب تمرين كرة القدم حين يكون جديّاً هكذا . نحن سنأتي لنشاهد اللعب ، يومياً ، اعتباراً من الآن» .

جاءت الكرة متدحرجة من حلقةِ الشبان باتجاهي . حاولت أن اركلها ، لكن قدمي لم تلامس إلا الهواء فدارت الكرة مجنونةً قبل أن تستقر على مبعدةٍ يسيرةٍ . المرأتان في السيارة راقبتاني والكرة . بلا مبالاة كاملة ، حتى بدون سخرية . الكاهن الشاب يرتدي ابتسامته المألوفة كمن يداري ارتباكي ، لكن هذا لم يزدني إلا ضيقاً .

بعد العشاء ، ذلك المساء ، وبينما نحن متمددون قرب المدفأة ، جاءني تاكاشي ، وخفض صوته لئلا تسمعه زوجتي التي كانت سكرى ، وقال بنبرة قبيحة ذات عاطفة باردة :

«ميتسو - في تلك اليوميات أشياء رهيبة» .

حدّقتُ إلى العتمة ، متجنباً مواجهته مباشرةً . وحتى قبل أن أسمع كلماته التالية تصاعدَ فيَّ إحساسٌ بالإمتعاض .

«هو درس اللغة الألمانية في الكلية ، كما تعرف . وهو يستعمل الكلمة Zusamengewürgelt ، يقول إن القوات كمشة أوغاد .

زميلٌ ضُرِب لأنه خرق النظام في تدريبات السَّرِيّة انتحر ، بالفعل ، تاركاً ملحوظة ساخرة إلى قائد السَّريّة . قائد السرية كان أخانا . يكتب : انظروا الى اليابان اليوم ، فوضى شاملة . غير علمية تماماً . غير مستعدة تماماً . ونصف مخبوزة في المساومة .

«الآن انظروا إلى ألمانيا ـ كوبونات نظام التقنين المستعملة هذه اللحظة ، كانت مطبوعة في العام ١٩٣٣ حين جاء هتلر الى الحكم . ادعو الله كي يمطرنا الاتحاد السوفييتي بالقنابل . سُمِّم اليابانيون بحلم السلام فورّطوا أنفسهم في حمأةٍ غير مقدسة ، لكنهم لا يزالون مندفعين يدورون ويدورون» . يقول أيضاً إن الأشياء الوحيدة التي استفادها من الجيش ، كانت زيادة معينة في قدرة البقاء ، وقوّة جسدية أكبر . يعتقد أن على المرء أن يقرأ كثيراً وعميقاً بموجب هدفٍ ما ، كما دوّن ملحوظات حول نظام معين للتنفس العميق . في إحدى الصفحات استطاع أن يكتب : «في وحدة كذا وكذا ، على جزيرة هينان ، قال الآمرُ نفسُه ، لا بأس في اغتصاب امرأة شابة إذا اتخذ المرء الخطوات اللازمة بعد ذلك ـ الخطوت اللازمة تعني ، بالطبع ، أن تقتلها . وفي الصفحة التالية باستطاعته أن يكتب ، عاليَ المعنويّات : من يُرِد تسلُّق جبل فوجي ، فعليه أن يبدأ بالمحطة الأولى . ثم يصف بالتفصيل المشهد في ليت Leyte حين أعدم آمرُ الوحدة رجلاً من الأهالي ، متَّهماً بأنه جاسوس . آمر الوحدة الذي قَبض عليه ، قال أولاً بأن على أحد المجنّدين أن يقتله طعناً بالحربة ، لكنه تولّى الأمر بنفسه ، فامتشق حساماً يابانياً للمرة الأولى في حياته ، وقطع رأس الرجل . أتريد أن تقرأها ، يا ميتسو ؟» .

قلت بغلظة : «أنا لا أهتم بهذه اليوميات ، ولا أريد أن أقرأها . لقد سلّمتُها إليك ، بسبب ظني أنها تحتوي على مثل هذه الأشياء . لكنْ ، لمَ هذه الضجة كلها ؟ أهي أكثر من ذكريات حرب عادية ؟» .

قال رافضاً نقدي بشدَّة : «بالنسبة لي ، ثمت شيء فيها يستحق ضجة حوله . وهي تعني أنني وجدتُ في الأقل قريباً لي تابعَ سبيله المعتاد في الحياة حتى في ساحة المعركة . ولو أني مررت في أوقاته ذاتها ، لكانت هذه اليوميات يومياتي أنا . يبدو أن الفكرة تفتح آفاقاً جديدة في رؤيتي الأشياء» .

يبدو أن لصوته قوة تفرض نفسها حتى على دماغ زوجتي المثقل بالسكر . فحين استدرتُ لأنظر إليه ، كانت هي أيضاً رفعت رأسها ، محدِّقةً في وجهه وهو يقف هناك ، مستثاراً بشدة ، لكنه هادئ ، في جوٍّ مجرمٍ عنيف .

موكبٌ من الماضي

عند استيقاظي ، في الصباح التالي ، أدركتُ ، فوراً ، أنني كنت أنام وحدي ، مثل ما أفعل عادةً في طوكيو ، بحيث أستطيع أن ألتوي وأنقلب ، استجابةً للأوجاع الموزَّعة على مختلف أجزاء جسمي ، والفراغ الموحش العميق خلف أضلاعي ، بدون أي إحساس بالذعر ، خشيةَ أن تراني زوجتي ، في الأقل ، النائمة الى جانبي . غمرني شعورٌ جسديٌّ محددٌ بالإنطلاق . كنت في واقع الأمر ، أنامُ ، وكلُ معايبي مكشوفٌ ، غيرَ مهتمٍ بعيون الآخرين كما أنا دائماً حين أنام وحيداً . في الوهلة الأولى ، حاولت ألاّ أعيّنَ الذكرى التي كانت الموحية الأصلية بوضعي . لكني أعترفُ الآن أنها كانت ذلك الشيء الكريه القبيح القابع في سريره الخشبي ، الشيء الذي نظرنا إليه نظرات فارغة يوم ذهبنا الى المعهد لاسترداد طفلنا . تساءل الطبيب إن كان الطفل سيموت من الصدمة بعد أن تغيّرت ظروفه ثانيةً . لكن السبب الحقيقي الذي جعلنا نتركه هناك هو خوفنا نحن من أن نموت اشمئزازاً وصدمةً من هذا الشيء المرعب . كان تصرُّفنا غير مبرر طبعاً . لو مات وعاد إلينا شبحاً هشاً مضاعاً ليرعبنا حتى الموت ، فأنا نفسي لن أحاول الفرار .

البارحة ، بعد أن كرهت زوجتي فكرة الدخول ، الى جانبي من الأبواب المنزلقة ، نامت قرب المدفأة المفتوحة مع تاكاشي وحرسه . في دماغها الذي سخّنه الويسكي ظلت تعزف على حديثنا في الطابق الأعلى من المستودع ، المتعلق بالحياة الجديدة ، والتحلُّل ، والموت ، حاملةً مقتضيات الحديث أبعد فأبعد حتى وقفتْ في النهاية موقفاً حازماً .

كنت حثثتُها : «لنذهبْ الى الفراش . تستطيعين الإستمرار في شربك هناك» . لكنها رفضت ، بصوتٍ أوضح مني ، معلنةً أنها بسبب طبيعة الموضوع ، كانت تريد ، بالرغم من سكرها الشديد ، أن تتكلم بصوت عالٍ ، لصالح تاكاشي والآخرين .

«أنتَ تتكلم عن العودة ، وعن طفلٍ آخر ، كأنْ ليس للأمر علاقةٌ مباشرةٌ بكَ . لكنّ هذا يعني أن تبدأ أنت ، نفسُك ، بدايةً جديدةً . في الممارسة ، أنتَ لا تعتزم فعل هذا . إذاً ، لمَ يتعيَّنُ عليَّ أن أطيع أوامرك ، وأزحف بين البطانيات مثل حيوانٍ مُخْلصٍ ؟ »

بشعور ارتياحٍ خاصٍّ ، تركتُها ، وعدتُ الى مكاني وحيداً . لم يُبدِ تاكاشي أي رغبةٍ في التدخل في خصومتنا التافهة . متشجعاً بالصوت غير المألوف لأخيه الأكبر المنبعث صداه من أوراق اليوميات الأرجوانية ، كان يتوتر ليغمد نفسه مثل برغيّ حادّ الرأس أعمق فأعمق في الزوايا المعتمة لمشكلاته الخاصة . أنا نفسي ليست لديّ رغبة في الوقوع تحت تأثير شبح هذا الأخ الأكبر ، أو تحت تأثير اليوميات خصوصاً . وفضّلتُ اعتبارها حصيلة عادية لتجارب في زمن الحرب . ولسوف أكون أكثر أماناً لو ذهبت الى النوم فارغ الرأس من أن أستدعي الشبح المشؤوم لأخينا المنتصب ، دامياً ، في ساحات معارك غريبة .

للمرة الأولى منذ عدة أشهر ، أُدخل رأسي تحت البطانيات وأشتمُّ

الرائحة الدافئة لجسدي . كنت كمن ينزل في أحشائه . أنا أبلغ من الطول خمسة أقدام وستة إنشات ، أُدخل رأسي في أحشائي لأغلق الدائرة المريحة لجسدي . كأن الوجع المكتوم في أنحاء جسدي ، وإحساس الفقدان ، قد تحوَّلا إلى شعور بالسرور غامض وأثيم ، شعور نابع من إدراك أني متحررٌ من عيون الآخرين ، وأن الألم وإحساس الفقدان خاصّان بي ، في الأقل . بل شعرت بأنني قد أغدو حاملاً بتلك الأحاسيس ، وأنني مثل المخلوقات الدنيا قد يكون لي نتاج خلية واحدة . متحملاً صعوبة التنفس ، أبقيتُ رأسي دفين العتمة الدافئة المتروِّحة بين البطانيات ، وأنا أحاول أن اتخيل نفسي مختنقاً حتى الموت هناك ، رائحة جسدي ذاته في منخريَّ ، رأسي صبيغٌ بالقرمز ، وخيارةٌ مقْحمةٌ في شرجي .

في واقعٍ تزداد كثافتُه ، أخذت ملامح المشهد تتكون...

على حافة الإختناق ، وأديمُ وجهي ساخن ومنتفخ دماً ، أدخلتُ رأسي بقوةٍ في الهواء البارد خارج البطانيات ، لألقى التحية من صوت تاكاشي وزوجتي وهما يتحدثان خفيضَي النبرة خلف الأبواب المنزلقة . رجوتُ أن تصغي زوجتي ووجهها مستدير ناحية الظلال : لا لأني أردتُ أن أخفي علامات الإنحدار التي لا بدّ من ظهورها على وجهها المستيقظ للتوّ ، لكن لأن فكرة عيني أخي تتطفلان هكذا على «عائلتـ» ـنا ، آذتْ ، لا محالة ، احترام الذات لديّ . كان يتحدث عن الذكرى ، عن عالم الأحلام وما إليه . تدريجاً شرعت الأجزاء تتحد في حزمة إحساس ذكّرني بجدال الستروين .

« ... أشارَ إلى التشويهات ، بصراحةٍ لم استطع الردَّ . أتتذكرين ؟ لقد أفحمني الأمر ، تركني في حالة شكٍ وتساؤل ، لكن فريق كرة القدم أخبرني... تعافيتُ ، ناتسومي » .

« تاكا ، ذاكرتك... من ذاكرة ميتسو » ، قالت زوجتي في صوت فارغٍ لا

حياة فيه . أبعدَ ما يكون عن الإشارة الى السَّرَحان ، كان الصوت علامةً على أن زوجتي ، المنصتة جيداً في صحوها ، كانت تركز على ما قاله .

«لا . لست أقول إن ذكرياتي ملأى بالحقائق . لكني من الناحية الأخرى لا أشوِّهها عامداً . على أي حال ، كانت لي يوماً جذور هنا ، ولهذا حين أنغمس في الآمال المشتركة للوادي ، لا يمكن أن يسمَّى ما أفعله خللاً في شخصيتي . أيمكن ؟ بعد انفصالي عن الوادي ، اتّحدت الذاكرة والحلم المشترك ليشكلا نوعاً من ثقافة خالصة في ذهني . عندما كنت صغيراً ، رأيتُ بالفعل ، في رقصة نمبوتسو ، «روح» س ، في السترة الشتوية التي يرتديها الطلبة الضباط البحريون الجويون ، وهو يقاتل رجالاً من المستوطنة الكورية ، على رأس عصبةٍ من الشباب الى أن ضُرب حتى الموت ، ونُزعت سترته ، وتُرك منكفىء الوجه ، وليس عليه سوى فانيلته البيضاء وبنطلونه القصير . ألم أخبركِ أن ذراعيه كانتا مرفوعتين كمن يرقص ، وأن ساقيه منفرْجتان مثل قافز موانع ؟ إن هذا مأخوذٌ من لحظة السكون المفاجئة في رقصة نمبوتسو ، في قمة إحدى وثباتها الوحشية . أُدِّيت الرقصة في ضوء النهار الساطع ، وفي عز الصيف ، لذا ، حتى بياض نور الشمس الذي يضيء ذاكرتي هو جزءٌ مما جرّبتُه في مهرجان «بون» فعليّ . ترين أنها لم تكن ذكرى غارةٍ حقيقية على المستوطنة الكورية ، بل هي تجربة في عالم الرقص ، حيث الحقائق يعاد صنعُها في هيأة مرئية عبر العواطف المشتركة لأهل الوادي . أولادُ الفريق أخبروني أنهم رأوا ، حتى بعد مغادرتي الوادي ، «روح» س يؤدي الرقصة ذاتها كما أتذكرها في مهرجان «بون» كل عام . كل ما فعلتُه ، في الواقع ، هو أني مزجت رقصة النمبوتسو في عمليات ذاكرتي مع المشهد الفعلي للغارة . هذا يعني بالتأكيد أنني لا أزال احتفظ بجذورٍ تصلني بالمشاعر المشتركة للوادي . أنا متأكد من الأمر . لا بد أن

ميتسو شاهد الرقصة معي حين كنت صغيراً ، وباعتباره أكبر مني ينبغي أن تكون ذاكرته عن الرقصة أوضح ، لكنه تعمّدَ السكوت في نقاش السيارة ، انسجاماً مع منطقه الخاص . إن لديه جانباً ماهراً » .

سألته زوجتي : « كيف هي رقصة النمبوتسو ؟ هل «الأرواح» تعني أرواح الموتى ؟ » لكني ارتأيتُ أنها قد أمسكت ، فعلاً ، بالمعنى الجوهري لما قاله ، وفهمت جيداً افتخاره بأنه اكتشف من خلال الأحلام ، روابطه بالروح المشتركة للوادي .

«لم لا تسألين ميتسو ؟ سوف يغار إن كنت من يخبركِ بكل شيء عن الوادي . أنا مهتمٌّ أكثر بأن تُعدِّي غداء الفريق ، اليوم أيضاً . أفكرُ بإقامتهم هنا خلال فترة التدريب . من عادات الوادي المأثورة أن الزملاء الشباب يجتمعون في «السنة الجديدة» ويقيمون بضعة أيام . وهكذا سوف أرتِّبُ الشيء نفسه . وآملُ في أن تساعدينا ، يا ناتسومي» .

لم أستطع التقاط جوابها بوضوح ، لكن اتّضحَ لي ، منذ الآن ، أنها تنتسب الى حلقة تاكاشي الضيقة . اليوم ، عصراً ، سألتني أن أحدثها عن عادات مهرجان «بون» في الوادي . لم تُشِر ، بالطبع ، إلى كلمة «غيرة» التي استعملها تاكاشي ، فبقيتُ أنا ساكتاً عن استراقي السمع لحديثها معه في ذلك الصباح الباكر ، وحدّثتُها عن رقصة نمبوتسو .

من بين كل الكائنات الشريرة التي نزلت على الغور ، جالبةً المتاعب معها ، كان الشوسوكابي أشهرها ، وهو عدوٌّ لا يتعامل معه أهل الوادي بأي شكل . لكن الغور يتعرض لزيارة نمطٍ آخر من الشر ، بل من فاعلي الشر الذين لا يمكن التعامل معه بالطرد أو الرفض ، إذ أنهم ينتسبون أصلاً إلى أهل الوادي أنفسهم . كل سنة ، مع مهرجان بون ، يعود إلى الوادي في موكبٍ من صفٍ واحدٍ يسلك درب الحصباء هبوطاً من أعالي الغابة ليستقبلها

السكان بكل توقير وإجلال ، هي «أرواح» تمارس أحياناً تأثيراً ضاراً من العالم الآخر (الغابة) على العالم الحاضر (الوادي) . كل فيضانات تكتسح الوادي ، أو أي أوبئة تصيب الرزّ ، تُعْزى الى هذه «الأرواح» ، ومن أجل إرضاء هذه «الأرواح» يكرِّسُ الناس طاقةً كبيرة لمهرجان بون . أثناء وباء التيفوس الذي وقع قبيل انتهاء الحرب ، قُدِّمت رقصةٌ خاصة جداً على شرف «الأرواح» . موكب بون الذي انحدر ذلك العام من الغابة ، يتوسطه شخص مثل سمكة حبّار ضخمة بيضاء ، كان مصدر رعبٍ لأطفال الوادي ربَّما مثّل الشخصُ «الروح» الحاقد لقملةٍ ـ قملة غير حقيقية ، طبعاً ، لكن «روح» أحد أسلاف القرية الذي عاش حياةً قاسية ، أو «روح» شخصٍ طيّبٍ مات ميتةً شقيّة ، يتجلّى تلك السنة في هيأة قملة كي يجلب الخراب الى الوادي . كان ثمت قرويٌّ خبيرٌ برقصة النمبوتسو ، يجهد دائماً في الإستعداد لموكب المهرجان . كانت مهنته صنع البواري ، لكنْ ، مثلاً ، حين ملأ وباءٌ ما ، مستشفى العزْل ، في أجمة الخيزران العظيمة ، بأكثر مما يستوعبُ ، فإن هذاالقرويّ ظل مشغولاً منذ بداية الربيع بالتهيؤ لمهرجان بون المقبل . حتى في عمله ، كان ينادي العابرين على طريق الحصباء ، بصوت عالٍ مهتاجٍ ، طالباً رأيهم في هذه الفكرة أو تلك .

عندما يصل موكب المهرجان الحديقة الأمامية لبيتنا ، يشكل حلقة رقص ، ثم يدخل المستودعَ ، ويُمضي فترةً يعلّق بلطفٍ على الداخل ، حتى يقدم الطعام والشراب للجميع . لذلك ، في ما يتصل بمشاهدة الموكب ، في الأقل ، يكون وضعي متميزاً عن أطفال الوادي الآخرين .

أتذكّرُ التغيّر الصارخ في المواكب التي شاهدتُها ، والمتمثلَ في الظهور المفاجىء ، أثناء صيفٍ خلال الحرب ، لـ «أرواح» ترتدي بدلات عسكرية . كانوا أشباح الرجال الذين استُدعوا الى الخدمة العسكرية ، من الوادي ،

وقُتلوا في المعركة . ازداد بينهم من يرتدون البدلات العسكرية ، كل سنة . « روح » شابٌ كان يعمل في مصنعٍ بهيروشيما ، وقُتل بالقنبلة الذرية ، انحدرَ من الغابة ، وجسمه كله مُسْودٌّ مثل قطعة فحمٍ مستعملة . في مهرجان بون ، وفي الصيف آن مقتل س ، جاء صانع البواري يستعير بدلة طالب ضابط ، ولهذا أعرتُه سترة البدلة الشتوية ، دون أن أخبر أمي . في اليوم التالي جاء الفريق على طريق الحصباء من الغابة وهو يضم « روحاً » مرتدياً سترةً ، ويرقص كما يليق بها...

« لم يكن سليماً من تاكاشي ألا يذكر ذلك في الستروين » .

« لكني لم أصمت عن الأمر عامداً . تعرفين ، أنني أعلم أن س لم يكن قائد الشباب في الوادي ، كما أن لديّ ذاكرتي القوية عن جسد س ملقىً حيث ضُرب حتى الموت . لذا لم استطع أن أربط مثل ذلك « الروح » البطوليّ والجذّاب بموت س الفعليّ » .

« هذا كله ، يعني أنك مقطوعٌ عمّا يسميه تاكاشي المشاعر المشتركة لأهل الوادي » .

قلتُ ، وأنا أستأصلُ من الأساس الهجمة المختفية في كلماتها التي بدت غير مؤذية : « أنا مقطوع فعلاً عن الوادي ، ولهذا فلا علاقة لي بالمتاعب التي يجلبها « الأرواح » إلى هنا . سوف تدركين عاجلاً لو شاهدتِ بالفعل رقصة النمبوتسو ، أن رقصة « الروح » المرتدي بدلة الطالب الضابط تؤدّى في حلقة وتتضمن العديد من الحركات المرموقة ، لكن في الموكب القادم من الغابة شبحاً من مرتبة أدنى يتمهل في مكانٍ ما ، في الخلف . أما « الروح » الذي قاد الموكب ، الشخصية المركزية المرموقة ، الأعلى من المتفرجين والممثلين الآخرين ، فقد كان « روح » قائد انتفاضة ١٨٦٠ . وبتعبير آخر ، « الروح » الذي يلبس لبوس الأخ الأصغر لجدنا الأكبر » .

«إذاً ، هل بدأت عادة تقديم رقصة النيمبوتسو ، مع انتفاضة ١٨٦٠ ؟»

«لا . لقد وُجدتْ قبل ذلك ـ أما «الأرواح» فقد كانت في الوادي منذ سكنَ الناسُ المكان أول مرة . لسنوات كثيرة ، بل لعقودٍ بعد الإنتفاضة ، ربما كان «روح» شقيق جدي الأكبر مبتدئاً يرضى بالتخلف وراء الموكب ، تماماً مثل «روح» س . أحد الفولكلوريين أشار إلى «الأرواح» الجديدة ، باعتبارهم «مبتدئين» ، وأطلق على تدريبهم في رقصة النيمبوتسو ، فترة «اختبار» . تتضمن الرقصة الكثير من الحركات العنيفة والملابس . إنها لعملٌ صعبٌ ، فبالإضافة إلى تدريب «الأرواح» ذاتها ، ينفق شبان القرية كثيراً على الملابس التي يرتدونها في أداء أدوارهم . خاصةً عندما تلمّ مصائب تؤثر في حياة الغور ، آنذاك ينفقون بسخاء عجيب» .

قالت هائمةً : «وددتُ لو أراها مرةً» .

«أنت ستشاهدين تاكاشي والآخرين في التدريب على كرة القدم ، يومياً ، أليس كذلك ؟ إن كانت أنشطة تاكاشي متجذرة حقاً في «المشاعر المشتركة» للوادي ، فسوف تكون شكلاً جديداً من رقصة النمبوتسو ذاتها . حتى وإن لم تتقمَّصهم «الأرواح» ، فإن التدريب سيمنحهم القوة الجسدية ، وهكذا يتحقق نصف تأثير الرقصة ، في الأقل . حتى في أسوأ الأحوال ، سوف ينفعهم هذا التدريب ، إذ لن تنقطع أنفاسُهم حين يؤدّون الرقصة في الصيف . أتمنى فقط ، أن دروس تاكاشي في كرة القدم ، موجَّهةٌ أساساً إلى مثل هذه الأهداف المسالمة ، وليست من نوع تدريب الشبّان ذاك ، الذي قام به شقيقُ جدي الأكبر في ساحة العرض التي هيّأها في الغابة...» .

قبل عشية رأس السنة بيوم ، رأيت دليلاً فعلياً على التأثير المفيد

لتدريبات تاكاشي ، في حياة الوادي . عصر ذلك اليوم كان هواء دافىء يهب عبر النافذة القائمة في الجدار المتين للمستودع ، دائراً حولي مثل ماء دافىء ، مذيباً الكتل المتجمدة ، الرأس ، والكتفين ، والأطراف ، حتى صرت ، بالتدريج ، متوحداً مع المعجم وكتاب بنجوين والقلم ، وقد تبخرت الذوات الأخرى كلها ، مُبْقيةً فقط تلك الذات الماضية في الترجمة . وبدا لي ، بصورة غامضة ، وأنا ماضٍ في مهمتي أن الأمور لو ظلت هكذا دائماً ، فقد أظل أنا حتى أموت من الهرَم ، لا أعرف مصاعب العمل ، ولا أؤدي أي عمل ذي أهمية خاصة . بغتةً ، صكّتْ صرخةٌ أذني الدافئة المتبلّدة :

« رجلٌ في النهر! »

رفعتُ جسدي المهلهل ، المبلل ، على كُلاّب اليقظة ، كما يسحب امرؤٌ علجومَ بحرٍ ميتاً ، هبطتُ السلَّمَ مقعقِعاً . معجزةٌ أني لم أسقط . في العتمة أسفل السلّم ، توقّفتُ بعد أن أمسك بي خوفُ ما فعلتُ . في الوقت نفسه ، خطرتْ لي فكرةٌ ثانية : من المستبعد أن يأخذ النهر شخصاً في منتصف الشتاء ، وهو جافٌّ تقريباً . لكنني سمعتُ ، قربي هذه المرة ، أصوات أولاد جن ، متصاديةً ، تصيح : « رجلٌ في النهر! » .

خرجتُ إلى الحديقة الأمامية ، ورأيت الأولاد ، عاوين مثل كلاب الصيد وراء الطريدة ، وهم يهبطون على طريق الحصباء ، ثم يختفون فوراً عن الأنظار . المهارة التي يحافظون بها على توازنهم وهم يركضون ، أو يثبون ، هابطين على الدرب الضيق المنحدرِ الحريث لطول الاستعمال ، أثارتْ فيَّ ذكريات عميقة ، ذكريات أقدامٍ تركض ، ورجالٍ يغرقون . كل سنة ، خلال فترة أواخر الصيف وأوائل الخريف ، فترة الفيضانات ، وبخاصة بعد قطع أشجار الغابة العشوائي أثناء الحرب ، كان إنسانٌ منكود يغرق في مياه النهر المتعاظمة . أو من يكتشف الأمر يصرخ بأعلى صوته ، « رجلٌ في النهر! » ،

ومن يسمعون الصيحة يشكلون جماعة تركض على الطريق بمحاذاة النهر . لكن لا سبيل إلى انقاذ الضحية ، وهو ينجرف مع مجرى النهر . الكبار جميعاً يتسابقون على طريق الحصباء وتفرّعاته ، عابرين الجسر ، مستمرين في ركضهم ، حتى بعد أن يضمّوا صفوفهم على الطريق المعبّد ، آملينَ ، عبثاً ، أن يسبقوا الفيضان في اندفاعه العارم . تستمر المطاردة في هرج كبير حتى يسقط أقواهم ، إعياءً ، لكن بدون أن تتمّ محاولة عملية واحدة للإنقاذ . في اليوم التالي حين يكون النهر قد انخفض قليلاً ، يرتدي الكبار ملابس رجال الإطفاء ، ويتحركون ببطء وتمهُّلٍ ، مُضيعين أكبر وقت ممكن ، كي يبدأوا رحلتهم الصعبة والمشكوك فيها ، متفحصين بأعمدة الخيزران الطينَ الناعمَ الذي يغطي مشتبَكَ الخيزران والصفصاف الباكي ، غير قادرين على العودة إلى بيوتهم حتى يعثروا على الجسد الغريق .

أنا الآن مقتنعٌ تماماً بأني كنت مخطئاً حول الصرخة ، لكن تظل حقيقة أنها أيقظت لديَّ ـ حتى وإن أرخاني عملي في الطابق العلوي من المستودع إلى عجينة لحم ـ فعلاً انعكاسياً كما لو كنت فرداً في مجتمع الوادي استثارتني الفكرة . ومن أجل أن أقلل من وتيرة تلاشي الاستثارة ، قررتُ افتراض أنني سمعت فعلاً ، الكلمات «رجل في النهر! » وأن أتقبلها في قيمتها الظاهرية . على أي حال ، لديّ وقتٌ كثير . وقد استفدتُ من أيام فتوّتي في الوادي ، فانحدرت ، مثل أولاد جن على طريق الحصباء ، باسطاً باطن قدميّ على الجوانب المنحدرة للأخدود ، وناشراً ذراعيّ حولي للحفاظ على توازني . وحين أصل الى الفسحة أمام مكتب القرية أكون شبه منطفىء ، أنفاسي لاهثةٌ وركبتاي هامدتان . أثناء جريي أكاد أسمع اصطفاق جسمي المهلهل . ومع ذلك مضيتُ في سبيلي نحو الجسر ، ناتيء الحنك مثل متسابق مسافات طويلة خُلِّفَ إلى الوراء ، لاهث الأنفاس ، مضطرب الذهن

بسبب ضغط قلبي على أضلاعي . وحين رأيت النساء والأطفال يتجاوزونني تذكرتُ أني منذ سنوات لم أركض ولو مرة واحدة .

فيما بعد ، رأيت حشداً ذا ملابس زاهية الألوان ، يقف في طرف الجسر . في الأيام القديمة كان الجمع الريفي مثل جمع من السردين ، لكن فيض الملابس الزاهية من السوبر ماركت غيَّر كل شيء . كان الحشد ينظر أمامه ، وقد خيَّمَ عليهم صمتٌ كثيف يكاد يُلْمَس . خطوتُ في أكوام العشب الذابل على جانب الطريق كما فعل الأطفال قبلي ، فرأيت العملية الجارية حول دعامة الجسر المكسورة . العمودُ الوسطُ مال عن موضعه بسبب ضغط الماء ، ولهذا فإن ذلك الجزء منه المتصل بهيكل الجسر يمدُّ الآن عدة وصلاتٍ في كل الاتجاهات مثل أصابع ملتوية ، وكل وصلةٍ مكسورة مع أنها مقوّاةٌ بقضبانها إلا أنها كانت كتلةً من الكونكريت تتمايل حرّةً . وكل قوّةٍ تُزاد على أي جزء منها سوف ترسلها في التفافٍ معقّدٍ خطرٍ . على إحدى كتل الكونكريت هذه يستلقي طفلٌ ، صامتاً بصورة غريبة ، مرخياً قبعته على عينيه . ربما كان فقدَ وعيه ، إذ كان السكون شديداً . لقد انزلق في فجوةٍ بين ألواح الجسر المؤقت ، فأمسكَ وهو المذعورُ بكتلة الكونكريت ، لكن حتى وزنه كان كافياً لجعلها تتمايل ، ولم يكن لديه خيار إلا الإمساك بها دون حراك تماماً .

الشبان كانوا يحاولون إنقاذ الطفل المصعوق . من السقّالات التي تسند الجسر المؤقت ، جذعان ، مشدودان معاً ، يجري إنزالهما بالحبل جنب العمود الوسط . رجلٌ يقف حافياً في الماء الضحل ، يمسك بالحبل المعقود حول وسط الجذعين ليمنعهما من ملامسة العمود . شابّان آخران كانا يمتطيان الجذعين ، مطْلقينِ أصواتاً مهدِّئةً كما يفعل الناس لحيوان مرتعبٍ .

عندما وصل الشاب الذي في المقدمة ، تحت الطفل مباشرةً ، لفَّ رفيقه

الذي كان خلفه ، ذراعيه ، حول خصر الأول ، بشدّة ، محتفظاً في الوقت نفسه ، بتوازنه ، بوساطة لفّ ساقيه حول الجذعين . ومثل ما يخطفُ زيزاً من شجرةٍ ، خطفَ الأولُ الطفلَ إلى الأمان . تصاعد هديرٌ من المتفرجين . وفي تلك اللحظة انطلقت كتلة الكونكريت التي كان الطفل عليها ، في حركة صعود وهبوط والتفاف واصطدمت بزاوية ناتئة من الجسم الرئيس للجسر المكسور ، مرسلةً خبطةً ثقيلة تردّدَ صداها في الوادي وارتفع فوق الغابة . تاكاشي الذي كان منبطحاً على بطنه يوجه حركات الشبان من الجسر المؤقت ، فوق كتلة الكونكريت مباشرةً ، وقف ، وأعطى تعليماته لمن يمسكون بالحبل ، كي يرفعوا الشبان الثلاثة على الجذعين ، إلى مستوى الجسر المؤقت . أمواج الصدمة من الإرتطام ظلت تعنُفُ في داخلي . وقد جاء تأثيرها من إحساسٍ مُستقمٍ بالإرتياح لأن قريباً لي خرج سالماً من محنة كبرى ، لكن هذا الإحساس ، ابتلعه إحساسٌ آخر ، أشدُّ ، إحساسٌ باليأس من قسوة الحياة ، عندما فكّرتُ بما سيحدث لو لم ينجح . لو أخفقت عملية الإنقاذ ، وسقط جسم الطفل على السطح الناتىء مع كتلة الكونكريت ، فإن تاكاشي ، باعتباره المسؤول عن موت الطفل ، سيُرمى لا محالة على قطعة الكونكريت المندفعة مثل ثقّالةٍ على خيط شصٍّ ، كي يتهشّم رأسه هناك . والواقع أن عقوبةً أشد قسوةً وفظاعة قد تلحق بالرجل الذي قتل فرداً غضّاً من أفراد المجتمع . كلما أكدتُ لنفسي أن تاكاشي قد نجح فعلاً ، عجزتُ عن إزالة طعم الخوف الذي تصاعدَ في حلقي . تساءلتُ في نوع من الغضب الطائش : لماذا تطوَّع تاكاشي فوضعَ نفسه في هذا الخطر ؟ الحشد الذي كان فريق كرة القدم يحجزه حتى الآن كي تجري عملية الإنقاذ ناجعةً ، شرع يضغط حول الطفل الناجي . عندما استدرتُ ، عائداً باتجاه القرية ، تذكرتُ وجه تاكاشي ، المتوتر بهدوء ، المتحدي نوعاً ما ، أيامَ كان يصرُّ على أنه لا

يهاب العنف من أي نوع ، أو الألم الجسدي ، او حتى الموت ، لكنّه يغمى عليه حين يرى قطرة دم تسيل من إصبعه . لنفترض أنه رأى جسم الطفل يُهْرَس أمام عينيه ، على مبعدة قدمٍ أو نحوه وهو منبطح على بطنه على الجسر المؤقت ، بينما شظايا من الكونكريت المعجونة بالدم ، مع فُتاتِ لحمٍ ، ترشُّ وجهه ـ هل اعتقدَ أن قيئاً سريعاً سيخلِّصه من الواقع ، ثانيةً ؟

خليطٌ مرح من الضحك الصاخب وصيحات الحرب ارتفع ورائي ، واستحثّني ، فمضيتُ قُدماً ، وأنا أسرعُ ، لاهث الأنفاس ، مستثاراً لكن بنوع من الإستثارة مختلف عنهم : « رجلٌ في النهر » ـ لكن تاكاشي نفسه هو المتورط في أخطر فيضان على الإطلاق . لكن هذا الحادث قد يمنحه وفريقه سلطة معينة على الوادي . سأمنحه الثقة ، في الأقل ، وأجعله يشعر أنه مدَّ جذوراً قويةً هناك . إن وقائعية ما يتشكل في عالمه سوف تطبع نفسها تدريجاً وأكثر وضوحاً على زوجتي ، بحيث تزيد قناعتها في النهاية بأن كلَّ ما يحدث لي غيرُ مرغوبٍ فيه . وللمرة الأولى اكتسبت كلمة « غيرة ، التي استعملَها تاكاشي مع زوجتي ، مضموناً محدداً .

قبل أن أترك المكان بالضبط ، رأيت الستروين متوقفة وراء الحشد . لو شققتُ طريقي إليها ، لكان بمقدوري الإنضمام إلى زوجتي والآخرين . لكني أهملت السيارة ، وأدرتُ ظهري للحشد . الشرر المتطاير من كلمة « غيرة » والمشحون بمعنى جديد الآن ، أخبرني أنني لم أرِد الإلتحاق بزوجتي ، ونحن نشهد نجاح تاكاشي...

لحقني رجل ذو ساقين مفرطتي الطول على درّاجة هوائية مفرطة في القِدم ، وكان يركب درّاجته كأنه في مسابقة للبطء . ثم وضع قدماً على الأرض ، في هيأة المستمتع ، ونظر حوله .

« إن أخاك لقائدٌ حقاً ، ياميتسوسابورو » . لم يكن التأثر بادياً عليه .

وهي الطريقة التي يتكلم بها الناس جميعاً في الوادي . فباعتبارهم شديدي الحذر ، يرتدون دائماً قناعاً من الإنفصال البارد ، يحاولون من خلفه سَبْرَ مشاعرِ الشخص الآخر . حين غادرتُ الوادي كان الرجل مساعداً في مكتب القرية . لقد صار سميناً الآن ، وتوحي سحنتُه بمعاناةٍ من الكلى ، لكن الدراجة التي يمتطيها وهو يرقبُ بتعبيرٍ ملتبسٍ ردَّ فعلي ، كانت الدرّاجة العتيقة ذاتها لمكتب القرية . «لو أخفقَ فلربما شنقه الحشدُ» ، قلت ذلك في صوت هادىء كصوته لكنه مليء بالإمتعاض . أدرك الرجلُ أنني لستُ جاهلاً بأصول الحديث بين الكبار في الوادي . أطلق نوعاً من النخير ، محايداً ، لكنه ذو احتقار كامن .

ومضيتُ أقول : «لو أنه ترعرع في الوادي ، لما فعل شيئاً أخرقَ كهذا . كان يبحث عن المتاعب ، كمن يسير على حافة فخٍّ . إنه لايعرف أهل الوادي» .

«أوه ، دَعْكَ!» في مكان ما ، خلف الابتسامة الغامضة يكمن لمحٌ من الخجل والإرتياب كليهما . «إن أهل الوادي ليسوا جميعاً بهذا السوء!» .

سألته وأنا أمشي بجانبه ، وهو يدفع دراجته : «لماذا تركوا الجسر غير مرمَّم ؟» .

«الجسر ، إيـ ... »بدأ ، ثم توقَّف ، رافضاً الاستمرار فترةً . ثم أضاف باللهجة الساخرة الشائعة ، أيضاً ، لدى الحاذقين من كبار أهل الوادي : «في أوائل السنة المقبلة ، سوف نُلحَق بالبلدة المجاورة . حتى ذلك الحين ، لا معنى لقيام القرية بترميمه على حسابها» .

«وماذا سيحدث لمكتب القرية لو أُلحقتُم ؟»

قال : «شيءٌ واحدٌ ، هو أنهم لن يحتاجوا إلى مساعد» . كان هذا رد فعله الصريح الأول . «حتى الآن لايكاد المكتب يفعل شيئاً على الإطلاق .

تعاونية الغابات أُدمجتْ مع مجموعة خمس بلدات وقرى ، منذ دهور ، والتعاونية الزراعية أفلست ، ولهذا يعتبر مكتب القرية مهجوراً من الناحية العملية . مدير المكتب لم يعد يهتم بعمله ـ يظل طول اليوم داخل المكتب يشاهد التلفزيون » .

« التلفزيون ؟ » .

« السوبرماركت ، أنت تعرف ، نصب هوائياً مشتركاً في أعلى نقطة بالغابة ، وشرع يبيع الأجهزة . ثلاثون ألف ين لاستعمال الهوائيّ ، حتى بهذا السعر ، استعملته عشر عوائل في الغور » .

يبدو أن الوادي وإن كان في أسوأ وضع اقتصاديّ ، إلا أن ثمت ، في الأقل ، عشر عوائل غنية ، فيه ، لم تقع تحت سيطرة السوبرماركت ، بل تتمتع بالحياة الإستهلاكية على طريقتها الخاصة ـ مع ان هذه العوائل العشر ذاتها ـ لو صدّقنا نظريات الكاهن الشابّ المتشائمة ـ قد تكون مدينة أيضاً للسوبر ماركت في جزء من أجر الهوائي ، وكلفة أجهزة التلفزيون .

« لا أحد يدفع أجوراً عن الهوائي . يقولون إنهم لا يستقبلون محطة جي . بي . سي بهوائيّ السوبرماركت » .

« ماذا يشاهدون إذاً ؟ البرامج التجارية من البلدة ؟ » .

« لا . لا . في واقع الحال ، تأتي الـ (جي . بي . سي) على خير ما يرام » ، وأبدى علائم سرور .

« ألايزالون يؤدون رقصة النمبوتسو ؟ »

قال متناولاً الموضوع الجديد ، بحذرٍ : « لا . لم يؤدّوها خلال هذه السنوات الخمس . لا أحد سوى الوكيل في ملككم . وصانع البواري هرب في إحدى الليالي . عندما يبني الناس منزلاً في القرية هذه الأيام ، يبنون غرفاً على الطراز الغربي ولا يستعملون البواري » .

«لماذا يتعيَّن على موكب النمبوتسو أن يؤدي رقصة في حديقة منزلنا ؟ بمقدورهم أيضاً أن يختاروا حديقة منزل شيخ القرية ، أو مالك الأرض الغابيّة . ألأنّ بيتنا يقع على الطريق من الغابة نزولاً الى الوادي ؟ » .

«السبب الأكيد ، لأنه بيت عائلة النيدوكورو ـ حيث روح أهل الوادي تمدّ جذورها . حين ألقى أبوك كلمة في المدرسة الإبتدائية قال إن في اوكيناوا ، حيث عمل قبل ذهابه الى منشوريا ، كلمةً محليةً ـ نيندوكورو ـ تعني ذلك بالضبط ـ (جذور الروح) . قدَّم كذلك هدية إلى المدرسة ، عشرين جردلاً من دبس السكّر» .

أجبتُ : «أمي سخرت من نظريته عن النذروكورو ، ورفضتْها تماماً . أما عن دبس السكّر فقد صيَّر أبي أضحوكةً في الوادي كما قالت . وأنا أتصوَّر أن السبب المباشر للسخرية التي تعرَّض لها ، هو أن رجلاً يقدم مثل هذه الهدايا ، بينما أسرتُه على حافة الإفلاس» .

«لا . لا . لا بالتأكيد!» قال الرجل هذا ، ساحباً الفخَّ الماكر الذي نصبه بنفسه في هذه البراءة الظاهرة . في الوادي كانت نظرية (نندوكورو ـ نيدوكورو) مصدر سخرية لا حدَّ لها . وعندما يجتمع القرويون ، يقضون وقتهم في رواية الإخفاقات الكثيرة المختلفة في حياة أبي ، الذي كان سريع التصديق لما يقوله الآخرون ، تكون هذه القصة ، عادةً ، قمة المرح . ولسنين تلتْ سخروا من أبي باعتباره الرجل الذي استعمل عشرين جردلاً من دبس السكَر في محاولة منه لاحتكار الأرواح في الوادي . ولو أني تركت الرجل من مكتب القرية يغريني حتى أؤكد نظرية (نندوكورو ـ نيدوكورو) ، فلسوف يعمد هو ، وأصدقاؤه ، الى تلفيق حكاية جديدة تبيِّن كم قلَّدَ نيدوكورو الإبنُ ، أباه .

«بعتَ المستودع والأرض ، يا ميتسو سابورو ؟ أظنك بعتها بثمن جيد!»

«لم أبعها رسمياً حتى الآن . وقد لا أبيع الأرض على أي حال . إذ أن جن وعائلتها هناك في الأقل» . أصرَّ قائلاً : «ليس عليك أن تتظاهر ، يا ميتسو سابورو ـ أنا متأكد من أنك حصلت على ثمنٍ جيد لهما . تاكاشي ومالك السوبر ماركت جاءا إلى مكتب القرية ليسجلا بيع الأرض والمباني ، ولهذا أعرفُ معظم التفاصيل» .

استمررت في المشي : هادئاً ، مبتسماً بوداعة ، حتى احفظ ردود أفعالي الجسدية تحت سيطرة ذهني . فجأة صار طريق الحصباء تحت قدميّ ، كثير الحُفَر ، متعباً . عيون النساء والشيوخ التي تراقبنا بانتباه من وراء الظلال خلف زجاج الأبواب القذر الذي لايزال مرشوشاً بالوحل الجاف من أمطار مضى عليها عهدٌ طويلٌ ـ هذه العيون اكتسبت ، بغتةً ، حدَّةَ عيون الغرباء .

موظف القرية السائر الى جانبي ، كان ممثلهم جميعاً . الغابة حولنا غارقة في العتمة ، السماء ملبّدة ، تهدِّد بالثلج . لكن المشهد صار ، فجأةً ، غريباً عليّ . جهدتُ للإبقاء على ابتسامتي الرضيّة ، ذات الهدوء المطلق الذي رأيته في عيني طفلنا الذي فشل ، على المدى البعيد ، في إقامة علاقة تفاهمٍ مع العالم الواقعي . لقد أغلقتُ نفسي عن الوادي ، وليس لديّ اهتمامٌ به ، ولن أنزعج لأي شيء في الوادي . لم أكن هناك على طريق الحصباء ، ولست هناك من أجل أي من الغرباء الساكنين على امتداده...

«إذاً ، عليَّ الذهاب» ، قال الموظف ، ممتطياً درّاجته . لقد أحسَّ في تصرُّفي بتلك العلامة المميَّزة للغريب ، وقد استعان بحكمة أسلافه ، ففضَّلَ ألا يتورّط . لكن خاصية الغريب التي توسَّمَها فيّ ، لم تكن مصدر وجَعٍ لرجلٍ باع أخوه الأصغر ، خِفيةً ، بيتَه وأرضه للغرباء . مثل هذه القضية كانت ستغدو أكبر فضيحة ممكنة في مجتمعٍ وادٍ ، ولو كان لديه أدنى شكٍّ فيها ،

لحشر نفسَه رأساً في حمأة وجعي مثل ما يشقّ القراد طريقه في آذان كلاب الصيد ويرفض تركها . الوجه الذي أريتُه إياه كان مختلفاً شيئاً ما : وجه غريبٍ غير معنيٍّ به ، وببقية الوادي ، وسائر شؤونه . وهكذا ركب دراجته ، ومضى بقوةٍ كافية لأن يهتز نصفه الأعلى الهزيل ، متمايلاً ، متسائلاً ، بلا شك ، عمّا إذا لم يكن يتحدث الى شبح ، بعد هذا كله . وفجأةً ، بدون توقُّعٍ ، تحوَّلتُ لديه ، الى شيءٍ ناءٍ وعديم المعنى ، مثل إشاعة من بلدة بعيدة .

«طيّب . وداعاً» . أجبتُ بصوتٍ كان وقعُ هدونه مريحاً حتى في أذنيّ . لكنه رفض أن يخاطبه شبحٌ ، فمضى الى أمام ، حزيناً ، منحني الرأس ، يصعد المنحدر ، في البعيد . مشيتُ في منتهى البطء ، مبتسماً لنفسي ، شخصاً خفيّاً يطرق ممراً غير مألوف . عددٌ من الأطفال الصغار الذين لم يصلوا الجسر في حينه نظروا إليّ ، لكني لم أمتعض للشبه بين وجوههم الحقيرة وبين ذاتي السابقة ، كما لم أنزعج حين مررت بمستودع الخمّارين الذي استُبيح ليكون سوبرماركت . المخزن كان مهجوراً اليوم ، والفتاة الضجرة وراء الحاسبة نظرت إليّ بعينين غبيّتين شفّافتين .

وثب عليّ تاكاشي ، فجأةً : «عليك أن تبدأ حياة جديدة ، ياميتسو ، لمَ لا تترك كل شيء في طوكيو ، وتأتي الى شيكوكو معي ؟ لن تكون طريقةً سيئةً للبداية» . آنذاك عادت قرية الوادي إليه ، كحقيقة ، للمرة الأولى خلال عشر سنين أو أكثر . هكذا عدت الى الوادي ، بحثاً عن (كوخ الأغصان) ، لكني ، خُدعتُ حقاً ، بالرصانة الزائفة غير المتوقعة التي اكتسبها تاكاشي ، كالسخام على الجلد ، من تطوافه في أميركا . إن «حياتي الجديدة» في الوادي ، لم تكن سوى خدعةٍ دبَّرها تاكاشي ليحبط رفضي ، ويمهد السبيل له ، كي يبيع البيت والأرض ، من أجل هدفٍ غامض كان يتّقدُ لديه تلك

اللحظة . من البداية ، كانت الرحلة الى الوادي ، غير موجودة بالنسبة لي . ومادمت لم أعد ذا جذور هناك ، ولم أقم بأي محاولة لمدً جذورٍ جديدةٍ ، حتى الأرض والبيت كانا غير موجودين لديّ ، فليس من غرابة في أن يكون أخي قادراً على سلبهما مني ، بأقل ما يمكن من الحيلة .

متوقفاً بين حين وآخر ، وغير مثابرٍ ، عدتُ أرتقي الطريق المخدَّد الذي كان قبل وقتٍ قليلٍ قد أعاد مع ذكرى طفولتي ذلك الإحساسَ بالتوازن الذي سمح لي بهبوطه راكضاً وفي سهولةٍ تامة . ولقد قلقتُ لأن هذا الطريق صار نائياً إلى هذا الحد ، لكنني من الناحية الأخرى تحررتُ من الشعور بالذنب ، الذي ظل يطاردني منذ مجيئي الى الوادي ، والمتعلق بفقداني الهوية التي ينبغي أن تكون لي منذ الطفولة .

الآن ، حتى لو اتهمني الوادي كله بأني فأر ، فسوف أردّ بكل عدوانية ، «ومن تكونون ، لتهينوا غريباً لا تعنيكم شؤونه ؟» ، أنا الآن لستُ سوى عابرٍ في الوادي ، مارّ أعورَ أكثر بدانةً مما ينبغي ، والحياة هناك ليس لها القدرة على استدعاء ذكرى أي ذات حقيقية أو وهمها . باعتباري عابراً لي حقُ أن أصرَّ على هويتي . حتى الفأر له هويته باعتباره فأراً . إن كنتُ فأراً فلا داعي لأن أنزعج حين أُدعى فأراً . لقد كنت فأراً : فأر بيت هزيل يجري مباشرة الى جحره ، غير معنيّ بالإهانات التي يلقاها . ابتسمتُ لنفسي بصمت .

حين عدتُ الى البيت الذي كان أخي باعه إلى الامبراطور ، البيت الذي لم يعد لي ولا لأيٍّ من عائلتي ، جمعت حاجياتي في حقيبة يدوية . لو أن تاكاشي باع فعلاً المباني ، والأرض أيضاً ، فلا بدَّ من أنه تسلَّم من المال أضعافَ ما أخبرني به وزوجتي ، من مالٍ دُفعَ تسبيقةً . والأكثر من ذلك أنه استولى على نصف حصتي من «التسبيقة» تبرعاً لفريق كرة القدم . أستطيع

أن أراه يقصّ على أعضاء فريقه ، بتفاخرٍ ساذجٍ ، كيف أنه لم يكتفِ فقط بسلبي البيتَ والأرضَ ، وإنما جعلني أيضاً اتبرع للفريق من التسبيقة المزيفة . ولا شك في أن تبرُّعي كان بمثابة فصلٍ كوميدي لعب فيه تاكاشي دور الوغد المحتال الذي يتفوق على الرجل الفاضل قليل الفطنة ، وهو أنا كما يُفترض ان يكون دوري في المسرحية . ذهبتُ ، وأخذتُ كتاب بنجوين والقواميس ودفتر الملحظوات والأوراق من المستودع ، ووضعتُها في الحقيبة اليدوية ذاتها ، ونزلتُ أنتظرُ عودة أخي وحرّاسه ، ومن بينهم آخر مجنّدة ، زوجتي . سوف أعود الى طوكيو ، حيث في كل صباح ، حين أستيقظُ ، أحسُّ ثانيةً بذلك الوجع المستمر الكابي في كل جزء من جسدي . سوف يتدهور وجهي وصوتي باطّرادٍ حتى يكون فمي ممطوطاً مدبباً مثل فأر حقيقي ، ولسوف أبدأ أتكلم بهمساتٍ منخفضة ذات صرير . سوف أفتح حفرةً في الحديقة الخلفية ، لغرضٍ واحدٍ هذه المرة ، هو الزحف إلى داخلها فجراً .

سيكون لي جُحري للتأمل ، مثل ما لبعض الأميركيين ملجأً خاص ضد الغبار الذّري . لكن ملجأي الشخصي سوف يساعدني في مقاربة الموت كأهدأ ما يكون . أنا لا أحاول أن أؤمِّن لنفسي قاعدةً أحيا فيها بينما يموت آخرون . لهذا ، فليس من سبب يدعو جيراني أو بائع الحليب الى استنكار عاداتي غير التقليدية . أعترفُ بأن قراري هذا سيقطعني تماماً عن كل احتمالات المستقبل في حياة جديدة ، أو في إيجاد «كوخ الأغصان» ، لكنه سيمنحني فرصة لأفهم فهماً أعمق تفاصيل ماضيَ ، ومعها كلمات صديقي الميت ومسلكه .

حين عاد تاكاشي ، والآخرون ، كنت نائماً قرب المدفأة . لا بد أن طريقة نومي أظهرت الهدوء المنكفىء لذهني ، إذ سمعت مومو كو تقول

شاكية حين استيقظتُ : «بينما تاكا والآخرون كانوا يؤدون مثل هذا العمل العظيم ، نرى أحد أعضاء المؤسسة يتمدد نائماً مثل هرّ متقاعد!» .

استفسرتُ جالساً : «هرٌّ متقاعدٌ يشبه الفأر تماماً ؟ لقد اختلطتْ عليكِ الأمثالُ قليلاً!» .

موموكو احمرّت خجلاً بطريقة ساذجة : «تاكا والآخرون...» أصرَّت متحديةً ، كي تغطي على ارتباكها ، لكن زوجتي أوقفتها .

قالت : «ميتسو يعرف جيداً ما حدث . كان يراقب تاكا والآخرين من وراء الحشد . مع هذا لم يهنيء الفريق ـ غادر المكان بدون أن يقول كلمة . لا غرابة في أن يذهب لينام!» .

لاحظتُ أن انتباه تاكاشي كان منصباً على حقيبتي الموضوعة على طرف الأرضية العالية التي تلي المطبخ .

قال متمهلاً متدخلاً : «رأيت المساعد من مكتب القرية يتبعك يا ميتسو على دراجته . لاحظت ذلك لأن ميتسو والمساعد كانا الوحيدين اللذين غادرا المكان دون أن ينتظرا رؤية الطفل الذي أنقذناه» .

«أراد أن يسألني عن صفقة البيت والأرض . ماذا عنها ياتاكا ؟ هل ربحتَ منها ثروة ؟» قلت ذلك مستعيناً بجوّ الطفولة السيِّد ، حين كنت أسأل ، عن عمدٍ ، أسئلة غريبة كي أزعجه .

أتلعَ تاكاشي رأسه مثل طيرٍ جارحٍ ونظر إليّ شزراً . لكني حين رددتُ على نظرته ممتعضاً أشاح ببصره ، واهناً ، عني ، بينما تصاعد الدمُ صريحاً في وجهه الصغير الهزيل ، مثل ما تصاعدَ في وجه موموكو ، ثم هزّ رأسه مثل طفل متضايقٍ وقال بصوت خجول :

«أأنت عائدٌ ، إذاً ، الى طوكيو ، يا ميتسو ؟» .

قلت : «نعم . لقد أدّيتُ دوري ، أليس كذلك ؟» .

أعلنتْ زوجتي بكل عزمٍ : «أنا باقية هنا ، يا ميتسو . أريد أن اساعد تاكا والآخرين بينما هم يتدربون» .

تاكاشي وأنا ، نظرنا الى زوجتي ، كلٌّ من جهة ، مندهشَين معاً ، بالمفاجأة . والحقُّ ، أنني لم آخذ بنظر الإعتبار إمكان مغادرتها ، حين جمعتُ حاجياتي في الحقيبة ، لكني ، من جهة أخرى ، لم أتوقَّعْ أن تبديَ هذا التصميم على التخلُّف مع تاكاشي والآخرين .

قال تاكاشي : «على أي حال ، أنت لن تتمكن من مغادرة الوادي ، لفترةٍ ، يا ميتسو ، فالثلج سيهطل الليلة» . ولمسَ لمساً خفيفاً حقيبتي بمقدمة حذائه الرياضي الذي ينتعله لتمارين كرة القدم . وللمرة الأولى ، منذ عرفتُ خدعته ، انحدرَ الغضبُ مثل قطرة حديدٍ ذائبٍ ، من رأسي إلى جسدي ، لكنه سرعان ما اختفى .

قلتُ : «حتى لو حبسنا الثلج ، فسوف أنام في المستودع ، مستقلاً عنكم . بإمكانكم استعمال المبنى الرئيس كما تشاؤون لإقامة فريقكم أثناء التمارين» تنازلتُ هكذا ، في كَرمٍ ضعيفٍ لكرامةٍ مستنفدة .

قالت زوجتي : «إن كنت تريد الاستقلال ، فعليَّ أن آتيك بوجباتك» .

«ألن يكون الجو بارداً في المستودع ليلاً وفي الصباح الباكر ؟» سأل هوشيو ، الوحيد الذي أبدى تعاطفاً . كان يستمع الى حديثنا في صمتٍ مكتوم ، غير مشاركٍ فيه ، حتى كأن نجاح تاكاشي ، ذلك اليوم ، جعله مرتاباً .

قال تاكاشي مستعيداً قوّته : «أخبرني الإمبراطور أنه حصل على مدافىء زيت مستوردة وسوف يعرضها في السوبرماركت ، مع أنه متأكدُ من عدم إمكان بيع واحدةٍ منها . سأشتري واحدةً» . «بغضَ النظر عن الثمن» أضاف هذا ، وعيناه مثبّتتان عليّ ، مع طيفٍ عابرٍ من ابتسامةٍ متحديةٍ .

منذ بعض الوقت ، سمعت الشبان يعملون أمام البيت . ربما امتنعوا عن المجيء عبر المطبخ ، معتبرينَ العنصر الغريب ، أنا ، الصامد قرب المدفأة . ثم ، جاء صوتُ معدنٍ يُطرَق على سندان .

حين ذهبت ، حاملاً حقيبتي ، في طريقي الى المستودع ، مسكني الجديد ، وجدتُهم جالسين على الأرض حول السندان . أداروا رؤوسهم بكسل كي يتطلعوا إليّ ، لكن وجوههم ظلت جامدةً ، بلا تعبير ، كأنهم يحاولون منعي من قراءة أي معنىً فيها . كانوا يطرقون بالمطارق والمناقيش أدوات حديد صغيرة ، من النوع المعروف في المنطقة باسم « قشّارات خَلاّعات ميتسوماتا » . كان الطرف الأعلى من هذه الأدوات التي تشبه المقصّات ، أُزيلَ عن عدد منها ، والأنصافُ السفلى وُضعتْ على الأرض مثل كُلاّبات نارٍ . المقبض ، والحَدُّ الأوسطُ ، والنهاية الحادّة المدببة ، محنيّة في زوايا قائمة على الحدّ .

« تقشير ميتسوماتا » يعني تثبيت النهاية المدببة ، بقوة ، في الشجرة ، لتمسك بالأداة ، فتشدّ على اللحاء ، وتقشر طبقته العليا . كل شيء متعلق بـ « كلاّبات النار » وهي موضوعةٌ على الأرض ـ المقبض ، الحد ، النهاية المدببة ـ يعلن بشكل صارخٍ أن هذه الكلاّبات ستكون أسلحةً . شعرتُ بهاجس الدفاع عن النفس ، لكني مضيتُ نحو المستودع ، دون أن أسأل . فالآن أنا غريبٌ عن كل ما قد يحدث في الوادي .

الغورُ الذي تقع فيه القريةُ ، و « الريف » ، كلاهما ، صقلا ، دائماً ، ميتسوماتاتٍ عالية النوعية . في سالف الأيام ، كانت حُزَم اللحاء المقشَّر من الأشجار ، والمجفّف بعد تقطيعه وتبخيره ، تُخزن في مستودع الميتسوماتا العائد الى عائلتنا . هذه الحُزم تُفصل ثانيةً ، وتُنقَع في النهر ، ويُقشر السطح الأسود بالمقاشر ، وتجفَّف . لسنين طوالٍ كانت مهمة عائلة نيدوكورو

تصنيفها وضغطُها لتشكِّلَ قِطعاً مستطيلة من مادةٍ خامٍ للورق ، ثم تجهيز دائرة الطباعة الحكومية بها . كان تقشير اللحاء الخارجي مصدر دخل إضافيَ لفلاّحي الغور . والعربة التي دفعتُها حين ذهبت لأخذ جثمان س ، كانت تستعمل لنقل اللحاء غير المقشور الى المزارع ، ولجمعه بعد تقشيره . المزارع المسؤولة عن العمل كانت تزوِّد مقاشرَ لحاءٍ يصنعها حدّادُ القرية بصورة خاصة . يُطْرَقُ على مقبض كل أداة ، حرفٌ واحد يرمز الى العائلة التي استعملتْها . عدد مقشِّرات اللحاء كان محدَّداً ، حمايةً لمصالح العائلات الفلاحية ، التي ظلت جيلاً بعد جيل ، تعتمد على هذا العمل ، لزيادة دخلها . لهذا ، وحتى بعد انتهاء الحرب ، بفترةٍ ، كان امتلاك أسرةٍ مقشرةَ لحاء مع علامة الأسرة ، نوعاً من رمزٍ يدل على المكانة في مجتمع الوادي . أتذكّرُ رؤيتي فلاّحاً ، أُخذتْ منه مقشرتُه بسبب اللحاء الأبيض القليل الذي قدَّمه ، أتذكَّرُ الفلاح جالساً على أرضية المطبخ ، متوسلاً الى أمي . قبيل أن تموت أمي ، سلّمتْ تعاونيةَ الفلاحين كل الحقوق المتصلة بصنع الميتسوماتات لدائرة الطباعة الحكومية . الشبّان جاؤوا بالمقشرات من تحت ألواح الأرضية في المبنى الرئيس ، حيث كانت وُضعتْ ، بعد استردادها من الفلاحين . ربما وجد كلُ واحدٍ من الشبان مقشرةً عليها علامة ابيه الخاصة سلاحاً (إذ ليس من استعمال آخر ممكن لهذه الأشياء) يحمل علامةً هي علامة عائلته منذ قرونٍ مضتْ . تُرى ، أكان تاكاشي يفكر ، حين وزّع مقشرةً على كل عضو من أعضاء فريقه لكرة القدم ، بأن هذه المقشرة نوع من بطاقة هويّة ، كي يؤسس نظاماً (مثل ما فعل الجد والأب في أيامهما) يستطيع بموجبه أن يستردَّها من كل مندسٍّ أو خائنٍ في مجتمعه الجديد ؟ لكن ليست لي علاقة بكل هذا أيضاً . حتى لو عُثر على « كلاّب نار » محفورٍ عليه اسمي ، « ميتسو » ، فلا رغبةَ لديّ في تقبُّلهِ .

مُطِلاً من النفاذة الضيقة للمستودع ، أستطيع أن أرى الغابة ، وقد غرقت منذ الآن في ظلامٍ يتناقض مع الحائط الوردي للغروب في السماء العالية ، وأيضاً مع الزرقة الشاحبة الرمادية في السماء الأبعد التي تحتضنها . السماء بدت الآن أكثر التماعاً من السحب الثلجية التي تطلّعتُ إليها خلال النهار ، لكن الإحساس بالثلج كان لا يزال قوياً في الهواء . في الحديقة الأمامية ، كان تاكاشي يصلح القنديل المعلق من الأفاريز ، المكسور منذ زمنٍ بعيد ، كي ينوِّر الشبان وهم يعملون . المطارقُ رنّت على الحديد ، ولونُ الغابة بدأ ينصُل ، فجأةً . الغابة كلها ، وإن لم تزل معتمة الخضرة ، كانت ترتعش : الثلج بدأ يسقط في الأعالي ، وهو يتجه الآن هابطاً إلى الوادي . أحسستُ بكآبةٍ لا توصف تخيم عليّ . الآن وقد وجدتُني متحرراً من أشياء خارجة عني ، أدركتُ أن كآبتي شأنٌ شخصيٌّ محضٌ . لومضت هذه الكآبةُ أبعد ، فقد أتّضحَ لي ما يمكن أن تفعله أصابعي حين أجدني ، مرة أخرى ، جالساً في حفرةٍ ، فجراً ، مع كلبٍ ساخنٍ منتنٍ بين ذراعيّ . ثانيةً ، استولت عليّ ، ذكرى الإرتجاف والوجع اللذين رفضا مفارقتي حتى بعد أن عدت الى غرفة نومي ذلك الصباح . في رأيي أن الوادي لا ينطوي على حياةٍ جديدة ، ولا على كوخ أغصان . أنا كنت وحيداً بعيداً ، مرةً اخرى ، لا أمل أمامي ، وفي قبضة كآبة أعمق بكثير مما كان قبل عودة أخي الى اليابان . وقد عانيتُ المعنى الكامل لتلك الكآبة .

الحقيقةُ المريرة

تاكاشي وهوشيو إذ دخلا المستودع حاملين المدفأة الزيتية ، التي كانت مغلّفةً تماماً ، وبعيدةً لوناً ، عن أي علاقة بالدفء ، رأيتُ نثير ثلجٍ ، جافاً وصُلباً مثل الرمل ، على أكتافهما . موموكو وزوجتي اللتان استثارهما الثلج ، تأخرتا في وجبة المساء . وعندما ذهبتُ الى المبنى الرئيس ، أتعشّى ، كانت الحديقة الأمامية غُطِّيتْ ثلجاً . لكنه ، على ما يظهر ، لم يكن سوى طبقة هشّة ، غير دائمة . الثلجُ المتساقطُ والظلام حجبا نظري البائس ، حتى أني حين تطلّعتُ وواجهتُ العناصرَ ، بدا لي أنني منجرفٌ في زورق على بحر من الثلج المتساقط ، وأن من الصعب عليّ الاحتفاظ بتوازني . نديفٌ من الثلج ناعمٌ ومنثورٌ وخزَ عينيّ ، باعثاً دموعاً ميكانيكية . لكأني أتذكر أن ثلج الأيام السالفة ، كان يتساقط في الوادي ، في نُدَفٍ رطبةٍ بحجم رأس الإبهام . طوّفتُ في ذكرياتٍ كثيرة ذات علاقة بالثلج ، لكن ذكرياتي عن الثلج في الوادي كانت منطمسةً ، مدفونة تحت حشدٍ من ذكريات البلدات التي عشتُ فيها . وفي الحالين كان الثلج الناعمُ الذي أحسستُ به على بشرتي ، تلك اللحظةَ ، نائياً ، مثل أي ثلجٍ سقط على تلك البلدات الغريبة .

ركلتُ جانباً ، كِسَفَ الثلج المستقرة ، بإهمالٍ لطيفٍ وأنا أمشي . في طفولتي ، كنت دائماً أندفعُ متلهفاً لالتهام حفنةٍ من أول ثلجٍ يسقط في الوادي ، كأن فيه كل معادن الجوّ ، من أعالي السماء التي تغطي الوادي ، حتى موطئ قدمي . تاكاشي والآخرون تركوا الباب مفتوحاً ، وفي الضوء الواهن للقنديل المعلق من الإفريز ، كانوا يتفرجون على الكِسَفِ البيض تخطط الظلمة . لقد بدأوا ، جميعاً ، يسكرون بالثلج . لكني ، أنا ، كنت الصاحي الوحيد .

سألتْ زوجتي : « كيف رأيت المدفأة الزيتية ؟ لم يكن هناك لونٌ أكثر ملاءمةً للمستودع » . لم تبدأ حتى الآن ، شُربَ الويسكي ، الليلة ، مع أنها قد تكون سكرى بالثلج .

«لستُ ذا إقامةٍ دائمةٍ هناك . سأغادر غداً ، لو توقّفَ سقوطُ الثلج فقط ، لذا ليس لديّ وقتٌ لأقلق عما إذا كانت المدفأة تناسب الغرفةَ أم لا » .

قالتْ ملتفتةً الى أخي بعد أن لم أُبدِ كبير اهتمام : «تاكا ، أليس من المضحك أن يأتوا بمدافئ مستوردة من اسكندنافيا ، سالكين بها هذا الطريق بطوله ، حتى تبلغ هذا المكان ؟ » .

قال تاكاشي : «حين يعرض الإمبراطور بضائع لا يأمل أحدٌ في شرائها ، فإنه يسخر من القرية كلها » .

خطرَ لي أن تاكاشي يستطيع استعمال هذه النظرية ليحرض أعضاء فريقه الشبّان ، لكني لم أتابع الفكرة . لقد فقدتُ حماستي في التفكير بالعلائق بين تاكاشي والوادي . أكلتُ صامتاً ، كأني لم أكن هناك ، في الواقع ، قرب المدفأة ، إطلاقاً . حرّاسُ تاكاشي يبدون ، في المجرى الطبيعي للأشياء ، مدركين التغيرات النوعية التي حصلتْ لديّ ؛ الحديث

استمرّ فوق رأسي ، كمن يمتطي فراغاً ، دون مقاومة ، أو ارتباك . وبين وقت وآخر ، يحاول تاكاشي ، الوحيدُ الذي يبدو قلقاً من صمتي ، أن يُدخلني في مجرى الحديث ، لكني رفضتُ الطُّعم . لم يكن ثمت دافعٌ قويّ لرفضي ، الأمرُ ببساطةٍ أنهم أخفقوا في إثارة اهتمامي . في ما مضى ، حين أتينا برماد « س » الى المنزل ، في الستروين ، نجحت ذكريات تاكاشي المشوَّهة في استفزازي خارج صمتي ، لكن ذلك كان أيضاً بسبب أنني كنت أحاول مستميتاً أن أربط ، داخل نفسي ـ بين الحقائق الملموسة ، ماضيها وحاضرها ، التي جرت في الوادي ، بُغيةَ أن أجد سبيلاً الى حياة جديدة هنا . أما الآن وقد فقدت دوافع كهذه ، فقد تسنّى لي أن أفهم بوضوح ، ولأول مرة ، أحداثاً لم أستطع الإمساكَ بخيوطها من قبلُ . كان تاكاشي يتصرف كأنّ الحديث مثلثٌ ، أنا أحد أطرافه ، وهو وزوجتي طرفان يشكلان جانباً . لكني لم أشأ أن أكون عاملاً في أي علاقة مثلثة الأطراف . كنت معزولاً تماماً ، تحت وطأة كآبةٍ متزايدة تأخذ بأطرافي كأني في كابوس .

«أنتَ قلتَ ، يا ميتسو ، أنني ليلةَ مقتل س ، كنتُ واقفاً بلا حراك ، في المطبخ المظلم ، آكلُ حلوى ؟» .

(ظللتُ صامتاً ، مهملاً الرجاء في عيني تاكاشي ، ولهذا حوّلَ نظرتَه ، بوهَنٍ ، ناحيةَ ناتسومي وخاطبَها ، بدلاً مني . لقد تبيّنَ لي أنه منزعجٌ للخديعة التي دبّرها ، ويعتبر نفسه مذنباً . مع أن الطبيعة الدقيقة لمشاعره ليست ذات صلة بما خبِرتُهُ . إن فِعلتَه لم تؤذني ، بل على العكس ، فبفضل أخي الأصغر وجدتُ نفسي الآن قادراً على رؤية الأشياء بطريقة مختلفةٍ عن ذاتي الداخلية) «الآن تذكرتُ ، يا ناتسومي ، بوضوح ، ماذا كان يجري في داخلي وخارجي وأنا طفل في ذلك المشهد . كنت أحرّك

لساني هيِّناً ، مبقياً المجاري بين لثتي وشفتيَ مفتوحةً كي أمنع اللُّعاب من المسيل على زوايا فمي . لقد استخدم ميتسو ، خياله ، الى حد معين ، كي ينفخ في ذاكرته أيضاً . قال إن اللعاب الذي صار بُنّياً بسبب الحلوى الذائبة كان يقطر من فمي مثل الدم ، لكن هذا ما كان ليحدث . كنت أستعمل أفضل تقنياتي في أكل الحلوى حتى لا يقطر . أنتِ ترين . لقد كان نوعاً من السحر...

«الوقت غسقٌ ، لكنني حين نظرتُ الى المجاز من داخل المطبخ المظلم كانت أرض الحديقة تشعّ بيضاء ـ بياض أشد نصاعةً حتى من الثلج الذي سقط اليوم . كان ميتسو أحضر للتوّ جثمان س ، أمي كانت في الغرفة الأمامية ، مجنونة يمكن لها في أي لحظة أن تفتح الستائر المنزلقة وتبدأ تزعق على مستأجرين خياليين في الحديقة الأمامية . الغرفة الأمامية ، مصممة ، كما ترين ، بحيث يستطيع سيد المنزل البقاء جالساً ، بينما يصدر توجيهاته الى الناس الواقفين في الخارج .

«هكذا ، وإن كنت طفلاً ، حسبُ ، وجدت نفسي محاطاً بعنفٍ رهيب : على أي حال ، الجثث والجنون ، تمثل العنف في أقصى صوره . لقد حُصرتُ في زاويةٍ ليس لي مهربٌ منها ، مهما كان قدر ذكائي .

بامتصاصي حلواي بطيئاً ، كنت أحاول ، في الواقع ، أن أجعل وعيي يُتشرّب في داخل جسدي ، منصرفاً تماماً عن العنف في الخارج ، مثل ما يدفن الجرح نفسَه في اللحم المتورم آنذاك فكّرتُ بفعلتي السحرية . إن جرت الأمورُ كما ينبغي ـ بتعبير آخر ، إن استطعتُ ألاّ أُسقط قطرةً واحدة ـ فسوف أنجو من العنف الفظيع المحيط بي . قد تكون هذه سذاجة مني ، لكني تساءلتُ دائماً عن الطريقة التي استطاع بها أسلافي أن ينجوا من العنف الطاغي حولهم ، ويُسلِّموني الحياة ، أنا سليلهم . لقد عاشوا في عصر

متوحش على أي حال . لا يُصدَّق أن يفكر المرء بالعنف الطاغي الذي تعيَّنَ على أسلافي أن يكافحوه ، فقط كي أستطيع الحياة الآن » .

«دعنا نأمل أن تتغلب على العنف وتؤدي واجبك في استمرار الحياة» . أضافت زوجتي في نبرة تشي بالعواطف ذاتها الكامنة في اعتراف تاكاشي ، وبجو السذاجة ذاته .

«عندما كنت منبطحاً ، على الجسر المؤقت اليوم ، أراقبُ حياة الطفل معلّقةً ، كنت أفكر بمشكلة العنف ، وتذكرتُ بالضبط كيف كانت الأمور وأنا آكل الحلوى في المطبخ . إنه ليس حلماً آخر من أحلامي» . أخلدَ الى الصمت ، وتطلَّعَ إليّ ، متسائلاً .

عدتُ ، عبر الثلج ، الى المستودع ، وجلست مثل قردٍ أمام المدفأة الزيتية ـ أول مدفأة زيتية اسكندنافية تُشعَل في الوادي ، هكذا قلت لنفسي ـ ونظرتُ في الكوة المستديرة المثبّتة على الأسطوانة السوداء . وراء الكوة ترتعش ألسنةُ اللهب بلا انقطاع ، مثل لون البحر في نهارٍ صافٍ . ذبابةٌ غير متوقّعة صوَّبتْ نظرها الى أنفي ، اصطدمتْ به ، وهوت على ركبتي اليسرى . الهواء الساخن بفعل المدفأة ارتفع الى السقف ، مثيراً الحشرات التي كان مقدَّراً لها أن تظل في سباتها خلف العوارض الضخمة ، حتى الربيع . الذبابة ريّانة سمينةٌ ذات حجمٍ لن تجده في بيوت الناس ، أيام زمان . الذبابات الأخرى التي قد تضاهيها توجد في الاصطبل مثلاً ، لكنها ليس من هذا النوع إلا في الحجم ، فهي الذباب العادي الذي يتجمع حول البشر . بخطفة واحدة من راحتي ، ومن مبعدة أربعة إنشات أمسكتُ بها . أنا صائد ذباب خبير ، ولو أن القول بيني وبين نفسي . الحادث الذي أفقدني بصر عيني اليمنى حدث في عزّ الصيف ، وجاءت تقنياتي في صيد الذباب حدَّ الكمال ، وبهذا أطوِّرُ أيضاً إحساساً بالمنظور وأنا أستعمل عيناً واحدة .

راقبتُ الذبابة وهي ترمش بين أناملي مثل عقدةٍ في عِرقٍ . ثم ، بأقل ضغطٍ ، سُحِقت الذبابة ، وابتلّت أصابعي بسوائل جسمها . شعرت كأن رؤوس أصابعي لن تنظف ثانيةً . تصاعد حولي الرعب ، وتغلغل في داخلي مثل الدفء من المدفأة . لكن كل ما فعلتُه هو أنني مسحتُ أناملي بسروالي . واستمررتُ جالساً هناك ، ساكناً تماماً ، وكاملُ جسدي مشلول كأن الذبابة الميتة كانت القابس الذي يحفظ المركز المحرِّك لأعصابي في موضعه .

تطابقَ وعيي مع اللهب المتراعش خلف الكوَّة الصغيرة للمدفأة ، فلم يعد جسدي في هذا الجانب سوى هيكل فارغ . ممتعٌ أن يقضي المرء وقتاً كهذا متخلصاً من مسؤوليات الجسد . صار حلقي جافاً ساخناً وشرع يتدغدغ . فكرةُ أن أضع غلاّية ماء على رأس المدفأة المسطّح ، جعلتني أتوصلُ الى أنني ـ بدلاً من المغادرة الى طوكيو الصباحَ التالي ـ ارتضيتُ غيرَ واعٍ ، قضاءَ عددٍ لا بأس به من الأيام ، في الطابق الأعلى من المستودع . في هذا الوقت أخبرتني أذناي أن الثلج جاء ليبقى .

حتى في عمق الليل ، هناك ، في الوادي والغابة ، حين تألف الآذان الصمتَ ، وتطوِّران قدرة على الاستجابة لأخفتِ الأصواتِ ، تستطيعان أن تكتشفا عدداً مدهشاً من الأصوات . الآن ، الوادي لا يُصدر أي صوتٍ إطلاقاً . لقد نشر الثلج المتكاثف حديثاً ، ملاءةً من الصمت ، فوق الغور كله ، والغابة الواسعة المحيطة .

يقال إن جي الناسك لايزال يحيا حياته المتوحدة في أعماق الغابة . لكن حتى هو ، المفترضة ألفته مع الصمت اليومي ، سوف يجد جدةً وطرافةً في الغياب الشامل للصوت ، منتصفَ هذه الليلة الثلجية . ولو أنه تجمّد حتى الموت ، في هذه الغابة التي يحاصرها الثلج ، فهل سيعثر الأهالي على

جثته ؟ أي أفكار ستجوس في ذهنه وهو ملقى في الظلمة الصامتة تحت الثلج المتراكم ، وجهاً لوجه ، مع موت قبيح وغير اجتماعي كهذا ؟ هل سيصمتُ ، أم سيغمغم أشياء لنفسه ؟ بقدر معرفتي ، ربما حفر لنفسه حفرة عميقة مستطيلة كالتي كانت لي ، يوماً واحداً ، حيث سيلوذ بها ، في الغابة . لعنتُ نفسي ثانيةً لأنني ملأت تلك الحفرة بشيء متداول مثل صهريج بالوعة ، ولم أقدِّرها حقَّ قدرها . وتخيلتُ حفرتين فُتحتا في أعماق الغابة ، القديمة منهما تؤوي الناسك ، والجديدة تؤويني أنا ، وكلانا جالس في الرطوبة ، ورُكَبُنا الى صدرينا ، منتظرين زوال الخطر . شعرتُ يوماً ، أن عليّ استعمال تعبير «منتظراً» بمعناه الأكثر إيجابيةً ، لكنه بدا لي الآن مجرَّداً من كل شيء سوى مغزاه السلبي ، وأدركتُ بعد تأمُّلٍ أنني بلغت الإطار الذهني الذي يُجيز ـ ويتقبل بلا خوف أو اشمئزاز ـ الموتَ في قاع حفرةٍ ، دفيناً تحت التراب ، وقد أهلتُ بيديَّ الأحجارَ عليّ . الرحلة الى الوادي كانت شططاً ، لكنْ ، طوال الوقت ، ظلت رحلتي الخاصة على المنحدر مستمرة . وخطرَ لي أن باستطاعتي ، وأنا أعيش وحيداً بأعلى المستودع مثل حالي الآن ، أن أصبغ رأسي بالقرمز ، وأحشر خيارةً في شرجي ، وأشنق نفسي ، بدون أن يتدخل أحد . والأكثر من ذلك أن المكان مجهز بعوارض الزيلكوفا الضخمة التي صمدت مائة سنة حتى اليوم . لكن متابعة هذه الفنطازيا لم تُثر فيّ إلا خوفاً واشمئزازاً جديدين ، ولقد سيطرتُ ، فوراً ، على حركة رأسي حين أتلعتُه لأتطلّع الى أعلى ، وأتأكد من وجود العوارض .

في منتصف الليل ، سمعتُ أصواتاً في الحديقة الأمامية ، مثل حصانٍ ينكش الأرض الرطبة . كانت الأصوات تُوقَّع في التراب مثل سلسلة خبطات مكتومة ، دون أي أصداء .

مسحتُ بقعةً بيضوية ، مثل مرآة عتيقة الطراز ، في النافذة الزجاجية الضيقة المعتمة (مثل هذه التحسينات الحديثة في المستودع ، ومن بينها الشبابيك الخلفية ، جرت قبيل نهاية الحرب ، مع الإضاءة الكهربائية والحمّام جنب المستودع ، استعداداً لاستقبال النازحين ـ الذين طغى عليهم ما أشيع عن جنون أمي ، ولم يأتوا أبداً في واقع الأمر) ونظرتُ الى أسفل ، فرأيت تاكاشي ، عارياً تماماً ، يركض في دوائر على الثلج المتراكم في الحديقة الأمامية .

القنديل المتدلي من الإفريز ، بمساعدة الانعكاس الآتي من الثلج الذي غمر الأرض ، ومن السطح ، والشجيرات المتعددة تحت الإفريز ، أفعمَ الحديقةَ البيضاء بتلألؤٍ استعادَ النور الغامضَ للغسق . الثلج لايزال ينزل . التأثير كان سكونياً عجيباً . كأن الخطوط التي رسمها نديفُ الثلج في تلك اللحظة ستظل ماثلةً لا تتغير ، ولا تسمح بأي حركة أخرى ، مادام الثلج مستمراً في السقوط على المساحة فوق الوادي . جوهرُ تلك اللحظة سيمتدُ الى ما لانهاية . اتجاهُ الزمن ابتُلعَ وضاع وسط النديف المُسّاقط مستمراً ، مثل ما امتصت طبقةُ الثلج ، الصوتَ . زمنٌ مراوغٌ : تاكاشي وهو يركض عارياً كان شقيق جدي الأكبر ، وشقيقي . كل لحظة من تلك السنين المائة احتشدتْ في هذه البرهة من الزمن . الشخص العاري توقّفَ عن الركض ، ومشى قليلاً ، ثم ركع على الثلج ، ومسح بكلتا يديه على الأديم . شاهدتُ مؤخرته الخرقاء ، وظهره الطويل المنحني ، مَرِناً مثل ظهر حشرة ، بفقراته التي لا تُحصى .

فجأة أطلقَ تاكاشي سلسلةً من النخير الحادّ ، ثم أخذ يتمرغ ويتمرغ على الثلج . وقف والثلجُ لايزال عالقاً بجسمه العاري ، ثم سار ببطء ، عائداً الى المنطقة التي يلقي عليها القنديلُ ضوءاً أكثر ، وذراعاه الطويلتان

السائبتان تتدليان منفلتتين مثل غوريللا . رأيتُ عنده انتصاباً . كانت لقضيبه القوةُ ذاتها ، المتحكَّمُ بها رواقياً ، والوضعُ الغريبُ ذاتهُ للعضلات المنتفخة في زندَي رياضيّ . لم يُبدِ أي حركةٍ لإخفاء قضيبه المنتصب كأنّ عضوه عضلة في الساق . وعندما دخل المجازَ المفتوح ، تقدَّمت فتاةٌ كانت تنتظره داخل المطبخ ، ولفّتْ جسمه العاري بمنشفة حمّام كانت تمسك بها منشورةً . تقلَّص قلبي وجعاً . لكنها لم تكن زوجتي . كانت مومو كو . بدون أن تطرُفَ لها عينٌ ، أمسكت بالمنشفة مقدِّمةً إياها كي تتلقّاه ، بينما هو يقترب ، بدون أن يستر انتصابه ، مرتجفاً من البرد . مثل أخت صغرى طاهرة عذراء ، هكذا فكّرتُ . دخلا ، صامتين ، وأغلقتُ البابُ وراءهما ، غير مخلِّفينِ سوى خلاصة حركة خامدة على الثلج ، مائةِ سنة محتواةٍ في لحظة .

أحسستُ بأني اخترقت الأعماق الخبيئة داخل تاكاشي الى مستوىً لم تبلغه عيناي من قبلُ ـ إن لم يكن لفهم مغزاها ، فلتأكيد وجودها في الأقل .

تساءلتُ إن كانت آثار جسمه العاري في الثلج ، سوف يخفيها ثلجٌ جديدٌ في الصباح . عادةً ، الكلب فقط ، أو حيوانٌ يماثله ، هو الذي يعرض قضيبه المنتصب بهذه الصراحة ، ومن أجل غاية تافهة الى هذا الحد . إن تجارب تاكاشي في عالمٍ للظلام غريبٍ عليّ ، لابد أنها هي التي منحته الصراحة القصوى لكلب هجين وحيد .

وتماماً ، مثل ما أن الكلب لا يستطيع التعبير عن كآبته بالكلمات ، فإن في مركز ذهن تاكاشي ، شيئاً ثقيلاً ومنعقداً ، تعجز اللغة المشتركة عن فكّ مغاليقه .

ذهبتُ لأنام ، متسائلاً عما ستكون عليه حالي لو جثمَ عليّ روحُ كلبٍ ، ليس صعباً في الظلام أن تستحضر وحشاً مجبولاً جبِلَةً خاصةً ،

جسم كلب ضخم سمين ذي شعر بلون الزنجبيل ، يعتليه رأسي أنا . ذيلُه ، المستدير ، المكتنز ، والمتوثب مثل سوط طويل ، ملفوفٌ بين قائمتيه الخلفيتين ، كي يخفي أعضاءه التناسلية ، وقد تطلَّعَ إليّ متسائلاً وهو يطفو خفيفاً في الظلام ـ تحديداً ، ليس ذلك الكلب المتباهي بعرض ميوله في الثلج ، خلال الليل البهيم . «وووف!» نبحتُ كي أبعده عني ، وعدتُ الى النوم ، حريصاً على ألا أستدعي كلاباً زنجبيليةً من الظلام ، مرة أخرى .

استيقظتُ قبيل الظهر : عشية رأس السنة ، مع ضحكات مجموعة كبيرة من الشبّان الآتين من البيت الرئيس . كان الجو بارداً ، لكنه ليس قارساً . الثلج لايزال ينزل ، والسماء معتمة ، لكن الأرض تلتمع بنورٍ ساطعٍ لطيفٍ . المساكنُ في الوادي ، التي تُرى غائرةً في مصغّراتٍ بعيدة ، بسَطَها الثلجُ ، فلم يعد مرآها يهدِّدُ بنبش الأشياء الملتوية الغائرة في أعماق الذاكرة . وبالطريقة نفسها ، جعلَ الثلجُ الغابةَ ذات الحقيقة المظلمة الشديدة ، أقلَّ شأناً . كأن الغابة تراجعتْ ، والغورَ ، وإن امتلأ بالثلج ، أوسع مساحةً . شعرت أنني أعيش في جوارٍ غير مألوف ، حيث لكل شيء نوعية مجرَّدة مريحة . البقعة التي تمرَّغ فيها أخي على الثلج ، البارحة ، بدت مثل أنموذج قياسيّ لموقعٍ أثري . لم تطأها أحذيةٌ ، فاحتفظت بمنخفضاتها ومرتفعاتها وقد غلّفها الثلجُ الجديد .

نظرتُ إليها ، مليّاً ، منصتاً الى الضحكات التي تعالت من المطبخ ، وجعلت للمنزل رنين سكنٍ طلاّبي .

عندما مشيتُ الى البيت الرئيس ، ودخلتُ ، كان شبان فريق كرة القدم جالسين حول المدفأة المكشوفة ، وما أن رأوني حتى داهمهم صمتٌ مباغتٌ . شعرتُ بأني متطفلٌ غريبٌ ، على حلقة العائلة السعيدة المحيطة بتاكاشي . زوجتي وموموكو كانتا مستغرقتين في العمل قرب المدفأة .

اتجهتُ نحوهما يحدوني أملٌ غامضٌ في أن أجد من لَدُنَّهما عوناً ، فوجدتهما ماتزالان متعتعتينِ سكراً بالثلج الأول في الوادي .

قالت مومكو في مرحٍ بريء : «أخذتُ جزمتك ، يا ميتسو! ذهبت لأشتري جزمةً من السوبر ماركت هذا الصباح ، فلديهم إرسالية كبيرة من الجزمات الجديدة ، جاهزة للثلج . يقولون إن الشاحنة التي تحملها طمستْ في الثلج على الناحية الأخرى من الجسر . مسكينٌ ، يا ميتسو ، المريض بحب البيت ـ كأن كل شيء ضد مغادرتك ، أليس كذلك ؟» .

سألتني زوجتي : «ألم تشعر بالبرد في المستودع ؟ أتعتقد أن من الصحيح أن تقيم هناك فترةً ؟» . كانت عيناها محمرتين من الثلج ، لكنهما فضحتا طاقةً كانت غائبةً أيام كانت العينان محمرتين من السكر . على أي حال ، لم يكن لديها ويسكي ، الليلة قبل البارحة ، وقد نامت جيداً أيضاً .

قلت في صوتٍ أجوفَ كئيبٍ : «أعتقد أنني سأكون على ما يرام» . أحسستُ أن جوابي كان مبعث احتقار ورضا ، لدى الشبّان المتحلقين حول المدفأة ، الذين كانوا ينتظرونه بنفاد صبر وفضول . ربما كنت في عيونهم أبله بليداً ، والشخصَ الوحيدَ في الوادي الذي ظلَّ غير مستثارٍ ، يوم نزول الثلج .

«هل تظنين أن بمقدوري الحصول على بعض الطعام ؟» استفسرتُ ، متخذاً هيأة الزوج التعيس الجائع آملاً في أن يدفع الاحتقارُ المتعاظمُ الشبانَ ، الى إهمال المتطفل .

قال تاكاشي موجهاً السؤال إليّ بصوتٍ مرتاح : «هل تعرف ، يا ميتسو ، كيف تطبخ طائر التدرّج ؟ والدُ الطفل الذي عَلِقَ بالجسر أمس ، خرج في الصباح الباكر مع أصدقائه واصطادوا عدداً لنا» . أمام الفريق ، كانت ذاته الأخرى في الواجهة ، الذات التي ترتدي غشاءً واقياً ، من ثقةٍ

بالنفس ، وسلطةٍ ، وليست الذات التي تمرّغتْ عاريةً في الثلج ، مثل كلب .

«سأحاول ، بعد أن آكل شيئاً» .

ترك الشبان تسامحهم ، وأطلقوا في صوتٍ واحدٍ آهةَ اشمئزاز متضخمة . أيام زمان ، ما كان لأحدٍ يحترم نفسه في الوادي أن يطبخ الطعام بنفسه . وأعتقد أن هذا التقليد لايزال متّبعاً حتى اليوم . لقد تعوّد الشبان على مشهد قائدهم يُدير أخاه الأكبر على خنصره ، وها هو ذا يفعلها ثانيةً . عُصبتُهم كلها كانت ثملةً بالثلج ، متحمسةً ، ومستعدةً لأي متنفَّسٍ خفيف . وبالطريقة نفسها ، سيثمل أهلُ الوادي ، دائماً ، بالثلج الأول . سيظلون هكذا ، لعشرة أيام أو نحوها ، يكونون في أثنائها فريسة رغبة مستمرة في الخروج ، والسيرِ في الأبيض المُسّاقطِ ، غير عابئين بالبرد ، مدفوعين بنيران الثَّمَلِ في داخلهم . لكن ما أن تنتهي هذه الفترةُ ، حتى تخيّمَ البلادةُ ، ويتشوّف كلُ واحدٍ الى الخلاص من الثلج . سكانُ هذه المنطقة لا يتمتعون بخشونة من يعيشون في «بلاد ثلج» حقيقية . سرعان ما تخبو النيران في دواخلهم ، لينكشفوا بلا حولٍ ، أمام تعدّيات الثلج ، ويبدأ الناس يمرضون . هذه هي طبيعة مواجهة القرية مع الثلج . بيني وبين نفسي ، رجوتُ ألا تؤثر حمّى الثلج في عقل زوجتي طويلاً .

جلستُ على الأرضية الخشب المرتفعة ، حيث اتصلتْ بالمطبخ ، مثل ما كانت تفعل أُسرُ المستأجرين في سالف الأيام ، حين يأتون ليقدموا احتراماتهم في نهاية السنة ، وشرعت آكل فطوري المتأخر ، وظهري الى المدفأة المفتوحة .

قال تاكاشي ملتقطاً طرف الخيط الذي انقطع بدخولي : «سبب نجاح

الانتفاضة هو أن الفلاحين ، في هذه القرية ، والقرى المجاورة الأخرى ، رأوا في الشبان قُمامةً مرعبةً ، وكمشةً خطرة من الصعاليك ، يحرقون أو يسرقون ، بلا تردد . ولن أندهش إن كان الفلاحون خافوا قادتهم الأوباش أكثر من الأعداء داخل بوابات القلعة في البلدة» ، واضحُ أنه يحاول استعادة صورة عن انتفاضة ١٨٦٠ ووضعَها في أذهان شبان القرية ، والإبقاءَ عليها حيةً في ذاكرتهم .

«أهو وصفُ تاكاشي ، الانتفاضةَ ، جعل الفريقَ يضحك بهذه السعادة ؟» استفسرتُ من زوجتي حين جاءتني بالطعام ، خفيضَ الصوت . وقد حيّرني أكثر أن دور الشبان في انتفاضة ١٨٦٠ ـ كما فهمتُ في الأقل ـ تميّزَ فقط بالقسوة الوحشية ، ولا يكاد يَصلُح باعثاًعلى الضحك .

قالت : «تاكاشي يحسن رواية الأحداث المسلِّية ، إن فيه شيئاً حيوياً ، وأشعرُ أنه يرفض الأفكار المسبقة عن الانتفاضة ، كما يرفض أن يرى فيها أمراً باعثاً على الكآبة ، مثلك» .

«إذاً ، هل في شَغْلة ١٨٦٠ الكثير من الأحداث المسلية ؟» .

«لستُ من تسألُه ، بالتأكيد» أجابتني ، لكنها قدَمت مثالاً . «أخبرَهم كيف أن المشرفين والموظفين المحليين في القرية ، وهم في طريقهم الى البلدة القلعةِ ، أُجبروا على الركوع الى جانب الطريق ، حتى يستطيع كل فلاّح أن يصفعهم صفعة واحدة على الرأس ، بكفِّه العارية ، أثناء مروره . هذه الحكاية أضحكتهم» .

لا شك في أن الفكرة القاسية عن كيلِ أي شخص صفعةً لهؤلاء الموظفين تحمل نوعاً من المزاح الخشن المناسب لهذه الكمشة الغبية من أولاد الفلاحين في القرية الزراعية . إلا أن هؤلاء الرجال ، الذين نالهم الضرب من كل عضوٍ في حشد ضمَّ عشرات الآلاف ، هؤلاء الرجال ،

ماتوا ، لسوء الحظ ، وقد تحولت أمخاخهم الى خثارة فاصولياء داخل جماجمهم .

«ألم يخبرهم تاكاشي ، عن المسنّين الذين تُركوا موتى ، منكفئين على وجوههم ، بعد أن مرَّ الحشدُ في موكبٍ ؟» ، تابعتُ ، فضولاً ، لا رغبة في انتقاد تاكاشي وأصدقائه الجدد . «ممددين أمام بيوتهم ، ملطخين ، جميعاً ، بالبول والخراء ـ إن هذا سيجعل رياضييك الشبان يقهقهون بصوتٍ أعلى ، وبسعادة أكثر ، أليس كذلك ؟» .

قالت : «صحيحٌ تماماً ، يا ميتسو! ومثل ما قال تاكاشي ، إن كان العالم مليئاً بالعنف ، فإن أفضل ردٍ إنساني وسليمٍ ، هو ألا يقف المرء أمامه كئيباً ، بل أن يجد شيئاً ، أي شيء ، يضحك منه» ، ثم عادت الى موضعها قرب المدفأة .

كان تاكاشي يقول : «كان الشبان قساةً جداً . لكن ينبغي القول إن قسوتهم منحت الفلاحين إحساساً بالأمان . فكلما كان من الضروري جرح عدوٍّ أو قتله ، تركوا الأمر للشبان دون أن يلطخوا هم أيديهم . هذا الترتيب معناه أن الفلاحين جميعاً سوف يشتركون في الانتفاضة دون أن يخشوا الاتهام بالحرق أو القتل ، فيما بعد . في هذه الانتفاضة بالذات ، كان رفضهم تلطيخ أيديهم واضحاً منذ البداية ، وباستثناء تلك الصفعة الظريفة على رؤوس المشرفين ، كانت مسؤولية العنف والمثالب الأخرى من نصيب الشبان ـ الذين أهلتهم الطبيعة لتحمل هذه المسؤولية حتى أقصاها .

عندما يصل الفلاحون وهم في طريقهم نحو البلدة القلعة ، الى أي قرية ترفض الانضمام إليهم ، يشعل الشبان النار في البيوت الأولى التي يواجهونها ، ويقتلون ، مبتهجين ، أي فلاحين يندفعون خارجين ، أو

يحاولون إيقاف إشعالهم النار . والقرويون الذين يحدث أن ينجوا من الموت ، يلتحقون بالقضية ، خوفاً . صحيحُ أن الجانبين فلاحون ، لكن المتردين الشبان ، نصف المجانين ، مارسوا العنف ليرغموا الفلاحين المحترمين على تنفيذ رغباتهم . كان الفلاحون مذعورين منهم . والنتيجة أنه لم يتخلف أحدٌ ــ من الوادي وصولاً الى البلدة القلعة ـ عن الالتحاق . كلما جُنِّدتْ قرية جديدة ، اختاروا شباناً ليشكلوا منظمة شباب هناك . لم تكن ثمت قواعد ؛ فليس عليهم إلا أن يقسموا قَسَم الولاء لجماعة شبان الوادي ــ ويوافقوا على ممارسة أي عنف بدون تردد . هكذا تألّفت الانتفاضة من جماعة شبان هذا الوادي ـ بالإمكان تسميتهم لجنة المقر ـ مع بِنيةٍ فرعية قائمة في القرى ، ومتكونة من مجموعات الأتباع الشباب في كل من هذه القرى . وكلما حُررت قرية ، يستدعي شبان هذا الوادي ، الأوباشَ المحليين ، ليقدموا تقريراً عمّا ارتكبته البيوتاتُ الغنية من جرائم ، كي يغيروا عليها . على أي حال ، كانوا مقتنعين بأن معظم البيوتات الغنية موضعُ مُساءلةٍ ، فهي أوكار ظُلمٍ . في أماكن قرب البلدة القلعة ، كان الناس سمعوا شائعات عن الانتفاضة ، ولهذا أخفى بعض المشرفين ، الغالي لديهم ، ووثائقهم ، وسجلاتهم ، في المعابد المحلية . شبان القرية زاروا قادة التمرد وأخبروهم بهذه الحالات ، مستخلصين حريتهم الجديدة من تأثير الشيوخ ذوي الآراء المحافظة المعقولة . هكذا لم يكن يعني لديهم شيئاً ، المشرفُ الرئيسُ الذي نظر إليه الفلاحون المحترمون العاديون منذ أجيالٍ باعتباره مصدر السلطة ، ولا المعبدُ المسؤول عن أمور تتصل بالميلاد والموت . المسألة الصارخة هي الإغارة على المعابد ، وإحراق ما خُبِّئ .

هؤلاء الفتيان الفقراء المتضورون جوعاً ، الذين لم يكونوا يُعتبرون

بشراً حتى أمس ، تسلّموا السلطة بأيديهم ، وشكّلوا قيادة جديدة في القرية .

«أما لماذا تمّ اختيار جماعات من الشبان المنحرفين ، مثلهم ، فبالإمكان شرح الأمر موجزاً كالآتي : أولاً ، كانوا أناساً ليس لهم مركز لائقٌ في القرية ، ويجري التعامل معهم خارج الحياة القروية العادية . ولهذا فهم يختلفون عن الكبار الذين يتفاهمون مع الآخرين في القرية نفسها ، ويرتابون ريبةَ غريزةٍ في الغرباء . في حالتهم ، لا يستطيعون إقامة علاقة إلا مع الغرباء . والأمرُ الأدهى ، أنهم ما أن يشرعوا يعملون ، حتى تقودهم غرائزهم وحريتهم المكتسبة حديثاً الى فعل أشياء ـ من بينها الحرق والقتل ـ تجعل عودتهم الى حياة المجتمع القروي ثانية ، مرفوضةً بالتأكيد ، عندما تنتهي الانتفاضة . هكذا يجدون مصلحةً مهنيةً في استمرار الانتفاضة . هم يشعرون بأمان أكثر مع الغرباء ، والحقُّ أن فتيان وادينا يعرفون مصالحهم جيداً ، ويحرصون على مراعاتها .

حدث في نهايات الانتفاضة ، أن عدداً من الشبان الذين تخلّفوا ليغتصبوا بنات التجار المحليين ، ألقي عليهم القبض . لم تكن السلطات المقبلة للقلعة هي التي ألقت القبض عليهم . حشدُ الناس تقدّمَ حتى البوابة الرئيسة ، حيث تفاوضَ مع من في الداخل ، لكن الحشد لم يكن قادراً على متابعة الهجوم الى داخل القلعة ، لهذا كان الموقف العام للشرطة الرسمية ، الانتظار ، دون فعل أي شيء ، حتى يترك الحشدُ البلدةَ . بعد مغادرة معظم الفلاحين ، ظلّ عددٌ يجوب الشوارع متردداً في المغادرة . ربما لم يكونوا يوماً في بلدةٍ قلعةٍ ، وكانوا يتفجرون بالإحباط الجنسيّ . ويبدو ، لسببٍ أو لآخر ، أنهم لبسوا ملابس نسائية حمراء ، تحت الكيمونو ، كانوا نهبوها من مكان ما» ، (أطلق الحاضرون ضحكةً مهتاجة لهذا) ، «آنذاك ، خطرتْ

لهم فكرة الإغارة على أحد البيوت الذي لم يرحب بالمتنفضين في البلدة ، واغتصاب ابنته . وهكذا اقتحموا منزل تاجر القطن . من سوء الحظ أن مستخدماً أدرك أن الفلاحين الآخرين شرعوا يغادرون ، واتته الفكرة الجريئة في إلقاء القبض على هؤلاء الشبان وهم بملابس النساء . كان رئيسَ النُظّار ، فاستنفرَ العمالَ تحت قيادته ونجحوا في أسْرِ هؤلاء الفتيان . أحد الشبان نجح في الفرار ، وأبلغَ ما جرى ، فأصدرت جماعة الوادي أمراً بدخول البلدة القلعة ثانيةً . خاطر فتيان الوادي بحياتهم ، وعادوا لينقذوا أولئك التعساء الذين أرادوا أن يكونوا مغتصِبين . ولم يمرَّ وقتٌ طويلٌ ، حتى حُرِّر الأسرى ، وسُوِّي منزل تاجر القطنِ ، أصلِ البلاء ، بالأرض ، وعوقب العمال ، وأحرق منزل رئيس النُظّار ، فنال جزاء ما فعلت يداه! » .

ضحك تاكاشي ، وتبعه الآخرون طائعين . وأنا أنهيتُ وجبتي ، ووضعتُ الصحون الوسخة فوق بعضها ، وحملتُها الى المغطس ، حيث لقيتني زوجتي بتعبيرٍ دفاعيّ متجهم .

قالت : « إن كنت تعترض على ما يفعله تاكا ، فالأفضل أن تعالج الأمر رأساً معه ، ومع الشبان الآخرين ، يا ميتسو » .

قلتُ : « غيري يفعل ذلك . أنا ليست لديّ رغبةٌ في التدخل في أنشطته التحريضية . أنا مهتمٌ فقط بإعداد طيور التدرّج للطبخ . أين الطيور ؟ » .

أجابت مومو كو عن زوجتي : « تاكا علّقها من وتد خشبيّ كبير خلف المنزل . إنها طيور ممتازة ، سمينة كالخنازير . وعددها ستة ، أيضاً! » .

كانت وناتسومي تقطعان كميات ضخمة من الخضروات في سلة خيزران ، مهيئتين غداء غنياً بالفيتامينات لتلبية حاجات فريق من لاعبي كرة القدم الأحبّاء .

مضى تاكاشي قائلاً : «في أول الأمر ، كان شبان الوادي موضع خوفٍ من جانب الفلاحين الأعلى مستوىً ، لكنهم في مجرى الانتفاضة صاروا موضع احترام ، أيضاً ـ مع أن مصدر هذا الاحترام الشكلي ، عائدٌ فقط الى سلوكهم العنيف . وفي الحالين ، وجدوا أنفسهم أبطالاً شعبيين ، ليس في الوادي حسبُ ، وإنما خلال البلد أيضاً . لهذا تصرّفوا في الفترة القصيرة التي تلت الانتفاضة ، ومازالوا أحراراً ، مثل أرستقراطية الوادي ، لا تصرُّف المنبوذين كما كانوا .

لفترة معينة ، في الواقع ، كان بمقدورهم تعبئة الفلاحين ، مسلَّحين ، والخروج من الوادي متى شاؤوا . في الأماكن الأخرى أيضاً ، احتفظت جماعات من الشقاة بنقاط تمركُزٍ يبسطون منها سيطرتهم على قراهم . عندما تشتتت الانتفاضة ، كانت جماعة الوادي أخذت عهداً من المشاركين في القرى الأخرى ، يقضي ، في حال شروع سلطات العشيرة بإجراءات قمعية ، بأنهم سيعيدون تنظيم صفوفهم فوراً ، وأن أي قرية تتردد في ذلك ستكون بين القرى الأولى التي ستدمَّر . هذه الظروف أرغمت سلطات العشيرة على تأخير اصطياد قادة الانتفاضة . وفي هذا العهد السعيد لم يكتف القرويون الشبّان باستهلاك الطعام والشراب اللذين نهبوهما ، بل يبدو أيضاً أنهم كانوا منهمكين في إغواء الفتيات والزوجات في القرية . بالطبع يمكن أن تكون الفتيات والزوجات هن اللواتي أغوينَهم!» (ضحك الشبانُ ثانيةً من كل أفئدتهم) . «على أي حال ، بدأت منظمة الوادي باعتبارها عصبةَ شُقاة . لقد كانت ، بالفعل ، فترة فوضى لمجتمع القرية ، بينما هم لايزالون يتسكعون بأسلحتهم ، ويمارسون سلطتهم . ولقد قتلوا ، بلا رحمةٍ ، من خاصموهم ، وأنا متأكد من أن بعضهم وجد نفسه غير محبوبٍ لدى النساء ، فلجأ الى الاغتصاب . لهذا ، حين عادت المياه الى

مجاريها ، وجد الفلاحون أن لديهم طاقماً من طغاةٍ متسلطين . وحين جاء محققو العشيرة الى الوادي ، كان الشبان مقطوعي العلاقة مع السكان الآخرين . في النهاية ، تحصّنوا في المستودع ، لمقاومة السلطات ، لكن أهل الوادي خانوهم ، بعد أن نكثوا بكل عهودهم ووعودهم » .

تعالت همهمة استنكارٍ من الحلقة المحيطة بالمدفأة . وبدا أن الشبّان ، بسذاجةٍ مريبةٍ ، يتماهَون مع الفتيان الفلاحين في انتفاضة ١٨٦٠ . لقد نجحت مكيدة تاكاشي في إسناد قيادة الانتفاضة الى مجموعة شبّان الوادي ، وليس الى الأخ الأصغر لجدنا الأكبر .

وقفتُ أتدفأ أمام موقد المطبخ ، ثم خرجت الى الخلف ، حيث وجدت ستة طيور تُدرّجٍ معلقة من صف أوتاد خشبية مثبتة في لوحٍ طويلٍ ، كانت تعلَّق منه الأرانب وطيور التدرّج في سالف الأيام . إنه أبرد مكان في أملاكنا ؛ في عز الصيف كانت القطط تتمدد دائماً تحت صفّ الأوتاد . في كل تفصيل من الحياة اليومية ، كان تاكاشي يحاول اتباع الوتيرة التي كانت سائدة في الماضي ، عندما كان الرجال لايزالون يعملون معاً ، بيُسرٍ ، في مجموعة . الطريقة التي قُصمتْ بها رقاب الطيور ، مع التبن حولها ، تبيِّن هاجس الاهتمام بالطريقة التي كان جدي وأبي يتّبعانها . كانت الطيور تُحشى حتى بأعشاب البحر في مؤخراتها ، بعد إخراج أحشائها . كان تاكاشي أصغر من أن يدرك ما حوله ، في الفترة التي عاش فيها آل نيدوكورو حياة رخيّة محترمة ، لذا ، فلابد أنه بذل قدراً استثنائياً من الدراسة والعمل الشاقّ لاستعادة طريقة الحياة التقليدية في الوادي ، وإعادة ممارستها من جديد ، ككل .

طرحتُ الطيور السمينة على الثلج ، وبدأت أنتف ريشها ذا التفويف الأسود اللامع والبنّي المحمرّ . أكثر الريش تناثر ، سريعاً ، مع الريح ونديف

الثلج المتساقط ، تاركاً فقط ريش الذيل عند قدمي . اللحم تحت الريش كان بارداً ومتماسكاً ، لكن فيه لِيناً مُرْضياً عند الملمس . الجلد المزغب بين الريش كان مليئاً ببراغيث صغيرة شفافة تبدو كأنها لا تزال حيةً . اتنفَّسُ بحذرٍ من منخريَّ ، مخافة أن أسحب الزغب ذا البراغيث الى رئتي ، وأظلُّ أنتف الريش بأصابع تتخدّر برداً بالتدريج . فجأةً تشقَّقَ الجلدُ الرقيق ، ذو لون الزبدةِ ، ولامستْ أناملي ما كان تحته . ومن الشقّ المتسع بسرعة ظهرَ اللحم الأحمرُ المسودُّ المتضرِّر ، منقّطاً بحبّات دمٍ وكُريّات رصاص . نتفتُ الريش المتبقي في الذيل من الجسم العاري كاملاً الآن ، ولويتُ الرقبة مراتٍ ، محاولاً فصلها عن الرأس . لكن ما أن بدا لي أن الرقبة ستنقصم ، حتى رفضَ شيءٌ في داخلي أن أبذل أي جهد إضافيّ لازم . أطلقتُ قبضتي عن الرأس فارتدَّ الى مكانه ارتداداً حاداً ، حتى أن المنقار طعنني على ظاهر يدي . هذا الأمر جعلني أرى رأس الطير ، للمرة الأولى ، شيئاً مستقلاً ، فركّزتُ تأملاتي ، فترةً ، على المشاعر التي أثارها . همهماتٌ خلفي تلاها انفجارٌ مباغت من الضحكات ، لكن الضجة امتُصّت ، فوراً ، بسبب ركام الثلج الذي يفصل سيداوا عن بستان التوت ، فلم يبق إلا صوت الثلج المتساقط يمسح تلافيف أذني ، صريرٌ جليديّ بالغُ الخفوت ، حتى لتحسبه هفهفة نُدَف الثلج إزاء بعضها . رأس طائر التُدرّج مكسوٌّ ريشاً قصيراً بُنّياً ذا لمعانٍ محمرّ يكاد يلتهب . العُرف الأحمر مرقّطٌ بنقاط سودٍ مثل ثمرة الفراولة . والعينان ذواتهما كانتا جافتين بيضاوين ـ لكنهما لم تكونا عينين ، بل كتلاً من زغبٍ أبيض ، أما العينان الحقيقيتان فتقعان فوقهما مباشرةً ، وقد أُطبق جفناهما الأسودان ، بشدة ، مثل خيطين . فتحت أحد الجفنين بإظفري ، فسالَ شيءٌ يشبه لُبَّ حبّة عنبٍ شقَّتْها موسى ، مهدداً بالتدفق مثل سائل . استحوذ عليَّ ذعرٌ قصير الأمد ، لكنني أنعمتُ النظر فيه ، فتلاشت سيطرتُه عليَّ . لقد

كانت ـ بكل بساطة ـ عين الطائر . لكن العينين البيضاوين المزيفتين لا يمكن نسيانهما رأساً ، إذ شعرتُ بنظرتهما عليّ ، وأنا أنتف بقايا الريش من الجسم العاري ، حتى قبل أن أنتبه الى رأس الطير . كان صبري نافداً فلم أذهب لآتي بسكين ، لهذا أمسكت بالرأس ، ذي العينين الزائفتين وكل شيء ، وحاولت أن أقصمه من الرقبة . ومع أن عيني اليمنى تشبه تماماً عيني الطائر الزائفتين ، في انعدام الرؤية ، فإنها لم تحقق إلا نتيجةً سلبية من العمى . لو كنت سأشنق نفسي مثل صديقي ، صبيغ الرأس بالقرمز ، عارياً ، وخيارة محشورة في شرجي ، لرسمتُ بالأخضر الساطع ، عيناً على جفني الأعلى ، كي يكون للبوس موتي تأثير أكبر ، من صديقي...

تركت الطيور الستة العارية مطروحة على الثلج ، وعدت الى المطبخ أبحثُ عن وقودٍ للنار ، محرِّكاً رأسي من جانب في زاوية ذات ١٨٠ درجة ، كما يفعل الأعور ، حين تكون في الجوار قطط أو كلاب .

كان تاكاشي يقول : «طبيعي جداً ، أن الشاب الذي خان زملاءه ، طُرد من الجماعة . لو أنه هرب باتجاه البلدة القلعة لقُبض عليه سريعاً ، ولو أنه بقي في الوادي ، معزولاً عن البقية ، لما منحه أصدقاؤه الحماية ، والفلاحون الذين أساء معاملتهم وقتَ سيطرته ، سيكيلون له الصاعَ صاعين . لذا كان أمله الوحيد محاولة السباحة ـ أو ـ الغرق ، كي يصل ، عبر الغابة ، الى كوشي . أما هل نجح في فراره...

«هل طيور التدرّج مغطاةٌ جيداً ، يا ميتسو ؟» سألني قاطعاً محاضرته ، تماماً آنَ كنت أطلب من زوجتي علبة كبريت ، كي أذهب مع حزمة التبن العتيق التي كنت سحبتُها من تحت الأرضية . أنا أشكُّ في تأكُّده من الوقائع التي كان يسردها . بالنسبة لي ، أنا عاجزٌ أن أُلمَّ هذا الإلمامَ بالحياة اليومية للشبان ، وما فعلوه ، في انتفاضة ١٨٦٠ .

غوّرتُ بقدمي ، ثُغرةً في الثلج ، حشرتُ فيها حزمة التبن المطويّة في هيأة حلقة ، وأشعلتُ فيها النار . الزغب الملتصقُ بالجلد احترق أولاً ، مطلقاً رائحة مقرفة . في وقت واحد تقريباً شرعت الطيور تكتسب تقاطُعَ خطوطٍ بنية قاتمة من مادة حيوانية سائلة ، والجلدُ نفسه اكتسبَ لوناً منطفئاً في الدخان ، مع حُبيبات من الشحم الأصفر تبرز هنا وهناك . لقد أعادت الى ذهني ، مباشرةً ، شيئاً قاله صديقي الميت عن صورة الأسود الذي أُضرِمتْ فيه النار : « كان جسمه جدَّ محترقٍ ومتورم حتى انطمستْ تفاصيله ، مثل تفاصيل دُمية خشبٍ خشنة النحت » .

أحدهم كان يقف خلفي ، محدّقاً مثلي الى الشيء ذاته . التفتُّ ورأيت تاكاشي ، محمرَّ الوجه من حرارة بلاغته عند المدفأة ، حتى توقعت أن يذوب الثلجُ المتساقطُ بمجرد ملامسته . وقد تأكدت أن الطيور وقد احترق زغبُها أثارت الذكريات ذاتها ، عنده ، أيضاً .

« صديقي الذي مات أخبرني أنك أعطيته منشور حقوق إنسان عندما التقيتَه في نيويورك . وقال إن المنشور يحمل صورة رجلٍ أسود أُحرقَ حياً » .

« هذا صحيح . صورة رهيبة ، من نوع ما يخبرك شيئاً عن الطبيعة الجوهرية للعنف » .

« قال شيئاً آخر ، هو أنك جعلته يجفل حين هددتَ بـ« قول الحقيقة » . لقد كان قلقاً إذ ظنَ أن لديك « حقيقة » أخرى غير التي تحدثتَ عنها بالفعل ، لكنك عاجزٌ عن إظهارها . ماذا عنها ـ لكن هل الشك الذي أخذه معه في موته ، مبنيٌ على أساس في الأقل ؟ » .

ظل تاكاشي ينظر الى الطيور ، وقد ضاقت عيناه قلقاً ، كأنه نصف أعمى ، ليس فقط بسبب الضوء الذي يبعثه الثلج على خديه اللذين يشحبان باطّرادٍ ، لكن بسبب شيء يصّاعدُ في داخله أيضاً .

قال : «هل أقول الحقيقة ؟» كنتُ متأكداً من أنه استعمل الصوت نفسه ، في قول الشيء نفسه ، لصديقي في نيويورك . «إنه تعبيرٌ من شاعرٍ شابّ . كنتُ كثير الاستشهاد في تلك الفترة . كنت أفكر بالحقيقة المطلقة ، التي لو باح بها إنسانٌ ، لم تبقِ عنده بديلاً سوى أن يقتله الآخرون ، أو يقتل نفسه ، أو يُجَنّ ويُمسَخ وحشاً . إنها الحقيقة التي إن نطقتَ بها مرّةً تركتْ في يدك قنبلةً مشتعلة الصاعق . ماذا ترى يا ميتسو - هل شجاعةُ قولِ هذا النوع من الحقيقة للآخرين ، ممكنةٌ لمن هو من لحم ودم عاديين ؟» .

«بمقدوري أن أتخيل شخصاً في وضع يائسٍ قرر قول الحقيقة ، لكني لا أعتقد أنه بعد قولها ، سيقتله الآخرون ، أو يقتل نفسه ، أو يُجَنّ ويُمسخ وحشاً - لابد أنه واجدٌ طريقة للاستمرار في الحياة» ، قلت معترضاً ، وآملاً في أن أستخرج الهدف من وراء ثرثرة تاكاشي غير المتوقعة .

«لا . الأمرُ في مثل صعوبة الجريمة الكاملة» . قال تاكاشي نافياً رأيي المتعجل ، بحزمٍ من فكّر في الموضوع طويلاً . «لو أن الرجل المفترض قوله الحقيقةَ ، استطاع أن يمضي في الحياة ، دون أن تدهمه إحدى تلك الملمّات ، ففي ذلك دليلٌ واضحٌ على أن الحقيقة المفترض فيه قولُها ، ليست في الواقع من النوع الذي يهمّني - القنبلة مشتعلة الصاعق -» .

«أتعني ، إذاً ، أنْ لا سبيل الى نجاة ذلك الشخص الذي يبوح بنوع الحقيقة تلك ؟» سألته ممتعضاً ، ثم خطر لي أن أتنازل قليلاً . «وماذا عن كاتب ؟ هناك بالتأكيد كتّابٌ قالوا الحقيقة ، واستمروا في الحياة» .

«الكتّاب ؟ أحياناً ، أعترفُ بأنهم يقولون شيئاً قريباً من الحقيقة ، ويواصلون حياتهم ، دون أن يُضرَبوا حتى الموت ، أو يُجنُّوا . إنهم يضللون

الآخرين بإطار الخيال ، لكنّ ما ينسف ، في الجوهر ، عمل الكاتب ، هو حقيقة أنه ما أن يفرض الكاتب إطاراً من الخيال ، حتى يستطيع الإفلات مع أي شيء ، مهما كان مخيفاً ، أو خطِراً ، أو معيباً . والكاتب يعرف ، مهما كانت الحقيقة التي يقولها خطيرة ، يعرف ، في الأقل ، أن الحقيقة التي يقولها مهما كانت خطيرة ، فإنها تدور في إطار الخيال ، وأنه في هذا الإطار يستطيع أن يقول ما يشاء ، لذلك نراه محصَّناً من البداية إزاء أيّ سُمٍ تحتويه كلماتُه . هذا الأمر سوف يبلغ القارئ ، فيما بعدُ ، فلا يعود يرى في الخيال ما يوصل ، مباشرةً ، الى دخائل الروح الخفيّة . حين يُنظر الى المسألة هكذا ، فمن غير الممكن أن أجد الحقيقة بالمعنى الذي قصدتُه ، في أي مكتوبٍ أو مطبوعٍ . أقصى ما تتوقعه ، هو الكاتب الذي يمضي مع دوافع قفزةٍ في الظلام » .

تراكم الثلج على صفّ الطيور ، المطروحة ، وقد احترق زغبُها ، وبقيت أجسامها مُلحمةً ثقيلة . أخذتُها ، اثنتين اثنتين ، وصككتُها ببعضها كي أنفض عنها الثلج . صدر عنها صوتٌ مكتومٌ تردّدَ صداه في قاع معدتي .

« قال صديقي إنه كان يشكّ يوم قلتَ إنك ستقول الحقيقة ، تماماً قبل أن تجفل لمجيئه من الخلف ، في أنك كنت تدرس صورة الجسد المحترق . كان مصيباً ، أليس كذلك ؟ كنتَ جالساً الى نضُد المخزن ، متخيلاً أنك تقول حقيقتك الخاصة ، فتتحول الى جثة مسوَّدة مثل تلك » .

« نعم . لديّ شعورٌ بأنه فهمَ الى حدٍ معين . وأشعرُ أيضاً أنني أفهمُ ، في الأقل ، مغزى طريقة الموت التي اختارها » . تحدثَ بصراحة ، موقظاً فيَ العاطفة التي انتابتني حين سمعته يرثي صديقي الميت ، في المطار . « قد يبدو مضحكاً أن أكون جدَّ متأكد من أمر يخصُّ صديقك ، لكني

كنت أفكر بعواقب ما حدث منذ سمعت به من ناتسومي . قبل أن يصبغ رأسه أحمر ، ويشنق نفسه ، عارياً» ، (و ـ فكرتُ ـ مع خيارةٍ محشوَةٍ في شرجه ، ومادامت زوجتي لا تعرف هذا ، فإن تاكاشي أيضاً لا يعرفه) ، «أنا متأكد من أنه أطلق صرخته الأخيرة «هل سأقول الحقيقة ؟ حتى لو لم يصرخ بالكلمات عالياً ، فإني أشعر أن مجرد فِعلة القفز ، مع المعرفة الباردة بأن جسده ، بعد لحظة ، سوف يتدلى هناك ، عارياً ، أحمر الشعر ، ليراه الجميع ، ميتاً لا رجوع عن موته ـ هو بالضبط ، وبحد ذاته ، الصرخةُ اليائسة . ألا تتفق معي يا ميتسو ؟ ألا تعتقد أن إعطاء الإنسان إشارتَه الأخيرةَ بجثته العارية ذات الرأس الأحمر ، أمرٌ يحتاج الى شجاعة رهيبة ؟ لقد قال الحقيقة خلال فِعل الموت . لا أعرف ما هي الحقيقة التي قالها ، لكن الأمر المؤكد مطلقاً أنه قالها . حين سمعت النبأ من ناتسومي ، أصدرَ شيءٌ في داخلي إشارة : حسناً ، الرسالة وصلتْ» .

لقد فهمتُ مقصد تاكاشي .

«يبدو أنه عقد صفقةً معقولة حين دفع ثمن دوائك» .

«لو جاء وقت قولي ذلك النوع من الحقيقة ، فأودّ أن تسمعها أنت ، يا ميتسو . إنها من النوع الذي لن يكون له وقعه الكامل إلا إذا أخبرتُك» . تحدّث بالحماسة الساذجة لطفل يعرف أنه يفعل أمراً له مخاطره .

«تقصدني ، أنا ، باعتباري قريباً ؟» .

«نعم» .

سألته وقد استحوذَ عليّ شكٌّ خانقٌ : «تقصد ، أن حقيقتك تتعلق بأختنا ؟» .

تيبَّسَ جسمُ تاكاشي ، على الفور ، ثم نظر إليّ شزراً ، حتى خفتُ أن يهاجمني . لكنه كان يركّز نظره عليّ فقط ، بحذرٍ شديد ، كي يسبر ، بالضبط ، ماذا يكمن وراء كلماتي ، وبعد قليل ، ارتخى جسمه ، وحوّلَ نظره عني .

نظرنا صامتين ، الى الثلج الجديد ، يغمر الطيور الميتة . البردُ الشديد أقرسَ جسمينا حتى النخاع . ومثل صديقه ذي الملامح الشنيعة ، والملابس غير الكافية ، كان تاكاشي يرتجف ، مزرقّ الشفتين . كنت متلهفاً للعودة الى المطبخ ، وفي الوقت نفسه كنت أريد أن أنهي حديثنا ، بودٍ . على أي حال ، أنقذَنا تاكاشي من ارتباكنا ، بينما كنت لا أزال أبحث عن شيء مأمونٍ أقولُه .

قال : «سبب إقناعي إياك بالعودة الى الوادي ، لم يكن محض خديعة . ولم يكن الأمر هكذا حين بعتُ المستودع والأرض ، كان بمقدوري أن أخبرهم في مكتب القرية أن أخي الأكبر في البيت ، طلب مني المجيء وعملَ الترتيبات والإجراءات . كانت المسألة أيضاً أنني أريدك شاهداً حين أقول الحقيقة . آمل في أن تحين تلك اللحظة ، ونحن معاً هنا» .

قلت : «الأرض والبيت ، لا يهمّان الآن . لكني لا أعتقد بأنك سوف تقول لأي أحدٍ ، هذه الحقيقة الرهيبة ـ إن كانت لديك ، فعلاً ، حقيقةٌ مخفيّةٌ كهذه في داخلك . وبالطريقة نفسها ، لا أفترضُ أني سوف أجد في أحد الأيام ، حياتي الجديدة ، أو كوخ الأغصان...» .

هكذا ، جنباً الى جنبٍ ، مُقْرَسينِ برداً حتى العظم ، سرنا عائدينِ الى المنزل . كان وقت الغداء ، وموموكو تقدِّمُ ، للتو ، المرقَ ، الى الشبان المتحلقين حول المدفأة . بالنسبة لتاكاشي وأصدقائه ، الذين يعيشون

ويتدربون معاً ، مثل كومونات شباب السنة الجديدة ، في الأجيال السالفة ، كان هذا الغداء أول وجبة يتناولونها تحت السقف نفسه .

هوشيو ، ذو المهارة الدائمة ، جلس في ركن ، بعيداً عن الحلقة السعيدة التي شكّلَها رفاقُه الجدد ، مع عدد كبير من كرات القدم التي كان يدهنها بالزيت ، واحدة واحدة ، حفاظاً على جلدها .

سلّمت طيور التدرّج الستة الى زوجتي ، واحتذيتُ جزمتي الجديدة ، وسلكت طريق عودتي ، عبر الثلج ، الى المستودع .

حُرِّيَّةُ المنبوذِ

الأيام تمضي ، لكنّ الثلج الناعم كالمسحوق ظل يسقط ، مخيباً رجائي الخاص في أن يكون رقائق أكبرَ ، فظللتُ غريباً عليه . أقمتُ في المستودع ، محصَّناً ، منهمكاً في ترجمتي ، لا أخرج ، إطلاقاً ، في الثلج . وَجَباتي يؤتى بها إليّ هنا ، والمرة الوحيدة التي عدتُ فيها الى المبنى الرئيس كانت حين احتجتُ الى ماءٍ أملأ به الغلاّية التي على المدفأة .

كلما ذهبتُ ، وجدتُ تاكاشي ورفقته في حالة براءة الأطفال ، ثملينَ بالثلج ، ولا تبدو عليهم علائم الإرهاق والتعب الملازِمة للخُمار . الثلج الجديد يمسح كل آثار التدهور في ما كان استقرّ ، مجدداً ، على الدوام ، الانطباعَ الأول ، غير مانحٍ فرصةً لعشاق البيت الرئيس ، في الإفاقة من ثملهم الثلجيّ . اكتشفتُ في ما بعد ، أنني أستطيع استعمال الثلج المذاب في غلاّيتي ، وهكذا انفصلت حياتي اليومية ، تماماً ، عن البيت الرئيس . أمضيتُ ثلاثة أيام مطوّقاً بالثلج الغريب ، متذوقاً الإحساس بالاسترخاء لشخصٍ تحرر من كل مراقبة ، وهو إحساسٌ جدُّ قويٍّ ، حتى لأكاد أقول إن تعبيري وحركتي أمسيا يبطئان ويخفّان .

باكراً ، في رأس السنة ، حتى في هذا اليوم ، عُكِّر معيشُ نُسكي

بـ« جن » وعائلتها . التجاوز الأول حدث فجراً ، حين أيقظني أكبر أولاد جن ليقول لي إن جن تريدني ، باعتباري رأس آل نيدوكورو ، أن أذهب ، وأمتحَ « الماء الأول » . كان الولد متوتراً مثل كبار السنّ الذين يهتزون بسهولة لهذه الأعراف الفلاحية ، وقد عبس حين قدّم لي إعلاناً رُسمت على ظهره ، بقلم رصاص ، وبخطوطٍ لا تكاد تبين ، خارطة . تحت الضوء الخافت للمصباح الكهربائي أسفل السلّم ، والنظرةِ الفاحصة لعيني الولد الصغيرتين المعتمتين ، حاولتُ أن أتتبع درب هذه السنة لـ« الماء الأول » ، الذي ابتدعته جن ، لكني صرفتُ النظر ، فارتقيتُ السلّم ، والتففتُ بمعطفي . الولد المنكود ، المكلَّف ، كما يظهر ، بمرافقتي في الرحلة الاستكشافية ، وقف ساكناً ساكتاً ، مرتجفاً مثل كلب مبلَّل ، وهو ينتظر .

ألقيتُ نظرةً على البيت الرئيس ، فوجدت تاكاشي وزوجتي نائمين جنباً الى جنب قرب المدفأة المكشوفة التي لايزال بعض جمرها يتّقد أحمرَ . هوشيو ينام بعد تاكاشي ، وموموكو تحت البطانية نفسها مثل زوجتي ، لكن ذراع تاكاشي الممتدة لتلمس ، كما هو واضح ، جنب زوجتي تحت البطانية ، تعطي انطباعاً عن أن الإثنين كانا ينامان ، منفصلين تماماً . وبينما كنت أقف في مدخل المطبخ ، نصف متضايق ، نصف عاجزٍ عن تحويل نظرتي ، استلَّ ابنُ جن الفطِنُ جردلاً عميقاً ، الجردلَ المقدَّر له أن يؤدي دوراً مقدساً وإن كان قصيراً ـ من جانب المدفأة . ثم توغّلَ كلانا في العتمة المكتنزة ثلجاً . الثلجُ المنهمر على وجهي أخبرني أن بشرتي تحترق مفعمةً بالدم ، لكن استجاباتي العاطفية كانت مستقرة حدَّ الهمود . استعَدْتُ حزيناً ، الإحساسَ القاتلَ ، بيني وبين زوجتي ، باستحالة أي نشاط جنسيّ . أسررتُ لنفسي أن من المرغوب فيه ، أكيداً ، في المدى البعيد ، أن نغتنم أي فرصة للنجاة ، منهكي الخطى مثل محاربين متعبين ، من مستنقع اللامسؤولية المطبِق . حتى هكذا ، لم أكن

لأعترف بإمكان علائق جنسية مباشرة بينها وبين تاكاشي ؛ وكلُ ما حدثَ أن ذهني ، الفارغَ إلا من الحاجة الملحّة للإسراع في الظلام ، وقعَ بين حين وآخر أسيرَ فنطازيا غامضة ، تنتقل فيها القوةُ المغناطيسية المقموعة إرادياً في قضيب تاكاشي المنتصب ، حين وقف عارياً مكسواً بالثلج ـ الى زوجتي النائمة ، من خلال الأصابع الموضوعة على خاصرتها .

الثلج لايزال ناعماً ، على الطريق الهابط المؤدي الى ضفة النهر ، والمتفرع من الطريق الرئيس الذي يخرق الوادي . لابد أن ابن جنّ كان بالغ الانتباه ، وهو الى جانب أمه ، بينما تبحث هي في تواريخها وخرائط اتجاهاتها ، عن السبيل الى «الماء الأول» ، إذ أنه كان يشقّ مسلكه خلال الثلج العميق حتى الركبتين ، واثقاً تمام الثقة . عندما لاح النهرُ ، توقّفتُ عن السير ، وقد صدمني مرأى الماء الأسود الذي كلكلَ عليه الثلج . فجأةً تكثّفتْ وسقطتْ على الأرض ، شظايا الفنطازيا الطافية في الفضاء داخل ذهني الذي لم يستيقظ ، بعدُ ، بالكامل . **أنت غريب . أنت لا صلة لك بالوادي .** تمتمتُ هذه العبارات ، مثل رُقْيةٍ ، لأبعدَ عني الأشياءَ المرعبةَ التي هدّدت المياهُ السودُ بإيقاظها فيّ . ومع أني نجحتُ في إنكار أي معنى لهذا ، إلا أن النهر الأسود ، حبيسَ الثلج ، كان أكثر مشهدٍ من مشاهد الوادي تهديداً لي منذ عودتي . بعد أن فهم ابنُ جن أنني مرتاعٌ ، متورطٌ ، خائفٌ من مَواطئ قدمي في الثلج المتعمق ، وبعد أن انتظرَ برهةً ، أخذ الجردلَ أخيراً من يدي وانحدرَ الى حافة الماء وحده ، متزلجاً حتى ركبتيه على المنحدر المثلوج . سمعت طرطشة ماءٍ مُراوغة ، تكاد تكون آثمةً ، ثم جاء الولد ، مرتقياً المنحدر جاهداً ، مع الماء الذي مَتَحَه من النهر ، وقد رأيت معه ، الى جانب الجردل ، علبة حليب مجفف فارغة ، لا أدري من أين أتى بها ، مليئة حتى أعلاها بماء النهر .

قلت : «بإمكانك أن تأخذ من مائنا الأول ، إن أردت!» .

لكن الولد ، غطّى العلبة رأساً ، بكلتا راحتيه ، كمن يحميها من هجوم .

أدركتُ أي فكرة عنيدة اكتملتْ في رأسه الصغير . أنا لم أمتح «الماء الأول» العائد لي ، بنفسي ، بل تركتُ له أن يأتيني به . وهذا يجعل مائي مغشوشاً ، بينما «الماء الأول» في علبته ماءٌ حقيقيّ فقد متحه بنفسه . حتى الآن ظلت عائلة جن تُشارك آل نيدوكورو «الماء الأول» ، ولو أني نزلتُ الى النهر لأمتح الماء بنفسي لرضيَ الولدُ بأخذ نصيبه من مائنا «الحقيقي» . على أي حال ، مادمتُ تورّطتُ ، وسمحتُ بأن يُمتح الماءُ باسمي زوراً ، فقد جاءته فكرة أن يسحب ماءً له ، ويعود به الى البيت . إن كان ابنُ امرأةٍ بدينةٍ مينوسٍ من شفائها يمسي صوفياً عنيداً هكذا ، فلابد ، إذاً ، من حقيقة قويّة ، في أساس العملية . الآن وقد أفاق ذهني بالكامل ، بدأت أشعر أن نزولي الى النهر فجراً ، كان حماقة ، وبلا معنى ، فرجعتُ سالكاً طريق الحصباء ، متعكر المزاج .

مهمةُ مَتْحِ «الماء الأول» كانت ستناسب تاكاشي أكثر مني . سلّمتُ الجردل الى ابن جن أمام البيت الرئيس حتى لا أُضطرّ الى رؤية الناس نائمين هناك ، مرةً أخرى ، وأخبرتُه أن يأخذه الى المطبخ ، ثم عدت الى المستودع . لكن الوجع في كتفيّ نصف المتجمدتين شوّه أحلام رقادي المستأنَف ، فتولاّني كابوسٌ جعلني أصرخ وأُصارعُ ، وكتفاي في قبضة يدين هائلتين لقوّة مرعبة إلتفافيّة برزتْ من مياه النهر السوداء .

قُبيل الظهر ، جاء الولد يستدعيني ، ثانيةً ، معلناً أن جن جاءت على رأس نسلها الهزيلين جميعاً ، كي تهنئني بالعام الجديد . نزلتُ الى الطابق الأرضي ، فوجدت جن أشدَّ بدانةً ، جالسةً على طرف الأرضية المرتفعة في المدخل ، وهي تواجه الثلج الذي يسقط ثقيلاً في الخارج ، مثل جوٍّ هائل

جاء من حيث لا يعلم أحدٌ . نزلتُ حتى المدخل كي أجنّبها متاعب استدارة جسمها ، وجلستُ مع العائلة ، أمامها ، متنحياً قليلاً الى جانب واحد . كان وجهها المضاءُ كله بالنور المنعكس من الثلج ، ذا فتوّةٍ عجيبة . سرت ارتعاشةٌ على البشرة المشدودة ، الخالية من التجاعيد ، لصحن وجهها المعدني الكبير ، لكنها اكتفت بالنظر إليّ ، ومضت تتنفّس تنفساً ثقيلاً مؤلماً ، دون أن تتكلم . الياردات القليلة التي قطعتْها ماشيةً من المبنى الخارجي جعلت منها تشبه خنزيرَ بحر محتضراً . رفضتْ عائلتها أن تنبس ببنت شفة مادامت جن ساكتة ، ولأنني نزلتُ الى المدخل في مزاج من توترٍ غامضٍ ، وجدتُني لا أعرف ماذا أفعل . وبخلاف جن المكسوّة بنوع من الكيس الأسود عديم الشكل بلا أمام ولا خلف ولا أعلى ولا أسفل ، كانت العائلة ترتدي ثياب عيد رأس السنة التقليدية ، لكنني لا أزال أرتدي قميص الكوردوري والكنزة اللذين نمتُ فيهما ، كما أني لم أحلق لحيتي . شعرتُ بالقلق لو أحسّت جن بأن جهدها الذي بذلته في المجيء والتهنئة بالعيد لم يلقَ الاحترام اللائق . أخيراً ، بعد فترة متقطعة قضتها في تمالُكِ أنفاسها ، تنحنحت بوهَنٍ ، وشرعت تبدي حسن نواياها الكريم :

«عاماً جديداً سعيداً لك ، يا ميتسو سابورو!» .

«وعاماً جديداً سعيداً لكِ ، أيضاً ، يا جن!» .

أعلنتْ وقد تصلّب موقفها ، فجأةً : «شيء من الأمل! ما الأمرُ السعيد لدى مخلوق بائسٍ مثلي ؟ لنفترض أن القرية كلها تريد أن تغادر ـ فكيف أستطيع أن أرحل ، أريدُ أن أعرف ؟ سوف أُترك لتأكلني الكلاب ، أو لأموت جوعاً» .

قلتُ : «لماذا جئتِ بتلك القصة القديمة الآن ؟ آخر مرة غادرتْ فيها القرية كلها كانت قبل انتفاضة ١٨٦٠ ، أليس كذلك ؟» .

ردّت عليّ بصوت يملأه العناد ، والوثوق الغبي : «تماماً بعد الهزيمة ، عندما جاءت قوات الاحتلال في سيارات الجيب . ألا تتذكر ؟ كل الأشخاص القادرين هربوا الى أعماق الغابة ، تاركين كبار السنّ والمقعَدين في الوادي . ذلك ما أتحدث عنه! » .

قلت : «لكنك مخطئة ، يا جن . أنا أعرف ، لأنني كنت في الوادي حين وصلت أول سيارة جيب . جندي أميركي أعطاني علبة هليون ، لكن الكبار لم يعرفوا إن كان فيها شيء للأكل ، أو لسواه ، هكذا تركتها أخيراً في حجرة المعلمين بالمدرسة الإبتدائية» .

أصرّت جن بكل هدوء : «لا . لقد غادروا ، جميعاً! » . وتدخلَ زوجُها الصّموت : «بدأت جن تخرف! » .

أزعجت الملاحظة الأولاد ، فأبدوا قلقاً بادياً حتى لمن ليست له علاقة .

ما كان لي إلا أن أستعيد ، في حلمي عن الهجوم على المستودع ، جِنْ وهي في حالة من لا تستطيع الفرار . أراقبها جالسةً هناك ـ العينان الصغيرتان الغائرتان مثل سُرَّتين في اللحم المندلق لوجهها ، كانتا ضيقتين أكثر بمواجهة الثلج الباهر ، الشفتان الصغيرتان امتصّتهما اللثة ، الأذنان القذرتان اللتان تبدوان ذواتي حراشف تنتصبان مثل مقبضين في ليلة قمراء . إنها تتمتع بصحة قوية لا تناسبُ اللاتناسبَ في جسمها .

أظنّ التظاهرَ بالاضطراب العقلي تكتيكاً جديداً يهدف الى منعي من عرض المبنى الخارجي للبيع . لكن من سوء حظها أن عليها توجيه مكرها الى تاكاشي ، وليس إليّ أنا . إذ أن تاكاشي هو الذي باع ، فعلاً ، كل أرض آل نيدوكورو ومبانيهم ، ومن ضمنها بيت جن . إن كان أمرٌ يدمغ تاكاشي بأنه فاعلُ شرٍ فهو عدم الشعور بالمسؤولية الذي سمح له ، في سهولة تامة ، بأن

يضرب عرض الحائط بالآمال البائسة لامرأةٍ وسطٍ سجنَها حجمُها الخارقُ في هذا الوادي الملعون .

أعلنتْ : «قرية أوكوبو مرميّةٌ للكلاب ، والناس لم تعد لديهم أخلاق . البارحة مثلاً ـ كانت عشية رأس السنة ، لكن حشداً من الأغراب (سواء من القرية أو «الريف») فرضوا أنفسهم متطفلين على البيوت التي تملك أجهزة تلفزيون ، ومنعوا الناس من القيام بمستلزمات عيد رأس السنة ، أو من القيام بأي شيء آخر . أقول إن هذا يدعو الى الاشمنزاز! » .

استفسرتُ من الأولاد : «هل ذهبتم وشاهدتم التلفزيون ؟» .

أجاب الولد الثاني مفتخراً : «م . م . م... ذهبنا وشاهدنا استعراض عشية رأس السنة . هناك بيوت كانت تشاهد التلفزيون سراً وقد غلّقتْ كل شيء ، لهذا جُنَّ الحشد فصاروا يقرقعون الستائر! أكثر الفتيان ظلوا يدورون من مكان الى آخر ولم يعودوا الى بيوتهم حتى أبعدَ الناسُ أجهزتهم الى الغرفة الخلفية» .

عدتُ الى جحري في الطابق الثاني من المستودع ، بينما جن وعائلتها يمضون بطيئين ، بطيئين ، نحو البيت الرئيس ، في طريقهم الى تهنئة تاكاشي والآخرين . حين أطللت من النافذة كان جسم جن مثل رجل ثلج يتمايل . واستطعت أن أرى بداية الصلع في وسط هامتها المستديرة .

أطللتُ ثانيةً ، بعد فترة ، لأجد عدداً من الشبان يسندونها وهي في طريق عودتها الى المبنى الخارجي . «فاعلُ الشرّ» كان يتقافز حول الشبان السائرين ، ناثراً الثلج ، وموجِّهاً العمليات في زعيقٍ ثاقبٍ ، حتى بدا الأمر فجأة لا يتحمله أحدٌ ، حتى أولاد جن ، الذين أطلقوا ضحكاتهم العالية .

صباح الرابع من كانون الثاني ، هبطت الى الوادي ، للمرة الأولى منذ المكالمة البعيدة . الثلج كان ينهمر ، بلا انقطاع ، لعدة أيام ، لكن الدرب

الضيق المؤدي الى الفَضْوة أمام مكتب القرية ، كان ممكن الاستعمال ، بسبب طبقة الثلج الصلد تحت الطبقة الخفيفة من الثلج الجديد ، على هذا النَّيسَم المخدَّد . شبان فريق كرة القدم ، اغتنموا الساعات العشر الأولى من السنة ـ هذه التي رقد كبار القرية أثناءها سكارى ـ في التمرين الشديد ، طالعين وهابطين الدربَ ، وهم يدوسون الثلج في طريقهم . حين مررت بالسوبر ماركت رأيت مشهداً أقلقني الى حدٍ ما . المخزن مغلق مؤقتاً ، خلف ستارة كبرى بالأصفر والأخضر المعتم ، لونَي التعمية ، مثل دبّابة . لكن عدداً من زوجات فلاّحي «الريف» وقفن ، بلا أدنى حراك ، تحت الأفاريز ، وكل واحدة منهن ، يرافقها ، كما لو بترتيب متفقٍ عليه ، طفلٌ واحدٌ . السلال الفارغة على أذرعهن توحي بأنهن ينتظرن فتح السوبر ماركت ليتبضّعن . لابد أنهن كن ينتظرن ، صبورات ، منذ أمدٍ ، ذلك لأن ثمت أطفالاً اقتعدوا الأرض المثلوجة ، إعياءً . السوبر ماركت مغلق منذ يوم رأس السنة . كانت الأبواب لاتزال مغلقة ، ولا أثر لأي مستخدَمٍ . ما السبب إذاً ، في وقوف نسوة «الريف» هناك ، مع سلالهن الفارغة ؟ تجاوزتهن ، وأنا أفكر في الأمر .

المخازن التي قضى عليها السوبر ماركت ، ذات أفاريز متدلية عميقة ، يجلس خلفها ، في زوايا معتمة من الداخل ، الساكنون ، يتطلعون الى العالم الخارجي . كانوا علامة الحياة الوحيدة ، ولا أحد على الطريق المغطى بالثلج ، لا عابرَ أستوقفُه فأسأله عن سبب حضور النساء الغريب . حتى لو ظهر شخص ما على الطريق ، فقد يستدير جانباً ليتبوّل ، أو ليجد سبباً كي يتفاداني حين أقتربُ منه . وتساءلت عن العاملين في دائرة البريد ، تُرى هل سيكلمني أحدٌ منهم وأنا أنتظر مجيء المكالمة البعيدة التي طلبتُها ؟ مثل الدكاكين التي بارتْ تجارتُها ، كانت أفاريز دائرة البريد مثقلة بأكوام الثلج

التي لم يهتمّ أحدٌ بجرفها . تخطّيتُ كومة ثلج أمام المدخل الرئيس ، الذي فُتح بابٌ واحدٌ فقط من أبوابه ، ودخلت المكانَ المعتم . ليس من عاملين في الشبابيك ، لكن ثمت علائم على بشرٍ في مكانٍ ما خارج النظر ، لهذا جهرتُ برغبتي في إجراء مكالمة هاتفية لمسافة بعيدة .

« سقطت الخطوط بفعل الثلج . لا يمكن إجراء مكالمات خارج القرية » ، جاء الجواب جاهزاً بصوتٍ مستاءٍ لرجل كبير السنّ ، كأنه صادرٌ من قرب الأرضية ، وفي متناول اليد .

« متى يتم إصلاح الخدمات ؟ » تساءلتُ ، وقد تحرّك شيء من ذكرى قديمة في نبرة الصوت .

« الشبان الذين يعملون على الخطوط اعتصموا في بيت آل نيدوكورو . وهم لن يخرجوا الى العمل حين أذهب لآخذهم » . قال الشيخ في نبرات متعالية الاستياء . فجأة تذكرتُ : الصوت هو صوت مدير دائرة البريد القديم ، الذي ظل كعهده ، منذ كنت صغيراً ، مغموراً وقليل النفوذ . حتى هكذا ، خرجت وأنا لا أعلم في أي زاوية من المكان حشر نفسه .

كنت أمشي ، عائداً ، باتجاه السوبر ماركت ، حين رأيت أمامي شخصين متواجهين ، وقد مدّ كلٌّ منهما يديه بوقار نحو رأس الآخر . اقتربتُ منحنيَ الرأس اتقاءَ الثلج الذي تحمله الريح ، والذي كان يضربني بقوّة ، وأنا في عودتي ، لهذا لم أُعِرْ طقسهما اهتماماً . كنت أكثر اهتماماً بنسوة « الريف » الواقفات سدىً أمام المدخل الرئيس المغلق شديداً . حين اقتربتُ وجدتهنّ مازلن هناك ، وأن عددهن ازداد في وقت قصير بأكثر من عشر . كن ينتظرن ، هادئات ، مثل ما كنّ ، لكن الأطفال الذين كانوا مقعين على الثلج ، يتشبثون الآن مذعورين بأرجل أمهاتهم . شعرت بأن ثمت شيئاً خطأً ، فتوقفت ، لأرى الشخصين أمامي مباشرة في شجار حقيقي . لم يكن

بدٌ من أن أقف هناك ، وأشاهد متضايقاً في مثل الخوف ، ومن مسافة جدٍ قريبة ، التبادلَ الصامتَ للضربات ، الدقيقَ حتى كأنه مقررٌ مسبقاً .

الرجلان كلاهما من أناس الوادي المحترمين ، وفي أواسط العمر ، يرتديان السترة والقميص بلا ربطة عنق ـ وهو الملبس الاعتيادي لأيام الأعياد في الوادي ـ وكانا أفرطا في الشراب . وجهاهما بلون النحاس ، يشعان حرارةً ، وأنفاسهما تنطلق في شهقات بخار وسط الثلج المنهمر . لم يكونا يحركان نصفيهما الأسفلينِ إطلاقاً ، لا خوفاً من بعضهما ، بل خوفاً من أن يطآ بقعة من الثلج العميق الناعم فيفقدا توازنهما . كانا يتبادلان الضرب بقبضتين مشدودتين ، على الأذن ، على الذقن ، على الرقبة . وكان واحدهما ينقضُّ على الآخر بصبرٍ عجيب ، وغباء صامت ، مثل كلبين يتهاوشان . بدا ، وأنا أراقبهما ، أن السكر شرع ينجلي عن وجه الأنحف منهما ، فصار منكمشاً تقريباً . أحسستُ بأني متأكدٌ من أن الضربة التالية التي يتلقّاها ستتلوها صرخةٌ مثل العَرَق المنتشر على البشرة الجافة الشاحبة لوجهه المتوتر . في تلك النقطة بالذات ، سحبَ هانجاً ، شيئاً من الجيب الخلفي لسرواله ، أحكمَ إمساكه بيده ، وطعن خصمه في فمه . صدر صوتٌ مثل محارةٍ تُفتح بكُلاّبٍ ، واندفعتْ بضعةٌ من شيء مشبعٍ بزبَدٍ أحمر طائرةً نحوي . الجريحُ ، مغطياً النصف الأسفل من وجهه الذي لايزال بلون النحاس من الشرب ، احتكَ بي منطلقاً ، منحنيَ الرأس ، بينما جاء مُهاجمُه راكضاً خلفه بأقصى سرعته .

عند أذنيَ تماماً سمعتُ التأوهات الضعيفة الكريهة للضحية ، ولُهاثَ الرجل الذي يطارده ، ثم التفتُّ وراقبتهما يختفيان في البُعد . قرفصتُ على الثلج وبحثت قربي عن الشيء الذي سقط هناك . على السطح الأبيض للثلج ، الذي كان مدعوساً لكن ليس موحلاً ، وجدتُ مضغوطةً حمراء في

حجم نواة المشمش ، في أسفلها شيء يشبه برعماً لشجرةٍ أصفرَ مائلاً الى البنيّ ، قطعةً صغيرة وردية تشبه في شكل أذنَ اليهودي ، وقد ارتبط بجذورها . مددتُ يدي ، والتقطتُه بأصابعي ، ثم رميتُ به ، وقد تشنجت أحشائي اشمئزازاً . كان ضرساً مقتلَعاً مع جزءٍ من اللثة . مازلت مقعياً هناك . تلفتُّ حولي وأنا أحس باليأس الواهن لكلبٍ يتقيأ . النسوة مازلن أمام السوبر ماركت يحدّقن بعيون فارغة النظرات الى الفضاء . الأطفال الصغار الذين لم يتعافَوا تماماً من خوفهم ، ومازالوا متشبثين بأطراف معاطف أمهاتهم ، استرقوا نظراتٍ إليّ ، ملأى بالخوف ، كأنني أمثّل تهديداً جديداً . ولايزال الناس في بيوت الجوار ، مختبئين وراء أبواب الزجاج المنزلقة ، بدون أي محاولة للخروج ، وهم الذين شهدوا كل شيء من مكامنهم . هربت من المشهد ، متعجلاً ، جاعلاً سبيل نجاتي دربَ الحصباء ، مع ذلك الإحساس ذاته بالإلحاح المستكين الذي يشعر به المرء وهو يهرب من رعبٍ ما في كابوس ، فكنت أحيد في الغالب عن وسط الدرب الى أماكن تنضغط لمواطئ قدميّ ، حيث الثلج لم يمهَّد بعدُ .

كنت بالغَ الاضطراب حتى أني أحسستُ ، للمرة الأولى بعد اعتزالي في المستودع ، بالحاجة الملحة الى أن أروي لتاكاشي تجربتي . بعد أن بلغتُ المبنى الرئيس ناديتُه الى الخارج . كان الشبان الساكنون هناك منهمكين في المطبخ ، فترددتُ في الدخول . أنصتَ تاكاشي باهتمام الى ما قلته ، لكن اكتئابي العميق لم يؤثر فيه البتة .

قال : حدثت مشاجرات عدة في الوادي منذ عيد رأس السنة ، يا ميتسو . كبار القرية على الحافة ، في الأسابيع القليلة الأخيرة . ومما يجعل الأمور أسوأ ، أن الناس ليس لديهم ما يفعلونه خلال عيد رأس السنة سوى احتساء الكحول الرخيص ، كما أن الشبان الذين يتعاركون فيما بينهم

عادةً ، أقاموا هنا يتدربون ، هكذا لم يبق للكبار ـ المفترض فيهم أن يعرفوا ـ سوى العراك فيما بينهم . والناس الذين اعتادوا التنفيس عن عدوانيتهم المكتومة بالتفرج على مشاجرات الفتيان وتأمُّلها ، مشغولون بمقاتلة بعضهم هذه المرة . هل لاحظت أن لا أحد يوقف شجاراً إن بدأ ؟ عراك الكبار أكثر تعقيداً من عراك الفتيان ، ولهذا يصعب على الغريب التدخل لإيقافه . لهذا السبب تستمر مشاجراتهم بلا انتهاء ولا تدخُّل » .

لكني أصررتُ ، غير مقتنع بالطريقة التي وضع فيها تحليلُ تاكاشي الأمورَ داخل إطار الحياة اليومية المعتادة : « مهما كان الأمر ، فإني لم أر ، قطُّ ، شخصين من الوادي يتضاربان بهذه الشدّة حتى أن أحدهما يفقد ضرسه وبعضاً من لثته . كانا يتضاربان في صمتٍ كاملٍ ، وبأقصى ما لديهما من قوةٍ في القبضة . الأمرُ غير طبيعي ، يا تاكا ، حتى لو كانا سكرانين » .

قال : « حين كنت في بوسطن ، ذهبت لأرى مسقط رأس الرئيس . كل فريق « كان العار عارَنا » ، أُخِذ الى هناك . في عودتنا اجتازت الحافلة الصغيرة التي تقلُّنا بحيٍ زنجيّ ، ورأينا زنجيين شابينِ يتعاركان . أحدهما كان يلوّح بطابوقة فوق رأسه مهدِّداً الآخر . كتفاه كانتا أضيق ، وأضألَ عضَلاً . الثاني الذي لم يكن مهتماً البتة ، كان يسخر به من مسافة أمانٍ . لكن في الفترة القصيرة التي استغرقها مرور حافلتنا ، تخلّى عن حذره واقترب من الأول قليلاً . وعلى الفور أهوى الأول بالطابوقة على رأسه . لقد انفلق الرأس ، بالضبط ، حتى أن داخله لَيُرى . طيلة هذا الوقت ، كان الناس الذين يعيشون هناك يتفرجون بهدوءٍ تامٍ ، جالسين عند المداخل المظللة لبيوتهم ، على كراسيهم الهزّازة ، أو على كراسي الخيزران ذات المساند الكبيرة . في هذا الوادي ، يعني العنفُ فقدان قطعة لثّة ، كحدٍ أقصى ـ إذ ليس من حوادث قتل . قد يحافظ اليابانيون في عراكهم على نوع من الإحساس بالتناسُب ، أو

قد لا يتمتعون بالقوة . لكني حين أتناول الأمر من الناحية السايكولوجية ، أرى أن الوادي قد يتحول الى حيٍّ زنجيّ ، الى غيتو » .

«أنت مُصيب . فبقدر ما تسعفني ذاكرتي ، لم تكن لتجد مثل هذا العنف الصارخ في سالف الأيام ، وفي الصباح خاصةً . وإن حدثت مشاجراتٌ أهونُ بكثير من تلك لرأيت الأطفال يركضون مباشرة الى مركز الشرطة . لكن الناس ، هذا الصباح ، اكتفوا بالجلوس داخل بيوتهم ، والتفرُّج» .

«الشرطي ليس في المركز . إذ تلقّى برقية تستدعيه الى البلدة ، في ساعة متأخرة من ليلة هبوط الثلج ، وقد ظلّ هناك من حينها . لا حافلات تشقّ طريقها ، وخطوط الهاتف تهاوت بعد أن أسقط الثلجُ الأشجار . لذا ، لا يعرف أحدٌ هنا كيف يُمضي الشرطي عطلة العام الجديد » .

هجستُ رغبةً ممكنةً في إثارة الشك بطريقة كلام تاكاشي ، لكني أوقفتُ الإغراء لأستفسر أكثر . أنا أريد أن أكون بعيداً البعدَ كله عن كل ما يفعله تاكاشي وفريقه . أمرٌ خطرٌ ومرهقٌ أن أقع في حبائل لعبة تاكاشي ، التي يومئ إليها بإيماءات غامضة ، يُصدرها مُنَجَّمةً ، الى جانب أنني تخليت عن فكرة انتقاده مهما حدث .

قلت مغيّراً الموضوع : «أكيدٌ أن السوبر ماركت مغلقٌ لمناسبة عيد رأس السنة ؟ كانت الستائر هابطة ، لكن ثمت جمعاً من نساء «الريف» أمام المدخل ، ولست أدري ماذا يفعلن ؟ قد يستطعن في عيد رأس السنة ، في الأقل ، تدبير طعامهن ، بدون الاعتماد على السوبر ماركت . لكني أتساءل عن وقوفهن ، ساكنات تماماً ، أمام أبواب مغلقة» .

قال ، ربما في محاولة إثارة شكوكي ثانيةً : «أوه ، أهنّ هناك منذ الآن ؟ نحن سنقوم باستعراض صغير أمام السوبر ماركت عصر اليوم . لمَ لا تأتي ، لتتفرج ، يا ميتسو ؟» .

قلت محاذراً : «لا أشعر برغبة في ذلك» .

قال : «ناسكٌ صغير ، إذاً . مقتنعٌ من البداية بأنه لا يريد المجيء ، دون أن يسأل حتى عن نوع الاستعراض» .

قلت : «هذا صحيح . ليست لدي ، على الإطلاق ، رغبة في تغيير عاداتي ، كي أخرج وأراقب ما يحدث في هذا الوادي» .

«إذاً ، ليست لك أي رغبة إيجابية في رؤية أي شيء هنا ـ دع عنك الاشتراك في أي شيء ، طبعاً . والحقُّ أن الأفضل ألا تكون هنا ، إطلاقاً» .

قلتُ : «اسمعْ . أنا باقٍ ضد إرادتي ، بسبب الثلج . مهما حدث من شيء هنا ، فإن كل ما أطلبه هو أن أغادر ، أولاً ، ثم أن أنسى كل شيء عن هذا الجُحر في الغابة ، مرةً والى الأبد» .

ابتسم تاكاشي ابتسامةً مريبةً كمن يسخر ، ثم هزّ رأسه صامتاً ، مرتين أو ثلاثاً ، وانسحب الى المطبخ دون أن ينبس ببنت شفة . بدا لي أنه كان يخشى أن تقع عيناي على ما كان الشبان يفعلونه في المطبخ . لكني لا أرغب في التدخل ، وهكذا عدتُ الى المستودع . .

عندما أحضرت موموكو غدائي ، حاولتْ أن تدفعني للإطلال من نافذة المستودع ، لأرى البيارق الجديدة على سطح السوبر ماركت . لقد ابتهجتُ بالتوتر الطفولي الذي نصبتْ فيه فخّها ، فلم أشأ الرفضَ . نوعان مختلفان من البيارق ، بالأصفر الفاقع والأحمر القاني ، تخفق في أعلى المستودع ، الذي صار سوبر ماركت الآن . الثلج المنهمر باستمرار في الوادي جعل المشهد كله يشبه شيئاً من فيلم عتيق مهترئ . عندما استدرت عن النافذة ، وجدتُ موموكو تتطلّع إليّ متفحصةً ، وعيناها مفعمتان بتوقُّعٍ صريح . أنا لا أعرف ، طبعاً ، معنى هذين النوعين من البيارق .

قلت : «أخبريني ، لماذا أنت مسرورةٌ بهذه البيارق ؟» .

ردّدتْ : «لماذا ؟» ، وارتجفتْ ، متوحشةَ النظرة ، ممزقةً بين التحريم والرغبة في القول : «أنت ، إذاً ، غير سعيدٍ بها ؟» .

«عندما أعود الى طوكيو سأرسل لكِ أفضلَ منها» ، قلتُ هذا راغباً في مداعبة هذه الفتيّة من حرس تاكاشي ، وشرعتُ آكل غدائي .

«إن هبطتَ الى الوادي ، في الساعة الرابعة ، فسوف تشاهد ما سيحدث ، يا ميتسو ـ حتى وإن كان عضواً في المؤسسة مثلك! تذكَّرْ ـ الساعة الرابعة! ـ أظنك تريد أن تعرف ما يدور . لكني لا أستطيع إخبارك ـ لا أستطيع أن أخون الفريق» .

لم يكن لي بدٌّ من الابتسام . كانت تبدو مثل إرهابيةٍ عتيقة الطراز بثيابها الجلدِ الهندية التي تلبسها ، برغم الثلج ، دون ملابس تحتيّة ، مثل ما كانت في المطار . الثياب الجلد مغضّنةٌ الآن ، بل مفتوقةٌ هنا وهناك ، كاشفةً أبعاداً من لحم شاحب .

«لن أكون أقل اهتماماً بما سوف يحدث ، يا موموكو . وليس عليكِ أن تخوني أحداً» .

«أوه ، أنتم أهل المؤسسة ، مضجرون!» قالت في مزيج من الندم والانزعاج ، ثم مضت عائدة الى رفاقها غير المَخُونين .

في الساعة الرابعة من عصر ذاك اليوم ، تعالت صيحةٌ متكررة من آلاف الحناجر ، طالعةً من قاع الوادي ، لتصل ، بطيئةً ، دائرةً الى أعلى ، في صوتٍ حلزونيّ . صيحة جبارة تجمع بين الإلحاح والهياج المفرح ، وتدغدغ الجزء المخجل أكثر من سواه ، في النفس ـ طيّة ، كما كانت ، في غشائها المخاطيّ قاني الحمرة . أثار الصوت لديّ ذعراً غير مبرر ، كأني متلبِّسٌ بعمل مُشينٍ استعراضي أمام الناس . وفي الوقت نفسه وجدتُني أتساءل : «ما هذا ؟ ما هذا بحق الجحيم ؟» ، فوراً كان سيجيبني شيءٌ غير مسمّى من

زاوية المستودع ، لكني صرخت : «لا! لا!» مذعوراً ، ثانيةً ، هازاً رأسي . تزايدت الصيحات وتزايدت ، واستمرّت ، في موجات . بعد فترة ، تلاشى الهتاف ، وحلّت محله حركةٌ أرضيةٌ ، نوعٌ من الغمغمة النابضة مثل أزيز نحلٍ لا يُحصى عدداً ، يقطعها بين حين وآخر أصواتٌ جهيرةٌ قاسيةٌ تأبى الاندثار ، فتظل مع الزعقات الثاقبة للأطفال وصيحات البهجة . استطعت المضيّ في ترجمتي مع تصاعد الصيحات وخفوتها ، لكني فقدتُ التركيز مع تلك الصرخات المتقطعة الثاقبة العصيّة على التحديد . بعد ذلك ، وقفتُ ، وذهبت الى النافذة ، لكن حين لسعني البرد الآتي من لوح الزجاج في عيني ، وخدّيَ المحمرَّين ، صرت أتطلّع الى الخارج ، عبر الزجاج الغائم ، الى فضاء الوادي الذي بدا مليئاً بضباب حليبيّ داكن ، حتى السماء بغيوم ثلجها كانت مثل كفٍّ هائلةٍ بنّيةٍ تطبق على الوادي وتمحوه . ضيّقتُ عيني السليمة لأتبين بيارق السوبر ماركت ، فبدتْ تدريجاً في الضباب ، معلقة مثل طيور مبسوطة الأجنحة ، مشوشة الألوان ، شاحبة ، مثل كِسَرِ خزفٍ مطروحة تحت ماءٍ مُوحلٍ . ليست لديّ فكرة عما يجري في السوبر ماركت ، لكن ذكرى النساء اللواتي بقين بلا حراك في الصراع الصامت بين الرجلين متوسطَي العمر ، ظلت في ذهني طالما لم تهبط ستائره بعدُ ، وهي الآن مهددة ، من جديد ، بالصيحات القادمة من الوادي .

قبل مُضيّ وقتٍ يُذكَر ، عدتُ الى طاولتي ، تحت وطأة إحساسٍ بالعجز غير مريح . لقد نجحتُ في ما فرضته على نفسي من حظرٍ على الهبوط الى الوادي . لكن الحظر لم يمنع تأمُّلي في أن شيئاً غريباً قد حدث ، فعلاً ، هناك ، وأن لهذا الشيء صلةً واضحةً بتاكاشي وفريقه ، فريق كرة القدم . ولأني لم أعد قادراً على استئناف الترجمة ، تناولتُ فِقْرةً تخلّفت لديّ من مرق ذيل الثور الذي طعِمتُه في الغداء ، وتشاغلتُ بعمل تخطيطات ذات

تظليل دقيق . العظم في لون لحم المحار ، ذو عروق ومسارات ماضية في اتجاهات معقدة ، وحواشٍ دائرية هلاميّة متصلة بكلا جانبي الفِقْرة ، وتقعُراتٍ صغيرة مثل ثقوب دودة الأرض ، وظيفتُها في الذيل الحيّ صعبةُ الإدراك . مضيتُ في تخطيطاتي بصورة متقطعة لكني أخيراً وضعتُ قلمي وعضضتُ الحواشي الهلامية محاولاً استعادة الطَّعم . لكن لم يتخلف إلا طعم الشحم البارد والمكعبات المستعملة في إعداد المرق . غاص إحساسي بالعجز إلى أعماق لا تُسبَر ، ووجدتُني متردياً في بئر كآبةٍ لا سبيل الى الخروج منه . في الساعة الخامسة هبط الظلام خارج النافذة ، لكني لم أزل أسمع الضجة الكثيفة ، المختلطة بين حين وآخر ، بصيحات مهتاجة . وصرت أسمع بشكلٍ متزايدٍ ، صوت أشياء معدنية ترتطم ببعضها ، وضجيجاً منفجراً كأنه صادرٌ عن سكارى . أولاد جن عادوا من المبنى الخارجي يتحدثون معاً ، بسرعة وحيوية ، وبأصواتٍ يُرعشها الهياج . هم عادة يخفضون أصواتهم حين يجتازون بالمستودع ، احتراماً لعملي ، لكنهم هذه المرة لم يعيروا أدنى اهتمام للرجل الجالس في الطابق الأعلى وحيداً . ومثل الكبار أعطوا انطباعاً بأنهم اشتركوا ، للتو ، في عملٍ ما ، ذي فائدة لأهل القرية . ولم يمض طويلُ وقتٍ حتى عاد تاكاشي وفريقه الى المنزل ، وظلت الحديقة الأمامية ، فترةً ، تضجّ بالأصوات المتصاعدة . حتى في أواخر الليل سمعت أحياناً صيحات مختلطة ، ترتفع من الوادي ، كأن مجاميع من السكارى تتشاجر في آن .

جاءتني زوجتي نفسها بالعشاء . كانت تعتمر عمامةً من ذلك النوع المطبوع المثير للأعصاب الذي رأيته حول رؤوس النسوة المتجمعات عند طرف الجسر . ربما أرادت أن تكتسب سحر فتيات الوادي الغبيّات ، لكن العمامة أكّدت فقط ، جبهتَها العريضة حسنة التكوين ، ومنحتها جو النضج

الرزين . والأكثر من ذلك ، أنها لم تبدأ ، بعدُ ، شربَ الويسكي ، هذا المساء .

قلت : «ما تعتمرينه ، أكثر فتوّةً بالنسبة لك ؟ أم أن الروح المعنوية لفريق كرة القدم أعادت إليك شبابكِ ؟» وعلى الفور ، كدت أعضّ على لساني اشمئزازاً من أثر غيرة الزوج في ملحوظتي . تطلّعتْ بهدوء الى وجهي وأنا أحمرُ خجلاً وامتعاضاً ، وبعدم ارتباكٍ كابوسيّ صار من صفاتها حين لا تكون سكرى ـ وهو أمرٌ برز عندما انصرفتْ تحديداً الى الشرب ـ دخلتْ مباشرة في الموضوع الذي ترددتُ في مقاربته ، مع أنه أرّقني كثيراً .

قالت : «أعطوني هذا القماش في السوبر ماركت . أرأيتَ البيارق فوق السطح ؟ إنها تشير الى اعتزام الامبراطور إهداءَ كل زبونٍ سلعةً من المخزن . كانت فظيعةً ، تلك الساعة الرابعة ، حين فتحوا السوبر ماركت . أظنك سمعتَ الصياح حتى في المستودع ، أليس كذلك ؟ اندفعوا جميعاً الى المدخل ـ أولاً نسوة «الريف» ، يليهنّ الأطفال ، وأخيراً حتى الرجال ، هكذا تتصوّر الالتحام . أنا كدت أسقطُ في غشية ، في صراعي للحصول على هذه العمامة» .

قلتُ : «نكرانُ ذاتٍ منكِ . ماذا تقصدين بـ(سلعة من المخزن) ؟ لن تستطيعي ، بالتأكيد ، أخذَ أي سلعة من المخزن ؟» .

«تاكاشي كان أمام السوبر ماركت ، يلتقط صوراً لكل من خرج مع غنيمته . أغلبُ النسوة أخذن قماشاً أو طعاماً ، لكن بعد أن هبط الظلام بدأ الرجال يحملون سلعاً أكبر . واضحٌ أن الذين خرجوا بقناني كحول في الوجبة الأولى ، سكروا ، وتسللوا ثانيةً تحت جنح الظلام ، الى السوبر ماركت . في بادئ الأمر ، كانت السلع المخصصة للأخذ مكدَّسة ، وحدها ، في مكان

منفصل عن الرفوف الأخرى . لكن هذه السلع تبدّدت على الفور ، في الاندفاعة الرهيبة ، بين أيدي نساء «الريف» خاصة» .

كنت أوشكُ على الانسحاب الى الابتسامة الحذرة المنكمشة لغير ذي العلاقة ، الضعيف ، الذي صُدم بعرض القوّة هذا ، ففقد كل رغبة في مناقشة طبيعته وهدفه ، حين خطرت لي فكرةٌ كريهةٌ أعادتني ، دون إرادةٍ مني ، كي أواجه شكّاً أكثر ملموسيةً . دهشةٌ بسيطةٌ تصاعدتْ في ذهني ، وتوقُّعُ خطرٍ ذو تعقيدات فائضة .

قلت : «لكنهم لا يختزنون كحولاً في السوبر ماركت ؟» .

«يبدو أن الناس الذين دخلوا السوبر ماركت قبل أن ينهار النظام رأوا قناني مصفوفة على الرفوف مع الهدايا المجانية . على أي حال ، الحقيقة أنه كان الكثير من قناني الويسكي ، والساكي ، وما إليها...» .

سألتُ : «أكان تاكاشي مسؤولاً ؟» نطقتُ باسم أخي في شعور امتزج فيه غثيانٌ غامضٌ ورغبةٌ في رفض كل عالم الواقع الرديء ، والانسحاب الى الطفولة .

«نعم ، يا ميتسو . كان مسؤولاً . لقد اشترى تاكاشي كل مخزون الوادي من الكحول ، ومضى به الى السوبر ماركت قبل أن تحدث هذه الأمور . لكن فكرة الهدية المجانية لكل زبون جاءت من الإمبراطور نفسه ـ هو يطبق هذه الفكرة في سلسلة مخازنه كلها ، يوم الرابع من كانون الثاني ، كل سنة . الترتيبُ هو أن تقدم للبائعة وصولات مشتريات خلال النصف الثاني من السنة ، وهم يقدمون لك مادة تافهة من غذاء أو كساء . الفكرة الخاصة الوحيدة من تاكاشي ، كانت في أن يدسّ الكحول مع الهدايا الأخرى ، ثم يزيد الاضطراب ، بتأخير فتح المخزن ، وإباحة كل شيء للزبائن بوساطة ترك البائعات أماكنهن حال دخول الزبائن . لكن الفوضى

التي حدثت جعلتني أشعر أن لدى تاكاشي موهبةً حقيقيةً في إثارة القلاقل» .

سألتُها : «لكن ، كيف استطاع تاكاشي السيطرة على الناس في داخل المخزن . حقيقةُ الأمر ، بالتأكيد ، أن الإباحة حدثت عفوياً ، فأدرك تاكاشي أن الفرصة مواتيةٌ كي ينفخ في بوقه» .

«أراد الامبراطور أن يستخدم الشبّان بدلاً من البائعات ، وحراس المستودع الذين ذهبوا الى منازلهم في عطلة رأس السنة . لقد أراد أن يعتصر قدر إمكانه من العمل غير المدفوع الأجر ، من الناس الذين كانوا يديرون مزرعة الدجاج ، كي يعوِّض عن خسارة عشرات الآلاف من الدجاج الميت . وبعد أن قدَّمَ اقتراحه ، خطرتْ لتاكاشي والآخرين فكرتُهم . وعلى أي حال ، ليس أمراً سيئاً ، بالتأكيد ، أن تسنح الفرصة للنساء كي يستردن شيئاً مما خسرنَه للسوبر ماركت ، في السابق» .

قلت : «لكني ، لا أعتقد أن الأمر سينتهي عند هذا الحدّ ، خاصةً إذا حمل السكارى بضائع ثمينة ـ إذ أن هذا يرقى الى عملية سطو كاملة تشمل المنطقة بأسرها» . شعرت بدفعةٍ حامضة من الكآبة تسري في جسمي .

«طبعاً . لم يفكر تاكاشي لحظةً بأن الأمر سينتهي عند هذا الحدّ . فريقُه لكرة القدم أبقى مدير السوبر ماركت سجين منزله طيلة النهار ، اليوم . وأفعال تاكاشي الحقيقية لن تبدأ إلا غداً . والفريقُ متلهفٌ حقاً!» .

شكوتُ عبثاً ، مع شيء من الامتعاض : «إنني أتساءل عن سبب انقيادهم الطائع لكلام تاكاشي» .

قالت مفسحةً المجال لانفعالٍ كانت تكتمه بوسائلها الخاصة حتى الآن : «منذ أن فشل الشبَان في مزرعة الدجاج ، شعروا بأنهم خُدعوا . هم قد لا يُظهرون ذلك ، لكن لديهم ، بلا شكٍّ ، شكاواهم . والمستقبل هنا يبدو غامضاً حتى لأكثر الشبان رزانةً ومهارةً . إنهم لم يركلوا كرة القدم كي

يتمتعوا ـ كانوا يركلونها بسببٍ من يأسهم ، بسببٍ من أن ليس لديهم ما يفعلونه غير هذا » .

التمعت عيناها محمومتين ، وكانت مبتلتين في الزوايا ، كما بالرغبة ، لكن بدون الحمرة التي تبدو عليهما في مثل تلك الأوقات . عرفتُ أنها تغلبتْ ـ منذ انسحبتُ الى المستودع ـ على خوفها الغامض ، عميق الجذور ، الذي يسبق نومها بدون اللجوء الى الكحول . وبالنتيجة ، لم تعد فريسة الأرق أو الكآبة ، بل وضعت قدميها بثبات على المرتقى المؤدي الى المعافاة . ومثل حراس تاكاشي الشبّان أطاعت الأمر بالتوقف عن الشرب ، وبالعيش صاحيةً . بل كادت تسدّ الثغرة الخطرة بدون مساعدةٍ مني ، أنا ، زوجها . أحسستُ بأني مثل كلبٍ تناولتْهُ السياطُ ، فحننتُ الى ناتسومي التي سكرتْ ونحن ننتظر تاكاشي في المطار ، ناتسومي التي لم تعترف بأي رغبة في إعادة تربيتها .

قالت لي وهي تضع إصبعها بمهارة على ما كانت تأمُلُه محاولتي المتراجعةُ في تأكيد الأخوّة ، وكان رد فعلها فورياً ، ونظرتها كالفولاذ : « إن كنت تعتزم التدخل في ما يفعله تاكاشي ، فافعلْ ذلك بحذر ، لئلا يتولاّك الفريق » . كانت ، وهي تتحدث ، تتسم بالفتوّة والقوة اللتين ذكّرتاني بما كانت عليه قبل الولادة التعيسة . « في طريق عودتنا من السوبر ماركت رأيت الكاهن . ظننتُه آتياً إليك ليستشيرك في ما حدث اليوم . إلا أنه هرول الى بيته ، بعد أن هدّده الفتيان بأسلحتهم الكريهة تلك . ألا تزال تثق بقوّتك الجسمية ، يا ميتسو ؟ » .

مثل ما يجذب المرء لحم محارة من أعماق صَدَفتها ، كانت تسحب ثقتي بنفسي ـ التي ضغطتُها قدر الإمكان ، وأبعدتُها في زاوية ـ الى الضوء ، لغرضٍ واحدٍ هو تدمير هذه الثقة . حرَّضني الغضب نحو الحياة .

«ليست لي علاقة بكل ما يحدث في هذا الوادي . ولم ينتج هذا عن كرهٍ لتاكاشي أو غيره ، كلُ ما في الأمر أنني تخليت عن أي رغبة في نقد سلوكه وسلوك فريقه . ومهما حدث من أمورٍ هنا ، فأنا أعتزمُ مغادرة الوادي حال عودة المواصلات الى وضعها الطبيعي ، ونسيان كل شيء نسياناً تاماً» . تحدثتُ بقوّة لأُطمئن نفسي أنني أمينٌ لشعوري . حتى لو أن تلك الصيحات المقلقة بافتراضات رغباتها المخجلة ، تصاعدت من الوادي ، ثانيةً ، غداً ، فلسوف أتناساها ، وأمضي في ترجمتي ، في حواري الداخلي مع صديقي المنتحر . كلما بحثتُ عن كلمة تساءلتُ عن الكلمة التي كان يمكن أن يستعملها في هذه النقطة ، وأتمتع بإحساس التواصل الوجيز معه ، مع الميت . في أوقات مثل تلك ، يكون صديقي أقرب إليّ فيزيقياً من أي حيٍّ .

قالت زوجتي : «أتخلّف مع تاكاشي . قد أكون منجذبة بسلوكه ، لأنني لم أعصِ القانون مرةً . كلُ ما فعلته كان في إطار قوانين الدولة ـ حتى حين وقفتُ أتفرج على طفلي وهو يُمسَخ الى أكثر قليلاً من حيوان» .

قلت : «أتّفقُ معكِ . لقد عشتُ بالطريقة نفسها . وأقولُ الحقَّ إنني لا أملك الرغبة ، ولا المؤهلات ، التي تجعلني أنتقد أيَّ شيء فعله أيُّ أحدٍ غيري . كلُ ما في الأمر أنني أنسى أحياناً» . غرقنا في صمتٍ مرتبك ، متحاشين النظر الى بعضنا . ثم قالت خجِلةً ، مقربةً وجهها من ركبتي : «إذاً ، كانت ذبابةً ميتةً ، التصقتْ هنا ، يا ميتسو . لمَ لا تنفضها عنك ؟» . صار صوتها رقيقاً أنثوياً ، مع أثر من حنانٍ زائدٍ لشخص يشعر بالخجل من نفسه . وفي مزاجٍ مماثلٍ من هدوء سابغٍ نفضتُ البقعة الصغيرة السوداء اليابسة من ركبتي بإظفر لطّخَه الحبرُ . وبعد أن قيل ما قيل وجرى ما جرى ، فكّرتُ أننا لانزال زوجين : رجلاً وامرأته ، ليس لنا بديلٌ من المضيّ في هذا

النوع من الحياة المشتركة الى ما لانهاية . لقد زُوِّدنا ذهنين في حالة سيئة ، وهما متشابكان في هذه الحالة السيئة ، بحيث لا يسمحان بالطلاق .

« شوبنهاور قال ، أليس هو القائل ، إن بمقدورك أن تسحق ذبابةً ، لكن « الشيء بذاته » لا يموت » . همست مدققةً النظر في النقطة السوداء « أنت قتلتَ ظاهرة الذبابة فقط . أما وقد جفّت هكذا ، فإنها تمنح الإحساس بكونها ـ الشيءَ بذاته » . كانت هذه أولى الكلمات التي تبيِّنُ تصريفاً للتوتر لا يخفي نصلاً .

في أواخر الليل ، وأنا متمدد نصف نائم سمعت صرخةً عاليةً لفتاة : لكأن الصوت يخرج من رأسي ، ولم أعرف إن كانت الصرخة من خوف ، أو من غضبٍ مستعر . وضعتُ ما سمعتُ ، في موضعٍ ما ، بين ذكريات النهار وعالم الأحلام ، متخلصاً منه ، ومتهيئاً للاستمرار في النوم . لكن الذكريات والأحلام تراجعتْ في الصرخة الثانية ، ورأيتُ موموكو ، مثل صورة على شاشة ، بتفصيلٍ حيٍّ ، فمها فاغرٌ ، وهي تصرخ بأعلى ما تستطيع . ومن البيت الرئيس صدر ما يدلّ على حركةٍ خائفةٍ لأناسٍ كثارٍ . نهضتُ ، وبدون أن أشعل الضوء ، واتجهتُ الى حيث النافذة . ونظرتُ الى أسفل ، ناحيةَ البيت .

كان الثلج توقّفَ ، وفي الحديقة الأمامية حيث ضوء القنديل في الإفريز ينير بقعةً ساطعة من ثلج جديد ، كان تاكاشي وهو يرتدي فانيلةً وبنطلون تمرين قصيراً ، يقف مع شابّ يلبس كيمونو قصيراً تركَ صدره وأدنى ساقيه عاريين . تحت الإفريز كان يقف أعضاء فريق كرة القدم ، صفّاً ، متنكبين سلاحهم ، وكلهم يرتدي سترةً مبقّعةً ، كأنهم في بدلاتٍ عسكرية . والشابَ الذي واجه تاكاشي ، وهو الوحيد المجرَّد من سترته ، يوحي بأنه قد طُرِد للتوّ من الجماعة . وكان يبسط شأنه ، متذللاً ، مُطنباً ، أمام تاكاشي .

أخي ، المنحني الى أمام ، متهدل الذراعين بدا ، للوهلة الأولى ، منصتاً الى ما قاله الشابّ ، لكنه في حقيقة الأمر ، لم يكن يبذل أي محاولة لفهم أعذار الرجل الأضعف . في فواصل غير متوقَّعة ، كان يرفع رأسه ويكيل للشابّ ضربة مكينةً على جانب رأسه ، كأن شيئاً وحشياً سرى في وسط جسمه ، ووجد مَنفذه في لمحة خطرة من برقٍ أرجوانيّ . كان الشاب لا يقاوم ضربات تاكاشي المتواصلة ، بل يبتعد شيئاً فشيئاً ، وهو الأقصر قامةً ، والأضيق كتفاً ، الى أن فقد توازنه على الثلج وسقط الى الخلف . لكن تاكاشي ، حتى في هذا الوضع ، وقع عليه وظل يضربه . أحسست برعب جسديٍّ حقيقيّ ، وأنا أشاهد قريباً لي يقوم بعمل عنيف ، حتى اخترقَ هذا الرعبُ جفوني . على لساني الطعمُ المحزن لسوائل معدتي ، وبصري غضيضٌ ، أنسحبُ في العتمة الى بطّانياتي . هذا الأخ الذي ظل يضرب فتى مستسلماً في الوجه ، لم يعد هاوي عنف ، فقسوته المتشنجة وإلحاحه الإنتقامي هما من علائم مجرم . هالة العنف الإجرامي التي هجستُها حول تاكاشي اتّسعتْ باطّرادٍ وشعّتْ ببريقٍ أكثر ، حتى أضاءت الوادي بأسره مثل فجرٍ منذرٍ بالويل ، تكتسب في ضوئه قضيةُ السوبر ماركت جانباً جديداً تماماً .

فقط الانسحابُ إلى الحمى الشخصيّ المحض للنوم ، قدّمَ أملاً في النجاة من الضوء البغيض للعنف ، لكن النوم رفض أن يأتي بهدهداته الى ذهني الذي كان مثل قِدرٍ مليءٍ طعاماً أخرجت الحرارةُ فيه كلَّ الوسخ الى السطح . بعد أن ذهبت كل الجهود سدىً ، فتحت عيني في أعماق الظلمة ، ونظرتُ الى حيث النافذة تضيء بيضاء كالحليب . أحياناً كان الضوء الواهن يضعُف ، وأحياناً يخفت فلا يمسي أكثر من غطاء على حفرة ظلام . ثم أن النور والعتمة يتناوبان في وتيرة مقلقة...

خشيتُ من أن أمراً حدث لعيني السليمة بعد أيام عدة من الضوء الباهر

للثلج . خلقَ خوفُ العمى ، لحظةَ فراغ ، أفادتْ في استرخاء ذهني المنهك المستحرَ ، وقد مكّنني إدراكٌ فيزيقيٌّ متفردٌ ، وعلى نحوٍ غير متوقَّع ، من إبعاد سُمَ عنفِ أخي عن ذهني . محدّقاً الى تناوب النور والظلام للنافذة ، استسلمتُ لقلقٍ محضٍ وبسيط . وقبل مرور وقتٍ طويل ، صار الضوء الذي يعبر النافذة الضيقة الطويلة جدَّ متوهِّج فأدركت أن مصدر هذا ليس ضعف النظر ، لكنه القمر المشرق من الجهة الأخرى . نهضتُ ثانيةً وذهبت لأنظر الى الغابة المكسوّة بالثلج تحت ضوء القمر . سطحُ الغابة كان مقسوماً قسمين ، أحدهما يَمثُلُ متألقاً بالثلج ، والثاني يماثل كآبة سوداء ، منطقة معتمة كأن فيها حيوانات مبتلة تزحف بلا عدد . وكلما حجبت السحبُ المتسارعةُ القمرَ اكتسبَ قطيع الحيوانات مسحةً برونزيةً تتعمق حتى تنسحب الحيوانات أخيراً عن النظر ، مختفيةً في الظلال المعتمة .

وفجأة ، بينما يبدأ الثلج يلتمع على الجزء الناتئ من الغابة ، يبدأ قطيع الحيوانات ، وقد استعاد كسوتَه المبللة ، مسيرته ثانيةً ، خفيضَ الرؤوس .

تحت ضوء القمر ، لا يكاد القنديل المتدلي من الإفريز في الحديقة الأمامية يبعث سوى حلقة باهتة مصفرَّة من الضوء .

ولهذا السبب لم أستطع أن أتبيّن لأول وهلة ، ماذا كشف الضوء ، لكني رأيتُ فجأةً ، الفتى ، المنهار ضرباً ، منطرحاً على الثلج الموطوء ، وقد تناثرت حوله بطانيات ، وكيمونو مبقّعة ، وأواني طبخ . لقد لفظه الفريق نهائياً . كان رأسه غائصاً بين كتفيه الغائرتين بصورة عجيبة كالسَّرج ، وهو منطرحُ بلا حراك مثل قملة خشب مهدَّدة . فقدتُ رأساً إحساسَ الخفّة الذي أيقظتْه فيّ الغابة المقمرة . دفنتُ نفسي ، الرأسَ والكلَّ ، في الدفء الحميم المظلم للبطانيات ، لكن حتى أنفاسي على صدري وركبتيّ لم تستطع إيقاف ارتجاف جسمي ، وكنت أسمع أسناني تتقضقض . ثم سمعت وقع خطىً تدور

خلف المستودع وتتلاشى في البعد ، متحركةً ليس باتجاه طريق الحصباء نزولاً الى الوادي ، بل باتجاه الدرب الصاعد نحو الغابة . تكسُّرُ الثلج الخافت ، لكن المسموع ، أخبرني أن هذا ليس كلباً يصعد الى الغابة باحثاً عن أرانب برية أوَتْ في الثلج .

في الصباح التالي ، كنت لا أزال نائماً حين جاءت زوجتي بالفطور . حدّثتني عمّا حدث أواخر الليلة الماضية ، بصوت مشمئز من هذا الاندلاع المفاجئ للعنف الصارخ . خلافاً لقواعد فريق كرة القدم ، شرب الشابُّ قنينةً كاملة من الكحول الرخيص كان اشتراها سرّاً من السوبر ماركت ، ثم أخذ مومكو الى غرفة صغيرة في مكان بعيد بالبيت الرئيس ، وحاول إغواءها . بالرغم من أنه سكران ، وأن الوقت متأخرٌ في الليل ، إلا أن مومكو ذهبت معه ، وهي في منتهى الفرح ، مرتديةً ثوباً ليلياً اختارته بنفسها من السوبر ماركت ، لكنه يليق أكثر بجارية من جواري ألف ليلة وليلة . تخلّى الشاب عن تردده ، وأراد أن ينال ابنة المدينة ، المغرية ، هذه . وعندما قاومته بوحشيّة ، وأطلقت سلسلة صرخات هائجة ، كان جدَّ مستغربٍ ، بحيث لم يفق من دهشته حتى تحت ضربات تاكاشي . أصابت الصدمةُ مومكو بالهستيريا فالتجأت الى فراشها وقد أدارت رأسها ووجهها الى الحائط في الغرفة الخلفية ، ولم تظهر ذلك الصباح . قذفتْ بعيداً ثوبها الليلي ، سبب سوء التفاهم القاسي ، وارتدت كامل ملابسها ، واستلقت كأنها في كامل عدّتها ، وهي لا تكاد تتنفس . زوجتي في طريقها الى المستودع رأت سلاح الفتى الطريد مطروحاً على الثلج حيث سقط . وكان محفوراً عليه : ميتسو .

قلت : «من وقع الخطى ، يبدو أنه ذهب خلف المستودع ، وصعد الى الطريق المؤدي الى الغابة . أنا أتساءل الى أين ذهب ؟» .

«ربما أراد اختراق الغابة الى كوجي ، مثل الفتى المزارع في انتفاضة ١٨٦٠ الذي طُرِد لخيانته الآخرين» .

عنصر الفنطازيا هذا ، في تأويلها ، جعلني أشعر أنها تتعاطف مع المذنب الفتيّ ، أكثر من مومو كو .

قلتُ محاولاً النيل من أفكارها الرومانسية : «أنتِ لا تعرفين كم كثيفةٌ وصعبةُ الاجتياز هذه الغابة . إن محاولة اختراقها ليلاً ، مع هذا الثلج ، نوعٌ من الانتحار . أنتِ متأثرة كثيراً بحديث تاكاشي عن الانتفاضة . حتى لو طُرد الشاب من فريق كرة القدم ، فليس مستحيلاً عيشُه في الوادي . إذ ليس لتاكاشي السيطرة الضرورية على الآخرين . البارحة مثلاً ، عندما كان تاكاشي يضرب ذلك النغل البائس لإساءة فهم دعوة مومو كو ، كان من المحتمل أيضاً ، وعلى حدٍ سواء ، أن يتمرد الآخرون ويضربوا تاكاشي حتى يرى نجوم الظهر» .

ردّتْ عليّ بثقةٍ زائدة : «لكن يا ميتسو ، ألا تتذكر ما قاله هوشيو لك ، آنذاك ، حين أوشك يبكي في المطار ؟ أشكُّ في أنك لا تفهم ، أو حتى تعرف عن تاكاشي كما هو الآن . فالصبيّ البسيط ، غير المعقد ، الذي ألفْتَ معرفته في البيت ، مرَّ بأمور لا تستطيع حتى أن تتصورها ، دع عنك فهمها» .

«لكن ، حتى لو شعر الشاب المنبوذ من جماعة تاكاشي ، أن الحياة في الوادي صارت مستحيلةً بالنسبة له ، عاطفياً ، فلقد مرَّ أكثر من قرنٍ على الانتفاضة . كل هارب ، سيكون مَهْرَبه ، بالتأكيد ، الطريق المؤدي الى الساحل . إذاً ، لمَ عليه أن يخترق الغابة ؟» .

«هذا الفتى يعرف جيداً أن الفوضى التي دبّروها سراً في السوبر ماركت تشكل ، بالفعل ، جريمة . لو عبر الجسر ، وسلك الطريق المكسو

بالثلج ، الى البلدة التالية ، فقد تقبض عليه الشرطة التي تنتظره هناك ، أو العصابة التي يقال إن الإمبراطور يستخدمها . من السهل عليه ، في الأقل ، إقناع نفسه بأن ذلك سيحدث . بدأتُ أشكُّ أنك في الممارسة ، لا تعرف عن سيكولوجيا الجماعة لدى الفريق أكثر مما تعرف عمّا يدور في نفس تاكاشي » .

قلت مراجعاً قليلاً : «طبعاً . أنا لست على قناعة ، بسبب أني ولدت في الوادي ، من أن صلاتي بالوادي لاتزال قائمة ، أو أني أستطيع أن أفهم كاملاً ، الشبّان الذين يعيشون هناك . بل على الضد تماماً . وأنا لا أقدّم سوى ملحوظات موضوعية قليلة ، ذات حصافة . أما إن نفختْ أحاديث تاكاشي جنونَ الجماعة في الفريق ، فإن ملحوظاتي غير واردة» .

أصرّتْ بلا هوادة : «لا تصِمْ شيئاً بالجنون ، فقط لأنك غير متورط ، يا ميتسو . عندما انتحر صديقك ، مثلاً ، لم تلجأ الى هذه التعابير البسيطة . أليس كذلك ؟» .

قلت مستسلماً : «إذاً ، أخبري تاكاشي كي يرسل فريق بحثٍ في داخل الغابة» .

خرجتُ أغسل وجهي ، دائراً الى الخلف ، كي أتحاشى مدخل البيت الرئيس ، وكنتُ عائداً حين واجهتُ الشبان يتدفقون مهتاجين داخل الحديقة الأمامية . جاء الى الحديقة شخصٌ ضئيل الحجم يرتدي مشمَّع حطّابٍ قديماً ويسحب زلاجة هُيِّئتْ على عجل ، من ربط سيقان الخيزران ببعضها ، ومازال الورق عليها . على الزلاجة كان المنبوذ الفتي ملفوفاً حتى العنق كاليرقة في كساءٍ خِيطَ من الخِرَق العتيقة . كان تاكاشي خرج للتوّ كي يلقاهم .

التفت الرجل نصف التفاتة ، وقد التوى النصف الأعلى من جسمه الى الخلف ، كأنه يخشى أن يهاجمه الشبان المندفعون من المنزل ، لكن

تاكاشي كان يهدئ من روعه . ضيّقتُ عينيّ إزاء ضوء الصباح الباهر المنعكس من الثلج الموطوء ، فتبيّنتُ وجهاً جانبياً نحيلاً منكوداً ، والعين التي هي مجرد شقٍّ تذكِّرُ بـ«جي» الناسك الذي عرفته قبل اثنتي عشرة سنة أو أكثر . كان رأسه صغيراً ، مثل رأسٍ مقطوع علّقه المتوحشون حتى انكمش ، بينما الأذنان المرهفتان يزيد حجم الواحدة منهما قليلاً على مفصل إبهامٍ ، ولهذا تبدو حولهما مساحة واسعة بصورة غير طبيعية ، والقبعة الصغيرة التي بلا حافة تجعله يشبه ساعي بريد عتيقاً . وجهه الصغير المحصور بين القبعة الناصلة ولحية التيس المصفرَّة ، مليءٌ بالُّلطخ وبشيء شائبٍ مثل زغب السجّاد ، وهو الآن مشلولٌ خوفاً .

كان تاكاشي يحفظ سيطرته على فريقه خلفه ، ويتكلم مع جي بصوتٍ هادئٍ وَدودٍ كمن يهدئ معزى خائفةً . بجسده الذي لايزال ملتوياً الى الوراء ، وعينيه نصف المغمضتين ، أجاب العجوزُ ، تاكاشي ، وشفتاه ترتعشان بسرعة مثل أنملتين تريدان أن تلتقطا شيئاً من فوق ، ثم هزّ رأسه بطريقة توحي بأنه شديد الأسف لسحبه الزلاّجة من الغابة ، وبأنه خجلان ، تحت الضوء الغامر ، من كل ما يخصُّه . بأمرٍ من تاكاشي نُقل الشاب المغطى بالخِرَق ، من الزلاجة الى الداخل . حمله اللاعبون مبتهجين كأنهم يرفعون عرشاً محمولاً في احتفال ديني ، وجي الناسك يتبعهم وقد أحاطت ذراع تاكاشي بكتفيه النحيلتين ، ثم أُدخل المطبخ ، وهو يحتجّ بصوت واهنٍ . بعد أن تُركتُ وحدي في الحديقة الأمامية ، حدَّرتُ نظري الى حزمة الخيزران الطريّ ، المعجونة بالثلج المتجمد ، مطروحةً على الثلج الأكثر نعومة ، مهجورةً . الحزمة التي التفَ حولها لفّاتٍ عدةً حبلٌ خشنٌ ، كانت تبدو تنتظر عقوبة على إثمٍ ما .

«ناتسومي ، تقدم وجبةً للناسك ، يا ميتسو» .

التفتُ . تاكاشي كان يقف هناك ، خدّاه الملوَّحتان تشعّان بريقاً وردياً وحشياً ، وفي عينيه السوداوين نورٌ سكرانُ ، وتصوّرتُ في لحظةٍ أن بحراً في منتصف الصيف ، يمتدّ وراءنا ، بينما نحن نتحدث .

«جي ، كان ، تحت ، في الوادي ، كالمعتاد خلال الليل . كان عائداً فجراً حين لمح شاباً يغذّ السير في الغابة . هكذا تبعه حتى تعب الشاب وتوقّفَ . آنذاك أعاده سالماً . هل تصدق يا ميتسو أنه كان يعتزم اختراق الغابة في هذا الثلج والوصول الى كوجي! كان يتماهى مع ذلك الشاب في انتفاضة ١٨٦٠!» .

«ناتسومي توصلتْ الى الاستنتاج نفسه ، حتى قبل أن يعيده جي» . قلتُ هذا ، ومضيتُ الى شأني .

بينما كان الشاب يصارع خلال الثلج العميق ، في الغابة ذات الظلام الدامس ، مدفوعاً بالعار واليأس لأن رفاقه نبذوه ، فلابد أنه رأى في شخصه ابن الفلاح ذات العقصة في الهامة ، أيام انتفاضة ١٨٦٠ . ولم يكن ثمت ما يقنعه بأن مائة عام مرّت على تلك السنة المشؤومة ، ١٨٦٠ . كل تلك اللحظات المنفصلة التي تعايشت في أعالي الغابة تدفقتْ في رأسه المحتضر ، وامتلكتْه .

«الآن وقد تراءت فيه العلامات الأولى ، صرتُ متأكداً من أن التماهي مع شبان ١٨٦٠ سيستولي على الفريق بأسره . ولسوف أنشر هذا بين أهل الوادي . أريد أن أبدأ انتفاضةً أخرى هنا ، لأحقق من جديد ، انتفاضة أسلافنا قبل قرن ، بطريقة أكثر واقعيةً حتى من رقصة نيمبوتسو . ميتسو ـ الأمر ليس مستحيلاً!» .

«لكن ، لماذا ، يا تاكاشي ؟» .

ضحك تاكاشي : «لماذا ؟ حين شنق صديقك نفسه ، فهل تساءلتَ ،

يا ميتسو ، لماذا ؟ أم تراك سألت نفسك لماذا أنت حيٌّ ؟ حتى لو حققنا نسخة جديدة من الانتفاضة ، فقد لا يكون ثمت سبب ، إطلاقاً . لكني سأكون قادراً ، في الأقل ، على أن أمارس ، بالكثافة المستطاعة ، ما مرّ به شقيق جدِّنا الأكبر روحياً . وهو أمرٌ أتلهّفُ على فعله منذ زمن بعيد » .

حين عدت الى المستودع ، وجدت أن صوت الماء المتقطر ، بينما الثلج يذوب تحت حرارة الشمس ، ويبدأ انحداره على الطبقة الثخينة في السطح ، يطوِّق المستودع من جهاته الأربع ، مثل ستارة خيزران . وتخيلت أن بمقدوري الانتفاع من الصوت كي أعزل نفسي ، وأحتمي من كل ما حدث في الوادي ، تماماً مثل ما حمى جدنا الأكبر ، ببندقيته ، نفسه ، وما يملك ، من العالم الحديث وراء الغابة .

خيالٌ في شغب

منذ الضحى العالي ، تُسمع موسيقى موكب النمبوتسو ، باستمرار ، موسيقى طبول كبيرة وصغيرة ، مع صنوج . ظلت هكذا ، مطَّردة ، تغيِّرُ موضعها ببطء . الإيقاعُ ذاته ، إن صحَت التسمية ـ بانغ ، بانغ ، بانغ! بانغ ، بانغ ، بانغ! بانغ ، بانغ ، بانغ! ـ مضى على استمراره الآن أربع ساعات . أطللتُ من نافذة المستودع الخلفية بينما كان جي الناسك يرتقي طريق الحصباء نحو الغابة . كان يمشي ورأسه مائلٌ الى ناحية كمن يتفكّر عميقاً ، لكنه يصعد ، بثبات ، الدرب المنحدر المكسوّ بالثلج ، راكلاً بقوةٍ ، الأرضَ خلفه ، ساحباً الزلاّجة التي تحمل الآن بطانيةً جديدةً منحةً من زوجتي ، بدلاً من بطانيته العتيقة المهترئة . الموسيقى بدأت بعد هذا بوقت قصير . وعندما جاءت زوجتي الى الطابق الثاني ، جالبةً لقيمات رزّ ، وعلبة سمك سالمون غير مفتوحة ، غداءً لي ، كان صوتي وأنا أسألها عن الموسيقى أجشَّ بالانزعاج من استمرارها الذي لا منجاة منه ، وبدا حتى لأذنيَّ صوتاً خشناً غريباً .

سألتُها : «أهي فكرة قائدكم تاكاشي أن تُعزف موسيقى النمبوتسو ، هكذا ، في غير أوانها ؟ أيظن الموسيقى ستُذكّر الناس بانتفاضة ١٨٦٠ ؟ إن

كان الأمر هكذا ، فإنها فكرة سخيفة لا تؤدي إلا الى إزعاج الجيران . تاكاشي ، وأنتِ ، والآخرون ، هم الوحيدون المأخوذون بهذه الموسيقى . أتظنين أهلَ الوادي البلداء سوف يهتزّون لبضعة طبول وصنوج ؟ » .

أشارت بهدوء : « طيب ، لقد أزعجتُكَ ، في الأقل ، يا ميتسو ، أنت الذي تحاول جاهداً ألا تكون مبالياً بكل ما يجري في الوادي . السالمون المعلب ، على أي حال ، هو غنيمةُ حربٍ من السوبر ماركت ـ النهبُ استمرَّ هذا الصباح ثانيةً ـ ولذا ، من الأفضل ألا تأكله ، إن كنت تريد ليديك أن تظلا نظيفتين من القضية . بمقدوري أن أذهب لآتيك بشيء آخر تأكله » .

فتحتُ العلبة ، لا اعترافاً بالتواطؤ مع تاكاشي ، بل تبياناً لعدم اهتمامي بسخريتها . ثم أني لا أستذوق السالمون .

في ما يتعلق بالناس العاديين ، كان النهب الذي حدث في اليوم السابق عفوياً . لكن تاكاشي والآخرين ، حسب ما قالت زوجتي ، كانوا منهمكين ذلك الصباح بنشر فكرة أن النهب مادام غير مشروع على أي حال ، فليس من سبب يمنع أهل الوادي من المشاركة فيه حال بدئه .

سألتُها : « ألم يحتجَّ أحدٌ معترضاً على محاولة تاكاشي والبقية ، إثارتَهم ؟ وهذا الصباحَ ، بعد أن سمعوا ما يدور في الخفاء ، ألم يفكر أحدهم ثانيةً ، ليعيد المسروقات ؟ » .

« كان اجتماعٌ للقرية أمام السوبر ماركت ، لكن لم يتقدم أحدٌ بمثل هذا الاقتراح . أنت لا تفترض أنهم سيحيدون عن سبيلهم ويُعيدون السلع ، بينما البنات المسؤولات عن الحسابات يقدمن تفاصيل مثيرة عن أرباح المخزن ، والبائعات يشهدن برداءة البضاعة ؟ حتى لو أراد أحدٌ ذلك ، فإن الجو العامَ لن يسمح له بالمضيَ وحده » .

« الأمر مثل قيادة حفنة من الصغار » ، قلت هذا وأنا ألوك السالمون

الذي كان جافاً مليئاً بالعظام والزبالة الأخرى . «لكن ردّ الفعل سيجيء حالاً» .

قالت : «على أي حال ، العداءُ يتصاعد ضد السوبر ماركت . وبضع نساء ممّن فُتِّشنَ سابقاً ، للشكّ في سرقتهن من المخزن ، كنّ يروين حكاياتهن» .

قلت : «أي جمهور بليد!» ، وبدا السالمون المسروق غصّةً في حلقي .

قالت زوجتي : «أتعرف ، يا ميتسو ، عليك أن تهبط بنفسك الى الوادي ، كي ترى ما يجري!» وتركتني هابطةً السلّم . بصقتُ السالمون نصف الممضوغ وحبات من الرزّ في راحتي .

موسيقى النمبوتسو تنقُّ عليّ دون انقطاع ، معذِّبةً أعصابي ، مستنزفةً طاقتي الذهنية . وسواءً شئتُ هذا أم أبيتُ ، فأذناي ظلتا تخبرانني بالأحداث غير الطبيعية التي وقعت في الوادي . وفي موضعٍ عميقٍ بين هذه الأحداث كانت «الانتفاضة» واقعاً . الاشمئزاز الذي أثارته الموسيقى فيّ ، كان مصطبغاً ، ولا سبيل الى إصلاحه ، بسُمّ الفضول ، مثل كبدٍ ما أن خُرِّبَتْ مرةً ، فلا سبيل الى معافاتها . لكني منعتُ نفسي من مغادرة المستودع حتى أجد سبباً روتينياً لفعل ذلك ، سبباً غير متصل مباشرةً بالقلاقل التي يثيرها تاكاشي وأتباعه . حتى آنذاك ، لن أضع قدماً في الوادي ، ولن أرسل كشّافتي إلى هناك . هذه الموسيقى التي لا تثير رتابتها أكثر من البؤس العاطفي ، قد تكون مجرد طريقة من تاكاشي للادعاء أمامي بأن أنشطته لاتزال مستمرة . أي فعلٍ من جانبي سيكون استسلاماً أثيماً لتكتيكاته السيكولوجية المبتذلة . سوف أصمد . بعد فترة ، انضمَّ صوتُ بوق سيارة من الوادي الى الضجة . ربما كان تاكاشي يتجول بالسيارة ، مع سلاسل العجلات ، مؤدياً استعراضه الساذج لصالح

الأطفال . أو ربما كان يستعرض أهل الوادي من داخل السيارة ، لو أنهم تحوّلوا الى غوغاء شعبٍ...

لاحظتُ أن المدفأة متضائلة الكفاءة . الزيت في الخزّان كان ينفد ، وكنت استنفدتُ الاحتياطيّ . البديل الوحيد أن أرسل أحداً الى السوبر ماركت ليشتري زيتاً ، أو أن أهبط الى الوادي وأفعل بنفسي ذلك . أخيراً تحررت من قيود المكث . فمنذ الصباح ، ولأكثر من أربع ساعات حتى الآن ، أتعرَّض للعذاب والسخرية من جانب موسيقى النمبوتسو .

في البيت الرئيس وجدت زوجتي تعتني بموموكو التي لاتزال طريحة الفراش بعد نوبة الهستيريا التي أصابتها . لم أستطع طلب مساعدتهما . الطريد الفتى نُقل الى المستوصف المحلي مصاباً بضربة الصقيع ، وأعضاء الفريق الآخرون جميعاً انضموا الى تاكاشي وهوشيو في تدبير المكائد المتعلقة بالوادي . الوحيدون الذين يمكن أن يساعدوني هم أولاد جن . وقفتُ قبالة الباب المغلق للمبنى الخارجي وناديتُ ، بدون أن تكون لديّ أدنى فكرة عن أولاد جن قاوموا إغراء الموسيقى وأنهم لايزالون في عتمة بيتهم الباردة مع أمهم البدينة الكئيبة ، لكن لأؤكد أن كل الشروط التي تجبرني على النزول الى الوادي ، قد تحققتْ . لم يجبني أولاد جن . كنت أوشك أن أنسحب ، راضياً ، من الباب المغلق حين حيّتني جن نفسها بصوتٍ قويّ ، مبتهج تقريباً ، مما سبّبَ دهشتي . فتحتُ الباب وشرعتُ أنظر متنقل النظرات في الظلام غير الأليف مثل طيرٍ مذعور ، نصفَ آملٍ في أن ألقى زوج جن ، لا جن نفسها .

قلت معتذراً : «مرحباً ، جن . فكّرتُ أن أطلب من أولادك النزول الى الوادي ، إن كانوا هنا . لقد نفد زيت مدفأتي» .

«إنهم في الوادي منذ هذا الصباح ، يا ميتسو سابورو» . قالت ذلك

بحفاوةٍ غير مألوفة بينما جسمها الضخم يلوح ببطء ، مثل سفينة حربية ضخمة تلوح من خلل الضباب على البحر . وجّهت عيناها ، قوّتهما ، مباشرةً نحوي ، مثل مغناطيسين ساخنين مُشعَّين ، يبرزان من وجهها المستدير المنتفخ . ومثل ما أوحى صوتُها ، من قبلُ ، كانت مرتاحة في جلستها على عرشها عديم القوائم . «والشباب الذين هم تحت إمرة تاكاشي جاؤوا ليأخذوا زوجي فانحدرَ الى الوادي معهم» . شكوتُ مُظهراً تعاطفي الحذر مع زوج جن : «جماعة تاكاشي جاؤوا يأخذونه ؟ لكنه شخص مهذَّبٌ ـ لمَ يورِّطونه ؟» .

حذري كان مبرراً ، إذ أن جن لم تُرِدْ مني الخوض معها في أمر زوجها .

«الشباب داروا ، يخرجون الناس من منازلهم في القرية ، وكانوا حريصين على توريط من لم يأخذوا شيئاً حتى الآن من السوبر ماركت ، وهكذا خرجت القرية كلها ، في النهاية» .

وعندما بذلت جهداً كي تبتسم ، التمعَ شقّا عينيها الضيقان بين اللحم المطْبِق ، وانداحت دوائر على البشرة التي تغلِّفُ بإحكامٍ ، طبقةَ الشحم الثخينة . مضى انقطاعُ النفَس المؤلم الذي كان يوجعها هذه الأيام . إنها بطلة الإشاعة هنا ، من جديدٍ ، وعُمدتُها فضولٌ لا يشبع . «الأولاد هبطوا الى الوادي منذ وقت طويل ، لكن زوجي كان لايزال هنا ، وهكذا جاء إثنان من الأتباع الى الباب وأخبراه أن يهبط الى السوبر ماركت . حين عاد الأولاد للإستراحة ، قالوا إن أي عائلة لم تأخذ من السوبر ماركت شيئاً ، مهما كانت موسرةً أو رفيعة الشأن ، لابد أن يذهب إليها إثنان من الشباب ، ويستدعياها الى السوبر ماركت . واضحٌ أن زوجة ابن شيخ القرية ، وزوجة مدير البريد ، كلتيهما ، ذهبتا لتأخذا أشياء . ويبدو أن ابنة مدير المدرسة غاضبة جداً لأنها جاءت الى البيت بصندوقٍ ضخم من مسحوق الغسيل هي في

غير حاجة إليه إطلاقاً!» . فجأةً زمَّتْ شفتيها كأن فمها ملآنُ ماءً ، ونخرتْ بصوتٍ عالٍ ، ثم احمرَّت بَشرةُ وجهها البدرِ في بُقعٍ ، فأدركتُ أن جن تضحك . «إذاً ، هو العدلُ ، يا ميتسو سابورو ، كل الناس يتلطّخون بالعار ، على حدٍ سواء . أليس هذا لطيفاً ؟» .

«ألا يتعاطف أحدٌ مع الإمبراطور ، يا جن ؟» ، قلتُ ، متجنباً ما أحسست إحساساً غامضاً بأنه فخٌ خطرٌ نصبتْه لي هذه المرأةُ الوسطُ المريضة بدانةً ، بحديثها عن «التلطُّخ بالعار» ، ومقدِّماً سؤالاً بعيداً عن ثرثرتها المقاتلة .

«يتعاطف مع ذلك الكوريّ ؟» ردّت مستاءةً . حتى أمس ، مثل معظم أهل الوادي ، لم تُشر أي إشارة الى أن مالك السوبر ماركت القوي الذي أحدث في الوادي هذا الانقلاب في طريقة الحياة ، كان كورياً . لكنها الآن تشدِّد على كلمة «كوريّ» مُذيعةً ، بدون ترددٍ ، جنسيتَه ، لتؤكد كيف أن نهب السوبر ماركت قلبَ ميزانَ القوى دُفعةً واحدةً .

ومضت تقول : «لم يلقَ أهلُ الوادي إلا المتاعبَ منذ جاء الكوريون الى هنا . بعد انتهاء الحرب ، تسلّطوا على العالم ، بنهبهم أرض الوادي وأمواله . نحن نحاول أن نستردّ فقط بعض ما نهبوا ، إذاً ، ما دخلُ التعاطف في هذا ؟» .

«لكنهم يا جن ، لم يأتوا طوعاً في المقام الأول . كانوا عمال سُخرةٍ جُلبوا من بلادهم ، ضد إرادتهم . ومثل ما أعرفُ في الأقل ، لم يخرجوا عن سبيلهم ليسببوا متاعب للناس هنا . حتى بعد الحرب ، إثر الاستيلاء على الأراضي التي قامت فيها المستوطنة ، لم يتعرض فردٌ في الوادي لخسارة مباشرة . أكيد ؟ إذاً ، لماذا تتذكرين أموراً كلها خطأٌ ؟» .

قالت متشككةً ، مستعيدةً بسرعةٍ حذرَها إزائي : «س قتله الكوريون!» .

« كان هذا ثأراً لكوريٍّ قتله أصدقاء س قبل ذلك بوقت قصير . أنت تعرفين هذا جيداً ، يا جن » .

« كلنا يشعر بأن الأمور ساءت تماماً ، منذ جاء الكوريون . يجب أن يقتلوهم جميعاً! » . أعلنت ذلك بتشديد غير اعتيادي ، مرهقةً حالها في لامعقوليتها . عيناها اسودّتا بُغضاً .

«لكن الكوريين ، يا جن ، لم يُلحقوا ، قطُّ ، بإرادتهم ، أي أذىً بالناس الذين يعيشون هنا . أما المتاعب التي تلت الحرب فكانت لخطإٍ من الطرفين . لماذا تقولين أموراً كهذه ، بينما أنت تعرفين الحقائق كما أعرفها ؟ » . لكنها طأطأت رأسها الضخم الحزين إزاء اتهاماتي ، فجأةً . ردُّها المنظور الوحيد جاء من خلف رقبتها ، التي بدت لي ، من موضعي ، مثل رقبة عجل البحر ، وماجت في تنفسٍ ثقيل استولى عليها ثانيةً . تأوهتُ في موجةٍ من الانزعاج المحبط والامتعاض .

قلت : « أهلُ الوادي ، يا جن ، سوف يدفعون الثمن غالياً لمثل هذه القلاقل الحمقاء . وأنا لا أعتقد أن نهب مخزن واحدٍ من سلسلة مخازن الامبراطور سيُلحق به الضرر ، لكن معظم أهل الوادي سيشعرون بالخزي والأسف والمهانة لما سرقوه . ماذا يحسبون أنفسهم فاعلين ـ حتى الكبار الذين يفهمون أكثر ـ حين يتركون قيادهم في مثل هذه الأعمال ، لشخص مثل تاكاشي ، عاد لتوه من الخارج ؟ » .

« أنا سعيدة لأن أهل الوادي لطّخوا أنفسهم بالعار ، على حدٍ سواء! » . أعادت جن القول ، كأن الأمر لا يعنيها ، ورفضت بإصرار أن ترفع رأسها ، وتنظر في عينيّ .

لقد أقنعني هذا بأن لكلمة «التلطيخ بالعار» معنىً خاصاً جداً في قاموس ألفاظها .

الآن ، وقد صار بمقدور عينيّ أن تتغلغلا في زوايا العتمة ، استطعت أن أرى أنواعاً عدة من المعلبات الرخيصة مكوّمة في دائرة حول كرسي جن ، وبمتناول يدها . المعلبات تقف هناك بالانتظار ، جنودَ قوّةٍ نجدةٍ موثوقاً بهم ، مستعدين لخوض معركةٍ ضد الجوع الذي لا شفاء منه . إنهم «عار» جن الخاص ، جيشٌ كامل من «أهل العار» منتظم في صفوف ، مكشوفٌ أمام عيون الجميع ، لا تخفى طبيعته الصارخة حتى على المراقب العابر .

كنت أنظر ، باحثاً عن كلمات ، حينما تناولتْ جن ، في عرضٍ صادقٍ متَحدٍّ ، علبةً نصف مفتوحة من بين ركبتيها الهانلتين ، كان غطاؤها نصف المفتوح مثل أذنٍ ، وشرعت تلتهم محتوياتها غير المعروفة . تذكرتُ أن للبروتين الحيواني تأثيراً ضاراً في كبد جن ، لكني لم أستطع ذكر ذلك ، واكتفيتُ بالقول : «هل أمتحُ لكِ ماءً ، يا جن ، بينما أنا هنا ؟» .

«لا أتصور أنني سآكل كثيراً حتى أظمأ!» . هكذا كان ردّها . لكن كلماتها التالية حملت شحنةً عاطفيةً لم أعهدها لديها ، من قبلُ ، منذ كنا ، أنا وهي ، ندبِّر أمور آل نيدوكورو . قالت : «تعرف ، يا ميتسو ، أنني حصلتُ ، بفضل شغب تاكاشي ، لأول مرةٍ على طعامٍ أكثر مما أستطيع أكله . إنه طعامٌ معلّبٌ فقط ، لكنه أكثر من طاقتي ، حقاً! لو استطعت أن ألتهمه كله لما احتجتُ إلى أن آكل المزيد . سأعود نحيفةً مثل ما كنت ، وبعد ذلك أضعفُ وأموت» .

قلت أهدئها ، في أول إحساسٍ بالمصالحة منذ عودتي الى الوادي : «لا تكوني غبيةً ، يا جن!» .

«أنا لستُ غبيةً! المخلوقات التعيسة مثلي لها مشاعرها إزاء هذه الأشياء . حتى في مستشفى الصليب الأحمر قالوا لي إن عقلي ، لا جسمي ، سبب نهمي . لو أني استطعت أن أستمر هكذا لما احتجت الى أن آكل

أكثر ، وسأشرع أفقد من وزني في اليوم نفسه . سأعود الى ما كنت عليه ، وآنذاك لن يتبقّى لي سوى أن أموت!» . فجأةً استولى عليّ حزنٌ طفوليّ مباغت . بعد موت أمي ، كانت جن هي التي رعتني في فتوّتي بالوادي . هززتُ رأسي صامتاً ، وخطوتُ خارجاً ، الى الثلج ، وأغلقتُ الباب ، أغلقتُ على «أسمن امرأة في اليابان» ، داخل الظلام المريح ، وحيدةً مع سعادتها ، و«عارها» ، وسط كدْس الطعام الكبير الذي قد يلحق ضرراً مميتاً بكبدها...

الثلج الموطوء جيداً على طريق الحصباء ، صار ناعماً ، ذا لون مسودّ ، وزلِقاً . انحدرتُ عليه حذِراً . ليس لديّ نية التدخل في نهب السوبر ماركت ، فأنا قد قررت ألا أتورط ، لأي سبب ، في أعمال تاكاشي . إن كان السوبر ماركت غرق في الفوضي الكاملة فلسوف يكون مستحيلاً شراء الزيت حسب الطرق المعتادة . لهذا كانت خطتي بسيطةً جداً : أن أسلِّم تاكاشي أو أحد أتباعه المبلغ اللازم لأي صفيحة زيت لم تُنهَبْ ، وأغادر رأساً . أنا ، في الأقل ، لن أساهم في «عار» المجموع . كما أن المحرضين على هذا الشغب الصغير ، حذفوا اسمي من قائمة من يحملونهم الى السوبر ماركت ، وهذا يعني أنني غريبٌ ، منذ بداية الأمر ، ولهذا لا يطلب مني أن أشارك في «عار»هِمْ .

حين بلغتُ الفسحةَ قبالة مكتب القرية ، برز ابنُ جن الأكبر من لامكان وشرع يمشي أمامي مثل كلبٍ يتنزه مع سيده . وعندما أدركَ من تعابير وجهي أن الوقت ليس للحديث اكتفى تعبيراً عن هياجه الداخلي ، بنوع من السير المتقافز . البيوت القائمة على جانبي الطريق ، والتي ظلت مغلقةً طويلاً ، مفتوحةُ اليوم ، وأهلوها واقفون في الثلج أمام بيوتهم يتحدثون بحرارة ، ويحيّي أحدُهم الآخرَ بأصواتٍ عالية . الوادي كله كان في حالةٍ من

الانفعال البهيج . حتى الناس القادمون من «الريف» كانوا يقفون على الطريق ، جماعاتٍ متفرقةً ، يتحدثون ، أو ينتقلون من موضعٍ الى آخر . أيديهم ملأى بغنائم السوبر ماركت ، لكنهم يتلكأون ، ولا يُبدون أي حركةٍ للعودة الى منازلهم . وعندما طلبت امرأةٌ من «الريف» استخدام مرحاضٍ لطفلها ، استجابت لها الزوجات من الوادي بكل ترحاب . حتى في أيام الاحتفالات ، لم أجد الوادي و«الريف» يمتزج هكذا ، في مثل هذه الحرية ، وهذا التسامح ، فمنذ طفولتي فقدت احتفالات الوادي قوّتها التقليدية لكسر هذه الحواجز . الأطفال كانوا يوطِّئون ثلج طريق الحصباء كي يجعلوه متزلَّجاتٍ ، أو يقلدون موسيقى النيمبوتسو التي ظلت تصدح طيلة الوقت . ابن جن كان يلهو في الانضمام الى لعبةٍ ثم الى أخرى ، لكنه سرعان ما يلتحق بي . عددٌ من الكبار حيّوني بابتساماتٍ دمثةٍ بينما هم في وقفتهم يتحدثون .

للمرة الأولى منذ عودتي ، تخفُّ الحواجزُ إزائي بهذه الطريقة . لم أستطع الاستجابة فوراً لمساعيهم غير المتوقعة ، فاجتزتُهم مسرعاً ، أومي برأسي على نحوٍ غامض ، لكنهم كانوا جدَّ ثملين بروحهم الاجتماعية المستعادة ، بحيث لا يمكن إغفالهم . دهشتي الداخلية ، مدَّتْ جذورها ، وفرَّعتْ أغصانها ، وتدفّقت خضرةً رائعة . رجلٌ فارع الطول ، كان درَّسَ التاريخ الياباني ، معلِّماً بديلاً ، أثناء قلة العاملين في المدارس خلال الحرب ، يحمل سجلاً مفتوحاً على رأسه ، ويشرح محتوياته للناس المتجمعين حوله . أعضاء الفريق الشباب واقفون حوله ، إذ جيء به ، باعتباره مستشاراً خاصاً للجماعة التي ترعى «الانتفاضة» الجديدة ، ولهذا السبب كان يستنكر مخالفات إدارة السوبر ماركت . وعندما لمحني ، علت وجهه ابتسامةٌ مبهمة ، هي مزيجٌ من الغضب والكبرياء . ناداني ، قاطعاً

محاضرته : «مرحباً ، ميتسو سابورو! كنت أفضح الطريقة التي زوّروا بها حسابات المخزن . لو علمت إدارة الضرائب بالأمر ، لقال الإمبراطور لعرشه وداعاً!» . وبدلاً من استياء الحضور لهذا الانقطاع غير المتوقع ، التفتَ الجمهور إليّ ، وأبدى إشارات احتجاج جليّة ضد السوبر ماركت المتملص من الضرائب . كان ثمت عددٌ غير اعتيادي من الناس الكبار بين الجمهور ، ولقد دُهشتُ لأن الأمر ذاته كان وارداً مع تجمّعات الناس التي رأيتها وأنا أنحدرُ على طريق الحصباء . حتى قبل يومٍ واحدٍ فقط ، كانت حياتهم في الظلام وراء نوافذ كابيةٍ ، لكنهم حققوا ، اليوم ، تحررهم الذاتيّ ، مع الآخرين ، واستعادوا مواقعهم ، أعضاء كاملين في مجتمع الوادي .

فجأةً ، أطلق ابن جن صرخة حادّة ، كي يجلب انتباهي .

«ها هو ذا!» صاح بصوتٍ عالٍ مهتاجٍ للإكتشاف . «إنه مدير السوبر ماركت!» .

رأيتُ رجلاً أميلَ الى الامتلاء ، يسير شبه مترنح . كان يرتدي سترة جلد . أما رأسه على رقبته الثخينة التي تشبه رقبة ثور ، فقد كان أصلع تماماً ، مع أن عمر الرجل لم يتجاوز الأربعين ، بعد . كان يغرف الهواء بذراعيه مثل عجل بحرٍ على الأرض ، وكان يمشي عنيداً وسط عاصفة من شتائم الأطفال . واضحٌ أنه لم يعد رهين مسكنه ، لكن الجسر تحت المراقبة الشديدة بالتأكيد من جانب فريق كرة القدم ، والواقع أنه مُنح فقط حقّ التجوال في الوادي ، وهذا يعني أنه لايزال حبيساً . ولهذا كانت رؤيته ، وهو يسير منهمكاً ، مثل صبيٍّ مُراسلٍ ، مضحكةً ومحيّرة في آن . هل يتصور أن لديه خطة لإعادة الأمور الى نصابها ، وهو وحيدٌ في الوادي ، بلا حليف واحدٍ ؟ على حين غرّة اكتشف أحد الأطفال أن من الممتع قذفه بكرات الثلج ، فحذا حذوه الآخرون فوراً . ضربت كرة ثلج كاحله فأوقعته بيُسرٍ

تامّ . استوى ، بجهدٍ ، على قدميه ، وبدون أن ينفض الثلج عن رأسه صاح بتهديداتٍ فارغة للأطفال نصف المجانين . لكن هذه التهديدات أفلحت في مزيدٍ من كرات الثلج عليه . أحسستُ في فمي المتيبس ، ثانيةً ، بالخوف الطازج التلقائي لذلك اليوم ، حين فقأ هجومُ أحدِ الأطفال ، عيني ، وشعرت أنني وجدت الحل المستعصي طويلاً للّغزِ المتعلق بسبب قذفهم الحجارة عليّ .

بائساً وغاضباً ، مضى الرجل وهو يصيح بضعفٍ لكنْ بعزمٍ ، يدفع عنه بكلتا ذراعيه ، المقذوفات من كرات الثلج .

« بمَ يصيح ؟ » سألتُ ابن جن ، الذي شارك في الهجوم لكنه الآن عاد الى جانبي ، ولايزال ينضح بالانفعال .

« يقول إنه حالما يذوب الثلج فإن الإمبراطور سوف يأتي مع عصابةٍ ويهاجم القرية . إنه ينسى أن لدينا أسلحة نحارب بها! » أضاف متباهياً . نظر في علبة الطبيخ الفارغة التي كان يأكل منها ، ورماها جانباً ، وسحب علبة أخرى من العلب التي تملأ جيوب معطفه القصير ، وحشا فمه بلقمة جديدة .

« لا أظنهم يعتقدون بأنهم سيغلبون العصابة . أم تراهم يعتقدون ؟ العنف اختصاص رجال العصابات » .

أعلن وهو يمضغ ما يحشو فمه : « تاكاشي يعلّمهم الآن القتال . لقد قاتلَ اليمينيين ، ولهذا فهو يعرف! هل قاتلتَ يا ميتسو سابورو ؟ » .

« أنا مندهشٌ من تركهم المدير يتجول هكذا ؟ » .

« أنا مندهش... » بدأ الولد غير مبالٍ ، ثم قدّم أفضل الأجوبة وأدقّها عن سؤالي الغامض « إنه يطْلق من الهراء ما جعل أهل الوادي لا ينتبهون إليه ، ولا يهتمون به أو بالامبراطور . وهو كوريٌّ أيضاً ، كما تعرف! » .

امتعضتُ من هذا العداء غير المعقول إزاء الكوريين لدى ولدٍ أبصرَ الحياةَ وقت الحرب ، إلا أني شبه متأكدً ، في حال محاولتي الدفاع عن المدير ، من أن الولد سيجمع عصابته من الأشقياء الصغار ، ويجعلني أهرب بالطريقة المترنحة الضائعة إياها .

قلت ببساطة : «لا داعي لمجيئك معي . اذهبْ والعب مع أصدقائك» .

«لكن تاكا أمرني بالمجيء ، وبأخذك إليه!» ، قال هذا ، والحيرةُ الحقيقية مرتسمة على وجهه الصغير . لكن رفضتُ بشدةٍ ، قيادته ، وفي الأخير تركته واقفاً هناك ، وقد انتفخ خدّاه بلقمةٍ أخرى كي يداري إحباطه . فللمرة الأولى ، منذ ازدادت شهية جن ، وجد ابنُها الهزيل أيضاً طعاماً أكثر مما تطلبه معدته المنكمشة . إن إحساساً غريباً بالواجب تجاه معدته ، مع قلق لا يفهم هو طبيعته ، كانا يجعلانه يأكل ويأكل . قد يتقيأ هذا كله في النهاية .

الثلج حول السوبر ماركت استحال وَحْلاً سائلاً بسبب حركة الناس ، وطريق الحصباء صار في حالة رديئة تماماً ؛ إنها نُذُر الأيام المختنقة الآتية ، حين يذوب الثلج فعلاً ، ويغدو الوادي كله وحلاً . أمام المخزن وقف عدد كبير من المجموعات المستقلة . بعضهم أخرج أجهزة التلفزيون وصار يتفرج عليها هناك ، وآخرون كانوا يراقبون بينما تُخرَجُ أجهزةٌ كهربائية من أغلفتها ، وتتعرض للتعديل .

على شاشات التلفزيون ، كان يُعرض برنامجان . أطفالٌ صغار أقعَوا أمام الأجهزة منتبهين الى الشاشات . وبجلوسهم في مواضع تقع فيها العين على جهازين ، صار بإمكان بعضهم التفرج على برنامجين في وقت واحد . لكن الكبار الجالسين في الخلف ، لم يكونوا في واقع الأمر يركّزون على أجهزة التلفزيون ، فهم قلقون لأمورٍ ما . مع حالة الطوارئ الغريبة في الوادي ، صار

للعلاقة مع أناسٍ يحيون حياتهم اليومية في بلداتٍ بعيدةٍ ، تأثيرٌ خاصٌ في نفوس أهل الوادي . إن الصورة المشوشة ، القريبة ، لفتاة تغني على الشاشة ، مُثْلعةً حنكها ، مبتسمةً ابتسامةً مصطنعة ، تؤكد فقط شذوذ ما حدث في الوادي وما يحدث .

الكهربائيات التي أُخرجتْ من أغلفتها ، موضوعةٌ على الأرض الرطبة ، وهناك رجلان متوسطا العمر يشتغلان عليها بالمطارق والكلاّبات . كانا حدادَ القرية وتنكجيَّها ـ واضحُ أنهما مستشاران خاصّان جنّدهما الشباب . جماعات التفرُّج أكثرها من النساء . واضحُ أيضاً أنها المرة الأولى التي يتولى الرجلان فيها مهمة كهذه ، ومع أنهما الأكثر خبرةً بين أهل الوادي في هذا المجال ، إلا أن العمل يسير ببطء شديد ، وترددٍ . طبيعة العمل تخريبية بسيطة ، وهي إزالة لوحة اسم الصانع ، والرقم ، من الأجهزة .

وحدث مرةً أن الكُلاّب الذي كان أحد الرجلين يستعمله في إزالة لوحة الصانع عن وجه مدفأة كهربائية ، غارَ عميقاً في الطلاء القرمزي قربه ، فصدرتْ موجةُ تأوهات من النسوة المقرفصات حول الرجل ، جعلتْه ينكمش ارتباكاً . إن العمل الدنيء الذي يمارسه بعيدُ كل البعد عن المهارات التي يعتزُّ بها كيانه . هذا العمل التخريبي التافه ، يهدف في الحقيقة ، الى طمس الدليل على أن الأجهزة قد نُهبتْ من السوبر ماركت ، استعداداً ليومٍ يذوب فيه الثلج ، وتأتي قوات الإمبراطور ، سالكةً الطريق المعبّد ، في عودتها من البلدة الى الغور .

تاركاً الجمهور ، ومستديراً ناحية مدخل السوبر ماركت ، وجدتُ شبّان فريق كرة القدم ، يراقبون تحركاتي . كانوا متفرقين بين الجماعات المتفرجة على التلفزيون أو على العاملَين ، يتحركون مثل بقعٍ سودٍعلى المزاج المحتفل للناس ، وجوههم متجهمة ، وعيونهم لامعة . انسللتُ من

نظراتهم المزعجة ، ودفعتُ الباب لكنه لم ينفتح . نظرت من خلال الزجاج الى الفوضى الشاملة في الداخل ، ودفعتُ المقبض وسحبتُه بامتعاض متزايد .

«النهبُ انتهى اليوم! ستكون دورة نهبٍ أخرى ، غداً!» .

التفتُّ على صوت ابن جن ، فوجدته وخداه مازالا منتفخين بالطعام ، واقفاً يضحك مع أصحابه في نصف دائرةٍ خلفي . توقّعَ أن ألكمه على أذنه ، فخطا خطوةً الى وراء ، وأصحابه معه .

«لم آتِ هنا لأنهب . أتيت لأشتري زيتاً» .

«النهب انتهى اليوم! ستكون دورة نهب أخرى ، غداً!» ، ردّدَ أصحاب الولد ، بالبهجة ذاتها ، وضحكوا مستهزئين . لقد تكيّفَ الأطفال لأسلوب الحياة الجديد الذي خلقتْه «الانتفاضة» ، وهم الآن مشاغبون بالولادة .

آملاً في المساعدة ، ناديت من فوق رؤوس الأطفال ، أعضاءَ الفريق ، الذين لايزالون يراقبونني .

«أريد أن أتحدث مع تاكا . ألا تأخذونني إليه ؟» .

لكن الشبّان هزّوا رؤوسهم اليابسة ، كالمصروعين ، ولم يقولوا شيئاً ، وقد ازدادت ملامحهم فظاظةً وصلافةً . تملّكني انزعاجٌ هستيري .

«تاكا أخبرني أن آخذك إليه!» قال لي ابن جن مطَمْئناً ، وقد عادت إليه ثقته ، وبدون أن ينتظر ردَّ فعلي سبقني على الممر المؤدي الى خلف المخزن . تبعتُه وأنا أحرثُ بصعوبةٍ الثلجَ العميق الذي يغمر الممر . رقائق ثلج تنتظرني ، ضاربةً جانب عيني المعطوبة قبل أن تتكسر وتسقط .

خلف مستودع الساكي الذي حُوِّل الى سوبر ماركت ، ساحةٌ مربّعةٌ كانت توضع فيها مراجل التخمير الضخمة حتى تجفّ . مكتب السوبر ماركت المشيَّد على عجلٍ هناك صار الآن مقر قيادة المنتفضين . شابٌ يقف حارساً عند الباب . ولأن ابن جن صحبني طولَ هذه المسافة ، قرفَصَ على الثلج

النظيف في إحدى زوايا الساحة ينتظرني . فتحتُ البابَ ، بسكون ، تحت عيني الحارس اليقظتين ، ودخلتُ الغرفة الملأى بهواء ساخنٍ وبرائحة حيوانية من الأجساد الفتيّة .

حيّاني تاكاشي بحرارة : «مرحباً ، ميتسو! لم أكن أظنك تجيء حقاً . أيامَ مظاهرات معاهدة الأمن ، لم تأتِ حتى متفرجاً ، أليس كذلك ؟» . كان يلبس الأبيض حتى عنقه ، وهو يحلق شعر رأسه .

قلت متقصداً إيلامه : «ألستَ تبالغُ حين تقارن هذا باضطرابات معاهدة الأمن ؟» .

تاكاشي كان حاطّاً على كرسي خشب صغير ، جنب مدفأة بَطينةٍ . حلاّقُ القرية الذي في عمر الولد ، كان يطقطق مقصَّه بإخلاص المندفع الى تقديم خدماته لبطل «الانتفاضة» . جنب تاكاشي تقف امرأة شابة ذات رقبة طويلة أسطوانية ، يدل مظهرها فوراً على لاتوازنٍ عاطفي . كان جسدها الممتلئ منضغطاً على جسده ، وهي تجمع في صحيفة مفتوحةٍ شعره المتساقط . على مسافة قريبة ، في خلفية الغرفة ، كان هوشيو وثلاثة من أفراد الفريق يطبعون شيئاً على آلة استنساخ أسطوانية ، ربما تبريرهم الإيديولوجي والفعلي للهجوم على السوبر ماركت .

تناسى تاكاشي نقدي الحادّ ، لكن أتباعه توقفوا عن العمل ، منتظرين جوابه . تصوّرتُ أنه ثقّفَ منتفضيه الشبّان قليلي الخبرة بتجاربه في أحداث حزيران ١٨٦٠ ، عاقداً مقارنةً ظالمةً بين تلك الأحداث وبين شغبه التافه هذا .

«قمتَ بدور ناشطٍ طلاّبي تائبٍ ، في (العار كان عارنا)» . أردت أن أقول لأخي ، الذي أعطته حرارة المدفأة ومقصّ الحلاق منظر فلاّحٍ شابٍ بسيطٍ «هل أخذت الدور المعاكس ، هذه المرة ؟» ، لكنني استطعت أن أمسك بلساني .

استفسر تاكاشي من أصحابه : «ماذا عن الكيروسين ؟» .

«سأذهب الى المستودع ، وأرى ، يا تاكا» ، أجاب هوشيو رأساً ، مسلِّماً أسطوانة آلة الاستنساخ الى الشاب قربه . حتى هنا ، تذكَّرَ أن يسلِّمني وتاكاشي نسخة لكل واحدٍ منا ، من منشورٍ جديد ، وهو يغادر الغرفة .

باعتباره مساعد القائد ، كان واضحاً أنه عضو عالي الكفاءة في «الانتفاضة» . تطلعّتُ الى المنشور :

لماذا يجب على الإمبراطور أن يتعذَّب ، صامتاً ؟
لأنه ، إذا لم يحدث ذلك :
سيلحق الكساد بسلسلة المخازن!
سيكون الأمر محرجِاً مع مكتب الضرائب!
لن يكون بمقدوره العمل في الوادي ثانيةً!
هل سيرتكب مذنبٌ مثل الإمبراطور أيَّ فعلٍ انتحاريّ ؟

قال تاكاشي ، بسرعة ، وهو يحاول بوضوح ، استباقَ أي نقد قد أوجِّهه إلى صياغة المنشور : «أهم شيء ، يا ميتسو ، هو جعل كل واحدٍ ، حتى أدنى مستوى ، يفكر على هذا النحو . لاتزال لدينا أوراقٌ أنعمُ وأقوى . هذه الدُميةُ المتدفقة بالجنس ، مثلاً ، كانت موظفة ارتباط الإمبراطور ، لكنها الآن تتعاون معنا . إنها شجاعة ، لا تهاب أحداً ، في هجماتها على الإمبراطور ـ خاصة أنها تأمُل في أن تُطرَدَ على أي حال ، وهكذا تستطيع الانتقال الى البلدة» .

تهلل وجهُها الشبيه بالقلب فرحاً ، وتورَّدَ ، لهذا الإطراء الفطِن ، واعتصرتْ نفسها كأنها توشك أن تنطلق في أغنية . واضحٌ أنها من نوع

الفتيات اللواتي توجد واحدةٌ منهن في كل قرية زراعية ، وأنها من سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة محطُ الأماني الشهوانية لكل الشبان الذين يعيشون في الجوار .

« يقولون إنك منعتَ الكاهن من المجيء والتحدث إليّ أمس » ، قلتُ محوِّلاً نظري عن الفتاة التي توجِّهُ الآن إغراءها ليس الى تاكاشي فقط ، وإنما الى الجميع بلا تعيين ، « هل فعلتَ ذلك ؟ » .

« لستُ أنا ، يا ميتسو ، لكن طيلة أمس ، في الأقل ، كان الفريق ، يراقب طبيعياً ، مراقبةً دقيقة مثقفي الوادي وأعيانه . إنهم على أي حال ، قوةٌ يُحسب حسابُها . لنفترض ، مثلاً ، أن القرويين يوشكون أن يقتحموا السوبر ماركت ثانيةً بقيادة عاملٍ سكران ، وأن هؤلاء الأعيان أخبروا من الصفوف الخلفية بالتوقف . في تلك الحالة لن يمضي النهب أبعد من المرة الأولى ، مجرد حادثٍ عارضٍ . أما اليوم ، فإن أغلبية أهل الوادي ورّطوا أنفسهم في الخطأ . ولو حرص الأعيان على البقاء صالحين متعالين ، فلن ينالوا إلا الكره .

لقد غيَّرنا من تاكتيكاتنا . لم يعد أحد يراقبهم . بل على الضد من ذلك ، ينضمُّ أتباعنا إليهم حيثما اجتمعوا ، فيدلون بآرائهم ، ويستمعون الى نصائحهم . هل تذكر ، يا ميتسو ، البطل الإسبارطي الذي تزعَّم جمعية مزرعة الدجاج ؟ إنه يحاول أن يجد طريقة تستولي بموجبها القريةُ على السوبر ماركت . فكرته طردُ الإمبراطور ، وجعلُ السوبر ماركت تحت الإدارة المشتركة لأهالي الوادي . ألا تظنّها خطةً مغرية ؟ إن لديه منظوره الخاص إزاء هذه القضايا ، مما جعلني أتفرَّغُ للتركيز على الأنشطة العنيفة » .

ضحك الشبّان الضحكة اللازمة لشركاء معترفٍ بهم رسمياً . يبدو أنهم يجدون طريقة تاكاشي في الكلام ، جذّابةً .

«لكن منذ دورة النهب الثانية ، وجبَ علينا الإشراف على توزيع مخزون السوبر ماركت ، ولذا فإن عملي صعبٌ جداً أيضاً . عليّ ، مثلاً ، أن أتأكد من أن غنائم مجموعة بيوت من «الريف» لا تزيد كثيراً على غنائم مجموعة أخرى . ثمت أسلوبُ في نهبنا ، كما ترى!» ثم ضحكَ . «الفريق يحرس السوبر ماركت حراسة مشدّدة ، وكذلك المستودعات ، حتى يُستأنف التوزيع غداً . الشبّان سيبيتون الليلة هنا . هل أعجبتْكَ الحالة ، يا ميتسو ؟ ما رأيك بـ(النهب تحت الإشراف) ؟» .

قلت : جن تسمي هذا (شغب تاكا) . إن أردتَ استمرار أهالي الوادي في الاهتمام بالأمر أطول مدة ممكنة ، فلا تدعْهم يستهلكون مصدر طاقة الشغب سريعاً ؛ هل تستطيع ؟ لهذا أظن من الضروري وجود نوعٍ من الإشراف» . لم أحاول إخفاء ردود أفعالي إزاء لعلعة الكلام عند تاكاشي . لكنه بدلاً من أن ينزعج ، وجدَ حيلته ، وظل يرمقني بالنظرة الاستفزازية ذاتها ، وهو يقول :

«أنا أحبُّ هذا التعبير : شغب تاكا . بالرغم من أنها مضيَّعةٌ طبعاً . لكنك تعرف يا ميتسو ، أن ما جعل الناس بائسين الى هذا الحد ، كباراً وصغاراً ، ليس الطمع المادي والإحساس بالحرمان ، فقط . أظنك سمعت طبول النيمبوتسو وصنوجه تتعالى طيلة اليوم ؟ حسناً ، إن هذا يساعدنا في إبقاء القدر يغلي ـ إنه نبع الطاقة العاطفي للشغب! إن النهب لا يرتفع الى مستوى الشغب ، يا ميتسو . الأمر عاصفة في فنجان كما يعرف الجميع جيداً . حتى هكذا ، نراهم يعودون قرناً الى الوراء ، ويمارسون ممارسةَ حياةٍ ، هياجَ انتفاضة ١٨٦٠ . إنه شغب المخيَّلة . مع أنك لا ترى الأمر يبلغ مستوى الشغب . وهو لن يبلغه إن لم تأتِ بهذا النمط من المخيلة» .

«لا . إنه لا يبلغه» .

«رأيك...» قال هذا تاكاشي ، وغرق فجأة في نوبة انغلاق . صمتَ وتجهَّمَ . شفتاه مزمومتان في المرآة الصغيرة المربعة المسندة الى الكرسيّ قبالته ، كأنه شرع يضيق حتى بحلق شعره في المكتب ، بعد أن صار تحت سيطرته .

«عثرت على صفيحة كيروسين ، يا ميتسو» ، تدخّلَ هوشيو وقد كان ينتظر خلفي ، توقُّفاً في حديثنا . «ابن جن يقول إنه وأصدقاءه سيحملونها الى البيت» .

قلت مستديراً : «شكراً ، يا هوشي . سأدفع ثمنها ، طبعاً . أنا غريبٌ ، لهذا لم يكن السوبر ماركت ينتفع على حسابي . إن لم يكن هناك من يتسلَّم النقود ، فاتركها على الرف حيث كانت صفيحة الكيروسين» .

تردد هوشيو مرتبكاً . كان يوشك أن يأخذ الورقة النقدية التي مددتُها إليه ، حين اندفع أحد صديقيه أمامه بخفّة مدهشة ، مُطْلقاً يديه المسودّتين بحبر الاستنساخ ، ودفعه من كتفيه دفعةً عنيفة . سقط الى الخلف ، وضربت هامةُ رأسه جدار اللّوح بقوّة . وقفتُ هناك ، شاعراً بحماقتي ، وذراعي النحيلة البيضاء لاتزال ممتدةً ، ممسكةً الورقة النقدية ، بوهَنٍ . نهض هوشي غاضباً ، وهو يفحّ فحيح الأفعى ، من خلال أسنانه وقد كزَّ عليها ، وتطلَّع الى تاكاشي للموافقة على الهجمة .لكن قدّيسه الحامي ، ظل بلا حراك ، ينظر إليه من المرآة كأنه لم يسمع حتى الجلبة التي سبّبها سقوط هوشيو .

«هذا ضد التعليمات ، يا هوشي» . حذّرته الفتاة التي بجانبه في صوتٍ عالٍ . ولدهشتي ، خيَّمَ على هوشيو هدوءٌ مباغتٌ ، وأخذ ينتحب .

خرجت من المكتب ، ممتلئاً بانفعال مؤلم . موسيقى النيمبوتسو لاتزال مستمرة . وقد زادت من وجيب قلبي ، مما أرغمني على تغطية أذنيّ

وأنا أسير . الكاهن الشاب كان ينتظرني عند مدخل السوبر ماركت . أنزلتُ يديّ عن أذنيّ ، مُكرَهاً .

«ذهبتُ الى البيت ، وأخبرني أحد أولاد جن أنك هبطت الى هنا» . انطلقَ متحدثاً . وأدركتُ على الفور أن الانفعال الذي يهزّه ، هو ، في كثيرٍ أو قليل ، عكس العاطفة التي تكاد تخنقني . «بحثتُ في مستودع المعبد ، ووجدت الوثائق التي أودعَها آل نيدوكورو هناك!» .

أخذت المظروف الورقي البنيّ الذي قدّمه . كان مظروفاً رديئاً ، يُذكّر بتقشف أيام الحرب ، مهترئاً ، وكئيباً ، بالقِدَم . يبدو أن أمي أودعته المعبدَ قُبيل نهاية الحرب . على أي حال ، لم تكن محتويات المظروف هي التي استثارت الكاهن .

« مثيرٌ للاهتمام جداً ، يا ميتسو! مثيرٌ للاهتمام جداً» ردّدَ هذا ، بصوت خفيض متلهف . «بل مدهشٌ ، كما أقول!» .

كان رد فعله مختلفاً تماماً عما توقّعته ، ونظرت إليه في ارتيابٍ عميق . ظللتُ برهةً ، صامتاً ، مضيَّعاً ، أقلِّبُ معنى كلماته .

قال : «لنتحدث ونحن ماشيان . الناس من أنماطٍ شتى ينصتون!» ، وأسرع يتقدمني في خفّةٍ غير معهودة . أسرعتُ خلفه ، وإحدى يديّ مضغوطة على معطفي عند موضع القلب...

مضى يقول : «ميتسو ، لو انتشر الحديث عن هذه القضية ، فإن السوبر ماركتات الريفية على امتداد البلد ستتعرض الى هجوم المزارعين . وإن حدث هذا فإن الخلل في الاقتصاد سيظهر على الفور . التاريخ يتحرك! غالباً ما يقول الناس إن الاقتصاد الياباني سوف يصل في عشر سنوات الى نهايته المميتة . لكن من الصعب علينا ، نحن العامة ، أن نعرف أين سيحصل الانهيار ، أليس كذلك؟ أما هنا فالمزارعون

الساخطون يهاجمون سوبر ماركت بدون إنذار . تخيلْ عدة مئات من آلاف السوبر ماركتات تُغزى بالتعاقب ـ لا شك في أن هذا سوف يسلِّط الضوء على تدهور الاقتصاد وهشاشته . الأمر كله ، مثيرٌ جداً للاهتمام ، يا ميتسو! » .

قلت معترضاً : «لكن هجوماً على سوبر ماركت في هذا الوادي ، لن يحدث سلسلة انفجارات متعاقبة على المستوى الوطني . خلال يومين أو ثلاثة سينحسر الضجيج ، ويعود أهل الوادي الى وضعهم الزريّ ذاته» . الانفعال غير المتوقع الذي أبداه هذا الرجل المفترض فيه تمثيل الجانب المثقف الرصين من الوادي ـ هذا الانفعال أشعرني بأسىً حقيقيّ . «لا أرغب في التدخل بما يجري ، لكني أعرف تماماً أن تاكاشي ليس من ذلك النمط الذي يمسك بأي خيطٍ قد يؤثر في مجرى التاريخ . كل ما آمله هو ألاّ تتركه القضية معزولاً عزلةً تعيسة . لكني ، في التطبيق ، أشعرُ أنه لم يترك لنفسه فرصة النجاة ، هذه المرة . الآن وقد جعل أهل الوادي جميعاً «ملطّخين بالعار» ، فلست أرى كيف سيكون بمقدوره مطالبتهم بتأييده ، باعتباره ناشطاً طلابياً تائباً . ظللت أتساءل عما دفعه الى هذا الحدّ البعيد ، لكني لم أصل الى نتيجة محددة . الأمرُ الوحيدُ الأكيد لديّ هو أن ذاته الداخلية منشطرةٌ شطرين ، في حالة مينوسٍ منها . لن أتدخل في ما يفعله ، لكني مازلت أتساءل عما جعله هكذا .

لديّ شعورٌ ، في الأقل ، أن نقطة التحول جاءت ، يوم انتحرتْ أختُنا ـ وهي متخلفة عقلياً كما تعرف ـ بينما كانت تعيش معه» .

أخلدتُ الى الصمت ، وقد استولى عليّ أسىً لا حدَّ له ، وإعياء ، كأني أنا نفسي ، كنت في الشغب طيلة اليوم . ومع أن الكاهن الشابّ تقبَّلَ ما ذكرتُه صامتاً ، فقد اتّضحَ لي الآن ، أن تحت البشرة السمحة الرصينة

لوجهه ، مباشرةً ، طبقةً واقيةً من التحدي المنافق الذي يلبس لبوس الطيبة . على أي حال ، كان هذا الرجل قوياً بما يكفي لاتّقاء كل شائعات الوادي بعد هروب زوجته . صمته كان بسبب الإشفاق على حالي البائسة ، لا بسبب التعاطف مع آرائي . وأدركتُ أنني إذ أُشغَل بمصير أخي وحده ، فهو مشغول بالمصير المشترك لشبّان الوادي . مشينا صامتين ، معاً ، مُحْتكَّي الكتفين ، كأننا متفاهمان جيداً ، واجتزنا الرجال والنساء ، والشيوخ ، والأطفال الذين لايزالون متجمهرين على الطريق ، وقد حيَّونا بابتسامات ٍودّية ، ونحن ماشيان . وعندما بلغنا الفسحة أمام مكتب القرية ، قال الكاهن كمن يستأذن بالإنصراف :

«في الماضي كان الشبان يعمدون الى مشروع أحمق قصير النظر ، متورطين في متاعب ، لكنهم يعترفون بخسارة اللعبة في النهاية . لكنهم هذه المرة ، في الأقل ، يحاولون التغلب على مصاعب كبرى بمصادرهم الخاصة وقواهم ذاتها . أو أنهم خلقوا بإرادتهم الحرة وضعاً لا تمكن معالجته بإرادتهم ، وقد تحملوا مسؤوليته ـ هذا الأمر أجده مثيراً للاهتمام ، مثيراً جداً للاهتمام! ولو أن شقيق جدك الأكبر حيٌّ اليوم ، فأنا متأكد من أنه سوف يتصرَّف تصرُّفَ تاكا! » .

مطأطأ الرأس ، لاهث الأنفاس ، وقلقاً على صحتي ، ارتقيتُ طريق الحصباء ، مضاعف الخطر الآن بسبب ذوبان الثلج بفعل الشمس ، وتجمُّدِهِ ثانيةً . أشياء وأشكال سوداء محمرّة تزحف حولي وأنا أسير : الظل الذي اختفى نهائياً من الوادي منذ بدأ الثلج ينزل ، يعود الآن . كنست الريح الغيوم الخفيفة ، لتُطلع سماوات غروب .

مرتعشاً بالبرد المتزايد ، صعدتُ بين الشجيرات التي حناها الثلج وألصقها بالأرض شديداً مع الظلال العائدة . وجِلدي الذي بدأ يعرق من حرارة

المدفأة في مكتب السوبر ماركت ، أخذ يستسلم سريعاً للبرد . بمقدوري أن أحزر أي نوع من التعبير كانت تحفره على وجهي المبثور ، الظلالُ السودُ المحمرَّة . فركتُ خدَّيَ بيديَ ، لكني مهما حاولت لم أستطع تغيير تعبيرهما المتجهم . مضيتُ صُعُداً ، أخرقَ ، ميكانيكياً ، مثل قطارٍ في الشمال متأخرٍ أبداً ، وتحت وطأة إحساسٍ هائلٍ بالإعياء حتى بدا لي أني لن أبلغ البيت أبداً . تطلعتُ الى أعلى ، فرأيت البيت يسنده منحدرٌ ثلجيٌ معتمٌ ، مثل كتلة قطران تحيطها هالةٌ حمراء .

عقدةٌ صغيرة ، مظلمة ، من النساء ، عند باب المبنى الرئيس . لقد طرحن الثياب الصارخة الألوان التي ملأ بها السوبر ماركت الوادي ، وعُدنَ ، كما لو حدث الأمر بقرارٍ مشتركٍ ، الى الثياب القديمة ، ثياب العمل المخططة بالنيليّ ، التي لا تترك أي جزءٍ من الجسم مكشوفاً ، سوى الوجه .

حين دخلتُ الحديقة الأمامية ، استدرن معاً ، مثل سربٍ من البطّ ، ومسحنني بوجوهٍ عديمة التعبير ، مظلّلة في شكاةٍ صاخبة . كنّ ربّاتِ بيوت من «الريف» ، مصرّاتٍ على أن يتخلص تاكاشي من الأفلام السلبية للصور التي التقطها في اليوم الأول للنهب . كن حين وصلن بيوتهنّ من النهب ، وتحدثن عن صور تاكاشي ، تلقَّينَ من أزواجهنَ وأعمامهنَ أمراً مباشراً بالحصول على الأفلام السلبية وإتلافها . أعتقدُ أنهن المجموعة الأولى من المنتفضين التي أعادت النظر في ما فعلته .

اتّقدت الشمسُ الغاربةُ بالبرتقاليّ ، ثم خبتْ سريعاً .

كانت زوجتي تردد بصوتٍ أجوفَ ، مرهَقٍ : «تاكا يقرر كل شيء . لا أستطيع أن أجعل تاكا يغيِّر رأيه . لا أستطيع أن أؤثر فيه . هو يقرر بنفسه ، دائماً!» .

بلا سابق إنذار ، توقفتْ موسيقى رقصة النيمبوتسو ، التي كانت تَصَاعَدُ مثل نافورةٍ من قاع الوادي . ومع السديم الضبابي قرميديّ اللون ، استولى إحساسٌ حادٌ بالفقدان ، على الفور داخل الغابة دامسة الظلام .

« يا إلهي! ماذا سنفعل ؟ » أعولتْ زوجة مُزارعٍ شابّة .

اليأس العاري في وجهها جعل امرأتي تترنح لحظةً ، لكن هذا لم يكفِ ليجعلها تغيِّرُ ما قالت .

«أنا متفقةٌ مع كل ما يقرره تاكا . تاكا يقرر كل شيء . هو يقرر بنفسه ، دائماً ، ما يفعله» .

سُلطةُ الذُّباب

الصباحَ التالي ، كانت «الانتفاضة» لاتزال قائمةً ، لكن موسيقى رقصة النيمبوتسو لم تعد تُسمَع ، فغرقَ الوادي كله في صمتٍ كئيب . عندما جاءتني موموكو بفطوري ، وجدتُ تجربتها في العنف والهستيريا قد ولّتْ ، مخلِّفةً نوعاً من النضج . وقد ظلّت منكّسةً وجهها ، الشاحب الآن ، رافضةً بإصرارٍ ، ملاقاةَ نظرتي ، كما تكلمتْ بصوتٍ ضئيلٍ ، مترددٍ ، مبحوح . ذلك الصباح ، اكتشف حرسُ تاكاشي أن مدير السوبر ماركت استطاع أن يغافل العيون ، في مرصد طرف الجسر ، والهروبَ من الوادي . وأملاً في الاتصال بالإمبراطور وعصابته ، قطع النهرَ ، المتعاظم ماؤه من ذوبان الثلج ، ومضى يجري ، غير عابئ بثيابه التي تقطر ماءً ، على الطريق المكسوّ بالثلج ، والمؤدي الى البحر . في الصباح ذاته ، جاء الرجل الذي أُنقذ ابنه من الموت على الجسر المخرَّب ، ببندقية صيدٍ الى تاكاشي ، مع عدة أنواع من الخراطيش . .

قالت موموكو : «أعار الرجلُ تاكا البندقيةَ ، كي يردّ هجوم عصابة الإمبراطور حين يأتون ، مع أني أرى البندقية ستجعل الأمور أخطر» ، كانت تتكلم بنبرة منكفئة ، خائفةٍ قليلاً ، نبرة شخص لم يعد يشعر بأي سرورٍ إزاء العنف .

تأويلي الخاص للدور المقصود من البندقية مختلفٌ عن تفسير موموكو ، لكني احتفظتُ بصمتي خشيةَ أن أرعبها أكثر . أنا متأكد من أن البندقية لم تُعَرْ كي يستعملها تاكاشي جنباً الى جنب ، مع حرسه وأهالي القرية ، ضد الإمبراطور وعصابته ، وإنما هي سلاحُ لتلك اللحظة ، حين يجد تاكاشي نفسه وقد هجره أتباعه تماماً ، مرغماً على الدفاع عن نفسه وحيداً في وادٍ يعاديه . (ينبغي الاعتراف بأن له ، حليفاً واحداً في الأقل ، بين سكان الوادي ، حليفاً ضحّى الى حد إعارته بندقيته الثمينة) . تاكاشي نفسه ، بعد أن لم يهبط فلاّحُ واحد من «الريف» لاستئناف النهب ذلك الصباح ، ربط السلاسل على عجلات الستروين وانطلق في حملة ما ، في المنطقة الواقعة خلف أجمة الخيزران الكبرى .

بعد أن أنبأتني بهذه الأخبار ، سأتني موموكو فجأةً بطيبة أختٍ صغرى لا تشبه موموكو القديمة ، إن كنت لاأزال أعتقد بوجود أناس صالحين في العالم . أُخِذتُ بفجاءة السؤال ، وكنت لاأزال متردداً ، حين مضت في القول .

«كنا في السيارة ، الليلَ كله ، في الطريق الى شيكوكو . وحين طلع الفجر وجدنا أننا ننطلق بمحاذاة البحر ، في مكان ما ، وقال لنا تاكاشي فجأة : أتساءلُ إن كان لايزال الخير موجوداً عند الناس ؟ لكن ، قبل أن نتمكن من الإجابة ، قال : نعم . وهو يعرف وجود ذلك ، لأن الناس مايزالون يقطعون المسافة كلها الى سهول إفريقيا لاصطياد الفيلة ، وتجشُّمِ المتاعب لإرسالها بحراً الى البلد ، كي توضع في حدائق الحيوان . وعندما كان صغيراً ، ألِفَ الإسرار لنفسه أنه في حال ثرائه سيكون له فيله الخاص ، وسيبني للفيل قفصاً في هذا البيت ، ويقطع كل الأشجار الطويلة تحت السور الحجري حتى يستطيع الأطفال الذين يلعبون في الوادي رؤية الفيل» .

على كل حال ، يبدو أن مومو كو لم تكن تأمل في جوابٍ مني باعتباري «عضواً في المؤسسة» . لقد استخدمت السؤال حجّةً لسرد قصة الفيل . قبل أن تحتكَّ احتكاكاً غير متوقّع بالعنف فتنكمش داخل ذاتها ، كانت تُعَوِّلُ ، مفرطةَ الحنين ، على تهذيب تاكاشي قبل أن يبدأ في قيادة «انتفاضته» الجِلفة . أحسَبُ أن مومو كو تمثل أول فرد من حرس تاكاشي الشخصي ، يتخلى ليكون على الرصيف .

حين صرتُ وحدي ، فكّرتُ قليلاً بالفيل . يقال في هيروشيما ، إن أول مجموعة فرّت الى الضواحي بعد الهجوم النووي ، كانت قطيع أبقار . لنفترض أن حرباً نووية عظمى دمّرت مدن العالم المتحضر ـ فهل ستخبو أفيالُ حدائق الحيوان ؟ أترى الناس سيبنون ملاجئ ذرّية بهذه الضخامة حتى تتسع لمخلوقات كهذه ؟ لا ـ فالمحرقة سوف تخلِّف الفِيلةَ كلها محترقةً ، أكيداً ، في حدائقها . ولنفترض آنذاك ، أن ثمت مشروعاً لإعادة بناء البلدات ـ فهل سوف تقع عينا المرء على مشهد بشرٍ حطّمهم الإشعاع ، متجمعين على سفحٍ ما ، ليتفرجوا ، بينما يُقْلع ممثِّلُهم ليصطاد الفيلةَ من مَعاشب إفريقيا ؟ وللشخص المعنيّ بسؤال إن كان بقيَ خيرٌ في بني الإنسان ، سيكون هذا بالتأكيد مفتاحاً حقيقياً... لم أقرأ صحفاً منذ نزول الثلج ، وحسب معرفتي ، مازال العالم في خطرٍ داهمٍ من حرب نووية . لكن هذا الخوف والإحساس بالمسكنة اللذين أثارتهما الفكرةُ ، لم يبعثا فيَّ سوى معاناتي العادية من مشاغلي .

المظروف الذي عثر عليه الكاهن الشابّ ، وأعطانيه ، يحتوي على خمس رسائل من شقيق جدي الأكبر ، وعلى منشورٍ موقَّعٍ باسم جدي الأكبر ، بعنوان «وقائع انتفاضة الفلاحين في قرية أوكوبو» . الانتفاضة المدوَّنة في المنشور لم تكن انتفاضة ١٨٦٠ ، لكنها انتفاضة أخرى

اندلعت في المنطقة بسبب مرسوم ١٨٧١ الذي ألغى المشايخ وأسّسَ المحافظات . ليس في الرسائل عناوين أو تواقيع . يبدو أن شقيق جدي الأكبر أراد أن يبقي مَرْبعَ حياته الجديدة سراً ، وكذلك الاسم المستعار الذي اتّخذه هناك .

الرسالة الأولى المؤرخة في ١٨٦٣ يُفهم منها أن زعيم المتمردين السابق بعد هربه عبر الغابة الى كوچي ، تلقّى مساعدةً ، كما رأى الكاهن ، من عميل مما وراء الغابة ، كي ينطلق نحو حياة جديدة . وبيّنت الرسالة أنه بعد فراره بسنتين أو أقل ، كان الشابّ حقق لقاء مع بطله المراوغ جون مانجيرو ، وأنه حصل بالفعل على الموافقة للمشاركة في مغامرته التالية . أن يكون للرجل الذي من وراء الغابة هذا النفوذ القوي على جون مانجيرو ، في ما يتعلق بمن يرعاه ، لابد أن يعني أن هذا الرجل كان في حقيقته عميلاً سرياً لسلطات عشيرة توسا . وتوضح الرسالة كيف أقلع الشابُ من شيناغاوا ، بحّاراً عادياً ، على سفينة جون مانجيرو لصيد الحيتان . في مطلع السنة التالية وصلت سفينتهم مرفأ شيشنجيما في جزر البونين ، ثم انطلقت الى أماكن الصيد . هناك اصطادوا حوتين صغيرين وأبحروا عائدين الى جزر البونين ، بعد أن نفد ماؤهم . هنا يترك الشقيق الأصغر العمل في صيد الحيتان ، بسبب دوار البحر العنيف ، والأكثر من ذلك شجاره المستمر مع البحارة الأجانب في السفينة ذاتها . إنه لأمرٌ مثيرٌ لشابٍ ترعرع في الوادي بأعماق الغابة ، أن يرى حوتين حيَّين ، وإن كانا صغيرين...

الرسالة الثانية مؤرخة في ١٨٦٧ . إحساسٌ جديد بالحيوية والحرية يتبدّى في الأسلوب ، ويبيِّن أن عدة سنوات من حياة المدينة أيقظت خِصلةً فتيّةً ذات دُعابة كانت داخل قمقمِ الفتى الهارب من الغابة ، خلال فترة سفينة صيد الحيتان . تضم الرسالة مقالاً طريفاً كان قرأه في يوكوهاما ، في

أول صحيفة رآها في حياته ، وقد استنسخ المقال خصوصاً لأخيه الأكبر ، هناك في بيته بالوادي ، في مفازات شيكوكو :

لديَ اليوم شيءُ قد يُمتعك . الصحيفة التي وجدتُه فيها تمنع الاستنساخَ غير القانوني ، لكني لا أحسَبُ أن ذلك ينطبق على رسائل مثل هذه . يبدو أن رجلاً من بنسلفانيا بالولايات المتحدة انتحر ، ربما وهو في خبله ، نتيجة ظروف منكودة ، وصفَتْها رسالة وداعه كما يأتي : «تزوجتُ أرملةً ذاتَ بنتٍ واحدة . أبي أحبَّ البنت وتزوَّجها . هكذا صار نسيبي . والبنت التي هي الآن زوجة أبي صارت أمي الرّابّة . ثم أن لديّ ولداً من الأرملة التي تزوجتُها . أصبحَ نسيبَ أبي ، وكذلك باعتباره أخاً لأمي الرّابّة ، صار خالي . زوجة أبي ، أمي الرّابّة ، لديها ولدٌ أيضاً ، هو ليس فقط أخي من زوجة الأب ، لكنه أيضاً حفيدي ، باعتباره ابناً لإبنة زوجتي . هكذا الأرملة التي تزوجتُها كوالدةٍ لأمي الرّابّة ، أصبحت جدتي . فوجدت أنني زوج زوجتي وحفيدها ، وفي الوقت نفسه صرتُ جَدّي وحفيدي» .

في الصحيفة إعلانٌ يقول : نريد أن نعلِّم السادة اليابانيين الشباب الراغبين في إتقان اللغة الانجليزية .

وإعلانٌ آخر يقول : نقدم كل العون والنُّصح لأولئك الذين يزورون أميركا لأغراض الدراسة والتجارة والسفر أو السياحة» .

بين هذه الرسالة ، والتالية ، فجوةُ عقدين . خلال تلك السنين العشرين العجيبة ، رأينا الفتى الذي أدّى به فرحه بالتخلص من كل علائق الحياة في الوادي البعيد ـ الى أن يجد ذلك المقال الفكه مدهشاً جداً ، والفتى الذي كان يتأكّلُهُ مطمحُ الذهاب الى أميركا ربما ذهب الى هناك بالفعل . وفي كلتا الحالين ، مكّنتْهُ خيانته من البقاء حياً بعد الانتفاضة ، مخلِّفاً وراءه في الوادي أُناساً كثاراً أُعدموا بطريقة وحشية ، ومكّنته أيضاً من أن يضمن لنفسه حياة حرية جديدة .

هذه الرسالة المكتوبة في ربيع ١٨٨٩ ، بعد فترة انقطاع طويلة ، تتكشف عن أسلوب رجلٍ ناضج الحكمة . كانت رسالة جوابية ، رداً نقدياً رصيناً ، على رسالة كتبها الجد الأكبر في بيته بالوادي ، تعبيراً عن فرحه بإعلان الدستور الجديد . تستفسر الرسالة بطريقة حزينة : أليس تسرُّعاً أن تبتهج بكلمة « دستور » دون أن تعرف حتى بنودَه ؟ وتورد الرسالة هذا المقتطَف من مؤلفات عضوٍ في عائلة ساموراي سابقة بمحافظة كوچي ـ قد يكون من أقارب العميل الذي من وراء الغابة :

> بالإمكان التمييز ، طبيعياً ، بين نوعين من الحقوق المدنية . هذه الحقوق في انجلترا وفرنسا قد تُدعى حقوقاً « مأخوذةً » لأن الأدنَين أخذوها من الأعلَين بجهودهم الخاصة . لكن ثمت نوعاً آخر ، تُمْكن تسميته « الممنوحة » لأنها قُدِّمتْ من الأعلى ، باعتبارها هبةً . ومادامت الحقوق « المأخوذة » قد ربحها الأدنَون ، فإن مداها وطبيعتها يتقرران بإرادة المستفيدين منها . أما الحقوق « الممنوحة » ، فلأنها مقدَّمةٌ من الأعلى ، لا تسمَح بأن يقرر مُتلقُّوها تحويلها الى حقوق « مأخوذة » .

خمّنَ شقيق جدي الأكبر أن الدستور الجديد سيضمن فقط حقوقاً قليلةً مقدَّمةً باعتبارها هِبةً من فوق ، وحثَّ على تأسيس منظماتٍ للعمل في سبيل حقوقٍ مدنيةٍ أكثر تقدميةً . يتبيّن من هذه الرسالة أنه ينظر الى النظام السياسي الذي تلا الإصلاح بعيني رجلٍ ذي قضية ، وفي هذا السياق ، قضية الحقوق المدنية . ومن هنا تتبدد الإشاعة القائلة بأنه كان موظفاً كبيراً في حكومة الإصلاح .

الرسالتان الأخيرتان ، وإن كُتبتا بعد خمس سنوات فقط ، توحيان بأن حماسته لـ« القضية » تدهورتْ سريعاً . إنه لايزال المثقف الذي يجيد التعبير عن الشؤون الراهنة ، في ١٨٨٩ ، لكن الرغبة في التشديد على حالة الأمة ، قد خبتْ . والانطباع الغالب الآن ، هو عن رجل شيخٍ ، وحيدٍ ، قلقٍ على أحوال أقاربه الذين يعيشون في أماكن قصيّة . اسم إكيشيرو الوارد في الرسائل ، هو الاسم الذي استعمله جدي في كتابة « وقائع انتفاضة الفلاحين في قرية أوكوبو » . الشقيق الأصغر لجدي الأكبر كان يكنّ حباً عميقاً لابن أخيه الوحيد ، مع أن ثمت شكاً في التقائهما جسدياً . كان متلهفاً ، في رسائله ، على مساعدة ابن أخيه لتجنُّب التجنيد الإجباري ، وحين مضى الفتى مرغماً الى الحرب ، ظل قلقاً على سلامته . وبدا واضحاً تماماً أن القائد الفظّ لانتفاضة ١٨٦٠ يحتفظ تحت السطح ، بعِرْقٍ من اللطف المهذب :

> أشكرك على رسالتك . فهمتُ من الرسالة أنك تفكر في طلب إعفاء من التجنيد الإجباري لايكيشيرو ، سواءٌ قُبل في الجيش أم لم يُقبَل . لقد اتفقنا في حال عدم قبوله على عدم تقديم طلب الإعفاء . ربما تقاطعت رسالتانا ، لكني تلقيتُ من زوجتك ما يُفيد بقبوله ، هكذا بدلاً من

تقديم الطلب الذي يتعيّنُ عليّ ، طبيعياً ، أن أفعله ، قررتُ ألا أفعل شيئاً في هذه اللحظة . إذاً ، لا حاجة لديك ، والحالةُ هذه ، أن تدع أي شخصٍ يقدم الطلب . آمُلُ في أنك فهمتَ ووافقتَ .

* * *

طمأنتني رسالتُكَ على أنك لاتزال حيّاً ، لكنها تركتني ظامئاً لمعرفة أي تفاصيل عن حياتك هذه الأيام . ألم يصل حتى الآن نبأٌ عن إيكيشيرو منذ مغادرته الى الصين ؟

الهجوم على ويهايوي مايزال مستمراً ، وأنا أخشى أن تكون حياته ، هذه اللحظةَ ، في خطر . أنا متلهفٌ على معرفة أحواله . أتوسلُ إليك ، إن وصلت رسالةٌ منه ، أن تخبرني بفحواها ، سريعاً .

هذه كانت الرسالة الأخيرة . من المرجَّح أن شقيق جدي الأكبر مات ، وهو لايزال يتطلع ، بلا جدوى ، الى ابن أخيه المحارِب ، وسط دخان معركة بعيدة . لم يبق ما يشير الى أنه ظل على قيد الحياة .

قبيل الظهر تماماً ، عادت موسيقى النيمبوتسو ، من جديد . هذا اليوم انطلقتْ من بقعة محددة أمام السوبر ماركت ، دون أن تستثير لدى أهالي الوادي ، انطلاقات أخرى للموسيقى ، كما حدث أمس ، عندما صدحت من أماكن عدةٍ بالتناوب .

لابد أن تاكاشي وفريقه يلعبون وحيدين . وتساءلتُ عما إذا كانوا سيستمرون بلا انتهاء مع هذه الموسيقى الرتيبة ، إن لم يجدوا استجابةً من

أهل الوادي . وصرتُ مقتنعاً بأن توقُّفَ الموسيقى ثانيةً ، قد يسجِّلُ لحظةَ الارتداد إزاء «الانتفاضة» .

حين جاء هوشيو بغدائي ، بدا منهكاً محموماً ، وكانت عيناه تلاحقان أي حركة مني بتركيز جائع . كأن العار الذي لحق به بعد طرده من «الانتفاضة» ، تضخَّمَ في رأسه حتى شرع ينزّ من عينيه . لكني تساءلت عن سبب شعوره بالخجل إزاء تاكاشي . بعد أن خذل تكاشي ، هوشيو ، حين دُفع في السوبر ماركت بدعوى مخالفته التعليمات ، لم يعد مؤهَّلاً لنقد هوشيو واعتباره متخلِّياً عن «الانتفاضة» . إذ أن هوشي اشترك في «الانتفاضة» بمحض إرادته ، وقدّم لها مساعدته العملية ، باعتباره تقنياً ، مع أنه ليست له أدنى علاقة بالوادي . الصلة الوحيدة التي تربطه بـ«الانتفاضة» هي عطف تاكاشي . منطلقاً من هذه الأفكار ، قلت له في تعاطف ساذج :

« يبدو أن (انتفاضة) تاكا قد هدأت كثيراً ، اليوم . أليس كذلك ؟ » .

لكن هوشيو نظر إليّ في رفضٍ صامتٍ ، محاولاً الإشارة الى أنه لا يرغب في أن يشارك غريباً مثلي في نقد تاكاشي وفريقه لكرة القدم ، بالرغم من تخلّيه أخيراً عن القضية .

قال متقيداً بالتحليل الموضوعي للوضع : «ليس ثمت أدوات كهربائية تكفي للتوزيع ، وعندما يتعيّن تحديد من سيأخذها ، لا يمتلك أحدٌ شجاعة الخطوة الأولى الى أمام» .

«على أي حال ، تاكا بدأها ، وعليه أن يتدبَّرها» ، غامرتُ في ما أفترض أنه الروح الموضوعية . لكن كانت النتيجة الوحيدة تعاظُم انزعاجه . إن الإحساس بالعار الذي كان يتراءى غامضاً على وجهه قد وصل فجأةً الى مستوى الانفجار ، واندفع في خديه دمٌ معتمٌ مُجلِّطٌ . وحينما رفع عينيه

أخيراً ، وثبّتَ نظرتهما عليّ ، كان فيهما ذلك البريق المتواصل الذي ينذر بأن كل ما تخفيانه سوف يظهر في انفجارٍ مباغت . لكنه ابتلع ريقه ، بقوةٍ ، مثل طفل ، وقال :

«هل يمكن أن تضعني في المستودع ، من هذه الليلة ، يا ميتسو ؟ أستطيع النوم في الطابق الأسفل ، فأنا لا أهتم بالبرد» .

سألته ، مجفلاً إجفالاً غامضاً : «لماذا ؟ ما المشكلة ؟» .

احمرّ وجه الفتى الفلاّح احمراراً فاضحاً . مطّ شفتيه المتشققتين ، وزفر شديداً ، ثم قال ووجهه يزداد شحوباً مع الكلام :

«تاكا فعَلَها مع ناتسومي ، أنا لا أحب أن أنام هناك» .

راقبتُ بشرةَ وجهه التي أحرقها الثلج ، تتيبَّس وتوشك أن تتهشَّمَ في مسحوق أبيض ناعم . حتى الآن كنت أظنني المراقبَ الذي يعزو ارتباك هوشيو غير الطبيعي الى فقدانه مركزه في «انتفاضة» تاكاشي . والحقيقة أنه هو من كان يراقب عاري . لكن رؤيته انسحاق امرئٍ نامت زوجته مع رجل آخر ، قد أثّرت فيه بدورها ، في إحساس بالعار الشخصي لا يُحتمل . معرفة الأمر أعادت كرة العار إليّ ثانيةً . وبدا أن سائلاً ساخناً يغمر حدقتي عينيّ .

«إذاً ، من الأفضل أن تحضر بطانياتك الى هنا ، مادام الضوء موجوداً ، يا هوشي ، بإمكانك النوم في الطابق الأعلى ، حيث أنام . المكان باردُ جداً في الطابق الأسفل» . التحدي الساخن المشعّ من عينيه تلاشى ، مخلِّفاً انتباهاً مرتاباً فقط . تطلّع إليّ ، متسائلاً ، مترجحاً بين شكٍ ساذجٍ في أني لم أفهم ما قاله ، وتفهُّمٍ جبانٍ في حال تهجُّمي عليه ، بغتةً . ثم غمغم ، وعيناه مازالتا تلاحقانني ، غمغمةً غبيةً بصوتٍ أنهكه القَرَفُ والمَسْكنة :

«ظللتُ أنهي تاكا ، ظللت أقول له إن عليه ألا يفعلها ، وإن الأمر خطأ ، لكنه فعلها ، برغم ذلك» . انحدرت دمعةٌ جدّ صغيرة ، كأنها لعابٌ ، على خده المبيضّ ، المتشقق شقوقاً ناعمة .

قلت آمُرُه : «هوشي ، إن لم يكن ما قلتَه خيالاً أو تفكيراً مقصوداً ، فالخيرُ أن تخبرني ، بالضبط ، عمّا رأيتَ . إمّا ذاك ، وإلاّ فاسكتْ!» .

أنا أعرف ، في الحقيقة ، أن الأمر لن يكون حقيقياً بالنسبة لي ، ولن أستطيع التصرُّفَ إزاءه ، إن لم يصفْه لي تفصيلاً . كان الدم اندفع الى رأسي ، وهو ينبضّ بصخب ، لكن وعيي لم ينجرف ، وظلّ عاجزاً عن حمل نفسه نحو الغيرة ، أو أي رد فعلٍ عمليٍّ آخر .

تنحنح هوشي نحنحةً ضعيفة ، في محاولةٍ لتقوية صوته ، ثم مضى يتحدث بطيئاً ، مشدِّداً على نهاية كل جملة ، كأنه يريد أن يجعلني أتأثر بما يقوله :

«ظللتُ أنهاه . قلت إني سأضربه إن لم يرتدعْ . أخذتُ سلاحاً وكنت أريد اقتحام الغرفة حيث كانا نائمين ، لكني حين فتحت الباب ، استدار تاكا ـ كان لا يرتدي سوى قميص التمرين ، وقد رأيت مؤخّرته العارية ـ نظر إليّ وقال ، «كنت أظنك العضو الوحيد في الفريق الذي لا يستطيع استعمال سلاح» ، اكتفيت بالوقوف هناك ، لم أستطع أن أضربه ، وظللت أردد : لا تفعلْها ، يجب ألاّ تفعلها! ، لكن تاكا لم يهتمَّ بي!» .

كلمات هوشيو كانت أبعد من أن تقدم أي صورة ملموسة للفعل الجنسي بين تاكاشي وناتسومي ، بل أنها نجحت فقط في تحريك الطبقات الضحلة الفجّة من الذاكرة ، وإحياء كلمة «الخائن» في ضوء حقيقة جديدة ، هذه الكلمة التي استعملها تاكاشي في المستودع ، والتي ظل يتردد صداها ، بلا انتهاء ، بين العوارض السود المتينة . من الخائنَينِ

الإثنين ، كنت أظن زوجتي اقتلعتْ كل شيء جنسيّ داخلها ، فإن مرّتْ عليها رغبةٌ عابرةٌ بين حين وآخر ، عجزتْ عن ازدراعها في تربةٍ جنسية حيث تنمو بصورة طبيعية . مرةً ، حين وقفنا ، هي وأنا ، كتفاً لكتف محاولين تحريك نبتة أصيص من زاوية الدفيئة المزدحمة ، وجدنا أنفسنا ـ كنا بلا علاقة جنسية تقريباً ، منذ حملها ، وأقل منذ محنة الولادة ـ تلقائياً ، مأخوذين برغبة ، مثل حمّى دم عابرة . أمسكتْ بقضيبي ، الذي انتصب قوياً تحت قماش بنطلوني المقاوِم ، ثم تغضّنَ جبينُها انزعاجاً وضيقاً ، وسارت في حفيفٍ عجيب ، لتختفي في غرفة النوم . في ما بعد ، وهي متمددة شاحبة ، وقد استعانت بالأسبيرين ، قدَّمتْ أعذارها :

« حين لمستُك يدي ، شعرتُ أني راجعة الى حمل ذلك الجنين الضخم ثانيةً . شعرت برحمي يكبر ويضيق ، ينقبض وينبسط ، ويتألم ، بالاهتياج الجنسيّ . قطعتُ أنفاسي خوفاً . كنت فزعةً من أن أجهض ، من أن أفقد شيئاً كبيراً . لا أفترضُ أنك تستطيع فهم ذلك ، أتستطيع ؟ » .

لكني ، حتى وأنا أستمعُ إليها ، أشعرُ ، خفيضةً في جوفي ، بذكرى متأخرة للألم الذي سيطر عليّ ، قبل قليل ، ممسكاً بقبضته ، الجذور الدفينة لقضيبي المنتصب ، هذه الجذور الممتدة من وراء الخصيتين حتى العصعص .

ألححتُ مرتعباً : « إذاً ، هل اغتصبها ؟ هل دخلتَ لتوقفه بعد أن سمعتَها تصرخ ألماً ؟ » كان رأسي مدوَّخاً بغضبٍ متجدد . لكن هوشيو ، الذي ظل حتى الآن يجهش بلا دمع ، أراحَ فجأةً تعابير وجهه ، وفكّرَ بكلماتي ، ولدهشتي البالغة أسرع في النفي .

« آه ، لا! لم يغتصبها . حين استرقتُ النظر لأول وهلة ، عبر الباب المنزلق ، حسبتُها جدَّ متعبة بحيث لا تقوى على إيقافه عن وضع يده على نهديها وبين ساقيها ، لكني وجدتُها حين فتحتُ البابَ ، تنتظر أن يدخل

فيها . واستطعتُ أن أرى باطن قدمها العارية ، عالياً وطانعاً على كل واحدةٍ من إليتيه! في هذا الوقت قلت لها : سأخبرُ ميتسو إن لم تتوقفي! ، لكنها قالت فقط : لا يهمني هذا ، يا هوشي . ولم تتحرك منها حتى شعرة . بل أن باطن قدميها ظل ثابتاً ، حتى عندما دخل فيها تاكاشي فعلاً . ولم يَبدُ لي أنها كانت تتألم» .

كان الخائنان يصيران ، تدريجياً ، أكثر واقعيةً . والواقع والحقُّ أن الواقع كان يثير فيَّ شهوةً شرّيرةً معيبة .

«شرعتُ أغلق الباب لأني لم أتحمل أن أرى تاكا يفعلها ، لكنه بدون أن يتوقف ، أدار رأسه ناحيتي وقال : (غداً ، إذهبْ وأخبر ميتسو كلَّ ما رأيتَ) ، كان صوته جدَّ مرتفع بحيث خفتُ أن يوقظ مومكو . كانت تناولت حبوباً منوِّمة لأن الهستيريا عندها أبقتْها مستيقظة ، وهي قد تذهب للتوّ تنام» .

كان هوشيو استيقظ في منتصف الليل ، وعرف أن تاكاشي الذي كان ينام بجانبه ، قد انسلَّ من بطانياته . ثم سمع صوته جوار ناتسومي التي كانت نائمة مع مومكو وراء الأبواب المنزلقة . كان تاكاشي يقول : «شعرتُ أنني أتمزّقُ أشلاء . الأمر نفسه حدث في تجوالي بأميركا ، بالطبع...» ، لكن ما تلا ذلك لم تستطع أذنا هوشيو الكليلتان متابعته بالكامل . في البداية سمع كلماتٍ معزولةً ، حسبُ ، يأتي معناها واضحاً في تفرُّقه ، دون أن يفهم مجرى ما يقال . بالتدريج ، صار يستقبل بصورة أفضل ، حتى استطاع أن يلتقط كل شيء بلا فجوات . الإحساس الغريب بالإلحاح الذي حلَّ في رأسه محل النوم جعله يفعل ذلك .

«الوصول... الوضع تحت المراقبة... ليس خارج الرغبة ، بل على العكس... غيتو... سائق سيارة أجرة حذّرني... لكني شعرت بأني مقسومٌ

نصفين . إلا إذا أعطيتُ القوتين اللتين تشطرانني بعض الجدوى وساعدتُهما... أدركُ الآن أنني كنت ممزقاً بين الرغبة في تبرير نفسي كمخلوقٍ للعنف ، والرغبة في معاقبة نفسي لأنني هكذا . بعد أن رأيتِ كيف تكوّنتُ فهل تلومينني على أملي في الاستمرار على العيش مثل ما أنا عليه ؟ لكن ، كلما قويَ الأملُ أحسستُ أكثر بالحاجة الى محو ذلك الجانب الرهيب في نفسي ، وازداد الانشطارُ خطورةً . أما اختياري التورط في العنف خلال الحملة ضد تعديل معاهدة الأمن ، واختياري العنف غير العادل مهما كانت غايته ، عندما وجدت نفسي مرتبطاً مع عنف الضعفاء الذين لم يجدوا بُدّاً من معارضة العنف غير العادل ـ فيعود سببه الى أنني أردتُ المضيَّ في تقبُّلِ نفسي مثل ما أنا ، وأن أبرر نفسي كرجل عنفٍ دون أن يتعيَّن عليَّ تغيير... » .

قالت زوجتي حزينةً : «لماذا تقول (نفسي مثل ما أنا) ، يا تاكا ؟» . «لماذا تقول (نفسي ، كرجل عنفٍ) ؟» .

«ألم تكن سكرى ؟» سألتُ هوشيو قاطعاً حديثه . لكنه سحقَ رأساً الأملَ الواهنَ الذي يُسند صوتي المتلهف بصورة تدعو الى الرثاء .

قال : «إنها لا تشرب ، أبداً ، هذه الأيام» .

استمرّ تاكاشي يتكلم بعد صمتٍ كان فيه مُستَرقُ السَّمع يكتم أنفاسه : «الأمر متصلٌ بتجربة لن أستطيع التحدث عنها مادمتُ حياً . لكنك لستِ بحاجة الى سماعها ، مادمتِ تعتقدين أنني ممزَّقٌ بين شيئين» .

«أعتقدُ هذا... فمادمتُ أعرف أنك مقسومٌ بقوّة ، فلستُ بحاجة الى أن أعرف كيف حدث ذلك» .

«طيّب . على أي حال ، أنا متأكدٌ من أمرٍ واحدٍ هو أن لديّ انفصام شخصية . وكلما هدأت الحياة حثثتُ نفسي على خَضِّها عمداً ، فقط لأؤكد

الانفصام . المسألة مثل إدمان المخدرات ـ تنبغي زيادة الجرعة باستمرار . كل سنة تكون الخضّة أعنف قليلاً » .

سألته ناتسومي : « إن كنتَ ذهبتَ الى الغيتو الزنجي ليلة وصولك أميركا ، لمجرد تحريك نفسك ، فماذا كنت تتوقع بالضبط ؟ » .

« لم تكن لديّ أي فكرة واضحة عما قد يحدث . كلُّ ما عندي إحساسٌ جارفٌ بأني لو ذهبت هناك فقد أنال خضّةً شديدة . في النهاية بتُّ تلك الليلة (الخاصة) مع زنجية عجوزٍ بدينة مثل جن . لكن لا تظني الجنس دافعي للذهاب الى الغيتو في المقام الأول . حتى لو كانت رغبةٌ ، فإنها أعمق من الجنس . حاول سائق سيارة الأجرة منعي من الذهاب الى هناك . قال : هذا المكان خطِرٌ ليلاً . وعرض عليّ ، بالفعل ، أن يأخذني الى مكان آمن ، إن أردتُ النوم مع عاهرة سوداء . رفضتُ . تجادلنا ، والنتيجة أنني نزلتُ أمام صالون . في الداخل كان نُضدُ بارٍ طويل طولاً خرافياً في الظلام ، وصفّ من السكارى يجلسون صامتين بمواجهته ـ كلهم سود طبعاً . جلست على مقعدٍ جدّ عالٍ ليابانيّ ، ووجدت أن ثمت مرآة خلف البار ، وأن السود الخمسين جميعاً كانوا ينظرون إليّ شزراً . أحسستُ بظمأ شديد ، فجأة ، الى كأس فودكا مزدوج ـ وأدركت للمرة الأولى أن ذهني كان يتوق الى جَلْدِ الذات . تعرفين... كلما شربت شراباً قوياً تعملقتُ وأردتُ أن أضرب أي شخص . لكن بالنسبة لقزم شرقيّ مثلي ، يدخل في بار غيتو ، لغرض الشجار ، فإن هذا يكاد يعني نهايته هو نفسه ، وقد ضُرِب حتى الموت . لهذا حين جاء النادل العملاق ، طلبتُ شراب الزنجبيل . مع التلهف على العقاب ، كنت مذعوراً . أنا أُذعر من الموت دائماً ، وبخاصة ذلك النوع من الموت العنيف . إنها خِصلةٌ كان عليّ أن أكافحها منذ اليوم الذي ضُرب فيه س وقُتل... » .

قال هوشيو بصوت يملأه حقدٌ أسود لا يناسب سنّه : «كانت المرة الأولى ـ منذ قال إنه خائف ـ التي راودتني فيها الشكوك إزاء تاكا ، ولهذا استرقتُ النظر عبر الأبواب المنزلقة . كنت أستطيع الرؤية ، لأنهما أبقيا الضوء الضئيل لموموكو ، فهي لاتزال تخشى النوم في العتمة . طيلة الوقت كان يتحدث ، وظل يضع يده على نهديها وبين ساقيها . حينها ظننتُ أن ناتسومي كانت جدَّ متعبة فلم تبعد يده...» .

مضى تاكاشي يقول : «احتسيتُ شراب الزنجبيل حتى نهايته ، ثم خرجت وشرعت أسير في الشارع المظلم . كانت المصابيح قليلة هنا وهناك . الوقت متأخر ، وزنوجٌ كثيرون يجلسون مبتردين ، على سلالم النجاة ، وعتبات المباني العتيقة المعتمة . بمقدوري أن أسمعهم يتكلمون عني وأنا أجتازهم ، وبين حين وآخر أسمع بضع كلمات مثل : (صينيٌّ لعينٌ...) ، حثثتُ خُطاي تلقائياً ، متخيلاً زنوجاً ضخاماً متعرقين يتبعونني ، ليفلقوا جمجمتي ، ويتركوني أموت حيث سقطت على رصيف قذر . لكني ، وأنا في رعبي المتزايد ، ولجتُ شارعاً خلفياً أشد ظلاماً وخطراً . كان عليكِ أن تري كيف عرقتُ ـ حتى الزنجية التي نمت معها ، في ما بعد ، قالت إن رائحة كهذه غير مألوفة عند الياباني ، مع أن رائحتها هي كانت لا تطاق . بل أني احتميت بمداخل المباني ، وجبهتي تشتعل هذه المرة ، بفكرة أن الرصاص قد أُطلق عليّ وأنا أُصِبتُ! وخلال مسيرتي الإجبارية كنت مسكوناً بشيء واحدٍ ، هو حكايةُ تحذيرٍ روتْها تلك المرأةُ ، عضوُ البرلمان ، رئيسةُ فرقتنا ، ونحن على السفينة التي تقطع بنا المحيط الهادئ ، آملةً في تأمين حسن سلوكنا ، في أميركا . أعتقد أن الحكاية منشورةٌ في صحف البلد ـ وهي عن موظف بنك في طوكيو ، أُرسل الى أميركا ، وسقط من الطابق الثاني عشر لفندقه النيويوركي ، فمات ، بعد شهر واحدٍ فقط من وصوله

الى هناك . سيدة أميركية في الثمانين ، نائمة في الغرفة المجاورة ، استيقظت في منتصف الليل ، فوجدت يابانياً عارياً ، على أربع ، عند الحاجز الضيق خارج النافذة ، يخمش الزجاج بأظافره ـ لم يكن حتى سكران ، كما قالت المرأة عضو البرلمان . لكني تأكدتُ أنها فِعلةُ رجل يستعمل الذعرَ من الموت ، عقاباً للذات . حينما كنت أسرعُ في ظلام الغيتو ، والليلِ المتأخر ، كنت كذلك الرجل الذي يزحف عارياً نحو غرفة السيدة العجوز على امتداد الحاجز الضيق ، وعلى ارتفاع اثني عشر طابقاً ـ الفرقُ الوحيدُ في حالتي ، هو عدم وجود غريبٍ يستيقظ ويطلق صرخةً ترسلني الى حتفي . بعد فترةٍ ، صادفَ أن خرجتُ الى شارع أوسع وأحسن إضاءةً ، مع سيارة أجرة قادمة باتجاهي . لوّحتُ لها فَزِعاً ، مثل منقطعٍ رأى سفينة...

«حين ينقطع خيطٌ من الوشيعة ، ينهار الشيء كله ، ولا يمكنك إيقافه : بعد ثلاثين دقيقة ، كنت آمناً في غرفة العاهرة ، أبوحُ لها بأسراري المخجلة ، باللغة الانجليزية ، وأسألها أن تتظاهر بأنها تعاقبني العقاب الذي أستحقه . كنتُ بلا حياء ، توسلتُ إليها أن تتصرف مثل رجل أسود ضخمٍ يغتصبُ فتاةً شرقية . قالت : (أفعلُ كل شيء مادمتَ تعطيني مالاً)...» .

تدخلتُ ، مهدِّئاً من شَكاته المتّقدة : «هوشي ، أنت مخطئٌ إن شعرتَ بالذنب لأنك لم تستطع إيقاف تاكا . إذ حين ناديتَ (لا ، لا تفعلها! يجب ألا تفعلها) ، كان الوقت جدَّ متأخرٍ ، وعندما رأيتَهما يمارسان الجنس ، كان ذلك للمرة الثانية بعد استراحةٍ . أنا متأكد من أنهما انتهيا من الأولى وأنت لاتزال نائماً . وإلا فما كان تاكاشي ليعترف لها الاعترافات التي أوردتَها للتوّ . فهذه الاعترافات ، ببساطة ، غير نافعة ، تمهيداً لإغواء» .

«ألستَ غاضباً ، يا ميتسو ؟» تساءلَ هوشيو ، مستغرباً ، كأن حساسيته الأخلاقية وجدت موقفي غير معذور .

قلت : «تأخرَ الوقت على ذلك ، أيضاً . ما فائدةُ أن أصرخ الآن : توقَّفْ! توقَّفْ! يجب ألا تفعلها!» .

نظر إليّ هوشيو باحتقار مركّزٍ حتى كأن سُمّاً ناقعاً يسيل من عينيه . وفجأةً تخلّى عن كل المحاولات المتعلقة أو المهتمة بالديّوث ، منسحباً الى الحِمى الوحيد لذهنه ، حاضناً ركبتيه ، ومطأطئاً رأسه ، وشاكياً في ما يشبه عويل زوجات الفلاحين الحزينات ، البارحة :

«يا للجحيم! أي ورطة! ماذا سأفعل ؟ لقد أنفقتُ مدّخراتي على الستروين ، ولا أستطيع العودة الى عملي في المرآب . ماذا سأفعل بحق الجحيم ؟ أي ورطة لعينة!» .

سمعتُ خليط أصوات تقترب نحو البيت : موسقى نيمبوتسو ، نباح كلابٍ مستعدة للعراك ، ضحكات وصيحات لأناس من مختلف الأعمار . طيلة ما كان هوشيو يتكلم ، كنت أحسُّ بها باعتبارها هلوسةً سمعيّة ، لكنها الآن حقيقية ، تتقدم نحو المنزل . للموسيقى والجلبة البشرية جوُّهما المختلف عن «الانتفاضة» الساكنة ذاك الصباح . تبديلاً للتأسي مع صاحبي الشابّ الذي شعر بأنه مطرودٌ من كل ما هو صحيح وسليمٌ في العالم . نهضتُ وأطللتُ من النافذة الى الساحة في الأسفل .

بعد وقت قليل ، ظهر إثنان من «الأرواح» يتقدمان جمعاً من الموسيقيين والكلاب والمتفرجين الأكثر عدداً من كل موكب لرقصة نيمبوتسو شاهدتهُ في طفولتي . تدفقوا في الساحة حتى امتلأتْ بهم تماماً . في الفسحة الدائرية الصغيرة التي تركوها في الوسط بدأت الأرواح حركة دائرية بطيئة . الموسيقيون ـ أعضاءُ الفريق ـ كانوا يدقّون

على آلاتهم بتركيز شديد ، وقد انحنت أكتافهم تحت ضغط المتفرجين خلفهم .

كلبان بلون الزنجبيل ، ينبحان بوحشية ، اندفعا يدوران في الحلقة يتبعان «الأرواح» ويثبان الى الوراء كلما ضُربا على الرأس . يبدو أن «الأرواح» وجدت من أصول استعراض النيمبوتسو تضريةَ الكلبين حتى الجنون . وكلما ضُربَ كلبٌ ارتفعت صيحة ابتهاج وحشيّ من المتفرجين .

ملابس «الأرواح» كانت من نوع لم أعهد رؤيته في أي من الرقصات ، سالفَ الأيام . الرجل ارتدى قبعة هامبورغية مع سترة صباح سوداء وصدارٍ أسود يماثلها لكن مع مساحة عارية من الصدر ، بادية . كانت ملابس جدي الأكبر المسائية ، التي وجدتُها مرمية في غرفة المخزن ، من قبلُ ، مع قبّة قميص منشّاة . وتساءلتُ عن سبب إلغائهم القميص من نشور «الأرواح» الرسمي . ألم يناسب مؤدي الدور ؟ أم أن القماش اهترأ ؟ أم أنه رُفض بسبب عادات المؤدي ، مرتدي البدلة ، الذي كان شاباً ضخماً ، يفخر بأنه ارتدى ملابس خفيفة ؟ في القبعة شقوقٌ قُصَّتْ لتناسب قحف الرأس الذي كان مثل خوذة . من الشق في الخلف المنفتح في مثلثٍ يلمح المرءُ بعضاً من رقبة بيضاء يعلوها شعر أسود أشعث . كان يسير منحني الجسم الى أمام ، في انحناءات أرستقراطية ، مؤدياً وهو يمضي عدة انحناءات للمتفرجين حوله . كان يُضرّي الكلاب ، لكنه يرمي لها فجأة بقطعة قذرة من السمك المجفف الذي يحفظه في جيب سترته الصباحية . الكلاب تندفع مسعورةً هنا وهناك ، تمزِّقُ بمخالبَ حادّةٍ ، الثلجَ الأسود الموطوءَ ، وتنبح مسعورةً .

دور «الروح» الثاني الذي كان يسير في أعقاب الأول ، أدتْه البنتُ الممتلئة التي رأيتها أمس الأول في مكتب السوبر ماركت ، وهي ترتدي

زيّاً كورياً ناصع البياض . الشريطان الخافقان من الخصر الضيق العالي للقميص ، والتنورة الطويلة التي تصدر حفيفاً خفيفاً في النسيم ، استثارت ذكرياتٍ أخرى عن الحرير الأبيض . تبدو الثياب جديدة تماماً ، ولستُ أدري من أي مخبأٍ نبشوها ليستعملوها زيّاً في رقصة النيمبوتسو . يُحتمل أن شبّان الوادي الذين أغاروا على المستوطنة الكورية يوم قُتل س لم يكتفوا بنهب المُسْكر والحلوى ، وإنما سلبوا أيضاً بعضاً من أجمل ثياب الفتيات الكوريات واحتفظوا بها مخبأةً لأكثر من عشرين عاماً . وأظن أنهم في الغارة الأولى لم يرتكبوا القتل فقط ، بل فعلاً شنيعاً أيضاً لا يمكن أن يكفِّر عنه حتى موت س وحده ، ومعرفة هذا الأمر هي التي جعلت س حتى بعد أن قرر أن يكون كبشَ الفداء في الإغارة الثانية ، ينطرح في حالة من الكآبة اليائسة على الأرضية في الغرفة الخلفية بالطابق الأسفل من المستودع . في ما يتعلق بالكوريّ القتيل يكفي تقديم أهالي الوادي جثة س ، لتبرئة ذمّتهم ، إذاً ، ثمت جريمة أخرى كانت وراء بيع القريةِ الأرضَ التي تقوم عليها المستوطَنة . كانت الفتاة تمشي ، بهيةً ، متوردةً ، مهتاجةً ، خلف الشاب ذي القبعة الهامبورغية وسترة الصباح ، ووجهها مبتسمٌ الابتسامة المثارة الأخّاذة لنجمة اللحظة ، وعيناها نصف مغمضتين انتشاءً ، وجسمُها يلتفُّ بالثياب البيض التي لابد أن إخوتها الكبار في صيف ١٩٤٥ ، انتزعوها من الفتاة بالمستوطنة الكورية ، بعد أن شقّوا طريقهم .

المتفرجون أيضاً كانوا مرتاحين ، وصيحات الفرح ـ بعضها بريء ، وبعضها قاسٍ ـ تنطلق من وجوههم المبتسمة . وبين المتفرجين رأيتُ نساء «الريف» اللواتي كن جئنَ غسقَ أمس ، يرتدين ، كعهدهن ، كسوةَ العمل في الغور ، ويبعث وجودُهنّ ذاتُه يأساً قاتماً ، وهن يقدّمن مطلبهنّ . كنّ في الكسوة نفسها ، رداء الفلاحات المخطط بالنيليّ ، لكنهنّ اليوم تفوّقن

على الجميع بقهقهاتهنّ البهيجة . إن «أرواح» الإمبراطور وزوجته ذات الملابس الكورية ، قد أوقدت ، من جديد ، إثارةً ، في هؤلاء الناس كلهم ، سواء أهل الوادي أو «الريف» .

بحثت عن تاكاشي في الحشد ، لكن تماوجَ الحشد مع حركات «الأرواح» والكلاب داخل الحلقة كان جدّ شديد حتى تعذّرَ عليّ التركيز ، فحوّلتُ نظري بعد أن كَلّ ، لألمح زوجتي واقفةً على عتبة البيت الرئيس ، وقد تطاولتْ لتنظر فوق رؤوس الحشد ، الى الفسحة الدائرية . يدها اليمنى تسندها الى عضادة الباب ، ويدها اليسرى تظلل عينيها اتقاء الشمس ، وهي تراقب الرقصة . يدها تلقي ظلاً على جبينها ، وعينيها ، وأنفها ، فلم أستطع أن أتبين تعبير وجهها . لكن كان واضحاً جداً أنها مرتاحة وذات جاذبية أنثوية ، مثل تنورة الحرير الأبيض ذات الطيّات الكثيرة التي ترتديها «روح» الفتاة الكورية… وهي بعيدةٌ البعدَ كله عن المرأة التعيسة المحبَطة المنهَكة التي كنت أتوقّعُها بلا أساس . وأدركتُ أنها استطاعت بفضل تاكاشي أن تبرأ من الإحساس باستحالة الجنس ، الإحساس الذي انتهشَ قلبَ حياتنا الزوجية مثل سرطان . للمرة الأولى ، منذ زواجنا ، أستطيع أن أراها كائناً مستقلاً ، بحقٍّ . اليد التي تظلل عينيها تحركتْ شيئاً ، مهددةً بالتعريض للشمس ، الجزءَ العلويَّ من ملامحها التي غدت ناعمةً هانئةً أخيراً . تراجعتُ عن النافذة في حركةٍ انعكاسية ، كأني خائفُ من أن رؤيتي المباشرة لهما ستحوّلني إلى حَجَر . هوشيو ، الذي غدا الآن أكثر اهتماماً بالجلبة خارج المستودع ، من أساه لأنه مهجورٌ ، جاء خفيفاً خلفي ، وضغطَ أنفه على النافذة ، مكاني . ذهبتُ وانطرحتُ قرب الطاولة ، ووجهي الى أعلى ، أنظرُ الى عوارض الزيلكوفا السود . الآن وقد أعطاني صاحبي ظهره ، مستغرقاً تماماً في الرقصة الجديدة ، وجدتُني لأول مرة بعد

سماعي خيانةَ زوجتي ، متحرراً تحرراً كاملاً من نظرات الآخرين . أنا متمددٌ هناك ، أتنفسُ بسلامٍ ، مرسلاً الدم من قلبي سبعين مرة كل دقيقة ، وساحباً إياه ، وشاعراً شعوراً خافتاً بالدرجات الثماني والتسعين فهرنهايت من الحرارة داخل جسدي .

في مركز رأسي بدا أني أحسُ بالدم ذي الحرارة الأعلى من حرارة الجسد ، يندفع دائراً ، مغمغماً ، في دوّامةٍ صغيرة . ثم ظهرت صورتان لا علاقة لإحداهما بالأخرى ، فأرسلتُ عين الوعي الى أسفل حيث ظلام رأسي يضيئه نورُهما ، فأغلقتُ عيني الأخرى ، السليمة . الصورة الأولى كانت مشهداً حدث في الفجر يوم غادرَ أبي الى الصين في رحلته الأخيرة . وكانت أمي واقفةً عند عتبة المنزل توجه العمال الذين يحملون حقائب أبي الى البلدة التي على شاطئ البحر . حين اكتشف أبي أين تقف ضربها في نوبة غضب ، ثم انطلق ، تاركاً إياها فاقدةً الوعي ، ملطخةً بالدم النازف من أنفها ، بينما جدتي تشرح للصغار أن المرأة إذ تقف عند العتبة فإن شراً مستطيراً سيلحق بربّ الأسرة . أمي رفضتْ دائماً هذا المعتقد الفولكلوري . هي ، بكل بساطة ، كرهت أن يسافر أبي وهو على هذه الحالة العنيفة ، وامتعضت من جدتي لأنها حاولت الدفاع عن فعل ابنها . حتى والحالةُ هذه ، لم أستطع ، حين مات أبي نتيجة تلك الرحلة ، إلا أن أشعر شعوراً غامضاً بالهيبة إزاء أمي ، وأن أتساءل إن لم تكن هي تؤمن ، فعلاً ، بهذا التابو ، حتى أكثر من جدتي ، وأنها وقفتْ على العتبة ، عامدةً . وتساءلتُ أيضاً عما إذا كان إدراكُ أبي مقصدها هو الذي جعله يتصرف بتلك القسوة ، ويمنع جدتي والعمال من القيام بأي محاولةٍ لإيقافه .

الصورة الثانية كانت تمثل التلهف ، غامضاً ، وغير مُجْدٍ ، لجسد زوجتي العاري ، شكلاً ولوناً . حاولتُ أن أصور شيئاً جميلاً وشهوانياً ،

لكن الرؤى الوحيدة الواضحة التي حققتُها ـ وكلها محسوبة لإثارة رفضٍ غَرَزيّ عميق ـ كانت لباطن قدميها ، وقد اكتسب الملمح الواقعي بسبب ما رواه الشاهدُ عن خيانتها ، أو لشرجها حيث خلّفَ فَطْرٌ نتوءاً لحمياً ، وكان الفَطْرُ تسبّبَ عن نزوةٍ عابرة من جانبنا لممارسة جنسية شاذة . الغيرة غدت بالتدريج حقيقة موضوعية تلتصق ساخنةً وخشنةً في قصباتي الهوائية كأنني استنشقتُ غازاً ساماً . الأبخرة المزعجة ذاتها ضربتْ عين وعيي ، ولهذا ضاعت تفاصيل جسدها في تشوُّشٍ محمرٍّ . وتولّدَ لديّ إحساسٌ مجفلٌ مباغتٌ بأني لم أمتلكها حقيقةً ، البتة...

«ميتسو!» نادى من أسفل السلّم ، صوتٌ معافى ، مفعمٌ بالحماسة الحيوانية والثقة . كان تاكاشي .

فتحت عيني لأرى ظهر هوشيو يتحرك وينسحب حيث يقف ملتصقاً بالنافذة . الآن تنحدر الى الوادي موسيقى النيمبوتسو ونباح الكلاب وهتاف الناس المرح .

«ميتسو!» نادى تاكاشي ثانيةً ، بصوتٍ أكثر وداً من قبل . غيرَ ملتفتٍ الى هوشي الذي تحرّك انعكاسياً لمنعي ، هبطتُ السلّم الى منتصفه وجلستُ . كان تاكاشي يقف في المدخل ونور الخارج خلفه ، وكان يلف على رأسه عمامةً كالصوف الذي يحمل ألوان قوس قزح . لم يكن وجهه وجسمه فقط المستديران نحوي ، في الظلال ، بل ذراعاه الممتدتان أيضاً . لو أردت أن أعامله ، بالتساوي ، لكان عليّ أن أُبقي وجهي ، استراتيجياً ، في العتمة أيضاً .

«ميتسو ، هل أخبرك هوشيو بما فعلتُ ؟» سألني الشخص الأسود ، ملتمعاً بفقاقع ضوءٍ دقيقةٍ مثل الشمس المنعكسة على بحر مائج . كان الشكل يبدو مثل سمندل يخرج من الماء .

«نعم ، أخبرني» . قلتُ هادئاً ، أردتُ أن أبين كم أنا غير عاطفي ، مقارنةً به . إنه يريد الآن أن يتباهى بخيانته أمام الديّوث بالتلهف نفسه الذي كان عنده وهو طفلٌ يتوسّلُ إليّ أن أراقبه بينما يترك أم أربعة وأربعين صغيرة تافهة تهاجم إصبعه .

«لم أفعلها للجنس وحده . كانت طريقة لبلوغ معنى هامٍ جداً عندي» .

هززتُ رأسي صامتاً ، لأومئ الى شكي في ما قال . كان تاكاشي مثل الكلاب التي تنبح «الأرواحَ» يترجّح بين الاهتياج والفهم المتوتر ، وقد أصاب سهمُ لؤمه هدفه تماماً .

احتجَّ مستنكراً : «حقيقةً ، لم أفعلها للجنس . والواقع أنني لا أشعر بأي رغبة مطلقاً . عليّ أن أفعل كل أنواع الأشياء بنفسي حتى أنشط كما يلزم» .

للحظةٍ أحسستُ بوجهي يحمرّ ساخناً ، في مزيج من الغضب والرغبة في الضحك . لقد حررني من كل مشاعر الغيرة . إذاً ، عليه أن يفعل كل أنواع الأشياء «بنفسه» ، أتراه فعل ؟ جعلني الغضب أرتجف ، وفي الوقت نفسه كان عليّ أن أكزّ على أسناني كي لا أضحك . لابد أنه عانى الشدائد من العمل «بنفسه»! لمَ لم يدرك الفتى المبتذل ، أن زوجتي باعتبارها كائناًبشرياً ناضجاً جنسياً (لو أنها نفضت عنها فعلاً شعور الاستحالة الجنسية) هي التي حققت شيئاً ، «بنفسها» . بأي استماتةٍ أدى فعل خيانته الأول ، مذعوراً من الإخفاق في القذف بالطريقة السليمة ، فيلحقه إحساسُ بالعار ليس فقط إزاء شريكته في الخيانة ، وإنما إزائي أنا أيضاً! كان للمسألة كلها تأثير ذكرى شنيعة من فترة المراهقة .

قال وهو يهزّ منزعجاً لمّتَه السوداء : «ميتسو ، سوف أتزوج ناتسومي . آملُ في ألا تتدخل بيننا» .

سألته مستهزئاً : «هل ستجرب كل أنواع الأشياء «بنفسك» حتى بعد أن تتزوج ، دون أن تريدها ؟» .

«الأمر يخصّني» . صاح ليغطي على مهانته في تظاهرٍ بالغضب .

«حسناً . الأمر يخصّك ويخصّ ناتسومي . لكن هذا يفترض بقاءك على قيد الحياة ، بعد انهيار «انتفاضتك» ، وخروجك من الوادي سالماً ، مصطحباً إياها معك» .

«إسمعْ ، الانتفاضة قد عادت الى مجراها . وأنت رأيتَ كيف جُنَّ أهالي الوادي و«الريف» بالأرواح ، أليس كذلك ؟ لقد منحنا الانتفاضة دماً جديداً . لقد أعدنا قوّتها بجرعة من دم الخيال!» استعاد صوته الهياج الذي كان فيه حين ناداني ، أولاً ، في الطابق الأعلى : «كانوا خائفين من أن عنفنا قد لا يتّسم بالسلطة تلك التي لدى الإمبراطور وعصابته ، لكنهم حين ضحكوا على «الروحين» اكتسبوا المقدرة العاطفية على احتقاره! لقد استعادوا الآن شجاعة أن يروا أن الرجل الذي يدعونه «إمبراطور السوبر ماركتات» ليس سوى حطّاب ، كوريّ استطاع أن يكدِّس قدراً معيناً من الثروة . ولهذا أبدوا على الفور احتقارهم ، وحوّلوا مصلحتهم الذاتية بنهب الأدوات الكهربائية وكل شيء شاهدوه . ما أن يشعروا بأن العدو ضعيف ، حتى يطأوه بأحذيتهم . والحقيقة حاسمة هنا ، هي أن الإمبراطور كوريّ . هم شعروا دائماً بتعاسة حياتهم ، وظلوا وضيعين كأنهم أتفه مخاليق الغابة . لكنهم الآن يتذكرون رِفعتّهم اللذيذة إزاء الكوريين قبل الحرب وأثناءها . إنهم سكارى بخمرة اكتشافهم صعاليك أسوأ منهم ، وصاروا يرون في أنفسهم جبابرة . إنهم مثل سرب ذباب ، وليس عليّ إلا أن أنظمهم كي أكون قادراً على مقاومة الإمبراطور الى ما لا نهاية ، ربما كانوا صغاراً كريهين كالذباب ، لكن هذا بالضبط هو ما يمنحهم في حال اجتماعهم قوةً خاصة من لَدُنِّهم» .

«لكن أتظن «ذباب»ك ، لن يعرف يوماً ، كم أنت تحتقر الناس هنا ؟ انتظرْ ترَ ـ ستجد قوة الذباب موجهةً ضدك في أحد الأيام! والواقع ، أن «انتفاضتك» قد لا تكتمل حتى يحدث هذا» .

أعلن تاكاشي الذي هدأ الآن : «هذا هو بالضبط ، المنظور الزائف ، لشخصٍ متشائم يطلُّ على الوادي من بيته المرتفع . إن انتفاضة الأيام الثلاثة الماضية قد جعلت نظرة نخبة الذباب ثوريةً ، وهذه النخبة متميزة فوق عموم الذباب . أنا أعني بـ«النخبة» مالكي الأراضي الغابيّة . لقد آمنوا ، دائماً ، بأن الحياة في الوادي حتى لو تدهورت بالكامل ، وهاجر سكان الغور أو ماتوا ، فإن حياتهم هم ، في الأقل ، ليس عليها سوى أن تنتظر حتى تعود الأشجار كبيرة ، ويصبح قطعُ الخشب ممكناً ، ثانيةً . لكن هذه الانتفاضة أعطتهم البرهان العمليّ على أن الذباب اليائس ينبغي أن يُحسَبَ له حساب . لقد كان درساً عملياً في تاريخ أحداث ١٨٦٠ . والأكثر من ذلك ، أنهم لحظةَ يعرفون كحقيقة ملموسة ـ ينبغي الاعتراف بأن الملموسية زائفة ، لكن ، على أي حال ـ حين يعرفون أن «روح» الإمبراطور ليس سوى كوريّ مسكين ، يغدون جميعاً وطنيين بين ليلة وضحاها . سيكولوجياً ، نجد هذه الوطنية ، هي من نوع الوطنية ذاتها ، بالمعنى المحلي الضيق ، الذي أبداه أسلافُهم المقملون ، حين جلسوا على كراسي جمعية المحافظة ـ وقد توافرَ لديهم المالُ من قَطْعِ جزء من أشجار الغابة ـ مع أنهم لا يملكون برنامجاً سياسياً يقدِّمونه . إن لديهم أفكاراً حول إعادة التحكم الاقتصادي في الوادي الى أيدي اليابانيين . ولحسن حظهم ، فإن العدو هو ذلك الإمبراطور الغبي الذي يسير في موكبٍ ، مرتدياً سترة صباح قديمة بدون قميص ، دع عنك الربطة والقفّاز... الفكرة ، إذاً ، التي تحوّلتْ الى خطة محددة ، هي أن يضع عددٌ منهم أسهمهم للإستيلاء

على السوبر ماركت ، مع خسائر النهب ، وأن يدار إدارة مشتركةً بأيدي أصحاب دكاكين الوادي الذين بارتْ تجارتهم . الكاهن الشاب ظل يتجول مندفعاً ، يمهد السبيل . تعرف ، يا ميتسو ، أن هذا الكاهن هو أكثر من مجرد فيلسوف ـ فلديه حماسة الثوري الذي يضع أفكاره البعيدة موضع التطبيق . ثم أنه الشخص الوحيد ، غير الأناني ، في الغور . إنه حليفنا المضمون! » .

قلت : « أتفقُ معك على أنه متفانٍ في انضمامه الى صف أهل الوادي العاديين ، لأن هذا هو عمل كاهن المعبد ، منذ أجيال وأجيال ، يا تاكا . لكن لا يذهبَنَّ بك الظنُّ الى أنه مثلك يحتقر أهل الوادي وإن كان الى جانبهم » .

« أنا لا أهتمّ . أنا أقود انتفاضة . انتفاضة ناجحة أيضاً . أنا « فاعلُ شرٍ مؤثر » مثل أخينا الأكبر في ساحة المعركة » ، ثم ضحك « أنا أريد حلفاء حقيقيين . كل ما أحتاجه هو مَظهر التعاون » .

قلت وأنا أنهض : « أنت تعرف الأمور أفضل ، يا تاكا ، لهذا من الخير أن تعود الى ساحة معركتك . أخشى ألا أشاركك شعور الفكاهة إزاءها » .

سألني : « كيف حال هوشيو الآن ؟ كن لطيفاً معه . لقد مرضَ بعد أن رآنا نمارس الحب . إنه صبيّ فقط! » ، ثم أسرع خارجاً .

في تلك اللحظة واتتني ، فجأةً ، فكرةٌ تحوّلتْ الى اعتقاد ، وهي أن مشروع تاكاشي قد ينجح . حتى لو أخفقت « الانتفاضة » فإني واثقٌ من أنه سيطفو على الوحل ، وينجو ، ليبدأ حياة جديدة ، عادية ، وهادئة ، حياة زوجية بلا أحداث مع ناتسومي ، المتحررة هي الأخرى ، من أعباء أزمتها الشخصية . والأكثر من ذلك أن الحياة الهادئة ، ستكون حياة شخص ، كان يوماً ما ، مخلوق عنفٍ ، يتباهى بذكرى أنه عاش أحداثاً حافلة . آنذاك ،

ستسدُ حياتُه الرتيبةُ الفجوةَ بين الرغبة في جَلد الذات التي سبَّبَها شيءٌ مجهولٌ في داخله ، وبين معرفته حبَّه للعنف . الرسالة التي قرأتُها اليوم نفسه ، رسالة شقيق جدي الأكبر قوَّتْ من اعتقادي . فبالرغم من أنه قاد انتفاضة انتهت الى الخراب واليأس ، إلا أنه هرب ، وعاش ، متمتعاً بحياته الهادئة وشيخوخته .

صعدت الى الطابق الأعلى ، ثانيةً ، ووجدتُ الشابَ ـ وقد هجره معبوده الحارس ، ولا أقول ضحكَ عليه ـ لايزال ملتصقاً بالنافذة . وبدون أن يستدير ، اشتكى :

«الثلج في الحديقة ، رطبٌ ولزجٌ من وطء هؤلاء الناس . إنني أكرهه ـ فهو يعرقل السيارة ، وليس بإمكانك أن تعمل له شيئاً » .

في ساعة متأخرة من الليل ، بينما أنا وهوشيو متمددان ، جنباً الى جنب ، في بطانياتنا ، وقد حَضَنّا جسدينا الباردين ، ونحن نُمضي وقتنا يقظينِ ، محاولين إبعادَ بردِ ذوبان الثلج ، صعدت زوجتي ، فجأةً ، صامتةً ، على السلّم ، وقالت بصوت بغيضٍ ، أجشّ ، منهكٍ ، دون أن تعنى بإمكان أننا نغطّ في نومنا ، في الظلام :

«تعالوا الى البيت الرئيس . حاول تاكا اغتصاب فتاةٍ من الوادي وقَتَلها . الفريقُ هجره ، وعادوا الى بيوتهم . وفي الصباح سيأتي رجال الوادي ليأخذوه » .

وقفت وهوشيو ، في الظلام . لفترةٍ ظللنا صامتين ، بلا حراك ، ننصت الى نَفَس زوجتي اللاهث وقد بدأت تنتحب بوهَنٍ .

«الأفضل أن نذهب» أرغمتُ نفسي على القول . لكن جسدي ثقُلَ فجأةً مثل قربةٍ امتلأتْ ماءً ، وكان يُسحَبُ ، بلا مقاومة ، الى أسفل ، بوساطة نعاسٍ عسليَ ، هو على الضد تماماً من أرق اللحظة الفائتة . لو فقط

أغمضتُ عينيّ ، وتركت نفسي أسقط الى وراء ، وألتفّ مثل جنين ، فلسوف أنكرُ الواقع كله ، كأن الواقع لم يعد قائماً ، ولسوف يختفي ، آنذاك ، أخي المجرمُ ، والجريمةُ ذاتُها أيضاً .

لكني ، في النهاية ، هززتُ رأسي مستجيباً ، ومردداً : «الأفضل أن نذهب . الأفضل أن نذهب» ، ورفعتُ نفسي ، ببطء ، على قدميّ .

مَنْجاةٌ منَ اليأس

صامتين ، شققنا طريقنا ، زوجتي ، والشابّ ، وأنا ، عبر الحديقة الأمامية ، وكعوبُنا تقعقع ، مترنحةً في الوحل نصف المتجمد . تطلعتُ الى فراغ الوادي المظلم الساكن ، وهو الآن هوةٌ بلا قاع ، يصّاعدُ من أعماقها ريح باردة شديدة الرطوبة . باب البيت الرئيس مفتوح . توقفنا مجموعةً مترددةً كأن الضوء الواهن المنسلّ من الداخل يصدُّنا ، ثم عبرنا العتبة ، معاً ، في النهاية . تاكاشي ، جالسٌ ، مطأطئ الرأس قرب الموقد المفتوح . تاكاشي ممسكٌ ببندقية الصيد التي كانت منكسرةً مفتوحة ، يصقلها ماهراً بيدٍ واحدة ، كأنه فعل الشيءَ ذاته سنين وسنين . الرجل الضئيل الواقف ساكناً تماماً ، بمواجهته ، في المطبخ المظلم ، تحرّكَ لصوت دخولنا ، لكنه وجد صعوبةً حتى في إدارة رأسه كي ينظر إلينا ، فهو متخشبٌ من التوتر حتى ليمكن أن ينهار في أي لحظة . لقد كان جي الناسك .

أوقفَ تاكاشي انشغاله ، في نوع من التردد ، ثم نظر إلينا . وجهه ذو البشرة القاتمة كان مغضّناً بل منكمشاً . شعره ووجهه ابتداءً من أذنه اليسرى نزولاً الى زاوية فمه كانا ملوّثين بشيء أسود لزج . وكأنه في حلم ، بسط يديه كلتيهما نحوي . خنصرُ كفه اليسرى وبنصرُها كانا مختفيين تحت ضمادٍ

عريض ، لكن بقية اليدين كانت مغطاة ، ببقعٍ سودٍ . لم يهتم بمسح يديه قبل الشروع في تنظيف البندقية . كان دماً ذلك الذي يعلو يديه ورأسه . حرّك أصابعه الممدودة ، ناظراً بعيني قردٍ حزين ، بينما أنا أرتدُّ الى الوراء ، ثم قهقه قهقهةً ضعيفةً استمرتْ حتى كأنه ينفخ فقاعات من بين شفتيه المزمومتين . حيوانيةُ الأمر جعلتني أنكمش من جديد . فجأةً ، رأت زوجتي التي خطتْ وحدها لتقف الى جانب الموقد ، تلكمُ الابتسامة المتجمدة على فم تاكاشي . ثم تهاوت على ركبتيها ، وقد انزلقَ نهدٌ مستديرٌ واحدٌ من الكيمونو الليلي الذي ترتديه ، مثل جزءٍ سليمٍ نتأ من ماكنة محطّمة . مسحتْ مراراً قبضتَها على ثوبها الليلي ، ولم تستر نهدَها إلا عندما زال الدم .

اختفتْ ابتسامة تاكاشي على الفور . نظر إليّ متسائلاً ، لكنه لم ينظر ، بتاتاً ، الى المرأة التي ضربتْه . شفته العليا ملطخة بالدم الطريّ ، لكنه دم سال من أنفه هو هذه المرة . مطّ شفتيه وسحبَ بصوتٍ عالٍ نَفَساً عميقاً ، ممتصّاً بهذا النفَس الدمَ من منخريه . كنت متأكداً من أنه ابتلع دمَه . اسودَّ وجهُه أكثر فأكثر حتى صار رأسه مثل طائر قاتم الريش . عادت إليّ حقيقةُ أنه نام مع زوجتي ، ضمن واقعٍ جديدٍ ومقْنعٍ . نقلتْ بصرَها من تاكاشي إلى الناسك ، الذي تراجع منكفئاً نحو الظلال قرب الموقد ، خائفاً من أنها ستضربه ، بدوره .

« حاولتُ أن أغتصبَ تلك الدُّمية الصغيرة ذات الجاذبية الجنسية التي لقيتَها أمس ، يا ميتسو ، لكن العاهرة الصغيرة خاضت ، بالفعل ، معركةً . ركلتني في أحشائي ، وحاولتْ أن تفقأ عينيّ . جُننتُ . طرحتها على (جلمود الحوت) مثبِّتاً إياها بركبتيَّ ، وقيّدتُ ذراعيها بيدٍ واحدة ، ثم التقطتُ حجراً باليد الطليقة وهشّمتُ رأسها به . صرختْ : لا! لا! وحرّكت رأسها من جهة الى أخرى لتبيّن ما تعنيه ، لكني ضربتُها ثانيةً ، ولم أتوقّف إلا بعد أن فلقتُ

جمجمتها » . كأن الصوت الواهن المشوَّش يأتي من مكانٍ ما ، بعيدٍ . اليدان الملطختان بالدم مبسوطتان ، كأنه يريد التأكد من أني رأيتهما تماماً . لكن في أعماق الصوت رنة استعراضٍ متحدٍ ، كأنه يريد تعرية عاره وكشفه أمام العالم . والطريقة التي تحدّث بها افتقدتْ كلّ أداءٍ ووجهةٍ . كان يمكن لصوته أن يظل يصدر الى الأبد . لقد وجدته مدعاة اشمئزاز .

مضى يقول : «عندما كنت أضربها حتى الموت ، كان جي الناسك مختبئاً خلف (جلمود الحوت) . لقد رأى كل شيء ، فهو ، إذاً ، شاهدٌ . بمستطاع جي أن يبصر في الظلام! » .

نادى ، واثقاً ، ناحيةَ الظلال المظلمة عند الموقد حيث اختبأ شاهدُ جريمته ـ « جي! جي! » كأنه يستدعي شخصاً ضعيفاً ، لكن مقرَّباً ، من رعاياه ، الى جانبه ـ لكن الناسك ، بدلاً من أن يجيب أو يتحرك ، لم يستجبْ ولم يتحرك .

«لماذا أردتَ أن تغتصبها ـ هل كنتَ سكران ؟ » ، سألتُ فقط كي أوقفَ تدفُّقَ كلامه المثير للأعصاب . لم يكن لديّ أي اهتمام بجذور رغبته في اغتصاب الفتاة ، الفتاة ذات الوجه المتورد ، التي ناسبتْها الثياب الكوريةُ جيداً .

«لم أكن سكران . إنني أطبِّقُ ما أدعو إليه من مواجهة الواقع صاحياً . ولقد فعلتُ ذلك دائماً ، يا ميتسو . كنت صاحياً . لكني لم أستطع أن أمنع نفسي . كان عليّ أن أغتصبها! » ابتسامةٌ واهنةٌ مزعجة نبضتْ تحت البشرة المتوترة لوجهه .

قلتُ : «لكن ألم تقل إنك لم تشعر برغبةٍ في ناتسومي وأنتما في الفراش ؟ » . كنتُ أطلقُ قذيفة هاون من الخبث ضده ، وضد زوجتي التي كانت لاتزال جالسةً القرفصاء الى جانبه ، ناظرةً إليه من جديد ، بذهول .

باشمئزاز متعمق لاحظتُ التقطيب المشينَ على وجه تاكاشي ، لكن عيني زوجتي ظلتا مثبتتين عليه ، ولم يُبدِ القناعُ الأبيضُ لملامحها أي تعبير سوى الدهشة المذهولة . الوجه الملطخ بالدم الميت كان أسود ومنتفخاً الآن بالدم الحي الذي يجري تحت البشرة ، وهو الآن من يريد أن يصرخ : « لا! لا! » في اضطرابٍ مذعورٍ وعيبٍ . كان ردُّ فعله على فضحه أمام زوجتي يُظهر حساسيةً مفرطة وفجاجةً لا تناسبان « رجل العنف » . أعتقدُ أن مقصده من الجلوس هناك حتى بدون غسل دم الضحية عنه ، ليس فقط لإبراز لُطَخ الدم أمامي ، وإنما ليؤكد أيضاً استمراريته باعتباره مجرماً . لقد جهدَ في أن يستبدل بالامتعاض الذي يغمر وجهه ، انفعالاً قاسياً أكثر . نظر إليّ نظرة ماكرةً ، ثم قال متغنجاً كأن رغبة غير مشبعة لاتزال تحتدم في أحشائه :

« كانت قطعةَ مؤخرةٍ لطيفة . شابة أيضاً . تلك الصبية التي تهيّجك! » .

زوجتي وقد شعرت بالإذلال ، زحفت على ركبتيها الى الخلف . لم تعد تراقب تاكاشي أو أي أحد آخر ، وبدا لي أنني ألمح التماع غضبٍ في اليأس الغامر لعينيها الغضيضتين المعتمتين . لم تعد عشيقة تاكاشي . إن هذا لأمرٌ أكيد . لكن هذا لا يعني أنها عادت إليّ . في قصص الخيانة الزوجية يكون هذا دائماً قدَرَ الزوج الذي يتخلص من عشيق زوجته .

هذا لا يعني أنني عاقبتُه حقاً : أنا ببساطةٍ واحتقارٍ ، أكدتُ أنه لايزال الطفل الذي ظهر في قصة أم أربعة وأربعين . الشعور بالاحتقار أعاد لي قدراتي الحرة في الملاحظة . ولأول مرة منذ سماعي أنباء الفخّ المميت الذي وقع فيه تاكاشي عشوائياً ، تحررت من سترة التكتيف التي كنت أرتديها ، سترة التهيُّب والإحباط . خطوتُ لأحتل المكان الذي أخْلته زوجتي ، مشيراً الى هوشيو كي يتبعني . بحركة خاطفة لا تناسب جوّه الخامد سحب تاكاشي البندقية أقرب إليه ، وجعل مسافة بيننا ، بحيث نتواجه عند بُعدٍ مناسب للنقاش .

قلتُ مبتدئاً انتقادي أفعاله : « تاكا ، تقول إنك أردت اغتصاب الفتاة ، وهشّمتَ رأسها حتى الموت بحجرٍ ، لأنها قاومتْ . لكن هذه كذبةٌ ، أليست كذلك ؟ » .

أجاب بصوتٍ امتلأ على الفور ريبةً : « سَلْ جي ـ دعه يخبرك بما رأى! » .

« إنه مخبولٌ ، يا تاكا ، سوف يجترّ كل ما تضعه في رأسه . أنا لا أعتقد أنك ارتكبت قتلاً » .

« كيف بمقدورك أن تتأكد ؟ انظر الى الدم الذي لطّخني . اذهبْ الى بيتها حيث نقلها أعضاء الفريق ، وانظرْ بنفسك . لقد تهشّم رأسها فصار عجينةً . كيف تستطيع الوقوف هناك وأنت تشتمني ، واثقاً هكذا من نظرياتك المجنونة التي تلفّقُها ؟ » .

« لا أشكُّ في أنها ميتة . ربما يكون رأسها انفلقَ نصفين ، هذه الصبية المسكينة . لكني أشك في أن ما حدث كان جريمةً مدبَّرة . أنت لا تستطيع فعلها . حتى وأنت صبيّ ، عندما تركتَ أم أربعة وأربعين تَخِزُ إصبعك فإنك حرصتَ على اختيار واحدة من النوع الذي لا يلدغ . أنت نغلٌ جبانٌ ، أليس كذلك ؟ أراهنُ أنها ماتت في حادثة! » .

قال : « صباح غد ، حين يأتي الذباب أسراباً غاضبةً من الوادي ، ليأخذوني ، فسيخبرهم جي بما حدث . لمَ لا تستمع ، إذاً ، بدلاً من أن تظل تحلم بنفسك ؟ سوف يخبرك الآن . سيخبرك كيف ضربتها بحجر ـ تلك العاهرة الصغيرة ، التي فكّرت أنها ستمضي معي ـ بينما هي تقاوم مثل قطة مجنونة . هذا الأمر يريك كم هو خطِرٌ أن يعبث أحدٌ بقائد انتفاضة عارمة » .

« من سيصدق شهادة مجنون ؟ » قلت وأنا أشعر بنبضةٍ أولى من الإشفاق على هذا الذي يتمنى أن يكون قاتلاً ، والمتشبث حدَّ العناد بخرافاته الصبيانية

« خاصة أهل الوادي الذين يعرفون منذ عشرات السنين كم هو مجنون » .

حين ورد اسمُه ، أخرجَ جي نصفه الأعلى من وراء الموقد ، وأمالَ أذناً قزمةً ، مثل خصلة شعر مرقّطة بالبني والأشيب ، كي يلتقط حديثنا . كأننا قاضيان جلسا ليقررا مصيره ، وهما يناقشان إن كان عيشُه ، عيشُ الناسك المخبول ، يشكل جريمةً أم لا . لكنه ، وإن أنصتَ مَليّاً ، لم يُبدِ أي علامة فهمٍ ، كأن حديثنا بلسانٍ أجنبي . ومثل الغارق في تفكير عميق ، أطلقَ آهةً مسموعة .

نادى تاكاشي مشجعاً الشيخ : « هوِّنْ عليك ، يا جي! ليس لديك ما تفعله حتى الغد . إذاً ، لمَ لا تذهب وتنام في غرفة المؤونة ، بعيداً عن الناس ؟ » .

وعلى الفور ، اندفع جي في الظلام ، دون أن يطلق صوتاً أكثر من حيوانٍ ليليّ ما . تصوَّرتُ أن تاكاشي لم يُرِدْهُ أن يسمع انتقاداتي لاعترافه . نظريتي القائلة بأن الفتاة ماتت في حادثةٍ ، وأن تاكاشي يستخدم جثمانها لأغراضه الخاصة ـ صارت قناعةً . لكن الشك يظل قائماً بالرغم من ذلك ، تُرى لماذا تعيّن عليه أن يستعمل شهادة رجلٍ مخبولٍ كي يثبت ادعاءه بأنه قاتلٌ ؟ أكان يفكر بتحدي الوادي كله ؟ لو أردتُ ، فباستطاعتي الشهادة أن الجريمة ، إن لم تكن تتصل به إطلاقاً ، فقد كانت حادثةً في الأقل . لكن لتاكاشي فقط أن يقرر قبولَ مساعدتي ، وترك خطته في التواطؤ مع الناسك .

« لماذا قطعتَ بها الطريقَ كله الى (جلمود الحوت) ؟ » . استفسرتُ مثل محامي دفاعٍ ضد رغبات موكِّله . كانت صخرة الحوت جلموداً ضخماً ناهداً على الأرض حيث ينحدر طريق الحصباء خلال الوادي انحداراً حاداً ، نحو الجسر . إنه يكوِّن عنق زجاجة في الطريق ، ويحجب رؤية الجسر . ومهبط الياردات الخمسين من هناك الى الجسر ، ليس حاداً فقط ، وإنما هو ملتوٍ

أيضاً . وهو الموضع الذي تحدث فيه غالباً حوادث السيارات في الوادي ، لكنه لا يصلح ، أبداً ، عشَّ غرام ، في وقتٍ متأخر من ليل الشتاء .

أجاب تاكاشي في جوّه ذاته من الحذر العنيد : « أردت أن أغتصبها على مقعد الستروين ، وكنت أبحث عن أفضل مكانٍ للتوقّف . لو أوقفتَ السيارة جنب الصخرة فلن تجد شخصاً ـ باستثناء جي ـ يقطع الطريق كله من الوادي ليتجسس عليك . كما أن الصخرة تحجبك عن عضو الفريق الذي تمتد نوبة حراسته الليل كله ، عند طرف الجسر » .

« مادمتَ قلتَ إنك أمسكتَ بها لصقَ الصخرة ، وضربتَها بحجر ، فإني أفترضُ أنها قاومت وهربتْ من السيارة ، وأنك أمسكتَ بها ثانيةً ؟ » .

« هذا صحيح » .

« لو أنها قاومت في السيارة ، فلا أظنها فعلتْ ذلك صامتةً . كما لا أعتقد أنها ركضت صامتةً بعد خروجها من السيارة ، أيضاً . لقد كانت عضواً نشطاً في « الانتفاضة » ، والمفترض أنها عارفة بأن أحد أصدقائك يحرس الجسر ، لذا ، من المؤكد أنها صرخت مستنجدةً . أنت تقول أيضاً إنك بعد أن أمسكتَ بها ، وبينما كنتَ تضرب جمجمتها ، ظلت تصرخ : « لا تفعلها! لا تفعلها! » ، إذاً ، لمَ لم يأت الحارس وهو يقف على مبعدة خمسين ياردة فقط ، كي يوقف القتل ؟ » .

« بعد أن أجهزتُ عليها ، اكتشفت أن جي كان يتجسس علينا . وكنت أشرعُ في التحدث إليه ، حين جاء الحارس راكضاً . لقد صُدِم بما فعلتُ ، فانطلق ليأتي بمن يساعده في حمل جسد الفتاة . لهذا أخذتُ جي من خلف الصخرة ، وأركبتُه السيارة ، وجئتُ » .

قلتُ : « شهادة الحارس الشاب ، فقط ، بإمكانها إعطاؤنا صورةً موضوعية عما حدث . إن كان سهلاً عليك الإمساكُ بها فور هروبها ، فلابد

أنه لمحك ، في الأقل ، وأنت تُخرج مخَّها بقطعة الحجارة تلك . الأمرُ كله استغرق بضع دقائق . لهذا ، فلو أن الحارس لم يسمع صرختها من داخل السيارة ، فالمفترضُ فيه أن يكون خلفك تماماًحين ضربتَها ضربتَكَ الأخيرة . أن يكون سمع أنينها في الأقل» .

عدّلَ تاكاشي من كلامه بعد لحظة تفكير : «حين هربت ، فمن الممكن أنني كنتُ عدتُ الى مقعد السائق ، أستديرُ بالسيارة استعداداً للهروب . قد يشهد أنني كنت في السيارة أولَ ما رآني» .

قلتُ وقد شجّعني هذا المدخلُ الجديدُ الواعد : «أنا متأكدٌ تماماً مما قد يقوله ، كان الثلج يذوب ، وقد أخذتَها في السيارة الستروين في جولة على طريق الحصباء ، ثم حدث أمرٌ بينكما ، فقفزت هي من السيارة ، وهشمتْ رأسَها على جلمود الحوت . الدمُ الذي لطّخك سببُه أنك حملتَها بعد الحادث ، أو أنك لطختَ نفسك عمداً بالدم المتدفق من رأسها . ثم أنك كنت تقود السيارة في مكانٍ تسوءُ فيه الرؤيةُ ، ويكون فيه الجسر على مبعدة خمسين ياردةً فقط ، وبسرعةٍ تكفي لتهشيم رأس الفتاة تماماً لو قفزتْ . قُلْ ما تشاء ، غير أنك كنت مشغولاً جداً بالسياقة الى حد أنك لم تلتفت الى الفتاة جنسياً ، دع عنك اغتصابها ـ بالرغم من أن شيئاً ما حدث كي يجعلها تقفز . أما سبب كونك في السيارة حين جاء الحارس فيعود الى أنك ضغطتَ على الكابح وكنتَ تريد الرجوع الى موضع الحادث . ربما أدى صريرُ الكابح الى مجيء الحارس راكضاً . والواقع أنني متأكدٌ من أنك لم تترك السيارة إطلاقاً . ولربما لم تجدها حتى ذهب الحارس ليأتي بأصحابه . أما بالنسبة لـ« جي » فأنا أشك في أنه رأى شيئاً على الإطلاق . وأعتقد أنك التقطتَه على الطريق ، وحشوتَ أذنيه بتفاصيل جريمة قتلك الخيالية» .

جلس تاكاشي صامتاً ، مطأطأ الرأس ، كأنه يلوك ما قلتُه . ومرةً أخرى

عاد حذراً الى قوقعة وحدتِه ، وكان من المستحيل أن تعرف من مَرآه إن كانت تصوّراتي نجحت في تمزيق نسيج جريمته المتبجَّح بها .

« تاكا! » نطقَ هوشيو الذي ظل صامتاً طيلة الوقت ، بصوتٍ طفوليّ ، حادّ النبرة ، مرتجفٍ عنيفاً بسبب شيء أكثر من البرد « أنت تعرف جيداً أنها كانت تريد أن تفعلها معك . حتى في النهار كانت تحاول جرّك الى زاوية مظلمة في البيت . لم تكن بحاجة الى اغتصابها ـ لم يكن عليك إلا إنزال سروالها . أراهنُ على أنها ضايقتك كثيراً بإلحاحها في السيارة ، فانطلقتَ سريعاً ، لتخيفها . أتذكّرُ قولك إنك كنتَ تلهو هكذا في الولايات المتحدة . لذا أراهنُ أنها كانت جدّ مذعورة ، بحيث طار صوابُها وقفزت خارج السيارة لتنقذ نفسها ، إذ كانت متأكدةً من أنك لن تدبِّرها حول المنحنى عند الصخرة! » .

مضيتُ قائلاً وقد شجعتني ملحوظات خبير السيارات : « إن كان الأمر هكذا ، فليس بإمكانك أن تسميه قتلاً ، أليس كذلك ؟ فهو إما حادثٌ أو إهمال . حتى لو كان إهمالاً فهو ليس خطأك بالكامل ، فللفتاة المسكينة أيضاً نصيبٌ جزئيٌّ فيه » .

لايزال تاكاشي صامتاً وهو يلقم البندقية خرطوشةً . فعلَ ذلك باعتناء ، مركّزاً خوف حصول حادث ، لكنني أفهم من وجهه المنكفئ والمعتم تماماً تحت نتوء حاجبيه ، ومن الجسد الخفيف المتصلّب توتُّراً ، أن شيئاً في الداخل يسيطر عليهما ويتحكم فيهما ، قوةً وحشيةً تعجز محاولات الأخرين كلها عن فهمها . وتراءتْ لي صورةٌ غريبة ، هي أن طفلنا الذي ظل منطرحاً ، أسود العينين ، غائب التعبير ، حيّاً ببساطة وهدوء ، قد ترعرع بدون أن يكوِّن صلةً مع العالم الخارجي ، وأنه كان هنا ، الآن ، والدمُ على جسمه يعلن الجريمة التي ارتكبَها . وفجأةً أحسستُ أنني أتبنى الجريمة التي ارتكبها هو . وفجأة

شعرتُ بأن أماني ـ وضمانته الوحيدة ضعف تاكاشي وخذلانه ـ قد بدأ يتهاوى وينفرط .

ومع وثوقي من قدرتي على تبيان لاحقيقية جريمة تاكاشي المدّعاة ، فإن صمته العنيد وهو يجلس منكفئ الوجه في الظل ، يعالج البندقية مثل طفل مستغرقٍ في لعبته الجديدة ، هنا الصمت ثبّتَ ، تدريجاً ، الخوفَ الشنيع ، من أنني كنت أنظر الى حيوان .

دفعني صمتُه الى أن أسأل زوجتي الصامتة مثله : «أتعتقدين أنه ارتكب جريمة مثل هذه ؟» .

جلستْ تفكر ، ولم تعطِ جواباً فورياً . ثم قالت ، بدون أن ترفع بصرَها ، وبصوت جافٍّ يخفي العاطفة :

«مادام يقول إنه قتلها ، فلا أستطيع إلا أن أصدّقه . إنه ليس في الأقل من النمط الذي يكون لديه القتلُ مستحيلاً» .

كانت غير أليفة ، مخلوقة غريبة عصيّة ، لم تسمع كلامي باعتباري محامي دفاع . لقد صمّتْ أذنيها ، وأطبقتْ عينيها ، وجعلت نفسها تستجيب مباشرةً للهالة الواضحة من الإجرام المحيطة بتاكاشي . هو أيضاً تطلّع إليها بعينين مندهشتين ، بريئتين تقريباً ، وعبرَ عميقاً تحت بشرته ، شيءٌ ، مثل الظل السائر لغيمة . ثم قال وهو يفحص بندقيته من جديد : «إنها على صواب . أنا قتلتُ الفتاة ، بضربها مراراً على رأسها بحجر . لم لا تصدّق الأمر ، يا ميتسو ؟» .

«المسألة ليست مسألة لماذا ، ولأي سبب . الأمر ليس أمر تصديقٍ أو إنكار . فقط أقولُ إن من الممكن الا تكون ارتكبتَ القتل» .

«آه . نعم . المعالجة العلمية» . عَرَضَ البندقية بحذر على ركبتيه ، وبيده اليمنى القذرة بدأ يفكّ الشريط القماشي العريض من حول خنصر

وبنصر يده الأخرى ، القذرة أيضاً «أنا لست ضد المعالجة العلمية ، يا ميتسو» .

ظهر شَفٌ مشبعٌ بالدم تحت القماش . كان ملفوفاً بشدة حتى بدا أنه سيظل يفكّه الى الأبد . وأخيراً ظهر إصبعان منكمشان برتقاليان ، وتدفّق الدم فجأةً من الطرفين المدوّرين . مدَّ إليّ جروحه المفتوحة ، والدم يقطر على ركبته ، ثم أطبقَ يده اليمنى على أسفل الإصبعين ، وحشرهما بين ركبتيه ، ومال الى أمام ، وشرع ينِنّ ويتلوّى ألماً .

تأوّهَ «خراء! يا إلهي ، إنه يؤلم!» . رفع نفسه ، جاهداً ، وبدأ يلفُّ الشّفَّ القذر والقماش حول إصبعيه ، ثانيةً ، لكن كان واضحاً أن هذا لن يخفف من ألمه ، مادام بمقدورنا ، ناتسومي وأنا ، أن ننظر إليه مرتعبَين . زحف هوشيو مضطرباً الى طرف الأرضية المرتفعة ، مثل كلب هرم محتضر ، ومدّ عنقه وتقيّأ ما في جوفه .

«يا للجحيم! إنه يؤلم!» ، وبعد أن خفَّ ألمه قليلاً نظر إليّ بجفنين نصف مطبقين ، وقدم شرحاً ذا تفاصيل غير ضرورية «كنت أضغط على وجهها بيدي اليسرى... ضارباً رأسها بقطعة الحجر بيدي اليمنى . أولَ الأمر ظلت تصرخ (لا! لا!) لكن فمها أطبقَ فجأةً على يدي اليسرى بقضقضة مسموعة . سحبت يدي بسرعة ، لكن أسنانها كانت منغرزة في العقدة الأولى من الخنصر ، والعقدة الثانية كما يبدو . كل ما استطعتُه هو أن أضرب فكَّها بالحجر كي تفتح فمها . لكن أسنانها كانت حادةً جداً ـ ونتج عن هذا أن فمها انطبقَ تماماً ، قاطِعاً أنملتي إصبعيّ . حاولت ثانيةً أن أفتح فمها بالقوة بعصا ، لأستعيدهما ، لكن بلا جدوى . وهكذا يحتفظ رأسها المهشَّمُ حتى الآن بقطعتين من إصبعي في الفم» .

كلامه المستند الى حقيقة الألم الواضحة ، أصاب هدفه ، بالرغم من

إنكاري المبرر ، بقناعةٍ صاعقةٍ تعلو على المنطق . شعرتُ بواقعية تاكاشي «المجرم» ، وباليقين ذاته شعرتُ بحقيقية الجريمة . ومثل هوشيو ، أصابني خوفٌ ، وكرهٌ لشخص تاكاشي بلغ حد الغثيان الجسماني . هذا لا يعني أنني بدأتُ أصدِّقُ أنه هشّمَ رأس الفتاة ضرباً بحجرٍ حتى الموت : إذ مازلت أستطيع أن أفكر في أمرٍ واحدٍ فقط ، هو أنها خافت السرعة الجنونية التي حاولت بها السيارة الاستدارة في المنحنى ، فقفزت خارجها . لكن تلهُّفه الجنوني لأن يلبس لبوس المجرم ويدّعي بجريمته الخيالية دفعه الى فعل رهيب ، شنيع ، لا يُحتمل . لقد استعمل عصا كي يفتح فمها ، وهي منطرحة ميتةً ، وقد تهشّم رأسُها . وحشر عمداً إصبعي يده اليسرى بين أسنانها وأغلق الفم . أكاد أسمع فمها ينطبق . ثم التقط حجراً بيده اليمنى ، ولابد أنه ضربها في فكّها حتى ينغرز السنُّ الميت في أصابعه . وفي كل ضربة على حنك الفتاة ، كان يُلطَّخُ بالدم والمخّ من الجمجمة المهشمة والفم الذي تكسّر ، وبدمه هو أيضاً...

قلتُ بصوتٍ أجشَّ لكنه يفتقد إرادة المضيّ أبعد : «تاكا ، أنت قاتلٌ مجنون!» .

«أخيراً ، أشعرُ أنك عرفتني حقاً!» ، أعلن تاكاشي ذلك ، معدِّلاً من هيأته تحدّياً .

فجأةً ، صرخ هوشيو ، الذي لايزال على أربع ، صرخة يأسٍ طاغٍ : «توقّف! توقّف! لمَ لا تفعل شيئاً لإنقاذ تاكا ؟ لقد كان حادثاً ، أقولُ لك!» .

قال تاكاشي عائداً للمرة الأولى بعد فترة طويلة ، الى نبرة العمّ اللطيفة التي اعتادَ استعمالها مع حارسه الشخصي الشاب : «ناتسومي ، أعطي هوشي بضع حبات من حبات النوم التي تناولتْها موموكو ـ ضعفَ الكمية العادية . وأنت يا هوشي ، خيرٌ لك أن تنام» ، ثم أضاف : «هوشي مثل الضفدع . حين يرى أن عقله ـ وليس جسمه فقط ـ لا يستطيع ابتلاع شيء ما ، فإنه يقلب

جوفه ، ويقذف بالشيء الى أعلى » . اعترضَ هوشيو متضايقاً : «لن آخذها . أنا لا أريد أن أنام » . لكن تاكاشي أهمل ذلك ، وظل يتابع من موقع الآمر ، زوجتي وهي تقدم الى هوشيو كأس الماء وحبّات النوم ، التي ابتلعها هوشيو في النهاية بعد إظهار مقاومة طفيفة . وسمعنا جميعاً صوت الماء الأليفَ الخفيفَ وهو ينحدر في حلقه . قال تاكاشي : «سرعان ما يأتي مفعولها . إن هوشي بربريٌّ ، وهو لم يتناول أي دواء تقريباً . ناتسومي ، كوني معه حتى ينام » . قال هوشيو في احتجاجٍ واهنٍ أخير ، وبصوتٍ يخالطه خوفٌ ظاهرٌ ، حتى في استسلامه الأول لمفعول الأقراص : «لا أريد النوم ، يا تاكا! أشعر أني لو نمت فلن أفيق أبداً » .

«لا . إذهب لتنام . وسوف تفيق صباح غد موفور الصحة والشهية » ، قال تاكاشي هذا ، مشيحاً عن الشاب ، وملتفتاً إليّ : «ميتسو ، أحسُّ أن أهل الوادي آتون لقتلي . وإن اعتزمتُ الدفاع عن حياتي ببندقية الصيد ، فأرى أن عليّ التحصُّنَ في المستودع ، مثل ما فعل شقيق جدنا الأكبر . إذاً ، لنتبادل الأماكن ، هذه الليلة . أتفعل ذلك ؟ » .

قالت زوجتي بقلقٍ مستحرٍّ تحت كلماتها : «لن يقتلوك يا تاكا . أنا لا أستطيع حتى أن أتخيلك تصدُّ جمعاً من الغوغاء ببندقية صيد . ليس ما تقوله سوى محض أوهام » .

«أنا أعرف الوادي خيراً منكِ ، يا ناتسومي . لقد بدأوا الآن يسأمون الانتفاضة ، ويضيقون بأنفسهم لأنهم شاركوا فيها . ولهذا ، أنا متأكدٌ من أن بعضهم يريد أن يكفِّر عن هذا كله بإلقاء اللوم عليّ أنا فقط ، ثم بضربي حتى الموت . إن الأمور ستكون أيسر لو قمتُ بدور كبش الفداء مثل ما فعل س » .

«القتل بأيدي الغوغاء أمرٌ مستحيلٌ تماماً » ، قالت مصرّةً ، وألقت عليّ

نظرةً متوسلة ، باعتباري الأقرب إليها ، وكانت عيناها غارقتين في التلهُّف الى الكحول . « أنت لا تعتقد ، يا ميتسو ، بحدوث قتلٍ غوغائي ؟ » .

أجبتُ : « في الحالين ، وباعتبار تاكا العقل المدبر لـ(انتفاضة الخيال) فهو يحرص طبعاً على إبقاء شرر النزوات يتطاير حوله حتى النهاية . العامل الحاسم سيكون في جودة الطريقة التي يؤدي بها أهلُ الوادي دورهم المتخيَّل . لا أريد أن أخمِّن ما سوف يحدث » . وتابعتُ نظرتَها وهي تتحوّل عني ، ممتعضةً ، خائبة .

« إنه على حق » . قال تاكاشي ذلك في الجو الخائب ذاته ، ونهض بطيئاً على قدميه ، ممسكاً بيده السليمة ببندقية الصيد وعلبة الخرطوش . كان منهاراً ، تماماً ، حتى أني قدّرتُ لو أن ثقل البندقية سحبه الى أسفل ، لوقعَ مغشياً عليه أو ميتاً ، في الموضع ذاته .

قلت له : « أعطني البندقية ، سأحملها عنك » . نظر إليّ شزراً ، ورفضَ بعداءٍ جليّ ، كأني أردت خداعه لأخذ سلاحه الوحيد . وذُعرتُ بسبب شكٍ عابرٍ في أنه ربما كان مجنوناً . لكن عينيه سرعان ما عادتا الى نظرة الإنهاك المتبلدة .

توسّلَ بي : « ألا تعود معي الى المستودع ؟ وابقَ معي حتى أنام » .

كنا خارجين من المطبخ الى الحديقة الأمامية ، حين نادته زوجتي كأنها تودّعه الوداعَ الأخير :

« تاكا ، لمَ لا تنقذ نفسك ؟ يبدو أنك تحاول أمرين... القتل بأيدي الغوغاء ، أو الحكم عليك بالإعدام » .

لم يجب تاكاشي ، كان وجهه ذو الشحوب الشديد ، والبثور ، منغلقاً . وهو منذ الآن يتصرف كأنه فقد أي اهتمام بها . وبدون سبب محدد ، شعرت فجأة أنني وزوجتي الخاسران المسكينان . التفتُّ الى وراء

لأجدها جالسةً بلا حراك ، ورأسها غارقٌ في صدرها . الشاب الذي بجانبها ، كان متجمداً في الوضعية الغريبة لنصف الجالس ، نصفِ المتمدد ، مثل حيوانٍ وحشيّ أصابه سهمٌ مسمومٌ . إنه ، بفضل قوة المقترَح لدى تاكاشي ، خاضعٌ تماماً لتأثير الأقراص المنوِّمة . آملاً في الأقل أن تكون زوجتي خبّأتْ في مكان ما ، بعض الويسكي ، ليساعدها في مواجهة البرد وعبء هذه الليلة الطّولى ، مشيتُ مرتجفاً ، أتبعُ أخي ، تحت الضوء الخافت لقنديل الأفاريز . هو أيضاً كان يرتجف شديداً ، وقد ترنّح في مشيته أكثر من مرة . في المستودع ، كان جي الناسك يصدر صوتاً مثل عطاس كلب . لم يتحرك شيء في مبنى «جن» الخارجي ، «أسمنُ امرأة في اليابان» كانت وقد تحررت من كل عوزٍ يتعلق بالطعام ، كانت تنام نومها المطمئن الأول منذ ست سنوات أو سبع . الوحلُ في الحديقة الأمامية تجمّد ، ولم يعد يسيح تحت أقدامنا .

تاكاشي ، الذي لم يزل يرتدي السترة والبنطلون الملطخين بالدم ، زحف بين بطانياتي وتقوّسَ تحتها لينزع جوربيه ، وهو يشبه في مرآه أفعى محبوسة في كيس . ثم سحب البندقية الى جنبه ثانيةً ، ونظر إليّ بعينين نصف مغمضتين وأنا أتابعُ تهيؤه للنوم ، ثم طلب مني أن أطفئ النور . وقد راق لي طلبه . وبينما أنا متمددٌ أنظر في الفراغ ، كان وجه أخي المسودّ الجهم غائراً مثل وجه شيخٍ عند الخدّين وحول العينين ، هامداً عابراً ، أكثر من أي وقتٍ شهدتُه من أوقات المتاعب في الماضي . أما جسمُه الذي لا يكاد يبين له أثر تحت البطانيات والأغطية فقد كان هزيلاً بصورة تدعو الى الشفقة . وبينما كنت أنتظر أن تختفي صورة تاكاشي النائم على ظهره من حدقتي في العتمة ، لففتُ بطانية هوشيو حول خصري ، وجلستُ ساحباً ركبتيّ الى صدري . كنا صامتين لفترة . بدأ تاكاشي بنبرة مهادنةٍ وتقربٍ : «تعرف ، يا ميتسو ، أن

زوجتك أحياناً تدقّ المسمار في الرأس . صحيحٌ ـ أنا لا أريد أن أنقذ نفسي . بل أريد أن يقتلني الغوغاء ، أو يُحكم عليّ بالإعدام » .

« أعرفُ ذلك . فأنت لا تمتلك شجاعة ارتكاب جريمة عنيفة بنفسك ، لكنك صادفتَ حادثاً قد يُعتبر ، خطأً ، هكذا ، فوضعتَ نفسك في الصورة ، وبذلتَ جهدك لتتأكد من أنك ستُقتل بأيدي الغوغاء ، أو يُحكم عليك بالإعدام . هكذا أرى الأمر » .

تاكاشي يتمدد صامتاً ، وهو يتنفس بعمق ، كأنه يشجعني على استكمال ملحوظاتي . لكن ليس لديّ ما أضيفه . كنت أشعر ببردٍ شديدٍ وكآبة فظيعة . لكن تاكاشي تكلم ثانيةً .

« أتعتزم إيقافهم غداً ؟ » .

« طبعاً . لكني لا أدري إن كان بمستطاعي التدخل بفاعليةٍ في خطتك لتدمير الذات التي تورّطتَ بها تورُّطاً عميقاً » .

« ميتسو . ثمت أمرٌ أريد إخبارك به . أريدُ أن أخبرك بالحقيقة » . كان يتكلم على ترددٍ واستحياء . كأن أحداً لن يصدقهُ ، وكأن انتباهه في مكان آخر . لكن الكلمات بلغتني قويةً ، مترددة الأصداء بقوة في داخلي .

«لا أريد أن أسمعها ، لا تحاولْ إخباري» ، اعترضتُ مستعجلاً ، مع رغبة مفاجئة في الهروب من ذكريات عن أحاديث سابقة مع تاكاشي عن « الحقيقة » .

« بل سأخبرك يا ميتبسو! » قال ذلك مُصراً إصراراً كريهاً زاد في رغبتي في الهروب . لقد هزّني من جديد ، ذلك الجو البغيض للاستسلام .

«لو استمعت فقط ، فأعتقدُ أنك قد تتعاون ، في الأقل ، الى حد الوقوف موقف المتفرج ، بينما هم يقتلونني » .

تخليتُ عن محاولاتي السابقة في إبقائه ساكتاً . أطلقَ تمهيداً آهةَ إنهاكٍ

ويأسٍ ، كأنه قال للتوّ ما كان يريد قوله ، فأسِفَ لما قال ، وأراد بلا جدوى أن يستردَّ كلماته ، وهكذا بدأ ، وكان في كل كلمة يبذل جهداً للتغلب على مقاومةٍ ما في نفسه :

« ميتسو... كنت أقول دائماً إنني لا أعرف لماذا انتحرت أختنا . عائلة عمي ساندتني أيضاً ، فقالوا إن موتها كان انتحاراً بلا سبب ظاهر . لهذا استطعتُ الاحتفاظ في نفسي بالسبب الحقيقي . والواقع أن لا أحد حاول أن يسألني جدياً عن الأمر . وأنا أبقيتُ على السر ، مرةً واحدة ، في أميركا ، أخبرتُ شخصاً ـ عاهرةً زنجيةً ، غريبةً تماماً ـ لكن ذلك كان بلغتي الانجليزية الركيكة . إني أرى الحديث مع شخص باللغة الانجليزية ، مثل أن ترتدي قناعاً . لذا ، ولأسباب عمليةٍ ، لم أخبر أحداً . كان اعترافاً زائفاً ، خلّفني مثل ما كنت . العقاب الوحيد الذي تلقيته كان إصابة خفيفة بمرضٍ جنسيّ . لم أتحدث عن الأمر ، البتة ، بلغة حديثي معك ، أو مع أختنا . ولا حاجة الى أن أذكر أنني لم أتحدث حتى معك عن الأمر . الشيء الوحيد هو الشك الغامض لديك بأن ثمت شيئاً غريباً وراء موتها ، حين تُعاينُ ردود فعلي العصبية كلما شعرتُ بأنك تشير الى الأمر . مثلاً ، في ذلك اليوم الذي حضّرتَ فيه طيور التدرّج ، سألتَ عما إذا كانت « الحقيقة » ذات صلةٍ بها . تلك اللحظة كنتُ مقتنعاً بأنك تعرف كل شيء ، وأنك كنت تتلاعبُ بي . شعرتُ بغضبٍ وعارٍ عارمين حتى كدتُ أقتلك . لكني أسررتُ نفسي بأنك لا يمكن أن تعرف ، فسيطرتُ على حالي . صباح انتحارها ، وقبل أن أذهب لإخبار عمي والبقية ، فتشتُ كل زاوية في المبنى الخارجي حيث كنا نسكن أنا ، وهي ، بحثاً عن شيء ، أو رسالة تركتْها ، تستثير الشكوك . ثم شرعت أضحك وأبكي ، ممزقاً بين الشعور الجديد بالذنب ، والارتياح لأنني تحررت أخيراً من ضغط الخوف . لم أذهب الى البيت الرئيس ، لأخبرهم بانتحارها ، إلا بعد أن

تمالكتُ نفسي ، وتأكدتُ من أنني لن أنفجر في نوبة ضحكٍ أخرى . وجدتُها ذلك الصباح ، مُقْعيةً في المرحاض ، ميتةً ، بعد تناولها مادة كيمياوية زراعية . أما إذا تساءلتَ عن سبب شعوري العميق بالانعتاق ، فهو خشيتي أن تقول كل شيءعن سرِّنا في أحد الأيام ، باعتبارها متخلفةً عقلياً . شعرتُ بأن موتها محا السرَّ ، حتى كأنه لم يقع إطلاقاً . لكن الواقع يرفض أن يكون هكذا . بل أن موتها ، على الضد ، غرز السرَّ عميقاً في روحي وجسدي ، حيث شرع يسمم حياتي اليومية ، ونظرتي الى المستقبل . كل هذا حدث وأنا في المدرسة الثانوية . مُذّاك ، ظللتُ منشطراً شطرين في الذاكرة » . توقّفَ ، وأخذ ينتحب . كان صوت نحيبه مُرْبَداً معذّباً ستظل ذكراه تعذبني طيلة حياتي بنوبات كآبة تجعل العيش ذاته لا يطاق .

« بالرغم من تخلفها العقلي ، كانت شخصاً من نوعية خاصة . اهتمامُها الوحيد كان الأصوات الجميلة . وأسعدُ أوقاتها حين تستمع الى الموسيقى . أما أصوات محركات الطائرة أو بدء تشغيل السيارة فكانت تصيبها بألم حادٍّ في أذنيها . وأنا متأكد من أن تلك الأصوات تؤذيها حقاً . تعرف أن بإمكانك أن تكسر الزجاج بتموّجات الهواء ؟ يبدو أن الأمر كان يماثل هذا ـ ألمٌ سبب تهشّمُ شيءٍ هشٍّ في أذنيها . على أي حال ، لم يكن في القرية التي يسكنها عمي ، أحدٌ يهتم بالموسيقى ويفهمها مثلها . لم تكن قبيحة . وكانت مغاليةً في نظافتها . كانت نقية النفس . وكان تعلقها بالموسيقى مع نقائها من مظاهر بلاهتها . شبّانٌ من قرية عمي كانوا يأتون ليتفرجوا عليها وهي تستمع الى الموسيقى . ما أن تبدأ الموسيقى حتى تستحيل الى مجرد أذنين . آنذاك يغيب كل شيء ، ويعجز ما سوى الموسيقى عن اختراق وعيها . لذا يكون الشبان المتفرجون آمنين ، لكني حين أجدهم أهبط عليهم بغضبٍ أعمى . كانت المؤنث الوحيد في حياتي ، لذا حرصتُ على سلامتها . لم تكن لي أي علاقة

بفتيات القرية الأخريات ، حتى في ثانوية البلدة لم أكن أتحدث مع زميلاتي في الصف . لقد لفّقتُ حكاية عن كوننا زوجين أرستقراطيين أزرى بأسرتهما الدهرُ ، وكنت أتباهي بتحدُري من جدنا الأكبر وأخيه . لو وقفتَ موقفَ المتعاطفِ لرأيتَ في ما فعلتُه إبعاداً للشعور بالدونيّة الناتج عن تكفُّلِ عمي وأسرتِه ، بي . قلتُ لها إننا نخبةٌ خاصةٌ من إثنين ، وعلينا ألا ندع أحداً يتدخل في شأننا . سلوكنا جعل شباناً يقول إننا نتضاجع . ورددتُ بأن رميت الأحجار على بيوت القائلين بذلك . لكن الشائعات كانت تنمو في داخلي مثل مقترَحٍ . لم أكن سوى تلميذ ثانوية في السابعة عشرة ، ذي عقلية لم تنضج بعد ، ملأى بالأفكار المتعصبة ، وكنت متوحداً بما يكفي للارتياب في مثل هذه القضايا . لكن ، في عصر يومٍ من أوائل الصيف ، سكرتُ فجأةً . كان يوم الشتل الأخير للرز في حقل عمي ، وكان جمعٌ من أهل القرية الذين جاؤوا للعون ، سكارى في البيت الرئيس . وبما أننا ، هي وأنا ، أرستقراطيان ، لذا لم نشارك في الشتل ، لكن الشبان حملوني الى الداخل وسقوني شرابي الأول الذي صعد مباشرةً الى رأسي . وجدني عمي سكران ، فأمرني بالانصراف ، وأعادني الى المبنى الخارجي . للوهلة الأولى استمتعت أختي بسكري وضحكتْ . لكنها ذُعرتْ فجأة حين سكر الفلاّحون شديداً ، وشرعوا يغنون ويعزفون الموسيقى في البيت الرئيس . غطّتْ بيديها أذنيها والتفّتْ على نفسها مثل محارة . حتى وهي في هذا الوضع ، كان الأمر شديد الوطأة عليها ، وسرعان ما شرعت تنتحب مثل طفلة . أما هم فقد ظلوا يغنون أغانيهم المبتذلة ، بأصواتهم النكراء الفلاحية حتى ساعة متأخرة من الليل . جُننت حقاً . كرهتُ المجتمع وما تعلّقَ به . ضممتُها إلي ، لأهدئها ، وبينما أنا كذلك ، شعرتُ بهياج من نوع غريب ، ولم يمرَّ وقتُ حتى مارستُ الجنس معها » .

صمتنا ، وقد تضايق واحدنا من حضور الآخر ، أخاً له . تمددنا

ساكتين ، وانسحبنا في العتمة ونحن لا نكاد نتنفس ، محاولين الاختباء عن الشيء الهائل المخيف ، وهو آتٍ ليعلن فضيحتنا . أردت أن أصرخ : لا! لا! ـ الصرخة ذاتها التي أطلقتْها الفتاة المنكودة ـ إن صدّقْنا تاكاشي ـ وهي توشك أن تموت تحت ضربات الحجر التي تهشم رأسها ـ لكن حتى تلك الصرخة البسيطة رفضتْ أن تنطلق من جسمي الذي انفصل لحمُه عن عظمه ، والذي يئنّ تحت الوجع الكابي لتلك الاستيقاظات الشريرة .

مضى تاكاشي يقول بصوتٍ واهنٍ لا يكاد يُسمَع :

«ليس عذراً قولي إني كنت سكران حين ضاجعتُها أول مرة . لأني كررتُ الفعل نفسه ، في الغد ، وأنا صاحٍ . للوهلة الأولى لم تحبب الجنس لذاته ، وشعرتْ بالخوف أيضاً . لكن فكرة رفضي في أي شيء كانت غريبة عليها تماماً . لم أكن غافلاً عما يسبّبه ذلك من ألمٍ لديها ، لكني مضيتُ بعيداً في الرغبة والقلق فلم أعتبر الأشياء من جانبها . ولكي أقلل من مخاوفها عن الجنس ، جئتُها بصورٍ مطبوعة من مستودع عمي ، وأقنعتُها بأن كل المتزوجين يفعلون ما نفعل . ما أقلقني أكثر ، هو خوفي من أنها قد تخبر ، نهاراً ، أسرةَ عمي ، بينما أنا في المدرسة ، وهي وحدها في البيت . لذا قلت لها إن الآخرين سيعاقبوننا عقاباً أليماً لو علموا بما نفعل . وأريتُها صوراً من القاموس تبيّن كيف كان الناس يُحرَقون في العصر الوسيط . وأخبرتُها أننا لو حرصنا على ألا يعلم أحدٌ بأمرنا ، فلسوف نعيش معاً ، أخاً وأختاً ، طيلة حياتنا ، نفعل الشيء نفسه ، بدون أن نتزوج غيرنا . قلتُ إن هذا ما نريده ، معاً ، حقاً ، لهذا لا يهمنا شيءٌ إن لم يفتضح أمرنا» .

«لقد أيقنتُ تماماً بما قلتُ . أيقنتُ بأننا لو قررنا ، فقط ، المضيَّ في حياتنا المشتركة ، متحديين المجتمع ، فلسوف نكون أحراراً في فعل أي شيء نشتهيه . حتى ذلك الوقت ، بدا أنها قلقةٌ من فكرة أنني سوف أتزوج عاجلاً

أم آجلاً ، وأتركها تعيش وحدها . ذكّرتُها أيضاً بما قالته لها أمي المحتضرة من أن عليها التمسُّكَ بي ، دائماً . كانت مقتنعة اقتناعاً غامضاً بأنها لن تنفصل عني أبداً . ولهذا حين أقنعتُها ، بتعابير تفهمها ، من أن علينا أن ندير ظهورنا عن سوانا ، ونعيش أخاً وأختاً ، متضامَّين ضد العالم ، شعرتْ ببهجةٍ أصيلة . ولم يمرَّ وقتٌ ، حتى زال تردُّدُها إزاء الجنس ، وشرعت هي تبدأ الأمر . في فترة ما ، كنا نعيش حياة مكتفية كاملة ، مثل عاشقين ، سعيدين لأنهما معاً . وأنا ، في الحق ، ما كنت سعيداً في يومٍ ، مثل سعادتي في تلك الأيام . حين تقرر تكون قويةً ، راسخة الموقف . كانت فخوراً بأنها ستفعل كل شيء معي ، حتى الممات . ثم... حبلت . عمتُنا عرفت بالأمر أولاً . وعندما حذّرتني عمتي كدتُ أجنُّ قلقاً . وشعرت أنني سأموت خجلاً لو افتضح أمر علاقتي الجنسية معها . لكن عمتي لم يخامرها أدنى شكٍّ فيَّ ، وهكذا ارتكبتُ في نهاية المطافِ خيانةً لا تُغتفر . كنت شريراً ذا مكيدة بلا أثر من شجاعة وإن هانَ . وأنا لا أستحقُّ أختاً مستقيمة مثلها .

« أمرتُها بأن تقولَ إن فتىً مجهولاً من القرية اغتصبها . فعلتْ مثل ما أمرتُها . لهذا أخذها عمي الى البلدة ، ولم يكتفِ بإجهاضها ، بل جعلها عقيماً أيضاً . وإذ عادت كانت منهكةً تماماً ، ليس من إجراء العملية فقط ، وإنما من الهدير الشنيع لمكائن السيارات في البلدة أيضاً . لكنها أطاعت تعليماتي بشجاعة ، ولم تَفُهْ بكلمةٍ لأحد عني ، حتى في الفندق ، حين ألحَّ عليها عمي ـ وهي التي لم تكذب مرة! ـ في استرجاع أي علاماتٍ فارقةٍ لمن اغتصبَها » .

توقّفَ وانتحب حيناً . ثم استأنف ، وهو لايزال في نوبة نحيبه ، كلامَه المتقطِّع بأنّاتٍ صغيرة ، عن أقسى تجربة في حياته . كنت متمدداً ، أنصتُ إليه بسلبيّة كاملة ، معذَّباً ومنكمشاً مثل سمكة مجففة ، مقهوراً بالبرد ، وبالوجع في رأسي .

«حدث الأمر تلك الليلة . كانت خائفة من أن تستجمع قوّتها ، وكانت تنتظر مني إنقاذها . كيف لك أن تلومها ؟ وبما أن الجنس صار عادةً لدينا ، فقد وجدت راحتها فيه . لكن أي شخص ذا معرفة هيّنة بالجنس مثلي ، يعرف أن ممارسة الجنس مستحيلة ، بعد ذلك النوع من العملية ، مباشرةً . خفتُ من فكرة أعضائها الجنسية الجريحة في الداخل ، وتولاني اشمئزازٌ طبيعيٌ أيضاً . أنت لا تستطيع أن تلومني أيضاً . لكن لم يكن بمقدورها أن تلمس ما يراه الناس طبيعياً . وعندما رفضتُها ـ جرى ذلك للمرة الأولى ـ غدت فجأةً عنيدةً . زحفت الى جانبي وحاولت الإمساك بقضيبي . فضربتُها ـ وهي المرة الأولى التي تلقّتْ فيها الضرب ، طيلة حياتها . لم أر ، قطُّ ، شخصاً ، مذهولاً ، أو حزيناً ، أو بائساً... مثلها . ثم قالت بعد فترةٍ : «لم يكن حقاً ما قلتَهُ ، يا تاكا . إنه لأمرٌ خطأٌ ، حتى وإن أخفيناه» . وفي الصباح التالي انتحرتْ . لم يكن حقاً ما قلتَهُ ، يا تاكا . إنه لأمرٌ خطأٌ ، حتى وإن أخفيناه...» .

من الوادي لم يصّاعدْ أهونُ صوت . وأيُّ صوتٍ سيُكتَمُ فوراً ، بسبب الثلج الذي يتراكم ، على الغابة ، مرتاحاً . حتى الثلج الذي بدأ يذوب ، تجمّد من جديد ، بسبب البرد . لكن ثمت صوتاً حاداً ، لا تكاد تلتقطه الأذن البشريةُ يبدو يتردد بين الجدران العالية السوداء للغابة المحيطة . إنه صرخة المخلوق الهائل الذي يملأ جسده الملتفُ الفراغ الماثل فوق الغور .

في منتصف أحد الشتاءات ، في طفولتي ، بعد ليلة من ذلك الصوت الذي عُرف حضوره الكثيفُ ، وإن لم يُسمع ، البتةَ ، اكتشفتُ مسربَ أفعى هائلة في القرار الضحضاح لجدولٍ يسيل على امتداد قاع الوادي ، وارتجفتُ إذ فكّرتُ بأن المسرب هو أثر الوحش الذي سمعته يصرخ طيلة الليل . الآن ، ومرةً أخرى ، أشعرُ بالحضور الطاغي لذلك العواء الأخرس .

بعد ألفتي مع العتمة ، اكتشفت عيناي في الضوء الخافت للنافذة ، كل

أنواع الأشكال الغامضة السود الدائرة حولي . داخلُ المستودع بأسره ، مكتظٌ بما يبدو صفوفاً متسلسلة من صور بوذيّة قزمةٍ سوداء ، تهمس إحداها للأخرى : سمعْنا! سمعْنا!

استولت عليّ نوبة سعال مفاجئة ، عصيّة على السيطرة . لكأن حلقي كله ، والمجاري التنفسية ، حتى رئتيّ ، قد اندلعتْ فجأةً في طفح أحمر . كنت محموماً ، لهذا أحسستُ بلحمي منفصلاً عن عظمي ، وبهذا الألم الحادّ . لم أكد أتخلص من نوبة السعال حتى تحدّثَ تاكاشي (الذي أبدى علائم معافاةٍ هينة من خمود روحه في الأقل) إليّ في صوتٍ بالغِ الوهَن .

« ميتسو . مادمتَ لا تتدخل ، فإنني متأكدٌ من أنني سوف أُعدمُ ، حتى لو نجوتُ غداً . وفي الحالين ، سواءٌ قُتلتُ بأيدي الغوغاء ، أو أُعدمتُ ، فإنني أريد أن أتبرع لك بعينيّ ، كي تستطيع استعمال الشبكية في عمليةٍ لعينيك . هكذا ستعيش عيناي ، لتريا أشياء كثيرة بعد مماتي . سيكون عزاءً لي أن أُستخدَمَ كمحض عدسة . ستفعلها ، يا ميتسو ، أليس كذلك ؟ » .

اندفعتْ موجةُ رفضٍ في جسدي مثل البرق . توقّفَ صراخ الغابة ، واختفت الأشكال السود الصغيرة التي تملأ المستودع .

أعلنتُ بصوتٍ يضجّ بالاستنكار : « لا . لا شيء يقنعني بأخذ عينيك » .

صاح تاكاشي بصوتٍ بائسٍ حلَّ الشكُّ اليائسُ فيه محلَّ الرثاء : « لماذا ؟ لمَ لا ؟ لمَ لا تقبلُها ؟ ألأنك غاضبٌ جداً بسبب أختنا ؟ لكنك لم تعرفها إلا حين كانت طفلةً صغيرة! وبينما كنتُ أعيشُ معها في بيتٍ آخرين ، كنتَ أنت هنا في الوادي مع جن لتبدأ دعواك . وأنت استعملت مالنا الموروث كي تذهب الى الثانوية والى جامعة طوكيو أيضاً ، ألم تفعل ذلك ؟ لو لم تستحوذ على المال ، لبقينا نحن الثلاثة في الوادي معاً . لستَ في موقع من ينتقدني بصددها . أنا لم أقل الحقيقة كي تصدر حكمك عليّ ، فقط ، بصددها! » .

رددتُ عليه صائحاً ، ومعترضاً احتجاجه ، بينما شرع اهتياجٌ عارمٌ يُطْبق عليّ : «وهذا ما لا أعنيه أيضاً . لكني في البداية أقول إنني لستُ مهيأً لقبول عينيك ، عاطفياً . غير أن ما أعنيه على المستوى العلمي هو أنك لن تُقتل صباح غدٍ ، ولن تحكم عليك أية محكمة بالإعدام . إنه إحساسك بالذنب فقط ـ أنت تأمل في أن تعاقب نفسك لما سبّبْتَه من حَبَلٍ وموتِ شخص بريء ، كما أنك تأمل في أن ينصِّبكَ أهلُ الوادي بين «الأرواح» ، فيتمُّ تذكُّرك باعتبارك رجلَ عنفٍ . أعترفُ أن هذه الخرافة لو تحولتْ الى واقع فإن جانبي شخصيتك سيتوحّدان ثانيةً في الموت . وبعد مائة سنة قد يُنظر إليك باعتبارك انبعاثاً لشقيق جدنا الأكبر ، معبودِك . لكنك يا تاكا ـ مع أنك تلهو بوضع نفسك في مأزق ـ من النوع الذي يجد له مخرجاً في اللحظة الأخيرة . وقد اكتسبتَ هذه العادة يوم سمح لك انتحار الأخت بالعيش دون التعرض لعقاب أو عارٍ . وأنا متأكدٌ ، هذه المرة أيضاً ، من أنك ستدبِّرُ حيلةً ما لتمضي في حياتك . وحين تنجو مجللاً بالعار ، ستقدم اعتذارك الى شبحها . والواقع أنك ستقول لقد وضعتُ نفسي عامداً في زاوية ضيقة إما أن أُقتل فيها أو أُعدَم ، لكن عدداً من الأنذال المتدخلين أرغموني على البقاء حياً . والأمر هو هو في تجربة عنفِك ، في أميركا ـ فأنت لم ترتكبه البتة ، لقد أردت ، حسبُ ، أن تجد عذراً للاستمرار ، متحرراً من ذكرياتك الموجِعة . كل ما فعلتَه ، عملياً ، هو إصابتك بمرضٍ جنسيّ ، مما هيّأ لك عذراً لعدم القيام بأي مخاطرات أثناء إقامتك في الولايات المتحدة . الأمر هو هو ، أيضاً ، مع اعترافك القذر الصغير الذي بُحتَ به للتوّ . لو أني ضمنتُ أن حتى ذلك لم يكن الحقيقة المطلقة ، وأن الإشارة المفردة إليه لن تعني قتلك أو انتحارك أو جنونك أو استحالتك وحشاً ، أفلا تظنُّ بأنك ستشعر ، فوراً ، بالخلاص ؟ قد يكون هذا في اللاوعي ، لكن... ألم تتخبّط طويلاً في الأمر ، آملاً في أني سأتقبّلك كما أنت ، مع كل تجاربك

السالفة ، لتتخلص هكذا ، وبضربة واحدة ، من حالتك المنقسمة ؟ مثلاً ، أتعتقد أن لديك شجاعة الاعتراف ، ثانيةً ، أمام أهل الوادي ، صباح غدٍ ؟ إن هذا سيكون مخاطرةً حقيقية . غير أني لا أظنك مؤهّلاً لذلك . قد لا تعترف واعياً ، لكنك تتوقع على أي حال ، الإفلات من محكمتهم الصورية . لو أرسلتَ الى محاكمة ، فلسوف تتوسل بهم أن يعدموك ، بإخلاصٍ كافٍ حتى لخداع نفسك . أما الحقيقة ، فهي أنك سوف تجلس جيداً في زنزانتك حتى يثبت التحقيق أن جريمتك الوحيدة كانت التمثيل بجثة بعد حادث موت . لا تكذبْ عليّ حول تبرعك بعينيك بعد قتلك ، كأنْ ليس لديك سوى القليل لتحياه! تعرف أني سأكون مسروراً حتى بعيني رجل ميت ؛ إنك تلهو بعجز سواك! » .

رفع تاكاشي نفسَه ، بصعوبة ظاهرة ، في الظلام . عرضَ البندقية على ركبتيه ، ثم وضع إصبعه على الزناد ، والتفتَ يواجهني . فكّرتُ أنه قد يطلق النار عليّ ، لكنني لم أتحرّك . وجدتُني أحتقرُ بشدة ، الطريقةَ التي يُفلت فيها ، دائماً ، من الفخِّ الذي سمح لنفسه بالوقوع فيه ، وهذا الدخولَ المباغتَ لتهديد العنف . حتى مشهد البندقية ورأسه الأسود الصغير النائس متزامناً مع تنفُّسه الثقيل ، لم يخيفاني على الإطلاق .

« ميتسو ، لماذا تكرهني الى هذا الحد ؟ » قال هذا بصوتٍ دامعٍ مثقلٍ بالأسى ، وهو يحدِّق ، نافد الصبر ، إلى العتمة ، كي يتبيّن تعبير وجهي « لماذا احتقرتني دوماً ؟ لقد كرهتَني ، أليس كذلك ؟ حتى قبل أن تعرف ما فعلتُه بأختنا وناتسومي » .

« كرهتُكَ ؟ المسألة ليست شعور ، يا تاكا . إنني أبيّن ، ببساطة ، رأيي الموضوعي في أن شخصاً ، حتى وإن كان مثلك ، يختار العيش بحثاً عن وهمٍ دراميّ ، لا يستطيع الإبقاء على التوتر الحرج الى ما لا نهاية ، إلا إذا صار مجنوناً فعلاً . خذْ مثلاً أخانا الأكبر ـ ربما استمتع بالعنف في ساحةِ المعركة ،

لكنه لو عاد الى البلد حياً فأنا متأكدٌ من أنه سيتخلى عن ذكرياته ، ويعيش مستريحاً في حياة يومية رتيبة هادئة . ولو لم يكن الأمر كذلك لامتلأ العالم بالمجرمين العتاة بعد كل حرب كبيرة . أما مَثَلُك الأعلى ، شقيقُ جدنا الأكبر ، فقد كان مسؤولاً عن القتل الجمعيّ ، باعتباره قائد الانتفاضة ، لكنه في النهاية تخلّى عن رفاقه ، وتركهم لمصيرهم ، كي يستطيع الهروب عبر الغابة . أتظن أنه انغمرَ ، بعد ذلك ، في مخاطر جديدة ، وظل يحيا حياة شديدة ، لمجرد أن يبرر وضعه كرجلِ عنفٍ ؟ حسناً ، إنه لم يفعل ذلك . لقد قرأتُ الرسائل التي كتبها . إنها تبيّنُ توقُّفَه عن كونه رجل عنف . والأكثر من ذلك أنه فقد حماسته التي كان يتمتع بها وهو قائد تمرُّدٍ . كما أن حالته لم تكن حالة معاقبةٍ للذات . لقد نسيَ ، ببساطةٍ ، تجاربه في الانتفاضة ، وأمضى سنواته الأخيرة مثل أي مواطنٍ عاديّ . وجرَّبَ كل أنواع كيد النساء حتى يستطيع إعفاء ابن أخته من الخدمة العسكرية ، لكنه أخفق . ويبدو أن الثوريّ القديم مات ميتة مطمئنةً في فراشه ، حزيناً على مصير ابن الأخت ذاته ـ لم تَرِدْ عنه أخبارٌ منذ أُرسل الى القتال في ويهايوي . لقد مات عملياً ، مثل خروف ، غير مؤهلٍ إطلاقاً ليكون أي نوع من «الأرواح» . وأنت أيضاً يا تاكا ، لن يقتلك الغوغاء صباح غدٍ . ستهبط الى الوادي لعلاج أصابعك المصابة ، وسيُقبض عليك ، وبعد أن تظل قيد المراقبة ، أو تسجن ثلاث سنوات أو نحوها ، ستأخذ مكانك في المجتمع ، ثانيةً ، كفردٍ عاديّ حسنِ السلوك . لا معنى لكل الأوهام التي تتناسى هذه الحقائق ، في المدى الطويل . ليست لك ثقة كافية بالحقائق . لكنك ، يا تاكا ، أكبرُ سناً من أن تحترق بأوهامٍ بطوليةٍ من هذا النوع . إنك لم تعد طفلاً » .

وقفتُ وحيداً في الظلام ، وهبطتُ السلّم ، متحسساً الدّرجات بقدمي . وسمعت ورائي صوت تاكاشي البغيض (أحسستُ هذه المرة بأن النار قد تُطلق

عليّ فعلاً ، مع أن خوف العنف الماثل رفض أن يغدو حقيقة . كنت أشعر فقط بالضيق من الحمى التي بداخلي ، والوجعِ النغّارِ في كل شِلْوٍ من جسدي) :

«ميتسو ، لماذا تستاء مني الى هذا الحد ؟ لماذا كرهتَني دائماً ؟ نحن الأخوين آخر مَن تبقّى من آل نيدوكورو ، ألسنا كذلك ؟» .

في البيت الرئيس ، كانت زوجتي لاتزال تشرب الويسكي ، محدّقة الى الفراغ ، أمامها ، محمرَّة العينين منذ الآن ، مثل المرأة آكلة الرجال في الفولكلور الكوريّ . خلف الأبواب المنزلقة المفتوحة كان هوشيو ممدداً جنب موموكو ، يغطُّ في نومه ، منكفئاً على وجهه ، مثل كلبٍ سقط إعياءً . جلست داخل منظور زوجتي ، وأخذت قنينة الويسكي من بين ركبتيها ، وشربتُ ملء فمي ، من القنينة مباشرة ، وأصابتني نوبة سعال ، لكنها ظلت منجرفةً على بحار سُكْرها الهائجة ، كأني غير موجود . تابعتُ الدموع تنبثق من عينيها السوداوين المحمرّتين ، وتسيل على بَشرة خدَّيها . بعد فترة ، دوّت إطلاقة من المستودع ، وتردّدت أصداؤها متقطعة في الغابة التي يلفُّها الليل . وبينما كنت أركض ، حافياً ، عبر الباحة ، دوّت إطلاقةٌ ثانية . جي الناسك جاء مندفعاً من المستودع ، مرعوباً . كدنا نصطدم ، ونظر أحدنا الى الآخر خائفاً . من أسفل السلّم ناديت الى الغرفة العالية . كان الضوء مفتوحاً .

جاءني صوت تاكاشي ، هادئاً ، ومسلّحاً نفسياً هذه المرة : «ها أنذا ، يا ميتسو ، أنا أختبر قوة ومدى الخراطيش ، مستعداً للمعركة صباح غدٍ ، مع غوغائي الخياليين» .

في عودتي الى البيت الرئيس ، وجدتُ أطفال جن يقفون ساكنين ساكتين في الباحة ، فطمأنتُهم . كانت زوجتي تثبِّتُ نظرها على كأسها حيث يلتمع الويسكي والماء التماعاً كابياً ، غير معنية ، بتاتاً ، بالطلقات ، وبخروجي المفاجئ ، وكأن وجهها المنكفئ قُدَّ من برونز . تحرّكَ هوشيو وموموكو ،

قلقين ، واستمرا في نومهما . بعد ثلاثين دقيقة دوّت إطلاقةٌ ثالثة . انتظرت عشر دقائق للإطلاقة الرابعة . انتعلتُ جزمتي على قدميّ القذرتين ، وذهبت الى المستودع . لم يُجبني تاكاشي حين ناديتُه من أسفل السلّم .

ارتقيتُ السلّم راكضاً ، راطماً رأسي هنا ، وهناك ، وفي كل مكان ، وأنا أمضي . رجلٌ يتمدد نصفَ مستندٍ الى الجدار القائم مباشرةً أمامي . كان أديم الوجه والصدر العاري ممزّقاً دامياً كأنه مرصَّعٌ بحبّ الرمان المنغلق . كان يشبه دميةً جصيةً بالحجم الطبيعي ، قانية الحمرة ، ترتدي البنطلون فقط . مُسرعاً تلقائياً نحو الشخص ، تأوّهتُ إذ صدمتني صدمةً شديدةً على أذني ، بندقيةُ صيدٍ مربوطة الى عارضة الزيلكوفا الثقيلة . قطعةُ وتَرٍ شدّت الزناد الى إحدى أصابع الدمية الحمراء حيث تدلّتْ على أرضية التاتامي . وعلى جصّ الجدار وخشبه ، تماماً بطول الرجل الميت لو كان واقفاً يحدّق الى فوّهة البندقية ، خطوط رأس وكتفين مرسومة بالقلم الأحمر ، مع عينين كبيرتين مرسومتين باعتناء على الرأس . خطوتُ خطوةً أخرى الى أمام ، وأنا أحسُّ بالخردق والدمِ الزَّلِقِ تحت قدميّ ، فرأيت العينين المرسومتين وقد تلقّتا عنف الإطلاقة ، حتى كأن دائرتين رصاصيتين تنظران إليّ من التجويفين . وعلى الجدار ، جنب الرأس ، كُتِب بالقلم الأحمر نفسه :

لقد قلتُ الحقيقةَ

أطلقَ الرجلُ الميتُ حشرجةً عميقة . ركعتُ في الدم ، ولمستُ وجه تاكاشي الممزق القرمزي ، لكنه كان ميتاً تماماً . انتابني شعورٌ ، ذكرى غير منطقية ، بأنني واجهتُ مثل هذا الرجل الميت ، في هذا المستودع ذاته ، مرّاتٍ لا تُحصى ، من قبلُ .

إعادةُ المحاكمة

الريح الرطبة الثقيلة التي طوّقت الغور في الغابة ، طوال الليل ، جاءت هابّةً ، مكوِّنةً دوّامات هواء صغيرة في القبو حيث جثمتُ . أفيقُ من نومٍ قصير مؤلمٍ لأجد حلقي متورِّماً حدَّ الوجع ومنقبضاً ، لكن سكري ولّى ، ودماغي الذي كان متضخماً محموماً قبل نومي انكمشَ الى وضعه الطبيعي ، تاركاً فجوةً دخلتْ فيها كآبتي . كان ذهني صافياً بصورة معذبة لا أمل فيها . إحدى يديّ لاتزال متشبثةً بالبطانية التي أبقتْها غريزةُ الدفاع عن النفس ملفوفةً حول كتفيّ وخاصرتي حتى في أحلامي . مددتُ اليد الأخرى في الظلام ، أبعد من ركبتيّ ، أبحث عن قنينة الويسكي المليئة ماءً ، وشربتُ جرعةً . وبدا الماء البارد ينقع رئتيّ وكبدي المقروحة . في أحلامي ، وقف تاكاشي في الضباب على مبعدة خمس ياردات أمامي ، وهو لايزال مثل دمية جصّ حمراء متداعية ، ونصفه الأعلى مفتوح مثل رمانة ناضجة مغلوقة . خردقٌ لامعٌ لا يحصى يرصِّعُ محجريه ، محوِّلاً إياه الى وحشٍ ذي عينين من الحديد . هو يقف عند زاوية مثلث عالٍ ، أكوِّنُ أنا رأسه . في الزاوية المتبقية يقف شخصٌ مقوَّسُ الظهر ناحلُ الوجه يراقبنا صامتاً . ومن موقعي الحاليّ ، وأنا ملتصقٌ بالأرضية ، حتى أن رأسي أوطأُ من ركبتيّ ، كانا يبدوان

واقفين على منصّة مرتفعة . كنت أجلس وسط الصف الأول في مسرحٍ ذي سقف عالٍ جداً لا يناسب حجمه . والشبحان الى جانب بعضهما على الخشبة . وعالياً فوقَ رأسيهما ، كأن الرواق منعكسٌ في مرآةٍ خلف الخشبة ، أستطيع أن أرى حشداً من الشيوخ في بدلاتٍ سودٍ ، وقبعات مُرخاةٍ على آذانهم ، كأنهم فِطرٌ تجمّعَ في بقعة مظلمة رطبة . أحدهم ، كان ، في أحد الأيام ، ذلك الصديق الذي صبغ رأسه بالقرمز وشنق نفسه ، الآخر هو الطفل الذي لم يستجب أكثر من نبات . على خشبة المسرح ، فغرَ تاكاشي الفم الذي صار بعد أن ذهبت الطلقةُ بالشفتين ، مجرد تجويف أسود محمرٍّ ، وصرخ في حقدٍ منتصرٍ :

إعادةُ محاكمتنا هي محاكمتك!

والشيوخ في الرواق ، الذين حسبتهم هيأة محلفين جاء بها تاكاشي نفسه ، رفعوا قبعاتهم ولوّحوا بها ، مهددين ، عند عارضة الزيلكوفا الثقيلة ، فوق رؤوسهم مباشرةً . استفقتُ وأنا أشعر بالإنهاك واليأس .

المكان الذي أجلسُ فيه الآن ، بلا حراك ـ ضاماً ركبتيَّ تماماً كما كنتُ جلستُ في ذلك الفجر الخريفيّ ، العامَ الفائتَ ، في حفرة البالوعة بحديقتنا الخلفية ـ هو قبوٌ حجريٌّ اكتشفه الإمبراطور ورجاله ، وبدأوا ينقذونه من النسيان الطويل ، عندما جاؤوا ليقوموا بالمسوحات الأولية لهدِّ المستودع . الفسحة الداخلية التي أجلسُ فيها ، لها غرفة جانبية ، ذات ملحقٍ سريّ ، وحتى بئر . وكان يمكن لشخصٍ أن يعيش هنا ، في سجنٍ اختياريّ ، مع أن البئر مطويّةٌ الآن ، ولا تنبعث منها رائحة ماء ، كما أن الملحق السريّ غير قابل للاستعمال ، بعد أن تداعى على بعضه منذ زمن . من الثقبين المربعين كليهما تنبعث رائحة الملايين من البوغات ، ولربما كان البنسيلين بينها . كنت أكلت شطيرة لحم مدخَّن ، وشربتُ قليلاً من الويسكي ، ونعستُ حيث

جلستُ . ولو تقلّبتُ في نومي لآذيتُ رأسي على الأعمدة الخشب ، التي هي بلا عددٍ ، مثل شجر الغابة ، تسند أرضية المستودع . وكانت زواياها صلبةً ، حادةً ، كما كان شأنها من قبل .

الليل لايزال في منتصفه . منذ الصباح الباكر ، حين وصل الخبر القائل بأن الإمبراطور يؤدي زيارته الأولى الى الوادي بعد الانتفاضة ، كانت الرياح الجنوبية المؤذنة بنهاية الشتاء تكتسح الغابة والغور ، وظلت هكذا ، بلا هوادة ، حتى الفجر . لو بصبصتُ خلال الشقّ في الأرضية الخشب فوق رأسي ، نحو الفتحة التي في جدار الطابق الأول للمستودع الذي يواجه الوادي ، فإن خطّ رؤيتي من القارّة تعلّقَ ظلاً بنّياً عميق الصفرة ، مُضْعِفاً أشعةَ الشمس . وظلت العتمة كما هي حتى بعد اشتداد الريح ، وأخيراً استقرّتْ مع الليل . ومع اشتداد العاصفة كانت الغابة تطلق هديراً عميقاً مثل بحرٍ هائج ، ويصّاعد الصوت حتى كأنّ الأرض ذاتها تصرخ . بين حين وآخر ، أميّزُ أصواتاً منعزلةً ترتفع مثل قُزَعِ الشبح الى السطح : الدّوح العظيم الناهض فوق حزام الأرض بين الغابة والوادي ، كان ينِنّ في الريح ، مستثيراً فيّ ، بنغمات منفردة ، ذكرياتٍ مبكرةً حيةً . ومثل ذكريات الشيوخ الذين تكلمت معهم في الوادي مرة أو مرتين في الطفولة ، فظلّتْ ماثلةً في ما بعدُ ، كانت عمالقة الغابة لاتزال تحيا فيّ : لا بطريقة معقدة أو عميقة ، وإنما بشخصياتٍ متفردة بذاتها . في أحد الأيام ، في صغري ، باغتني عاملٌ عجوز في مخزن صلصة الصويا يعيش في شريحة مختلفة من مجتمع الوادي ، ولم يسبق لي أن التقيتُ به أو تبادلتُ معه كلمة واحدة ، باغتني في الممر المنحدر نحو النهر عبر المستودع الذي يخمّرون فيه الصلصة . لوى ذراعي بينما أنا أتميّزُ غضباً وأحاول الإفلات ، وألقى في أذني سيلاً من الشتائم المقذعة عن جنون أمي . ومثل

ما تذكرتُ الآن ، بوضوح ، وجه الشيخ الكلبي ، أتذكرُ شجر الكستناء العتيق على سفح التل خلف البيت . وبينما أُنصتُ الى صوتها ، تبزغُ الشجرة في المشهد كاملةً ، حية التفاصيل ، على شاشة الذاكرة ، منحنيةً ، صائحةً ، في العاصفة . حتى في الصباح ، حين لم تعد الريح بهذا العنف ، تمددتُ في العتمة قرب الموقد المفتوح ، أُنصتُ الى الدوح العظيم يتكلم في الريح . وإذ أتفكّرُ ، هادئاً ، أتساءلُ عما إذا كان عليّ أن أزور الأشجار زورةً أخيرةً ، نظرةً أخيرة ، قبل أن أغادر الغور .

وخطرَ لي أنني ما أن أغادر ، فلن أرى الأشجار ثانيةً ، وهي فكرةٌ جعلتني أرتابُ كثيراً في سلامة نظري ، بهذه المناسبة الأخيرة ، وجعلتني أنتبه ، مباشرةً ، بدوري ، الى الموت الذي ينتظرني يوماً ما . مع هذا ، كانت اهتماماتي الرئيسة تتعلق برسالتين تعرضان عليّ العمل . إحداهما من أستاذ كليتي القديمة بطوكيو ، والثاني من مكتب بعثة ذاهبة الى إفريقيا لاصطياد حيواناتٍ بُغيةَ وضعها في حديقة حيوان مفتوحة في مكانٍ ما من البلاد . عرضَ الأستاذ منصبي محاضرَين في الأدب الانجليزي جاهزين في الجامعات الخاصة ، عليّ وعلى صديقي الذي شنق نفسه . ويحمل العرضُ وعداً بمستقبل مستقرّ . أما الرسالة الثانية التي وردت من مكتب البعثة فكانت استدعاءً سريعاً ينضح بالخطر ، من باحثٍ في سنّ س لو عاش الأخير ، وقد ترك منصب أستاذ مساعد في علم الحيوان من أجل أن ينظم حديقة الحيوان . وهو الذي امتدح ترجمتي لذلك الكتاب عن الصيد بالفخاخ في قسم متابعة الكتب بصحيفة مرموقة . كنت التقيته مراراً ، وهو من النمط الذي يركب سفينة تغرق باعتباره قبطانها الجديد حتى بعد أن تكون الفئران غادرتْها . الآن يريدني أن أنضمَّ الى البعثة ، مترجماً رسمياً له .

قد تمثل أولى الرسالتين فرصتي الوحيدة المتبقية للعودة الى ذلك النوع من الوظيفة . فبعد موت صديقي تركتُ المحاضرات التي منحتنيها جامعتي القديمة ، دون حتى أن أستشير أستاذ قسمي . والأكثر من ذلك أن تاكاشي لم يخلِّف لي شيئا من أموال بيعه البيت والأرض ، لهذا يتعيّن عليّ عاجلاً أم آجلاً أن أبحث عن عمل . إلقاءُ المحاضرات عملٌ مثاليّ لكني لاأزال متردداً . أما زوجتي التي لم أبحث معها بعدُ مسألةَ عملي المقبل ، والتي عرفت بالعرضين من البرقيات الواردة التي تحثني على الردّ السريع ، فقد قالت ببرود تام :

«إن كنتَ مهتماً بالعمل في إفريقيا ، فلمَ لا تذهب ، يا ميتسو ؟ » .

شعرتُ فجأةً بتطيُّرٍ ساحقٍ عما ينتظرني في هذا العمل غير المألوف من مصاعب ومتاعب .

قلتُ : «أنا متأكد من أن (المترجم الرسمي) لا يعني العمل الورقي فقط ، لكنه يعني أيضاً إصدار الأوامر الى الحمّالين المحليين وشغّيلة المخيّم . وأكاد أجدُني أصيح (الى الأمام سِرْ!) ونحوَها ، بلغةٍ سواحلية لعينة!» ، تحدثتُ بنبرة إحباط شديد ، لكني في عين عقلي كنت أرى مشهداً بغيضاً أكثر : أرى نفسي مدمّىً من ارتطام يافوخي وخدّي وحتى عيني المنطمسة على الأشجار الإفريقية ذات اللحاء الحديد والصخور الإفريقية الصلبة حدَّ احتوائها على الماس . ورأيت نفسي في النهاية أسقط صريع الحمّى الحادّة ، وأتأوّه تحت سخونة مرتفعة جعلتني أرفض حتى ملامَ أستاذ الحيوان الكريه وحثَّهُ . كنت متمدداً ، منهكاً ، على أرضٍ مستنقعٍ ، وأنا أصرخ باللغة السواحلية ، حتى النهاية المريرة : غداً نرحل! » .

«لكن الرحلة ستمنحك بالتأكيد فرصةً لحياة جديدة ، أفضل من إلقاء المحاضرات في الجامعة ؟ » .

«تاكا ، بالطبع ، كان سيذهب ، ويدبّر حياة جديدة له ، فوراً . وحسب ما روته موموكو كان يرى الناس الذين يذهبون الى إفريقيا لاصطياد الفيلة ، أمل البشرية الوحيد . وكان يتخيل أول رجل يذهب الى مجاهل إفريقيا ليصطاد الفيلة بعد أن تكون الحرب النووية دمّرتْ كل حدائق الحيوان . إنه السيد «إنسان» المراوغ» .

«نعم . كان تاكا سيلبّي العرض ، فوراً . لكني أدركت الآن ، أنك من النمط الذي لن يختار ، عامداً في الأقل ، أي عمل قد يتضمن مخاطراتٍ دائمة . أنت تترك هذه الأعمال لأناسٍ آخرين . وبعد أن ينجو هؤلاء من الأخطار ، ويتغلبوا على تعبهم ، ويكتبوا كتاباً عن تجاربهم ، تدخل أنت وتترجم الكتاب» .

لكأنها تقدِّم حكماً موضوعياً على شخص غريب . لكني وإن كنت ممتعضاً لرؤيتي قوى الملاحظة الهادئة لديها ، فكّرتُ في أنها قد تكون على حقّ . فأنا من النوع الذي يختار ، بدلاً من اكتشاف حياة جديدة له ، وبناء كوخ أغصانه ، أن يعيش محاضراً في الأدب الانجليزي ، بدون طالب واحدٍ يهتم جدياً بدروسه ، مكروهاً من الطلبة جميعاً إلا إذا غاب عن محاضرة واحدة في الأقل كل أسبوع أو نحوه ، مستمراً في عزوبية باليةٍ (هناك معنى في المضيّ مع زواجه هذا) ، وملقباً فأراً من جانب طلبته ، مثل الفيلسوف الذي لقيه تاكاشي في نيويورك . إنه في مسارٍ لن يكون تغييره الوحيد إلا في الشيخوخة والموت .

كان تاكاشي ، حين انتحاره ، وضع كل ملحوظاته ونقوده المتبقية في مظروفٍ معنونٍ الى هوشيو وموموكو ، وأوْدعه دُرجَ طاولةٍ ، حيث لا يمكن لدمه أن يصل . بعد موته مباشرةً (دفنّاه في البقعة الخالية الوحيدة بمقبرة العائلة ، ورُفات س معه) نقلَ هوشيو السترويين عبر الجسر ، بلا مساعدة من

أحد الشبان ، وانحدر بها ، ومومو كو الى جانبه ، على الطريق المبلَّط ، وهو يقود السيارة باعتناء وحذر على الوحل نصف الذائب الذي لايزال يغطي الطريق . وقبل أن يغادر ألقى الخطبة الآتية على زوجتي وعليّ ، بينما تقف مومو كو هادئةً ، جذّابة الأنوثة ، الى جانبه ، وهي تومئ برأسها في سلسلة إيماءات صغيرة ، تشجيعاً له ، ومساندةً :

«الآن ، وقد فقدنا تاكا ، فإننا ، مومو وأنا ، سوف نتزوج بأنفسنا . لهذا أتزوجُها . فلقد تجاوزنا نحن الإثنين السن القانونية للقبول . بإمكاننا تدبير عيشنا معاً ـ أنا سوف أجد مرآباً في مكان ما ، وبمقدور مومو أن تعمل نادلةً في مقهى . أنا آمل في أن تكون لي محطة وقود خاصة بي . كان تاكا يقول لي إن عليّ أن أحاول الحصول على محطة وقود كالتي رآها في أميركا ، من النوع الذي يقوم بتصليح السيارات وتقديم المآكل الخفيفة والمشروبات أيضاً . الآن وقد مات تاكا ، فعلينا أنا ومومو أن نخوض الحياة بأنفسنا ، فلم يبقَ من ننتظر منه العون» .

كنا سنغادر الغور ، أنا وزوجتي معهما ، متوسلين أن ينقلانا معهما في الستروين حتى البلدة الصغيرة عند البحر ، في الأقل . لكني كنت أعاني برد الحمّى .

حتى بعد ذلك ، ظلت في يديّ قشعريرة ساخنة استمرت ثلاثة أسابيع ، كأن طبقة اسفنجيةً عَلَتْهُما فمنعتهما من رفع أي شيء . وعندما تعافيت شرعت زوجتي تقول إنها غير مهيأة لرحلة طويلة . كانت في الواقع تعاني نوبات متكررة من التقيؤ والوهن . لم أجد صعوبة في إدراك ما كانت تستعدّ له ، نفسياً ، وماذا كانت تريده بكامل جسدها ، لكن لم تكن لديّ رغبة في النقاش . فالأمور تقع في خانة ما تمّتْ تسويتُه من قبلُ .

جلستُ في استسلام غامض ، أفكرُ في مسألة عملي الجديد ، بينما

جلستْ ناتسومي في العتمة ، عند الطرف الآخر من الموقد مثل دميةٍ مستقرةٍ جيداً على قاعدتها . لم يبق أحدٌ في البيت الرئيس ليتدخل في حوارنا . لكنها هذه الأيام تكاد تغيب فجأة في صمت عميق ، هاربةً وراء جو الحديث . وظلت ، فترةً ، بعد موت تاكاشي ، في حالة سكرٍ مستديم متجدد . لكن لم يمرَّ وقتٌ طويلٌ حتى تخلّصت طواعيةً عن كل قناني الويسكي المتبقية ، وشرعت تقضي وقتها ، باستثناء نومها ووجباتها ، جالسةً ، صامتةً ، مستندة الى كعبيها ، ويداها مطويّتان على بطنها ، وعيناها نصف مغمضتين . وشككتُ في أن مقترح إفريقيا لم يكن يعني لديها سوى تعليق عابرٍ عن الخيارات التي يواجهها شخصٌ غريبٌ عنها تماماً . لم أعد ألقي أي ظلٍ عميق على عالم إدراكها ، وهي كذلك .

عصراً ، دخل ابن جن الأكبر ، المطبخ ، وهو يسير بهدوء ، مراعاةً لصمت زوجتي . أخبرني : «الإمبراطور يعبر الجسر ، ومعه خمسة شبان » .

حتى الآن ، لم يعتقد أيٌّ من أهل الوادي بأن الإمبراطور سيأتي معه بعصابة . فبعد أن ذاب الجليد ، أرسلَ ممثلاً سوى كل المسائل المعقدة التي خلقتها «الانتفاضة» بأبسط طريقة ممكنة . لقد كدّس البضائع في أول شاحنة تدخل الوادي ، وأعاد فتح السوبر ماركت . لم يطلب أي تعويضٍ عما نُهِب ، ولم يقدم شكوى الى الشرطة . أما الخطة التي قدمها الكاهن الشاب وقنفذ البحر عن مشاركة الأغنياء في الاستيلاء على السوبر ماركت وتحمُّل خسائره ، فقد استُبعدت تماماً . بل أن هناك شائعة تقول إن خطة من هذا النوع لم تقدَّم أصلاً الى الإمبراطور . بعد فترة قصيرة من موت تاكاشي انهارت القوى المؤيدة لـ«الانتفاضة» من مركزها . لم تعد لديهم القوة لتهديد الإمبراطور بإثارة الشغب ثانيةً . أما ربّات البيوت من الوادي

و«الريف» الممتلئات بامتنان ورضا كريهين لأنهن لم يُسألن عن النهب، فقد كنّ يشترين، سعيداتٍ، المواد الغذائية والمنزلية، بأسعار تزيد عشرين سنتاً أو ثلاثين على السابق. وأخذ الناس يأتون سراً، ليسلّموا الأدوات الكهربائية، والأشياء الكبيرة المسلوبة، الى السوبر ماركت، حيث تباع ثانيةً باعتبارها سلعاً متضررة بحسم خاص، فيتمُّ بيعها بسرعة خاطفة. نسوةُ الريف اللواتي اشتركن في «الانتفاضة»، وتعاركن بينهن على الأقمشة الرخيصة، فقد ظهر أن لديهنّ أموالاً خبيئةً استطعن بها أن يكنّ أول من يشتري في التخفيض. أما مُلاّك الأراضي الغابية، فقد عادوا الى قواقعهم، مع آهات ارتياح مسموعة.

انحدرتُ الى الوادي، خلف ابن جن، والغبار الثخين الذي تذروه الريحُ العاتية من الأرض العارية، يخِزُ عينيّ. كل شيء حولي ـ مساحات المعاشب الذاوية البنية حيث اختفى الثلج تماماً، مخلِّفاً تربة متشققة عاجزة حتى الآن عن أن تُطلع حياة جديدة، حتى الأعالي السامية دائمة الخضرة في الغابة خلف أجمات الشجر العظيم ـ مفعمٌ بخُسرانٍ عصيّ على التحديد، مثل الأنقاض الميتة لكائن بشريّ، يثير قلقاً غامضاً لديّ، وأنا أسرِّح النظر عبر الغور. غضضتُ من نظرتي، لأرى خلف رقبة الولد حيث رسم السخام أشكالاً من البقع. لقد ظل ساعات، على قمة الجلمود الضخم حيث البنت الجذّابة لقيتْ حتفها، متحمّلاً هبّات الريح المثقلة بالغبار، كي يرى دخول الإمبراطور الى الوادي. الولد يمشي مسرعاً، خفيض الرأس، ومرآه من الخلف يبعث جواً من الإنهاك غريباً على طفل. إنه إنهاك فردٍ من عائلة استسلمتْ أخيراً. شعرتُ بأنني متأكدٌ من أن الوادي كله انتظر وصول الإمبراطور وأتباعه بالجو المرهَقِ ذاته. لقد أعلن الغور استسلامه.

لم يكن الولد ليلعب دور الخفير بهذه الحماسة ، لو لم يكن غرضي من النزول ولقاء الإمبراطور متصلاً بأمهِ ، التي لا تكاد تأكل شيئاً الآن ، والتي شرعت تهزل بسرعة . غير أنني شككتُ في ما إذا كان سيعملُ لي ، ذلك اليوم ، فأنا منذ موت تاكاشي ، انفصلتُ بالكامل عن الحياة اليومية لسكان الغور . الآن لم يعد حتى الصغار يحاولون الهزء بي . حين وصلنا الى الفسحة المفتوحة أمام مكتب القرية ، عرفت على الفور ، الإمبراطورَ وأتباعه ، الذين بدا أنهم تجاوزوا السوبر ماركت ، وصاروا يصعدون الطريق المعبّد . أما الشخص الضخم الذي جاء يخطو بخطوات عسكرية ، ويركل أسفل معطف أسود طويل يبلغ كعبيه ، فقد كان الإمبراطور . حتى على مبعدة ، كان الوجه المستدير تحت قبعة جلد الغزال المرخاة ، سميناً ، ذا ملامح طرية . والشبان المحيطون به ، يسيرون بالخطوات الواثقة الطويلة ذاتها ، وكلهم ذو بنية قوية . كانوا يرتدون معاطف من نوعية دُنيا ، حاسري الرؤوس ، إلا أنهم يمشون المشية المختالة ذاتها ، أكتافهم الى الوراء ، ورؤوسهم شامخة . لقد ذكّرني المشهد باليوم الذي دخلت فيه سيارات جيب الاحتلال ، الوادي ، للمرة الأولى ؛ إذ كان الإمبراطور وصحبه مثل أولئك الغرباء الهادئين المنتصرين ، صباح منتصف الصيف ذاك . الكبار في الوادي وجدوا صعباً عليهم أن يألفوا الشعور بأنهم محتلّون حتى بعد أن شهدوا التأكيد العملي على هزيمة الأمة ، وظلوا يتابعون أعمالهم المألوفة متناسين القوات الأجنبية . لكن نفوسهم كانت تغلي بالعار . الأطفال كانوا مختلفين ، إذ تكيّفوا على الفور مع الوضع الجديد ، وركضوا خلف سيارات الجيب صائحين : هلو! هلو! ، وهو ما تعلّموه في المدرسة في حالة الطوارئ ، وقد مُنحوا طعاماً معلباً وسكاكر .

اليوم ، أيضاً ، كان الكبار ذوو الحظ السيئ حدَّ ملاقاة موكب

الإمبراطور ، يديرون وجوههم ، أو يُدَلّون رؤوسهم مثل سرطانات خجولة متمنين لو اندسّوا في أي ثقبٍ مُتاحٍ . في يوم «الانتفاضة» اكتسبوا قوة مدمّرة عبر قبولهم الصريح بالعار المتضمَّن . ولقد اجتمعوا على ذلك . لكن العار الذي يعذبهم الآن ، بعد أن استسلموا ، لم يكن من النوع الذي يهيئ وقوداً للكره ، إنما هو من النوع العاجز الخسيس . إن «وجوه العار» الشخصية لديهم كانت سلسلة من أحجار العبور يستعرض عليها الإمبراطور وأتباعه قوّتهم . التعارضُ بين «روح» الإمبراطور ذي السترة الصباحية بلا قميص ، وواقع الإمبراطور نفسه ، جعلني أقدِّرُ برعشةٍ من عارٍ شخصيّ كيف سيكون الأمر مع الشاب الذي ارتدى ثياب «الروح» وكان عليه أن ينتظر بجانب الطريق ، بينما الإمبراطور يمرّ . أما أطفال الوادي الذين يكوّنون مؤخرة الموكب فقد كانوا صامتين ، كأنهم مشغولون بالريح العاوية الشديدة التي تهبط مدوِّمةً من أعالي الغابة . إنهم أول من تكيَّفَ للوضع الجديد في الوادي ، تماماً مثل ما فعلتُ أنا وزملائي في طفولتنا . لكنهم كانوا أيضاً من المشاركين في «الانتفاضة» ، وهكذا فقدوا هم كذلك أصواتهم ، منزعجين لهذا العار الذي لا تستطيع أن تتحمله رؤوسهم الصغيرة .

بعد وقتٍ قصير ، عرف الإمبراطور بوجودي . وعلى أي حال ، كنتُ الشخص الوحيد في الوادي الذي انتظره مرفوع الرأس ، غير هيّابٍ نظرتَهُ . توقّفَ قبالتي ، وخلفه عصبة الشباب الذين تفصح وجوههم عن أنهم كانوا من الرِّسِّ نفسه ، ووقفَ صامتاً ، والجلد بين حاجبيه مغضّنٌ طولياً مما لا يشير الى أكثر من التركيز الحذر ، ناظراً بهدوء إليّ ، بعينيه الواسعتين . أتباعه كذلك ، راقبوني صامتين ، وشكّلت أنفاسهم الثقيلة غيوماً بيضاً في الهواء البارد .

غامرتُ بصوت صدر مبحوحاً بالرغم مني : «اسمي نيدوكورو . أنا الأخ الأكبر لتاكاشي الذي عقد الصفقة معك» .

قال إمبراطور السوبر ماركتات : «أنا بايك سن ـ جي ، أنا آسف حقاً لأخيك . إنها لمأساةٌ . لقد كان شاباً من نوع خاص» .

تملّيتُه في مزيجٍ من العاطفة غير المتوقعة والشك :

العينان الواسعتان تحدّقان إليّ بتعبير حزنٍ دافقٍ . الخدّان المكتنزان . الوجه البهيج . تاكاشي لم يخبرنا بأن الإمبراطور في هيأة «الروح» الزريّة . وأعتقدُ أنه أُعجبَ بالكوريّ ، وقال عنه إنه شخصٌ من نوع خاص . ومن المحتمل أن الإمبراطور استعمل التعبير نفسه ، الآن ، رداً لجميل الميت . كان حاجباه ثخينين عريضين ، وأنفه قوياً ، لكن شفتيه الصغيرتين كانا محمرّين رطبتين مثل شفتي فتاة ، وكان لأذنيه المنظرُ النديُّ ذاته ، مما يمنح الوجه كله حيويةً فتيةً . افترّ ثغره عن ابتسامة صغيرة ، كشفت أسناناً بيضاً ، وقد شجعتني ابتسامته وأنا أبادله النظرة ، صامتاً .

قلت : «نزلتُ لأقدِّم طلباً» .

«وأنا للتو ، في طريقي لألقي نظرة على المستودع» ، أجاب بايك وهو لايزال يبتسم ، والغضون إياها لاتزال بين حاجبيه . «ولأقدِّم التعازي في الوقت نفسه» .

مضيتُ أقول : «الأمر متعلقٌ بعائلة هذا الولد . إنهم يعيشون في المبنى الخارجي . الأم مريضة الآن ، ولهذا أريد منك ، إن كان هذا ممكناً ، التريثَ في هدم هذا المكان» .

تدخل ابن جن ليسند قولي : «المريضة تغدو هزيلة أكثر فأكثر ، وتقول إنها سوف تموت في الصيف! الطعام المعلب الذي أكلته أثّر في

كبدها . وقد نحفت الآن الى نصف ما كانت عليه من وزن ، وقد توقفت الآن عن الأكل . إنها لن تعيش طويلا!» .

تلاشت ابتسامة بايك . وحدّق الى ابن جن طويلاً . بالضد مني ، لم يكن الولد غريباً يقيم مؤقتاً في الوادي . لقد عامله بمقتضى ذلك ، باهتمام رصين يتناقض مع النبرة الاجتماعية المستريحة لحديثه معي . لكنه سرعان ما استعاد ابتسامته ، وقال منحنياً انحناءة هيّنةً :

«لستُ أرى سبباً في عدم بقاء الناس يسكنون المبنى الخارجي ، مادام الأمر لا يتدخل بهدم المستودع ونقله . لكن عليهم أن يتحملوا بعض الضيق أثناء العمل» ، ثم أضاف متوقفاً بين حين وآخر كأنه يريد أن ينطبع كلامه على ذهن الولد ، «على أي حال ، لو بقيتُم حتى انتهاء العمل في المستودع ، فلن أدفع لكم تعويضاً عن خروجكم» .

ابتعدَ ابنُ جن ، وقد لوى عنقه مثل دُوَيكٍ علامةً على استيائه . اتّقدَ في ذهنه ، ثانيةً ، العداءُ للإمبراطور . وفي الوقت نفسه أظهرَ منظرُهُ الخلفي أن إخفاقي في الاعتراض على بيان بايك قد أفقدني آخر خيط حُبٍّ لديه .

قال بايك وهو يتابع الولد يختفي في البُعد : «سنهدُ قسماً من جدار المستودع تمهيداً لتفكيكه . لقد جئتُ معي بشبانٍ يدرسون المعمار» .

ارتقينا معاً الطريقَ نحو المستودع . الطلبةُ كانوا متجهمين جميعاً ، ذوي أجسام كأجسام المصارعين ، متوجة برؤوس مثل دانات المدافع ، وكانوا غير اجتماعيين ، ولم يهمسوا حتى في ما بينهم .

قال بايك وقد بلغنا الحديقة الأمامية : «إن كان تخلّفَ في المستودع شيء ثمينٌ ، فهل لك في أن تخرجه ؟» .

من ناحية شكلية أخذت رسم المروحة الذي اتّضحتْ عليه الآن حروف

جون مانجيرو . أحد الشبّان أخرجَ أدواتٍ من كيس كان يحمله على كتفه وبسطها على الأرض قبالة المبنى .

تراجعَ الأطفال المتجمعون كأن هذه الأدوات أسلحة . أولاً ، رفع الشبّان أبواب المستودع ، وأخرجوا التاتامي ، وكل الأشياء المنقولة بعناية شديدة . لكن بايك أصدر بعد فترةٍ أمراً باللغة الكورية ، فصار هؤلاء فجأةً مثل عمال هدمٍ . وعندما هدّوا حائط الطابق الأول الذي يواجه الوادي ارتفع في الهواء الجصّ والخيزران الذي استحال تراباً بعد ثباته هناك أكثر من قرن ، وهطل كالمطر على رأسي ورؤوس أطفال الوادي الذين جاؤوا يتفرجون . الشباب الذين يتناوبون العمل على المطرقة الثقيلة بدوا غير مبالين تماماً ببنية المستودع وتوازنه بعد أن هدّوا الحائط . الأمرُ نفسه كان مع بايك الذي ظل واقفاً يصدر الأوامر برغم الغبار . لكن المسألة بدتْ ، الى حد ما ، مثل عنفٍ متعمَّدٍ ، موجَّهٍ نحو أهل الوادي . إن بايك وأتباعه بهدمهم حائطَ أقدمِ رمزٍ قائم لطريقة حياة الوادي التقليدية ، كانوا يُظهرون أن بمقدورهم ، لو شاؤوا ، تدمير حياة أهل الوادي بأسرها . كان هذا واضحاً للأطفال وهم يراقبون العملية محبوسي الأنفاس ، وللكبار الذين لابد أنهم أحسوا بالأمر ، إذ لم يأت أحدٌ من الوادي ليحتج على موجات الغبار التي تهدد بتغطيته . مع أن الجدران كانت متداعية بفعل الزمن إلا أنها لاتزال تسند رخامات سقف ثقيلة مثل ما كانت قبل قرن مضى ، وخشيتُ في حالة نقل حتى بعضها ، أن ينهار المستودع بأكمله في الريح العاتية . وساورني شكٌّ في أن بايك لم يُرِد ، بتاتاً ، نقل هيكل المستودع مع عوارضه الضخمة ليرفعه من جديد في البلدة ، لكنه اشترى المستودع لسبب بسيط هو أن يغتبط بتدميره أمام أنظار أهل الوادي .

لم يمر وقتٌ طويل حتى فُتح حوالي ثلث الجدار المواجه للوادي ، من

السقف الى الأرضية ، وقد أزيلت كومة الجص التي خلّفتها الريحُ بالمجارف . نظرنا أنا والأطفال ، ونحن خلف بايك ، الى داخل المستودع ، وقد أضاءه ، بقسوةٍ ، نور النهار العاري . إنه يَمثُلُ مفتوحاً على الوادي مثل خشبة مسرح ـ انطباعٌ صار يتردد في أحلامي : إنه يبدو مكتظاً بصورة غريبة ، وكل ما هو غير منتظم في داخله انكشفَ . ذكريات عتمة قرنٍ كامل قد تلاشت الى الأبد ، وبينما أنا أنظر جاءتني صورة س ، وهو منطرحٌ هناك بلا حراك ، يواجه مؤخرة الغرفة . جاءتني الصورة حقيقيةً ، واختفتْ أيضاً . المساحة التي هُدَّ فيها الجدار تقدِّمُ إطلالةً على الوادي من زاوية غير مألوفة ـ ساحة كرة القدم حيث درَّبَ تاكاشي شبّانه ، وقاع النهر ، العميق البنيّ الآن بعد أن تسلّمه الجفاف بعد الثلج ، ثانيةً .

«هل ثمت قضيبٌ حديد ؟» .

كان بايك يتحدث باللغة الكورية الى طلبة المعمار الذين أنهوا مهمتهم المباشرة . لكنه الآن يأتي ، مسبباً تراجُعَ الأطفال المتفرجين ، وهو يمرُّ وسطهم ، وتكلمَ معي مبتسماً ، مع أن الأخدود العمودي لايزال بين حاجبيه المعقَّرين . «أريد أن أنتزع عدداً من ألواح الأرضية لأشاهد القبو . الأقبية في مثل هذا المكان ذات جدران وأرضيات حجرية ، لذا نحتاج الى عمّالٍ أكثر لو أردنا أخذها أيضاً» .

«لكن ، لا يوجد أي قبو» .

قال أحد الطلبة ، طباشيريَّ الوجه ، أبيَضَه ، من الغبار : «لابدّ . وبالإمكان معرفة ذلك من طريقة ارتفاع الأرضية» . قال هذا بهدوء هزّ ثقتي .

أخذتُه الى غرفة المخزن لجلب القضبان الحديد التي استعملها أهل الوادي كلما مضوا معاً لإصلاح طريق الحصباء . في مدخل غرفة المخزن كومةٌ مرتّبة من كاشطات اللحاء . لقد تخلّى الفريق عن الأسلحة في الحديقة

الأمامية حين غيّر ولاءه ، فجمعتُها أنا ، وتركتُها هناك ، صباح موت تاكاشي . سحبنا قضيباً صدئاً من تحت أرضية الغرفة . ثم وقفت ، وأنا لاأزال غير مقتنعٍ بوجود قبو ، بجانب بايك ، في مدخل غرفة المخزن ، نتابع الشبان يفترسون ألواح الأرضية . الألواح المهترئة مع الزمن ، كانت سهلة الرفع ، وكان على الواقفين أن يديروا رؤوسهم اجتناباً لسحبٍ جديدة من الغبار . فجأةً اصّاعدَ ضبابٌ أسود من غبارٍ ناعم رطب ، مثل سحابة حبرٍ رأيتُ أخطبوطاً ينفثها في فيلم عن الحياة تحت الماء ، من مؤخرة المستودع ، وتقدّم بطيئاً نحونا . ترجعْنا أمام الضباب ، لكننا كنا نستطيع سماع الشبّان وهم يوسّعون فتحة الألواح . وعندما استقرّ الغبار أخيراً ، دخلنا أنا وبايك ، فوجدنا فجوةً طويلة تمتد مستمرةً من الطاق الذي في مؤخرة الغرفة الى طرف الأرضية المرفوعة في المدخل . خرج من الفتحة ، شابٌ ذو وجهٍ يبتسم ابتسامةً بريئة . نادى بايك بلغةٍ كورية رنّانة البهجة ، وسلّمه غلاف كتابٍ أكله العثّ .

قال بايك سعيداً : «يقول إن تحت الأرضية قبواً جيد البناء . أحقاً أنت لا تعرف شيئاً عنه ؟ ثمت الكثير من الأعمدة الخشبية التي تجعل الحركة في داخله صعبةً ، لكن فيه غرفتين ، وفي الغرفة الأمامية مرحاضها الخاص ، وحتى البئر . يقول إنه مليء بالكتب والأوراق القديمة مثل هذه . ولن أستغرب إن كانوا احتفظوا هنا بمجنونٍ أو هاربٍ» .

على الغلاف القذر الذي بيده ، أستطيع أن أقرأ العنوان ، «كتاب الحكومة ، من تأليف السكارى الثلاثة» ، والكلماتِ : طبع شوسيشا ، طوكيو . باغتني الأمرُ وحملني على أمواج الدهشة . لقد أطْلَعَتْ الصدمةُ شيئاً في داخلي ، اتّسع ، ثم اتخذ شكل رؤيا . وهي الرؤيا ذاتها المستحوذة على اهتماماتي وأنا أجلس الآن في القبو ليلاً .

ومضى بايك يقول مترجماً تقرير شابٍّ آخر في القبو : «هناك ثقوبٌ كثيرة تسمح بدخول النور في الجانب حيث الجدار الحجري . وأعتقدُ أن من غير الممكن رؤيتها من الخارج . أتريد أن تنزل لتلقي نظرةً ؟» .

هززتُ رأسي صامتاً ، كنت لاأزال ثملاً برؤياي ، التي شرعت تتخذ ، بازدياد ، شكلاً محدَّداً . لُبُّ القضية ، هو معرفتي أن شقيق جدي الأكبر ، بعد انتفاضة ١٨٦٠ لم يترك رفاقه لقدَرهم ، ويهرب عبر الغابة بحثاً عن حياةٍ جديدة ، وأن هذا الأمر راسخٌ تماماً . ومع أنه لم يستطع أن يمنع مأساة قطع رؤوسهم ، غير أنه أدى عقوبته الذاتية . ففي يوم الإبادة النهائية ، أغلقَ على نفسه ، في القبو ، فظل محتفظاً بصفته قائداً للانتفاضة ، ولو بطريقة سلبية ، دون أن يرتدَّ عن معتقداته . أما الرسائل المتبقية منه فلابد أنها كُتبت في المخبأ ، وسُلِّمت الى أولئك الذين يُنزلون الطعام إليه . لابد أنه كتب الرسائل في فتراتٍ بين القراءة ، وهو يُصوِّرُ لنفسه نوعية الرسائل التي كان سيرسلها لو استطاع أن يعيش في مكانٍ آخر ، فتدرَّج ببطءٍ ، من أحلام الشباب ذات المغامرة ، الى رؤى النضج الأكثر حزناً وواقعيةً . إن غياب عنوان المرسِل عن الرسائل يؤكد أن الكاتب لم يغادر القبو ، بتاتاً . ومن جانب جدي الأكبر كانت الصلة عن طريق الرسائل فقط ، كما يُفترَض . بالنسبة لرجل يعيش حياة السجن التطوعي . لرجلٍ يُمضي الساعات تلو الساعات مع مواد مطبوعة أُنزلتْ إليه في القبو ، ويقضي الأيام في تهويمات مثل الدعوة الى الدراسة في أميركا أو فترة صيد الحيتان عند جزر بونين ، بالنسبة لرجل كهذا ، تكون المسائل الأكثر واقعيةً بعيدة نسبياً . لابد أنه وجد صعوبةً حتى في معرفة الأحداث التافهة العادية التي كانت تجري خارج المخبأ . في القبو كان يرهف أذنيه ليلتقط ما يجري . قلقاً على سلامة المجند ، ابن الأخت ، الذي ربما لم يلقه ، مع أنهما يعيشان قريبين ، كتب

رسالته الى أولئك الذين يعيشون في العالم الأعلى : «أتوسل إليكم ، إن وصلتْ منه رسالة ، أن تخبروني سريعاً بمحتواها» .

رأسي محمومٌ بهذه الرؤى الجديدة . كنت أوشك أن أعود الى البيت الرئيس حين شرع بايك فجأة يتحدث عن حادثة صيف ١٩٤٥ . يبدو أن صمتي المتوتر استحثّه على محاولة سبر السبب ، وهو بالتأكيد ليس ببساطة الدهشة لاكتشاف القبو .

«حول موت أخيك في القرية الكورية ، بعد عودته من الجيش ـ لم يتأكد أحدٌ ، إن كان قُتل بأيدينا أو بأيدي اليابانيين . كانت الأمور مختلطة مشوشة ، وكل طرف يضرب الآخر بالعصيّ . جاء وهو لا يحمل سلاحاً في احتدام العراك ، ووقف مسبلَ اليدين ، ساكناً ، حتى قُتل . بتعبير آخر ، قتلناه نحن واليابانيون ، إنه شابٌّ آخر من نوع خاص ، كما تعرف!» .

توقّف بايك ، وراقب ردَّ فعلي . لم أقل شيئاً لكني أومأت كأنني أقول ، «نعم ، أظنك مصيباً . كان س من ذلك النمط» ، ودخلت البيت الرئيس ، مغلقاً البابَ ، كي أمنع الغبار الذي يتبعني . وفي صوتُ متوترٍ ، سمعتُني أنادي «تاكا!» ، في العتمة المحيطة بالموقد المفتوح ، لكني أدركتُ أن تاكاشي كان ميتاً ، وأسفتُ لغيابه أكثر من أي وقت ، منذ انتحاره . فهو يستحق أكثر من سواه أن يعرف الحقائق الجديدة عن المستودع . وما أن ألفتْ عيناي العتمة ، حتى طفا وجه زوجتي المنتفخ ، في دائرة شبه كاملة . كانت تراقبني مرتابةً .

أعلنتُ : «ثمت قبوٌ تحت المستودع ، ويبدو أن شقيق جدي الأكبر ظلَّ في جُحره هناك ، طوال الوقت ، متشبثاً برايته قائداً لانتفاضة فشلتْ... لقد مات تاكا وهو يحسُّ بالعار من شقيق جدنا الأكبر ، ومن نفسه هو ، لكن شقيق جدنا الأكبر عاش حياةً مختلفةً تماماً عمّا كان متصوَّراً . لقد

عرفتُ هذا للتوّ . ليس هناك ما يُشعر تاكا بالعار ، وخاصة ما يتعلّق بسَلَفه ، في الأقل» ، تحدثتُ متحمساً ، مقتنعاً أكثر فأكثر بصواب ما قلتُ .

صاحت بي : «لكنك أنت الذي تركتَ تاكا يشعر بالعار ، وهو على حافة الموت! أنتَ تركتَه فريسةَ الإحساس بالخزي . ما فائدة هذا النوع من الكلام الآن ؟» .

مسحوراً باكتشافي ، كنتُ آملُ في عبارات مواساةٍ من زوجة ، ولم يخطر ببالي أنها ستختار تلك اللحظة كي تنقلب عليّ . شعرتُ بأنني مشلول ، وفي حبائل الاكتشاف وعداء زوجتي السافر .

«لا أعتقدُ أنك دفعتَه ، فعلاً ، الى الانتحار ، لكنني أعتقدُ أنك فرضتَ عليه أسوأ نوع مخجلٍ وحيوانيّ من الموت» ، ومضتْ متصاعدة النبرة ، «ظللتَ تجرفه في خزيه ، حتى صار ذلك النوع الحقير من الموت ، الإمكانَ الوحيد المتبقّي . أنا متأكدة من أنه حين قرر أن يموت ، علّقَ عليك أمله الأخير في قهر خوفه . لكنك رفضتَ دعوة عينيه ، أليس كذلك ؟ حتى حين ركع على ركبتيه وتوسل إليك أن تخبره لماذا تكرهه ، لم تقل «أنا لا أكرهك» ، لا . بل وبّختَه وجعلته يشعر بضِعف ما كان يشعر به من خزي . لقد تخليتَ عنه ، فلم يبقَ أمامه خيارُ سوى أن يطلق النار على وجهه ويُذَرّيه بتلك الطريقة المرعبة ، المثيرة للشفقة . الآن وقد مات ، ولم يَعُدْ بالإمكان تدارُكُ أي شيء ، بدأتَ تقول ليس هناك ما يُشعر تاكا بالعار ، وخاصة ما يتعلق بشقيق الجد الأكبر! لو أن تاكا عرفَ ، فقط ، بأمر الرجل ، حتى لو لم يؤدِّ هذا الى حياة جديدة ، فقد كان ممكناً أن يمنحه الأمر قوةً روحيةً في يومه الأخير ، في اللحظات التي سبقتْ موته . لو أنك أخبرتَ آنذاك بما تريد أن تُبلغه الآن ، وهو ميتٌ ، فإن انتحاره ما كان ليغدو في مثل تلك الشناعة!» .

«الحقائقُ التي أبلغتُكِ بها ، للتو ، لم تكن مكتشفة ، إلا بعد أن شرع الإمبراطور يمسح المستودع . في تلك الليلة ، كان شيء من هذا يبدو مستحيلاً . أما الآن فواضحٌ تماماً أن شقيق جدنا الأكبر حبس نفسه تحت المستودع وعاش هناك منعزلاً حتى مماته» .

«الآن ، يا ميتسو ، وبعد أن مات تاكا ، ماذا يَفْرُقُ عنده ما لم تعرف ، وما تعرف الآن ؟ أنت تنحّي الناس جانباً وتتركهم يموتون بلا أمل ، لكن كل ما تستطيع عمله هو أن تصرخ : «إنني أتخلّى عنكم!» في أحلامك ، أو تذرف دموع التأسي . الآن ، كما في الماضي ، والمستقبل ، والى الأبد! الاكتشافات الجديدة ، قد تجدد دموعك ، لكنها لن تواسيهم في موتهم الشنيع ، وبمثل ذلك اليأس!» .

تخليتُ عن المحاولة ، وارتضيتُ الاكتفاء بمراقبة عينيها ، اللتين كانتا مليئتين بالبغضاء حدَّ أن الغضون حولهما كانت تبدو مثل طيّات الصمغ . لم أخبرها عن اعتراف تاكاشي بشأن الحبَل . حتى لو أخبرتُها ، فإنها سوف تشير إشارةً مبرَّرة الى أنني كان بمقدوري ، بعد سماعي الاعتراف ، أن أخبره أنه كفَّرَ عن ذنبه فعلاً ، بعيشه سنواتٍ عدةً تحت الظل المؤلم لـ«الحقيقة» ، ولو حدث هذا لخففتُ الى حدٍ ما من هول انتحاره .

ظلت عيناها مثبّتتين عليّ ، لكن الهالة الغاضبة تلاشت ، وبدون أن تفقدا بريق الكره ، رانَ عليهما ظلٌّ جديد من الحزن .

قالت : «الآن ، كل شيء جديد ، يبيِّن أنه لم يكن بحاجة الى أن ينتحر بتلك الطريقة الشنيعة ، لن يزيد الأمور إلا فظاعةً» . وتفجرت دموعها ، كأن قوقعة الكره الصلبة انكسرتْ لتطلق مُحَّ الحزن داخلها . تمالكتْ نفسها بعد حين ، وقالت مترددة ، مع افتراضٍ واضحٍ أنني استدللتُ على الحقيقة : «في

الأسبوعين الماضيين ، كنت أتفكَّرُ... هل أُجهض نفسي أم لا ، لكني قررت الآن الاحتفاظ بطفل تاكا . لن أسمح لنفسي بارتكاب قسوةٍ أخرى تتعلق به » .

أدارت رأسها لتواجه العتمة الأكثر عمقاً في مؤخرة الغرفة ، وأسدلتْ ستاراً على نفسها ، وهي مصممة على رفض أي ردٍ يتعارض وقرارها . تطلعتُ الى ظَهرها ذي المستنَد العريض ، وهي جالسة ـ الأمُّ التي تستقبلُ ـ مع ثقلِ جسدها المستقرّ بثبات على كعبيها ، ولقد كان الأمر كذلك ، في التوازن الجسدي والعقلي ، حين كانت حاملاً بطفلنا ، بطفلي أنا . وقد فهمتُ إصرارها على ولادة الطفل الذي في رحمها ، طفل تاكاشي : فهمتُ المسألة ، بالفوريّة الطبيعية التي يرى فيها المرء كتلة حجرٍ أمام عينيه . لقد استقرّ الفهم عميقاً في نفسي بدون أن يؤدي الى أهون انزعاجٍ عاطفيّ .

خرجتُ ، ثانيةً ، الى الحديقة . وجدت الإمبراطور واقفاً ، متباعدَ الساقين ، في مدخل المستودع ، يوجه أوامرَ عاليةً باللغة الكورية الى أولئك الذين في الداخل ، بينما يشكل الأطفال المتفرجون دائرة ضيقة وراء ظهره . لم يُعرني أحدهم اهتماماً . قررتُ أن أزور المعبد وأخبر الكاهن الشابّ باكتشاف القبو ، والرؤيا التي استلهمتُها ، لهذا هبطتُ وحدي نحو الوادي ، مسرعَ الخطى ، في ريحٍ صرصرٍ مثقلةٍ بالغبار . في قراءتي «حصيلة انتفاضة الفلاحين في قرية أوكوبو» التي أعطانيها الكاهنُ ، انتبهتُ الى مقطعٍ متميز . لقد أدّى اكتشاف القبو الى اكتساب ذلك المقطع ملموسيةً حيّةً ، وهو الآن في لُبِّ رؤياي ، يقنعني بأن شقيق جدي الأكبر ، عاش في سجن اختياريّ بالمستودع .

كتيِّبُ جدي كان مجموعة ذات حواشٍ وتعاليق ، لرواياتٍ متنوعة عن قلاقل ١٨٧١ كما تراها السلطات ، وكما يراها المواطن العادي .

الحادث ـ قال الكتيّب ـ يشار إليه عادةً بـ« قلاقل أوكوبو » .

سكان أوكوبو قطعوا غيضة الخيزران الكبيرة ، وصنعوا رماحاً للجميع .

سبب القلاقل يكمن في كره الحكومة الجديدة ، خاصة في فرضها التطعيم الإجباري ضد الجدري ، وكلمة « ضريبة الدم » المستعملة في الإشعار الرسمي المتعلق بالخدمة العسكرية ، مما أدى الى شائعة تقول إن الدم سيؤخذ من الجمهور لبيعه الى الأجانب . وقد سببت الشائعة استنفاراً عاماً كانت نتيجته الانتفاضة .

لم يجر تحقيقٌ حول المدبّرين والآخرين في ما يخصّ الانتفاضة . ولم يعاقَب أحد .

أما رواية السلطات عن القلاقل فكانت الآتية :

الأمر الصادر في تموز ١٨٧١ بإلغاء العشائر وإنشاء المحافظات أثار المعارضة بين سكان قرية أوكوبو ذوي العقلية المحافظة ، وفي أوائل آب وردت تقارير تشير الى التهيؤ للقيام بمؤامرة تقاوم الإجراءات . وقد أُرسل موظفٌ على وجه السرعة ليشرح الإجراء ، لكنهم رفضوا أن يقتنعوا . وقد حرَّض السكانُ ، القرى الأخرى ، للإنضمام إليهم ، فاجتمعوا في حوض النهر الجافّ شماليَ قلعة أوهاما (مسافة ميل من مكتب المحافظة) في عصر اليوم نفسه . وقد انتقلت العدوى بسرعة حتى تورّطت أكثر من سبعين قرية . وفي الثاني عشر من الشهر نفسه بلغ عدد الغوغاء أربعين ألفاً . وقد انهمكوا في إطلاق بنادقهم في الهواء ، ورفع أصواتهم بصيحات الحرب ، وتلفيق شائعات لا أساس لها . وسرعان ما تدفقوا في أوهاما ، مسلحين برماح الخيزران والمسدسات ، وسيطروا على الشوارع . الشائعات التي نشروها أن عودة الحاكم السابق الى طوكيو كانت من تدبير رئيس المستشارين ، وأن

الإحصاء يهدف الى أخذ الدم من الناس ، وأن التطعيم مكيدةٌ لتسميم خصوم الحكومة ، وتلفيقات أخرى ليس لها عددُ . صار تصرُّفهم أكثر وحشيةً . وظل الجمهور في مكانه ، بدون أن يقدم أي مطالب ، حتى صار مكتب المحافظة تحت الحصار الفعليّ . الموظفون الذين أُرسلوا لتهدئتهم قابلوا الممثل الرئيس لمدبري الفتنة ، الذي أصرّ على أن الحاكم السابق يجب ألا يعود الى طوكيو ، وأن شكل الحكومة السابق للإصلاح يجب أن يُعاد ، والموظفين الحاليين يجب أن يُطردوا ، وأن تَحِلَّ الإدارةُ السابقة محلّهم . وفي الثالث عشر ، حين بدا أنهم يوشكون على مهاجمة مكتب المحافظة ، تقرّر استخدام الجنود لضبطهم ، مما جعلهم يترددون ، فلم يقع الهجوم قطّ . لكن جميعة ممثلي المحافظة نالها الاضطراب . وتخلّت عن قرارها السابق ، وصار كثيرون يعارضون الآن استخدام القوة ، وتقرر استقدام عدد من موظفي ما قبل الإصلاح لتولي مسؤولية الوضع . وفي اليوم الخامس عشر ظهر الحاكم السابق نفسه ، شخصياً ، ليتحدث مع الغوغاء ، لكنهم ظلوا يرفضون التفرُّق . وفي غسق اليوم نفسه ، غادر رئيس المستشارين ، فجأةً ، مكتب المحافظة ، ثم جاء خبرٌ يقول إنه انتحر في منزله .

تأثّر المتمردون لسماعهم التقرير . وبدأ الجمهور يتفرق . وعصر اليوم السادس عشر تمت السيطرة على الوضع ، وصار بإمكان الموظفين الذي أُرسلوا لمعالجة القضية العودة ، بلا استثناء ، الى مكتب المحافظة .

الرواية الأخرى ، المكتوبة من وجهة نظر الرجل العادي ، عاملت القلاقلَ باعتبارها حكايةً رومانسيةً أكثر منها حدثاً تاريخياً .

الزعيم ، الواردُ فيها ـ الرجل الذي تفاوضَ مع السلطات باعتباره «الممثل الرئيس» ـ وُصفَ بأنه «شخص ضخم ، من أصول مجهولة ، يبلغ طوله ستة أقدام ، وهو منفوش الشعر» . ومقطعُ آخر يقول : «الرجل الغريب

ذو الشعر الطويل الذي تردُ الإشارة إليه كثيراً في هذه الرواية ، كان شخصاً خارقاً بالفعل ، متين البنية ، يفوق طوله ستة أقدام ، ذو ظهرٍ منحنٍ وملامح شاحبة . لكنه بالرغم من خراقة مظهره ، أدهشَ الجميع ببلاغة لسانه وقابليته المرموقة في كل ما فعله» . أما عن عدم معرفة المشتركين في انتفاضة ريفية صغيرةٍ ، أيَّ فكرةٍ عن زعيمهم ، فقد اكتفى جدي بالقول إن أغلب المشتركين قد سوّدوا وجوههم بالسِّخام حتى صار من المستحيل أن تميز رجلاً عن آخر . وهكذا فشل تماماً في الإجابة عن السؤال الذي أثاره هو نفسه ، عمّن كان ذلك «المخلوق الخارق» .

أما المقطع الأخير المتعلق بالشخص الغريب ، فيقول : «بعد التقرير المتضمن تفرُّقَ المشاغبين عند مدخل قرية أوكوبو ، في اليوم السادس عشر ، اختفى زعيمهم كأنه مُحِيَ محواً من وجه الأرض» . بعد هذا ، جاء الصمت .

الصفات الخارقة للقيادة للرجل الضخم ذي الظهر المنحني والوجه الشاحب ، تبدّتْ فعلاً في الحنكة التي جعل بها مكتب المحافظة يحاصَرُ ـ ضاغطاً بذلك على الخصم دون أن يستفز الجيش للتدخل ـ وحافظ على توازن قوةٍ مرهف بين الناس والسلطات حتى تغيّرَ مجرى النقاش أخيراً في الجمعية . لكن لجدي قولته أيضاً في امتداح ذلك : «الجدير بالذكر أكثر من سواه ، حين النظر في القلاقل ، هو أن خدشاً لم يُصِب واحداً . إن هذا يستلزم قدرات قيادة استثنائية تقوم بهذه الاضطرابات الجبارة دون أن يُجرح شخص واحد» .

هكذا صارت «رؤياي» بدورها قناعةً بأن الرجل الطويل ذا الكتفين المنحنيتين والوجه المرمد كان شقيق جدي الأكبر ، وقد خرج فجأةً فوق الأرض بعد عشر سنوات من التأمل الانفرادي في انتفاضة ١٨٦٠ . لقد

استثمر كل ما اكتسبه من النقد الذاتي لأكثر من عشر سنوات ، في انتفاضة ثانية ناجحة مختلفة عن الأولى . الانتفاضة الأولى كانت دموية ، ولم تحقق إنجازاً واضحاً . في الثانية لم يُقتَل أو يُجرح أحد سواء من بين المنتفضين أو الواقفين على جنب . ودفع رئيس المستشارين ، هدف الهجوم ، الى الانتحار .

والأكثر من ذلك أن المنتفضين جميعاً نجوا أحراراً .

في قاعة المعبد الرئيسة ، حيث صورة الجحيم التي كنت جئتُ أراها مع تاكاشي وزوجتي لاتزال في موضعها من الحائط ، أخبرتُ الكاهنَ الشابَ بمشاعري ، وفي أثناء ذلك أقنعتُ نفسي أكثر وأقوى بحقيقية تلك المشاعر .

«هل يجوز أن الفلاحين في فترة التغيير ، وحين جعلتهم جراح انتفاضة ١٨٦٠ شديدي الارتياب ، يعهدون بقيادتهم في قضيتهم الجديدة الى شخص غريب ، مجهول الأصل ؟ أنا أشكُّ في ذلك . إن ما حرّكهم الى العمل ، بدون ريب ، هو انبعاث «متخصص» في الانتفاضات ـ وبتعبير آخر ، القائد الأسطوري لانتفاضة ١٨٦٠ . وإذا حكمنا على الأمور بخواتيمها فإن الهدف المركزي لانتفاضة ١٨٧١ كان سياسياً ، وهو تنحية رئيس المستشارين . وهذا يعني أن أحداً استنتج أن هذه التنحية ضرورية تماماً ، إذا أُريدَ لأحوال الفلاحين المعاشية أن تتحسن . لكن مثل هذه الفكرة المجردة لم تكن لتكفي بذاتها كي تحرِّض الفلاحين . لذا فإن المختبئ في القبو ، الذي كان يقرأ آخر المنشورات ، استفاد من التطعيم ضد الجدري ، ومن التباس تعبير «ضريبة الدم» ـ بالرغم من أنه هو نفسه متحررٌ من أي فهم خاطئ ـ كي يحرض الأهالي ، وينظم القلاقل التي انتهت بهزيمة رئيس المستشارين الذي أرسلته الحكومة الجديدة . بعد أن قام بهذا ، عاد الى قبوه ، واختفى حتى

النهاية ، مُمضياً السنوات العشرين الأخيرة في عزلة مقصودة . هذا ما أعتقدُه . لقد حاولنا أنا وتاكاشي ، باستمرار ، أن نتوصل الى نوع الشخص الذي صارَهُ شقيق الجد الأكبر بعد انتفاضة ١٨٦٠ ، لكننا لم نكتشف أي شيء ذي مغزى ، وكان سبب ذلك أننا نتابع شبحاً ونطارده ـ نطارد الشخص الذي فرَّ عبر الغابة » .

الكاهن الذي ظل محتفظاً بابتسامته طوال خطبتي المديدة ، وباحمرار وجهه الصغير اللطيف ، لم يُبدِ أي حركة سواء في تأكيد ما قلتُ أو في نفيه . إن حماسته الفاضحة أيام «الانتفاضة» لاتزال تضايقه حين يكون معي ، وقد اتخذ الآن هيأةً مبالَغاً فيها إزاء اهتياجي . إلا أنه بعد فترة جاء بفكرة تؤيد نظريتي .

«لنفكرْ بالأمر ، يا ميتسو . إن أسطورة الرجل المحدودب في قلاقل ١٨٧١ معروفة جيداً في الوادي بحيث تتوقع أن ينضمَّ الى «أرواح» رقصة النيمبوتسو ، أليس كذلك ؟ ربما أبقوه خارجاً ، عن عمدٍ ، لأنه سوف يكون شبيهاً بـ« روح » شقيق جدك الأكبر . إن هذا برهانٌ سلبيٌّ بالطبع ، لكن...» .

قلت : «عن رقصة النيمبوتسو ، يدخل الراقصون الى المستودع ، ويقدّمون مدائح شكلية لداخل المستودع ، ثم يتناولون طعاماً وشراباً هناك ، أليس كذلك ؟ أليست لهذا صلةٌ بأن أحدَ أهمِّ «الأرواح» أمضى سنين ، سجيناً ، تحت المستودع ؟ إن كان الأمر هكذا ، فسيكون برهاناً إيجابياً . أرى أن جدي حين علّق حواشيه على هذا الكتيّب ، كان يعرف جيداً أن الشخص الغريب المحدودب كان عمه ، وكان يعبر ، سرّاً ، عن تعاطفه معه » .

لم يُجب الكاهن مباشرة ، كأنه مترددٌ في أن يرى تخمينه وقد توسّع بفضل مخيّلتي ، والتفتَ بدلاً من ذلك الى صورة الجحيم .

قال : « إن كانت نظريتك صحيحة ، فإنني أفترضُ أنها تعني قيام جدك الأكبر بجعل هذه الصورة تُرسَم لأخيه ، وهو لايزال حياً في القبو » .

جاءتني الصورة بالطمأنينة العميقة التي أحسستُ بها حين رأيناها ، سويةً ، أنا وتاكاشي وزوجتي ، لكن الطمأنينة هذه المرة لم تكن أمراً أُثيرَ في ذهني سلبياً ، بل هي نابعة جوهرياً من الصورة ذاتها . إنها هناك ، على الورق ، مستقلةٌ عني . بكلمة واحدة ، كان ما يشعُ منها هو : **الرقّة** . والاحتمالُ الأكثر أن هذا ـ الجوهر النهائي للرقّة ـ هو ما أراد الرجلُ المتكفِّلُ باللوحة ، من الرسام ، أن يرسمه . ومادامت الصورة تهدف الى منح أخيه السلام والطمأنينة ، أخيه الذي يتقلّب داخل سجنه الاختياري في جحيمه الخاص ، فمن الطبيعي أن ترسم الجحيم أيضاً . لكن الأحمر في نهر النار سيكون في خطوط ناعمةٍ ولطيفة مثل طيّات تنّورة امرأة . وفي التطبيق ، صار تأثيرُ نهر ألسنةِ اللهب ، لُطفاً مطلقاً . شقيقُ جدي الأكبر كان يجمع في شخصه ، الميتَ الصارخَ ألماً ، والشيطانَ الذي يعذّبه ، ولأن الصورة مصمَّمةٌ لجلب الطمأنينة الى هذه الروح المتوحشة ، فعلى الصورة أن تلتقط آلامَ الموتى وقسوةَ الشياطين ، بدقةٍ متساوية . لكن الموتى والشياطين ، مهما انغمسوا في تعابير الألم ، أو إلحاقِ العذاب ، فإنهم في الوقت نفسه مرتبطون روحياً برقةٍ ناعمة . ومن المحتمل أن يكون الرجل ذو الشعر الأشعث ، المنطرح منبسطَ الأطراف على الجلمود الساخن حتى الاحمرار ، أو الذي يُبدي عجيزته الضامرة خارج نهر اللهب للنار التي تمطر من الفضاء ـ صورةً شخصيةً لشقيق جدي الأكبر بالذات .

والحق ، أنني صرت أرى وجوه الموتى كلها ، بعد أن استولتْ عليَ الفكرةُ ، ذات جو مميّزٍ واحدٍ ، وتحرّك في أعماق وعيي ألقُ معرفةٍ مفعمٌ بالحنين ، كأنهم كانوا أقربائي ، من لحمي ودمي .

قال الكاهن مستذكراً : «مشهدُ هذه الصورة كان يعكّر مزاج تاكا ، دوماً . كان يخافها منذ طفولته» .

قلت : «أعتقد أنه لم يكن خائفاً من الصورة ، قدرَ معارضته لِلُطفِ الجحيم الذي تُصوّره . هكذا يبدو لي الأمر ، الآن ، في الأقل . كانت لديه رغبة محمومة في معاقبة الذات ، وفي أنَّ عليه أن يعيش في جحيم أشد هولاً ، لهذا أراد أن يرفض هذا النوع الناعم المهدِّئ من العذاب ، معتبراً إياه زائفاً . لقد جهدَ بطريقته حتى يصون قساوة جحيمه الشخصي» .

ابتسامةُ الكاهن الشاب التي لا تحمل معنى ، اختفت تدريجاً من وجهه الصغير ، ليحلّ محلّها شعورٌ محددٌ من الاحتراس . لقد عرفتُ من التجربة أنه حين تجابه آراؤه التحدي ، فإن وجهه الذي لا يبدي الارتياب إطلاقاً ، سيكتسي نظرةً مغلقةً ، نصف متحدّية . لكن لم تكن لديّ رغبة في أن أمنحه أكثر عما يعتمل في نفسي ، مادام غير مهتمٍ ، في النهاية ، إلا بحيوات الناس في الوادي . بالنسبة لي ، في الأقل ، كانت صورة الجحيم برهاناً إيجابياً آخر ، ولسوف تبرر مع أدلّتي الأخرى تبريراً لإعادة النظر في الأحكام التي أصدرتُها بحقّ شقيق جدي الأكبر وتاكاشي .

في أثناء مشيه معي حتى البوابة الرئيسة للمعبد ، أعلمني الكاهن بآخر أنشطة شبان الوادي منذ «الانتفاضة» .

«تتذكر الشابّ الإسبارطيّ الذي عملَ مع تاكا ؟ يقال إنه سوف يحصل على مقعد في المجلس حين تُعقد أول انتخابات بعد دمج القرى . ربما كانت انتفاضة تاكا إخفاقاً كاملاً ، لكنها في الأقل هزّت الوادي من سباته . الشبّان الذين شكّلوا ، في أول الأمر ، بصورةٍ أساسيةٍ ، مجموعةَ تاكا ، قد وسّعوا نفوذهم الى الشيوخ المحافظين ، الى حدِّ أنهم أدخلوا أحد أعضائهم في المجلس المحلي . لذا فالانتفاضة كانت مؤثرة في ما يتعلق بمستقبل الوادي

ككل . لقد فعلتْ فِعلها في إعادة تأسيس صلات عمودية في مجتمع الوادي ، وفي تشديد الصلات الأفقية لدى الشبان . تعرف ، يا ميتسو ، أنني أشعر بأن أفقاً محدداً للتطور اللاحق في الوادي قد انفتحَ أخيراً . أنا آسف لما حدث لـ« س » ، وتاكا ، لكن الإثنين كليهما أدّيا دورهما » .

حين عدتُ ، كان الإمبراطور غادرَ المستودعَ ، والأطفال الذين تركتُهم يتطلّعون الى الفجوة في الحائط ، والتجويف في الأرضية ، كانوا يحثّون الخطى ، هابطين على درب الحصباء مثل طيور انتفضتْ لعلائم الغسق الأولى . حتى في طفولتي ، كان أطفال الوادي ـ على الضد من أطفال «الريف» الذين يظلون يلعبون حتى بعد هبوط الظلام ـ يندفعون الى بيوتهم ، لاهثي الأنفاس ، لحظة حلول الغسق . قد لا يكونون أطفال اليوم خائفين الشوزوكابي الذي يسكن الغابة ، لكن عاداتهم في الأقل لم تتغير .

تركتْ زوجتي لعشائي ، عند الموقد ، صحن شطائر لحم مدخَّن كانت اشترته في تنزيلات السوبر ماركت ، ومضت لتنام في الغرفة الخلفية ، مكرِّسة نفسها ، افتراضاً ، لمنفعة الطفل الذي في رحمها . لففتُ الشطائر بالورق المشمّع ، ودسستُها في جيب معطفي ، وذهبتُ خلف المكان لأدبِّر قنينتي ويسكي ، إحداهما ملأى ، والأخرى فارغة . غسلتُ الفارغة وملأتُها بماء ساخن ، مع أني أعرف أنه سرعان ما يصير بارداً يُقرس اللثة مثل الماء المثلج . ومخمناً أن الجو سيكون شديد البرد ليلاً ، زحفتُ الى حيث ترقد زوجتي ، كي آخذ بطانيات إضافية من الخزانة . لكنها لم تكن نائمة ، وقالت فجأةً :

« كنت أفكر قليلاً ، بهدوء » قالت ذلك بحدّة ، كأنني كنت أريد اغتنام الفرصة لأندسَّ معها تحت البطانيات .

« كنت أراجع تفاصيل متنوعة لحياتنا الزوجية ، فاستنتجتُ أنني بتأثيرِ

منكَ تركتُكَ تشاركني المسؤولية عن جانبٍ كاملٍ من قراراتي الخاصة . وكان معنى ذلك أنكَ إذا تخليتَ عن شخص ، أكونُ أنا أيضاً في فريق التخلّي . لكن الأمر الآن يزعجني حقاً ، يا ميتسو . سوف أبدأ التفكير ، ثانيةً ، بالطفل الذي في المعهد ، وبالطفل الذي لم يولد بعدُ . أفكِّرُ لنفسي ، مستقلةً عنك» .

قلتُ منخذلاً : «إمضي في سبيلك . إن حكمي لا يُعتَمدُ عليه» ، ثم أضفتُ قائلاً لنفسي : «وأنا ماضٍ ، لأغلقَ عليَّ في قبو المستودع ، كي أفكر أيضاً . فبالبراهين الجديدة ، عليَّ التخلص من أفكاري المسبقة عن شقيق جدي الأكبر وتاكاشي ، وأن أعيد النظر في قضاياهما من البداية . أن أفهمهما فهماً صحيحاً لا يعني لهما شيئاً ، فهما ميتان ، لكن الأمر جوهريٌّ لي» .

هبطتُ الى القبو ، واقتعدتُ الأرض ، وظهري مستندٌ الى الجدار الأبيض في الطرف البعيد من الغرفة الخلفية ، تماماً كما فعل السجينُ المتطوعُ قبل قرنٍ من الزمان ، وقد لففتُ ثلاث بطانياتٍ لفّاً وثيقاً حولي ، فوق معطفي . وبينما كنت آكل الشطائر وأشرب جرعاتٍ متناوبة من الويسكي ومحتويات القنينة الأخرى ـ ماءً دافئاً أولاً ، ثم بارداً ، مع أنه لن يتجمد مادامت ريح الجنوب القوية مستمرة في عصفها بالغور ـ بدأتُ أفكر ثانيةً . من ركن هذا القبو الذي لم تطأه قدما إنسان منذ سنين كثيرة ، ارتفعت رائحة عطنة حيث شكلت الريح كومةً من نثار الكتب والأوراق القديمة التي أكلها العثّ ، وثمت طاولة كتابة خفيضة تداعتْ منذ زمن ، وبقايا حصران التاتامي التي تغضنت قِطَعاً ، ثم نشفت من جديد . رائحة مماثلة انبعثت من أحجار الأرضية ، التي كانت رطبة قليلاً مثل جِلْدٍ متعرِّقٍ باردٍ مهترئ الى مادة ناعمة . غبارٌ ناعمٌ تعلّقَ رطباً وثقيلاً حول منخريَّ ، وشفتيَّ ، وحتى حول

عينيَ ، مغلقاً إياي في حالة إغلاقه المسامَ إغلاقاً مميتاً . استعدتُ فجأةً ذكريات مؤلمة عن ربو الطفولة قبل خمس وعشرين سنة . شممتُ أناملي ، كانت ملطخة منذ الآن بغبار حرِّيفٍ لا يزول حين حككتُه على ركبتيّ . كل ما أعرفه ، أن عنكبوتاً تضخَّمَ الى حجم سرطان صغير بعد أيامٍ طويلة أمضاها في تلك الظلمة المخيفة قد يأتي من وراء كومة القمامة ويلدغني خلف الأذن . أثارت الفكرة في داخلي ، ردَّ فعلٍ جسدياً ، وامتلأت العتمة ، على الفور ، أمام عينيّ ، بأَرَضَةٍ عملاقة تحدّقُ إليّ ، وحمار قبّان بحجم الخنزيرة ، وجنادب كل واحدٍ منها بحجم الكلب .

«إعادة محاكمة ؟» ، لكن القبو هنا ، ولو أن شقيق جدي الأكبر حبس نفسه حقاً هنا ، وتمسّكَ بهويته قائداً للانتفاضة حتى النهاية ، نهاية أيامه ، فهذا وحده كافٍ ليقلب الحكم التي وضعتُ فيه قناعتي . الأمر ذاته مع تاكاشي ، الذي عاش محاولاً تقليد حياة الشقيق : في ضوء فرادة سلفه التي برزت حديثاً ، شرع انتحاره يبدو محاولةً بطوليةً أخيرة لوضع «الحقيقة» ، حقيقته ، كاملةً ، لصالحي أنا ، الباقي على قيد الحياة . لقد تناثر الحكم الذي أصدرتُه على تاكاشي أشلاءً . إن موقف تاكاشي هو الأفضل ، إذ أن صورة شقيق جدنا الأكبر التي كان تاكاشي يصرُّ عليها ، بينما أنا أسخرُ منها ، هذه الصورة لم تكن وهماً على الإطلاق .

في أعماق القبو ، حيث العتمة التي تدوِّم فيها ريحٌ قاسيةٌ ، رأيتُ عيني هرٍّ يُحتضَر ، هرٍّ مرقّطٍ بالسواد تعهّدتُه منذ أيام دراستي حتى تزوجت وصارت زوجتي على أبواب الحمل . تذكرتُ العينين من ذلك اليوم التعيس حين وجدتُه مدعوساً ، وقد برز من بين قائمتيه شيء يشبه يداً حمراء مسلوخة : عيني هرٍّ عجوزٍ ، هادئتين صافيتين ، حدقتاهما مثل أقحوانتين صغيرتين مشعّتين ، عيني هرٍ ظلتا هادئتين وبلا تعبير رغم خطفات الألم

الحادّ المندفعة حول موطن الإحساس في مخه الصغير ، عيني هرٍّ يتعامل مع عذابه باعتباره أمراً يعنيه هو فقط ، كأنه غير موجود بالنسبة للآخرين . أنا لم أُبدِ أي تصوّرٍ عن البشر الذين أخفت عيونُهم جحيماً خاصاً مماثلاً . كنت على الدوام أنتقد محاولات تاكاشي ، كإنسانٍ يريد أن يكتشف طريقاً ما لحياة جديدة . بل لقد رفضتُ أن أساعده حين طلب مني ذلك متوسلاً ، لحظةَ إطباقِ الموت عليه . وهكذا تعاملَ تاكاشي مع جحيمه ، وحيداً ، بدون مساعدة أحد . وبينما كنت أفكر بهذه الأمور في الظلام ، صارت عينا هِرّي ، رفيقِ السنين الطوال ، عيني تاكاشي ، وعيني شقيق جدي الأكبر الذي لم أعرفه ، وعيني زوجتي المحمرّتين كالبرقوق ، وكل هذه العيون اتصلت بحلقة مشعة تغدو بسرعةٍ ، جزءاً مني ، لا سبيل الى نُكرانه . وأنا متأكد من أن عددها سيظل يتضاعف مع الزمن حتى تلتمع مئات العيون مثل سلسلة نجوم في ليل تجربتي . وسأحيا ، وأنا أعاني الخزي تحت نور تلك النجوم ، محدّقاً على استحياء ، مثل فأر ، بعيني الوحيدة ، الى عالمٍ معتم ، وخارجيّ...

إعادةُ محاكمتنا هي محاكمتك! ولوّح الشيوخ بقبّعاتهم عند العارضة الكبرى . جلستُ محدودباً ، لا أكاد أتنفس ، كأنني ملقيً وحدي أمام قُضاة حلمي ومحلّفيه ، عيناي مطبقتان إزاء الظلام مخافةَ العيون الأخرى المثبتّة عليّ ، ورأسي كرةٌ غريبة تتخذ مهاداً لها المعطف والبطانيات التي تلفّ ذراعيّ . أعليَّ ، إذاً ، أن أستنفد أيامي بلا هدف إيجابي ـ أيام غامضة موحشة سائبة ، بعيدة عن الإحساس الواثق بالوجود لأولئك الذين ارتفعوا فوق جهنّماتهم الخاصة ؟ أم أن ثمت منفذاً للانسحاب الى عتمة أكثر راحةً ؟ ومثل تتالي صور فوتوغرافية ثابتة ، رأيتُ أنا ، آخرَ ، ينسلّ حراً من كتفيّ المتهدلتين وأنا أجلس منطوياً على بعضي مثل جثمان في جرّة دفنٍ ، ثم ينهض ، ويزحف خلال فجوة ألواح الأرضية ، ثم يرتقي السلّم الضيق تحت

التجويف المفتوح في الجدار ، وكان بمقدوري أن أشعر ، فجأةً ، بالرغم من أنني لا أزال في قعر القبو ، بالدَّوخة المُسْقمة التي استولت على الشبح الواقف هناك في منتصف السلّم ، عاجزاً ، مشلولاً ، أمام الفراغ العميق الأسود الممتلئ بالريح . وضغطتُ أصابعي على صدغيَّ لأهدئ الوجع في لُبّ رأسي . لكن الطيف حين وصل تحت العارضة الكبرى مباشرةً ، أدركت فجأةً ، مرعوباً ، أنني لا أزال أُمسكُ بعدُ بـ« الحقيقة » . وبينما أنا أشنق نفسي ، أصرخُ عالياً بالأحياء . فجأة اختفى الطيف عن ناظري .

أنا لم أستطع حتى أن أشارك ، ذلك الـ« شيئاً ما » ، في داخل صديقي ، الـ« شيئاً ما » الذي جعله يصبغ رأسه بالقرمز ، وينتحر ، عارياً ، وخياراً مدسوسة في دُبره . حتى العينُ التي اعتقدتُ أنها تراقب العتمة الملأى دماً في رأسي ، لم تحقق أي وظيفةٍ تُذكر . إن كنت لم أمسكْ بـ« الحقيقة » بعدُ ، فمن المستبعد أن أجد قوّة الهدف لأنفذَ تلك القفزة النهائية في الموت . لم يكن الأمر هكذا ، مع شقيق جدي الأكبر ، ومع تاكاشي ، فقبل أن يموتا ، بالضبط ، كانا متأكدينِ من جحيمهما ، وبإعلانهما الصارخ لـ« الحقيقة » ارتفعا فوقه .

جدَّ حقيقيَ كان الإحساس بالهزيمة الذي اصّاعدَ في صدري مثل ماءٍ مغليّ ، وانتشر في ألمٍ نغّار في سائر جسدي ، بحيث اكتشفتُ أمراً ثانياً : تماماً ، مثل ما كان تاكاشي منذ الطفولة مفعماً بشعور معارضتي ، كنتُ معادياً تاكاشي ، ومَثَلَه الأعلى شقيق جدي الأكبر ، وبحثتُ عن معنى في حياة هادئة مختلفة اختلافاً كاملاً عن حياتهما . وعندما طرأ ، بالرغم من كل شيء ، الحادثُ الذي أعمى عيني ، كأني أحيا حياة خطرٍ ، استأتُ استياءً مُضاعفاً ، وأمضيتُ أياماً بائسة في المستشفى أقتل الذباب . لكن تاكاشي ، بالرغم من نصائحي ، أصرّ على القيام بسلسلةٍ من المغامرات المشكوك

فيها ، وسيئة السمعة . وفي اللحظة الأخيرة ، حين وقف يواجه فوّهة البندقية التي ستشظّي النصف الأعلى من جسمه في عجينةٍ من رمّانٍ ناضج ، نجح في تحقيق ذاته ، وضمن لنفسه هويةً ظلت ماثلةً في رغبته في أن يكون مثل شقيق جدنا الأكبر . أما حقيقة رفضي نداءه الأخير فلا تكاد تعني شيئاً ، في التطبيق . مؤكدٌ أنه سمع أصوات شقيق جدنا الأكبر وكل أرواح العائلة الأخرى التي ملأت المستودع ، سمعهم ينادونه ، معترفين به ، متقبلين إياه بينهم . بعونٍ منهم استطاع أن يواجه خوفه هو الموجِع ، من الموت ، من أجل أن يرتفع فوق جحيمه الخاص .

«أجل ، لقد قلتَ الحقيقة» ، اعترفتُ خانعاً ، تحت نظرة الأرواح العائلية نفسها التي كانت حدّقت ، من قبلُ ، الى تاكاشي وقتَ موته ، عارفاً تماماً إذ فعلتُ ذلك بتعاستي الخالصة . أحسستُ بعجزٍ استثنائي ، وهو إحساسٌ مثل البرد ظلّ يغور عميقاً . وفي حالة ذهنية نصف مازوكيّة ، نصف يائسة ، خاطرتُ بصفيرٍ خافتٍ مؤثرٍ مستدعياً الشوسوكابي كي يأتي ويدمِّر المستودع ، ويدفنني حياً تحت أنقاضه . لكن شيئاً من هذا لم يحدث بالطبع . أمضيتُ عدة ساعات في إنهاك تامٍ ، منطرحاً ، مرتجفاً مثل كلب مبلل . فيما بعد رأيت الفتحة في ألواح الأرضية فوقي ، والنوافذ السرية نصف المغلقة في الجانب ، تغدو بيضاء . هدأت الريح الآن . استولتْ عليّ رغبةٌ في التبوّل ، فنهضتُ بشقّ النفس على ساقين متجمدتين ورفعتُ رأسي لأدسَّهُ في الأرضية فوقي . الغابة التي احتلت كل المساحة التي نتجت عن هدِّ الجدار كانت لاتزال مظلمة ، مكتسية بالضباب ، باستثناء هالة للفجر صغيرة أرجوانية ، لكن في أعلى زاوية اليد اليمنى من الفتحة كانت السماء الحمراء كاللهب ، ذاتها ، تبدو . وقد كنت رأيت هنا الأحمر الملتهب نفسه على ظَهر أوراق القرية ، في ذلك الفجر ، وأنا في حفرتي بالحديقة .

لقد ذكّرني هذا بلوحة الجحيم ، هنا في الفجوة ، وأثّر فيَ باعتباره علامةً ما . معنى تلك العلامة ، الذي لم يكن مؤكداً من قبلُ ، صار الآن مفهوماً . إن الأحمر «الرقيق» في اللوحة ، كان أساساً لون السُلوان ، لون الناس الذين يجهدون للمضيَ قُدُماً ، يَحْيَونَ ، بهدوءٍ ، حيواتِهم اليوميةَ ، الأكثر عتمةً ، والأقلَّ استقراراً ، والأشدَّ غموضاً ، مفضّلين إياها ، على مواجهة تهديد تلك الأرواح المرعبة المتشبثة بجحيمها دوماً . أنا متأكدُ من أن جدي الأكبر طلبَ رسمَ لوحة الجحيم من أجل راحة نفسه هو . لكن الناس الوحيدين الذين وجدوا في اللوحة ، السُلوانَ ، من سلالته ، كانوا ، مثل جدي ، ومثلي أنا ، أي الذين عاشوا حياتهم في إدراكٍ غامضٍ ، غير راغبين في أن يتصاعد لديهم حدَّ ضرورةِ الفعل ، ذلك المُتَطلَّبُ الداخلي الملحُّ للوثبات المفاجئة ، غير المقرر ميعادُها .

في الظلام الشاحب خارج المدخل بالضبط حيث كانت عدة طبقات من الأبواب ، وقف شخصٌ معتمٌ ينظر الى رأسي من علُ ، رأسي الذي لابد أنه بدا مثل بطيخة مطروحة على الأرضية . تحرّك الشخصُ . كان زوجتي . كيف يطلق المرءُ تحيةً عابرة ، كيف يتصرف بطريقة عادية ، عندما يُكتشف رأسُه طالعاً من شقٍّ في أرضية ، وهو ينظر الى بقعة حمراء في شمس الصباح ؟ ذُهلتُ مرتبكاً كأنّ رأسي صار ، بالفعل ، بطيخةً ، واكتفيتُ بالتطلع إليها .

«مرحباً ، ميتسو» نادتني بصوتٍ حادِّ النهايات ، متوترٍ ، لكنه منضبطٌ ليخفف من إجفالي لأني أُخِذتُ على حين غِرّة .

قلت : «مرحباً . لا تقلقي ـ ربما أجفلتُكِ ، لكني لست مجنوناً» .

«عرفتُ منذ وقت أنك اعتدتَ الهبوط تحت الأرض لتفكر . وقد فعلتَها مرةً في طوكيو ، أليس كذلك ؟» .

قلت وقد زاد خزيي من وطأة الإنهاك : «حسبتُكِ نائمةً ذلك الصباح» .

قالت : « كنت أرقبُكَ من نافذة المطبخ ، الى أن جاء بائع الحليب ، وتأكدت من أنك ستعود الى الحياة فوق الأرض . كنت خائفة من حدوث شيء مزعج » ، أضافتْ مستذكرةً ، وإذ ظللتُ ساكتاً ، اندفعتْ في صوتٍ أكثر حيويةً كأنها تريد أن تشجعنا نحن الإثنين :

« ميتسو ـ أمن الممكن أن نجرِّب العيش معاً تجربةً ثانيةً ؟ ألا نستطيع أن نبدأ من جديد ؟ نربّي الطفلين ، سوياً ، الطفل الذي في المعهد ، وذلك الذي لم يولد بعدُ ؟ لقد فكرتُ بالأمر طويلاً ، وقرّرتُ قراري الذاتي أن هذا ما أريده . جئتُ أسألك إن كان هذا مستحيلاً أم لا ؟ وحين رأيتك في الأسفل تفكر ، أجّلْتُ السؤال حتى خروجك الى سطح الأرض . هكذا كنت أنتظر هنا . لقد خفتُ هذه المرة أكثر من خوفي حين كنتَ في حفرة الحديقة . كنت خائفةً من أن الريح قد تعصف بالمستودع فتهدُّه ـ إنه مترنحٌ بعد هدم الجدار ـ وارتعبتُ حين سمعتُ صفيراً منبعثاً من الأعماق! لكنني ظللتُ أنتظرُ ، إذ لم أجد لديّ أيّ حقٍّ في إخراجك! » .

تحدثتْ ببطء . منذ الآن كانت تضغط بيديها على جوانب بطنها ، حذرةً ، كما تفعل امرأةٌ حبلى ، مما يمنح الظلَّ الأسود لجسمها ، حتى في الوقوف ، استقرارَ المغزل ، لكني أستطيع أن أراه مرتعشاً بالتوتر الكتيم . توقفتْ عن الكلام ، وانتحبتْ بصمتٍ ، حيناً .

«لنجربْ . سأعمل في تدريس اللغة الانجليزية» ، قلت ذلك ، متنفِّساً ، بثقلٍ ، ومستخدماً الهواء القليل المتبقي في رئتيَ في محاولة إظهار أن ما قلته كان عفو الخاطر . مع هذا كان الأسف واضحاً في صوتي حدَّ احمرار أذنيَ .

«لا ، يا ميتسو ، أنا سآخذ الطفلين وأبقى في منزل أسرتي ، بينما أنت تعمل في إفريقيا . لمَ لا تتصل بمكتب البعثة ؟ أظن حاجتك الى معارضة

تاكا هي التي جعلتك ترفض ، عامداً ، كلَّ ما يشبهه فيك . لكن تاكا ميت ، يا ميتسو ، فعليك أن تكون أكثر رأفةً بنفسك . لقد رأيتَ الآن أن الروابط بين شقيق جدك الأكبر وتاكا ، لم تكن محض أوهام اختلقَها تاكا ، لمَ لا تحاول البحث عمّا يجمعك معهما ؟ حتى أن الأهمّ ، الآن ، هو أن تُسارع في ذلك ، كي تحفظ ذكراك لتاكا ، سليمةً» .

وبدا لي أن عملي مترجماً في إفريقيا لن يحلَّ كل شيء . لكن الإحساس لن يكون قوياً الى درجة الرفض . وقد فضح صوتي ، قلقي الداخلي ، لكن كل ما قلتُه هو :

«لو أخذنا الطفل من المعهد ، فهل تعتقدين أننا نستطيع جعله يتكيف للعيش معنا ؟» .

«البارحة ، كنت أفكرُ بالأمر ، أزماناً ، يا ميتسو ، وأحسستُ لو أننا امتلكنا فقط ، الشجاعة ، فبمقدورنا أن نحقق به البداية ، في الأقل» قالت ذلك بصوتٍ شجيّ ، منهك طبيعياً وروحياً . لقد خفتُ من أن تسقط مغشيّاً عليها ، فرفستُ ، وركلتُ الأرض بقدميّ ، محاولاً رفع جسمي الى الأرضية ، فوقي ، أسرع ما يمكن . لكنني انحشرتُ ، ومضى وقتٌ غير قليل قبل أن أستطيع الإفلاح أخيراً في بلوغ مستوى الأرض . وبينما أنا أسير نحوها ، سمعتُ صوتاً في داخلي ، يردد ، ببساطة ، ما قاله حارسا تاكاشي الشخصيان ، حين أعلنا اعتزامهما الزواج :

«الآن ، بعد أن لم يَعُد لدينا تاكا ، علينا أن نتدبّر أمرنا» ، ولم أكن راغباً في إخفاء هذا الصوت .

«لقد تراهنتُ مع نفسي ـ لو أنك خرجتَ سالماً لقبلتَ اقتراحي . كنت أتحرّق طوال الليل» ، قالت ذلك بصوتٍ دامعٍ ، ساذجِ التفهُّمِ ، وارتجفت أعنفَ من قبلُ .

بعد ذلك ، بوقت قصير ، قررت زوجتي عبور الجسر الذي تمَ إصلاحه ، ومغادرة الغور ، وكانت تتهيب السفر ، خشيةَ أن يؤثر ذلك في الجنين .

ذلك الصباح جاء رجلٌ من الوادي ليودِّعنا ، جالباً معه قناعَ خشبٍ جديداً . القناعُ يمثل وجهاً بشرياً مثل رمّانة منفلقة ، والعينان مرصّعتان بمسامير لا تُحصى . الرجل الذي كان صانع حصران التاتامي الذي هرب من الوادي مرةً ، واستُدعي من البلدة لإحياء رقصة النيمبوتسو ذلك الصيف . الآن ، يشتغل ثانيةً ، يصنع حصراناً لقاعة مجلس الوادي ، الذي تقرر ترميمه بأموال خُصِّصتْ منذ وقت الدّمج ، ولأماكن عدةٍ أخرى حيثُ هُيئتْ له أشغال . وفي الوقت نفسه كان يرتّبُ أزياء مختلفة لكل واحد من «الأرواح» في الرقصة . قدّمنا له السترة والبنطلون اللذين كان تاكاشي يرتديهما ، آن عودته من أميركا ، كي يستعملهما المؤدِّي الذي يلبس قناع «روح» تاكاشي .

قال صانع التاتامي متباهياً : «كثيرٌ من الشبّان قالوا إنهم يريدون النزول الى هنا ، من الغابة ، وهم يلبسون هذا القناع» .

ء اخترقنا الغابة .

زوجتي ، والجنين ، وأنا ، مغادرين الغور ، الذي قد لا تطأه أقدامنا ثانيةً .

كـ«روح» ، كانت ذكرى تاكاشي ملْكاً مشاعاً للوادي ، ولسنا بحاجةٍ الى أن نتعهّد قبره .

العمل الذي ينتظرني ، بعيداً عن الغور ، في الأيام التي تحاول ناتسومي فيها ، استعادة ابننا المرغوبِ فيه حديثاً ، الى عالمنا ، وتتهيأ في الوقت نفسه ، لولادة الطفل الآخر ؛ ذلك العمل سيعني حياةَ عَرَقٍ وضنىً في إفريقيا . أصيحُ بأوامرَ ، باللغة السواحلية ، من تحت خوذتي الشمسية ،

وأطبع باللغة الانجليزية ، ليل نهار ، ولن يكون لديَ الوقتُ كي أتأمّلَ ما يدور في داخلي . وباعتباري رئيس المترجمين في البعثة ، فلن أتوقع أن فيلاً خُطّت على بطنه الأسود الهائل ، بالطلاء ، كلمة «أمل» ، سيمرُ مُدَبدِباً أمام عينيّ ، بينما نحن متمددون على عشب السهول ؛ لكني وقد قبلتُ العمل ، أشعرُ ، في لحظاتٍ ، بأنني أبدأ حياةً جديدةً .

سيكون سهلاً عليّ هناك ، في الأقل ، أن أبني لنفسي كوخَ الأغصان ذاك .

«انتهت الرواية»

تمت الترجمة بدمشق
يوم ١١/ ١٠/ ١٩٩٨

كينزابورو أوي

نوبل ١٩٩٤

- يعتبر كينزابورو أوي شخصية مرموقة بين كتّاب اليابان بعد الحرب .
- ولد في العام ١٩٣٥ .
- درس الأدب الفرنسي في جامعة طوكيو ، وأمضى أوائل الستينيات في باريس ، حيث تأثّرَ الوجودية ، وسارتر تحديداً .
- فازت «الصرخة الصامتة» بجائزة تانيزاكي الرفيعة .
- فاز بجائزة نوبل في العام ١٩٩٤ .

- الشقيقان ، تاكاشي وميتسو ، يعودان من طوكيو الى قرية طفولتهما . ويقودهما بيعُ منزل الأسرة الى مواجهة مع تاريخ أسرتهما . وتخفق محاولتهما الخلاص من تأثير المدينة حين يدركان أن مجسّات المدينة تمتد الى كل شيء في الريف ، بل الى علاقتهما ذاتها .

إن ما أخفقت شخصيات أوي في تحقيقه ـ الانصهار بين حقائق البيئة وانتقاليّة المدينة الكبيرة ـ قد أمسى منجزاً أسلوبياً غنياً للكاتب . بالمهارة الملحمية والفكاهة السوداء ، تقدم «الصرخة الصامتة» صورةً لا تُنسى لليأس الوجودي في اليابان المعاصرة .

عالم المعرفة
الصرخة الصامتة
S.P300
105827